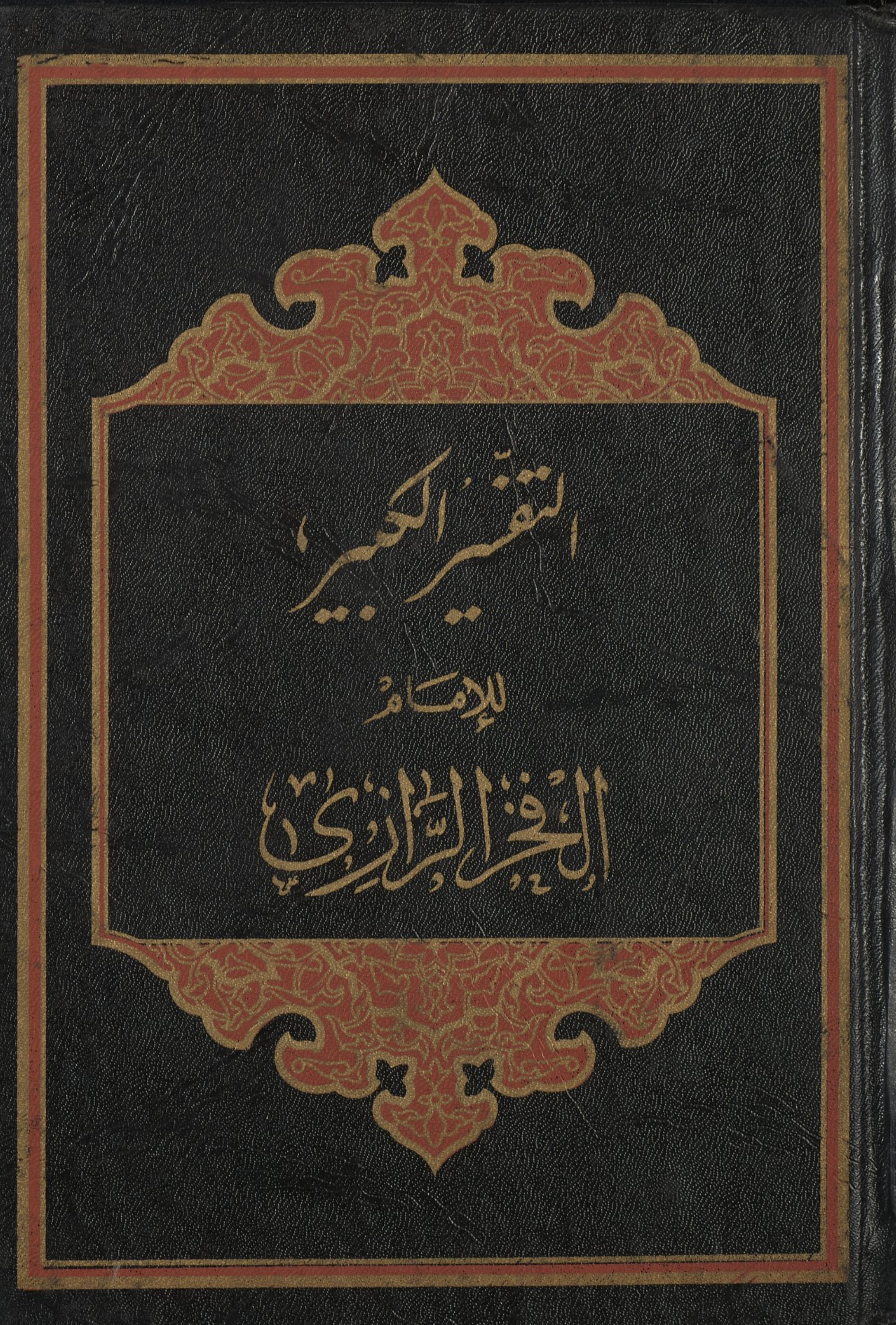
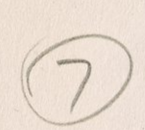
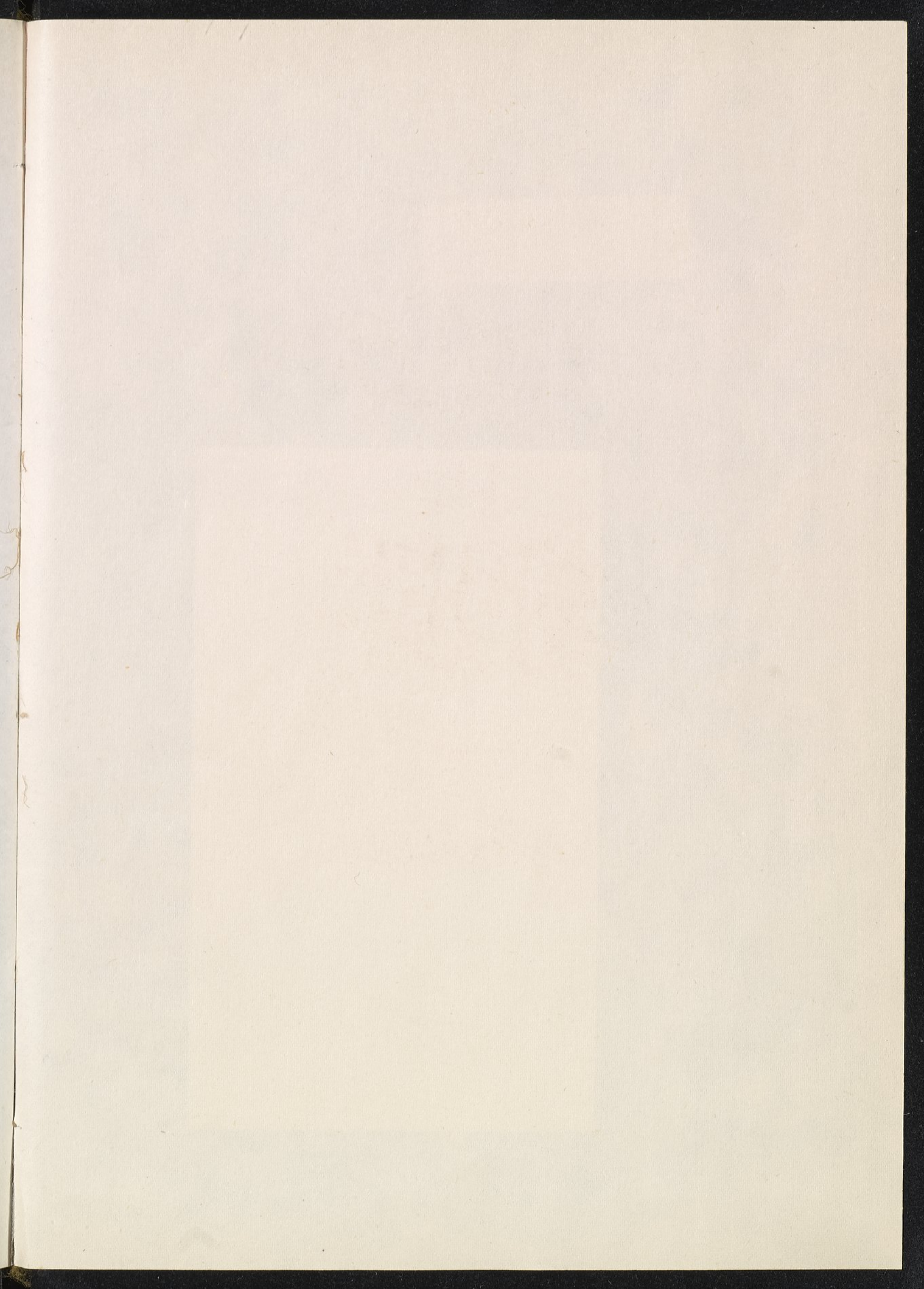


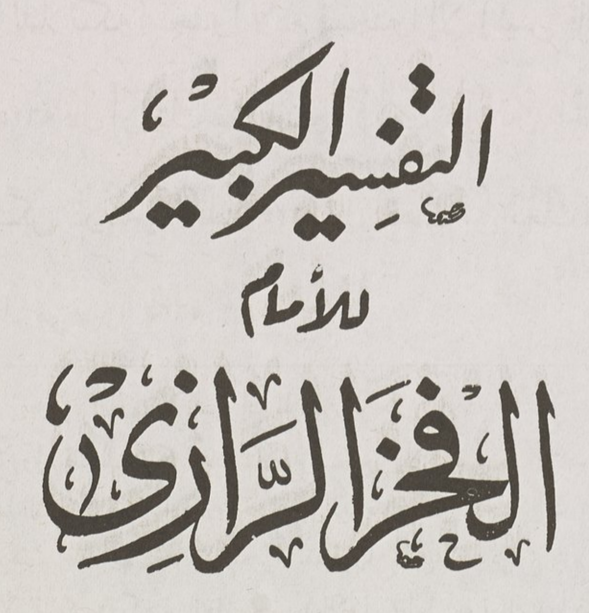
التفسير الكبير
للإمام
الفخر الرازي


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 059 116 875


7





الجزء الحادي والعشرون

الطبعة الثالثة



بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا «٦١» قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا «٦٢» قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا «٦٣»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كيفية النظم وجوه (الأول) إعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه ، بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك . ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم ، ثم إنه كان فى محنة شديدة من إبليس (الثانى) أن القوم إنما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد ، أما الكبر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد ، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية ، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان والدخول فى الكفر ، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق (والثالث) أنه تعالى لما وصفهم بقوله (فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً) بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس (لأحتنكن ذريته إلا قليلا) فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم ، فهذا هو الكلام فى كيفية النظم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إعلم أن هذه القصة قد ذكرها الله تعالى فى سور سبعة ، وهى : البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة والأعراف والحجر فلا فائدة فى الإعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى أن المأمورين بالسجود لآدم أهم جميع الملائكة أم ملائكة الأرض على التخصيص ؟ فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم إلا أن قوله تعالى فى آخر سورة الأعراف فى صفة ملائكة السموات (وله يسجدون) يوجب خروج ملائكة السموات من هذا العموم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الأرض أو التحية ، وعلى التقدير الأول فآدم كان هو المسجود له أو يقال كان المسجود له هو الله تعالى وآدم كان قبلة للسجود ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن إبليس هل هو من الملائكة أم لا ؟ وإن لم يكن من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود كيف يتناوله ؟ .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هل كان إبليس كافراً من أول الأمر أو يقال إنما كفر فى ذلك الوقت ؟

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الملائكة سجدوا لآدم من أول ما كملت حياته أو بعد ذلك .

﴿ المسألة السادسة ﴾ شبهة إبليس فى الامتناع من السجود أهو قوله (أأسجد لمن خلقت طيناً) أو غيره .

﴿ المسألة السابعة ﴾ دلت هذه الآيات على أن إبليس كان عارفاً بربه ، إلا أنه وقع فى الكفر بسبب الكبر والحسد ، ومنهم من أنكر وقال ما عرف الله البتة .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ ما سبب حكمة إمهال ابليس وتسليطه على الخلق بالوسوسة ؟ .

ولنرجع إلى التفسير فنقول : إنه تعالى حكى فى هذه الآية عن إبليس نوعا واحداً من العمل ونوعين من القول ، أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله (فسجدوا إلا إبليس) وأما النوعان من القول ؟ فأولهما قوله (أأسجد لمن خلقت طيناً) وهذا استفهام بمعنى الانكار معناه أن أصلى أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه ، والأشرف يقبح فى العقول أمره بخدمة الأدنى (والنوع الثانى من كلامه) قوله (أرأيتك هذا الذى كرمت على) قال الزجاج : قوله (أرأيتك) معناه أخبرنى ، وقد استقصينا فى تفسير هذه الكلمة فى سورة الأنعام . وقوله (هذا الذى كرمت على) فيه وجوه (الأول) معناه : أخبرنى عن هذا الذى فضلته على لم فضلته على وأنا خير منه ؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهوماً (الثانى) يمكن أن يقال هذا مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام ، والذى مع صلته خبر ، تقديره أخبرنى أهذا الذى كرمته على ! وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار ، وإنما حذف حرف الاستفهام لأن حصوله فى قوله

(أرأيتك) أغنى عن تكراره (والوجه الثالث) أن يكون هذا مفعول أرأيت لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها ، كأنه قال على وجه التعجب والإنكار أبصرت أو علمت هذا الذى كرمت على ، بمعنى لو أبصرته أو علمته لكان يجب أن لا تكرمه على ، هذا هو حقيقة هذه الكلمة . ثم قال تعالى حكاية [عنه] (لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ ابن كثير (لئن أخرتنى إلى يوم القيامة) باثبات الياء فى الوصل والوقف ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى بالحذف ونافع وأبو عمرو بإثباته فى الوصل دون الوقف .

﴿البحث الثانى﴾ فى الاحتناك قولان (أحدهما) أنه عبارة عن الأخذ بالكلية ، يقال : احتنك فلان ما عند فلان من مال إذا استقصاه وأخذه بالكلية ، واحتنك الجراد الزرع إذا أكله بالكلية (والثانى) أنه من قول العرب حنك الدابة يحنكها ، إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، وقال أبو مسلم : الاحتناك افتعال من الحنك كأنهم يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، فعلى القول الأول معنى الآية لأستأصلنهم بالإغواء . وعلى القول الثانى لأقودنهم إلى المعاصى كما تقاد الدابة بحبلها .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (إلا قليلا) هم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فان قيل كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) أنه سمع الملائكة يقولون (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فعرف هذه الأحوال (الثانى) أنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزماً (١) فقال الظاهر أن أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم (الثالث) أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوانية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة وهمية شيطانية ، وقوة عقلية ملكية ، وعرف أن القوى الثلاث أعنى الشهوانية والغضبية والوهمية تكون هى المستولية فى أول الخلقة ، ثم إن القوة العقلية إنما تكمل فى آخر الأمر ، ومتى كان الأمر كذلك كان ما ذكره إبليس لازماً ، واعلم أنه تعالى لما حكى عن إبليس ذلك حكى عن نفسه أنه تعالى قال له اذهب ، وهذا ليس من الذهاب الذى هو نقيض المجىء وإنما معناه امض لشأنك الذى اخترته ، والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه .

ثم قال (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً) ونظيره قول موسى عليه الصلاة

(١) هذا الوجه يتعارض مع نص الآية الكريمة وهى قول الله تعالى لملائكته المكرمين (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة) سورة الحجر . فالآية تنص على أن الأمر بالسجود والسجود كان قبل الوسوسة ولو أن الوسوسة كانت قبل السجود ، لترتب عليه أن يكون الملائكة كلهم أجمعون قد سجدوا لآدم بعد المعصية وهو أمر لا يليق ولا يتصور فانتفى هذا الوجه .

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا «٦٤» إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا «٦٥»

والسلام (فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس) فان قيل أليس الأولى أن يقال : فان جهنم جزاؤهم جزاء موفوراً . ليكون هذا الضمير راجعاً إلى قوله (فمن تبعك) ؟. قلنا فيه وجوه (الأول) التقدير فان جهنم جزاؤهم وجزاؤكم ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم (والثانى) يجوز أن يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الإلتفات (والثالث) أنه ﷺ قال « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فكل معصية توجد فيحصل لإبليس مثل وزر ذلك العامل .

فلما كان إبليس هو الأصل فى كل المعاصى صار المخاطب بالوعيد هو إبليس ، ثم قال (جزاء موفوراً) وهـذه اللفظة قد تجىء متعدياً ولازماً ، أما المتعدى فيقال : وفرته أفره وفراً [و]وفرة فهو موفور [و]موفر ، قال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لايتق الشتم يشتم

واللازم كقوله : وفر المـال يفر وفوراً فهو وافر ، فعلى التقدير (الأول) يكون المعنى جزاء موفوراً موفراً ، وعلى (الثانى) يكون المعنى جزاء موفوراً وافراً ، وانتصب قوله (جزاء) على المصدر .

قوله تعالى ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾

اعلم أن إبليس لمـا طلب من الله الإمهال إلى يوم القيامة لأجل أن يحتنك ذرية آدم فالله تعـالى ذكر أشياء (أولها) قوله (اذهب) ومعناه : أمهلتك هذه المدة (وثانيها) قوله تعـالى (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) يقال أفزه الخوف واستفزه أى أزعجه واستخفه ،

وصوته دعاؤه إلى معصية الله تعالى ، وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب ، ومعنى صيغة الأمر هنا التهديد كما يقال اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك (وثالثها) (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) فى قوله (وأجلب) وجوه (الأول) قال الفراء : إنه من الجلبة وهو الصياح وربما قالوا الجلب كما قالوا الغلبة والغلب والشفقة والشفق ، وقال الليث وأبو عبيدة أجلبوا وجلبوا من الصياح (الثانى) قال الزجاج فى فعل وأفعل ، أجلب على العدو إجلاباً إذا جمع عليه الخيول (الثالث) قال ابن السكيت يقال هم يجلبون عليه بمعنى أنهم يعينون عليه (والرابع) روى ثعلب عن ابن الأعرابى أجلب الرجل على الرجل إذا توعده الشر وجمع عليه الجمع ، فقوله وأجلب عليهم معناه على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك ، وعلى قول الزجاج : اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك وتكون الباء فى قوله : بخيلك زائدة على هذا القول ، وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الإجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على إغوائهم بخيله ورجله ، وهذا أيضاً يقرب من قول ابن الأعرابى ، واختلفوا فى تفسير الخيل والرجل ، فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال « كل راكب أو راجل فى معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وجنوده » ويدخل فيه كل راكب وماش فى معصية الله تعالى ، فعلى هذا التقدير خيله ورجله كل من شاركه فى الدعاء إلى المعصية (والقول الثانى) يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل (والقول الثالث) أن المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد فى الأمر جئتنا بخيلك ورجلك وهذا الوجه أقرب ، والخيل تقع على الفرسان قال عليه الصلاة والسلام « ياخيل الله اركبى » وقد تقع على الأفراس خاصة ، والمراد ههنا الأول والرجل جمع راجل كما قالوا تاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب ، وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم ، قال أبو زيد يقال رجل ورجل بمعنى واحد ومثله حدث وحدث وندس وندس ، قال ابن الأنبارى : أخبرنا ثعلب عن الفراء قال يقال رجل ورجل ورجلان بمعنى واحد (والنوع الرابع) من الأشياء التى ذكرها الله تعالى لإبليس قوله (وشاركهم فى الأموال والأولاد) نقول : أما المشاركة فى الأموال فهى عبارة عن كل تصرف قبيح فى المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه فى غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة ، وهكذا قاله القاضى وهو ضبط حسن ، وأما المفسرون فقد ذكروا وجوهاً قال قتادة : المشاركة فى الأموال هى أن جعلوا بحيرة وسائبة ، وقال عكرمة هى عبارة عن تبتيكهم آذان الأنعام ، وقيل هى أن جعلوا من أموالهم شيئاً لغير

الله تعالى كما قال تعالى (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) والأصوب ماقاله القاضى ، وأما المشاركة فى الأولاد فذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنها الدعاء إلى الزنا ، وزيف الأصم ذلك بأن قال إنه لا ذم على الولد ، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد وشاركهم فى طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء إلى الزنا (وثانيها) أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى (وثالثها) أن يرغبوا أولادهم فى الأديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما (ورابعها) إقدامهم على قتل الأولاد ووأدهم (وخامسها) ترغيبهم فى حفظ الأشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم فى القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة ، والضابط أن يقال إن كل تصرف من المرء فى ولده على وجه يؤدى إلى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه .

(والنوع الخامس) من الأشياء التى ذكرها الله تعالى لإبليس فى هذه الآية قوله (وعدهم) .

واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب فى الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق ، ومعلوم أن الترغيب فى الشىء لايمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لاضرر البتة فى فعله ومع ذلك فانه يفيد المنافع العظيمة ، والتنفير عن الشىء لايمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لافائدة فى فعله ، ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة ، إذا ثبت هذا فنقول : إن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولا أنه لامضرة فى فعله البتة ، وذلك إنما يمكن إذا قال لامعاد ولا جنة ولا نار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لامضرة البتة فى فعل هذه المعاصى ، وإذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعاً من اللذة والسرور ولا حياة للانسان فى هذه الدنيا إلا به ، فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر :

خذوا بنصيب من سرور ولذة ... فكل وإن طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية ، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولا عنده أنه لافائدة فيه وتقريره من وجهين (الأول) أن يقول لاجنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب (والثانى) أن هذه العبادات لافائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثاً محضاً فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الانسان أنه لا فائدة فيها ، وإذا فرغ عن هذا المقام قال إنها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار ، فهذه مجامع تلبيس الشيطان ، فقوله (وعدهم) يتناول كل هذه الأقسام ، قال المفسرون قوله (وعدهم) أى بأنه لاجنة ولا نار ، وقال آخرون (وعدهم) بتسويف التوبة ، وقال آخرون (وعدهم) بالأمانى الباطلة مثل قوله لآدم (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين

أو تكونا من الخالدين) وقال آخرون : وعدهم بشفاعة الأصنام عندالله تعالى وبالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ، وبالجملة فهذه الأقسام كثيرة وكلها داخلة فى الضبط الذى ذكرناه وإن أردت الاستقصاء فى هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتاب إحياء علوم الدين للشيخ للغزالى حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس إبليس ، واعلم أن الله تعالى لما قال (وعدهم) أردفه بما يكون زاجراً عن قبول وعده فقال (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى أحد أمور ثلاثة قضاء الشهوة وإمضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة ، ولا يدعو البتة إلى معرفة الله تعالى ولا إلى خدمته ، وتلك الأشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة (أحدها) أنها فى الحقيقة ليست لذات بل هى خلاص عن الآلام (وثانيها) وإن كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها (وثالثها) أنها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض (ورابعها) أنها لاتحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة (وخامسها) أن لذات البطن والفرج لاتتم إلا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة (وسادسها) أنها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت . فلما كانت هذه المطالب وإن كانت لذيذة بحسب الظاهر إلا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخالفات الجسيمة ، كان الترغيب فيها تغريراً ، ولهذا المعنى قال تعالى (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً)

واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وفيه قولان :

(الأول) أن المراد كل عباد الله من المكلفين ، وهذا قول أبى على الجبائى ، قال والدليل عليه أن الله تعالى استثنى منه فى آيات كثيرة من يتبعه بقوله (إلا من اتبعك) ثم استدل بهذا على أنه لاسبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له إلا على قدر الوسوسة وأكد ذلك بقوله تعالى (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) . وأيضاً فلو قدر على هذه الأعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم . ثم قال وإنما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الأخلاط الفاسدة ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف عليه فيحدث ذلك المرض .

(والقول الثانى) أن المراد بقوله (إن عبادى) أهل الفضل والعلم والإيمان لما بينا فيما تقدم

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ

أن لفظ العباد فى القرآن مخصوص بأهل الايمان ، والدليل عليه أنه قال فى آية أخرى (إنما سلطانه على الذين يتولونه)

ثم قال ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتى بأقصى مايقدرعليه فى باب الوسوسة ، وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد فى قلب الانسان قال (وكفى بربك وكيلا) ومعناه أن الشيطان وإن كان قادرا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه .

﴿البحث الثانى﴾ هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وأن الانسان لايمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة ، لأنه لو كان الاقدام على الحق والاحجام عن الباطل إنما يحصل للانسان من نفسه لوجب أن يقال : وكفى الانسان نفسه فى الاحتراز عن الشيطان ، فلما لم يقل ذلك بل قال (وكفى بربك) علمنا أن الكل من الله ، ولهذا قال المحققون : لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولاقوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله . بقى فى الآية سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ أن إبليس هل كان عالما بأن الذى تكلم معه بقوله (واستفزز من استطعت منهم) هو إله العالم أو لم يعلم ذلك؟ فان علم ذلك ثم إنه تعالى قال (فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعاً له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم ، فكيف قال (أرأيتك هذا الذى كرمت على)

والجواب : لعله كان شاكا فى الكل أو كان يقول فى كل قسم مايخطر بباله على سبيل الظن .

﴿والسؤال الثانى﴾ ما الحكمة فى أنه تعالى أنظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة؟ والحكيم إذا أراد أمرا وعلم أن شيئا من الأشياء يمنع من حصوله فانه لايسعى فى تحصيل ذلك المانع .

والجواب : أما مذهبنا فظاهر فى هذا الباب ، وأما المعتزلة فلهم قولان : قال الجبائى : علم الله تعالى أن الذين كفروا عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لايوجد إبليس ، وإذا كان كذلك لم يكن فى وجوده مزيد مفسدة ، وقال أبو هاشم : لايبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة ، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب ، وهذان الوجهان قد ذكرناهما فى سورة الأعراف والحجر ، وبالغنا فى الكشف عنهما ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما

رَحِيماً «٦٦» وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً «٦٧» أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً «٦٨» أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً «٦٩»

وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن نعيدكم فيه تارة أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح فنغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾

اعلم أنه تعالى عاد الى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته، وقد ذكرنا أن المقصود الأعظم فى هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد، فاذا امتد الكلام فى فصل من الفصول عاد الكلام بعده الى ذكر دلائل التوحيد، والمذكور ههنا الوجوه المستنبطة من الانعامات فى أحوال ركوب البحر.

﴿ فالنوع الأول ﴾ كيفية حركة الفلك على وجه البحروهو قوله (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) والازجاء سوق الشىء حالا بعد حال، وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله (ببضاعة مزجاة) والمعنى: ربكم الذى يسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله فى طلب التجارة إنه كان بكم رحيما، والخطاب فى قوله (ربكم) وفى قوله (إنه كان بكم) عام فى حق الكل، والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها.

﴿ والنوع الثانى ﴾ قوله (وإذا مسكم الضر فى البحر) والمراد من الضر، الخوف الشديد كخوف الغرق (ضل من تدعون إلا إياه) والمراد أن الانسان فى تلك الحالة لايتضرع الى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك. وإنما يتضرع الى الله تعالى، فلما نجاكم من الغرق والبحر وأخرجكم الى البر أعرضتم عن الايمان والاخلاص (وكان الانسان كفورا) لنعم الله بسبب أن عند الشدة

يتمسك بفضله ورحمته، وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره.

﴿والنوع الثالث﴾ قوله (أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر) قال الليث: الخسف والخسوف هو دخول الشيء فى الشيء. يقال: عين خاسفة وهى التى غابت حدقتها فى الرأس، وعين من الماء خاسفة أى غائرة الماء، وخسفت الشمس أى احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب أو دخلت فى جحر. فقوله (أن نخسف بكم جانب البر) أى نغيبكم فى جانب البر وهو الأرض، وانما قال (جانب البر) لأنه ذكر البحر فى الآية الأولى فهو جانب، والبر جانب، خبر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم فى الماء فهو قادر أيضا على أن يغيبهم فى الأرض، فالغرق تغييب تحت الماء كما أن الخسف تغييب تحت التراب، وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر فى الآية الأولى أنهم كانوا خائفين من هول البحر، فلما نجاهم منه آمنوا، فقال هب أنكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر؟ فانه تعالى قادر على أن يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أو من جانب الفوق، أما من جانب التحت فبالخسف، وأما من جانب الفوق فبامطار الحجارة عليهم، وهو المراد من قوله (أو نرسل عليكم حاصبا) فكما لا يتضرعون إلا إلى الله تعالى عند ركوب البحر، فكذلك يجب أن لا يتضرعوا إلا اليه فى كل الأحوال. ومعنى الحصب فى اللغة الرمى يقال: حصبت أحصب حصبا إذا رميت والحصب المرمى، ومنه قوله تعالى (حصب جهنم) أى يلقون فيها، ومعنى قوله (حاصبا) أى عذابا يحصبهم، أى يرميهم بحجارة، ويقال للريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب، والسحاب الذى يرمى بالثلج والبرد يسمى حاصبا لأنه يرمى بهما رميا. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذى فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر وقوله (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يعنى لا تجدوا ناصرا ينصركم ويصونكم من عذاب الله، ثم قال (أم أمنتم أن نعيدكم فيه) أى فى البحر تارة أخرى وقوله (فنرسل عليكم قاصفا) من الريح القاصف الكاسر يقال: قصف الشيء يقصفه قصفا إذا كسره بشدة، والقاصف من الريح التى تكسر الشجر، وأراد ههنا ريحا شديدة تقصف الفلك وتغرقهم وقوله (فنغرقكم بما كفرتم) أى بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. قال الزجاج: أى لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم بأن يصرفه عنكم، وتبيع بمعنى تابع.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ خمسة: وهى قوله (أن نخسف. أو نرسل. أو نعيدكم. فنرسل. فنغرقكم) قرأ ابن كثير وأبو عمرو جميع هذه الخمسة بالنون، والباقون بالياء، فمن قرأ بالياء، فلأن ما قبله على الواحد الغائب وهو قوله (إلا إياه فلما نجاكم) ومن قرأ بالنون فلأن هذا البحر من الكلام، قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لأن المعنى واحد. ألا ترى أنه قد جاء (وجعلناه

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً «٧٠»

هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) فانتقل من الجمع إلى الأفراد وكذلك ههنا يجوز أن ينتقل من الغيبة إلى الخطاب، والمعنى واحد والكل جائز والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الانسان وهى الأشياء التى بها فضل الانسان على غيره وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية أربعة أنواع:

﴿النوع الأول﴾ قوله (ولقد كرمنا بنى آدم) واعلم أن الانسان جوهر مركب من النفس، والبدن، فالنفس الانسانية أشرف النفوس الموجودة فى العالم السفلى، وبدنه أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى. وتقرير هذه الفضيلة فى النفس الانسانية هى أن النفس الانسانية قواها الأصلية ثلاث. وهى الاغتذاء والنمو والتوليد، والنفس الحيوانية لها قوتان الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة، والحركة بالاختيار، فهذه القوى الخمسة أعنى الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الانسانية، ثم إن النفس الانسانية مختصة بقوة أخرى وهى القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هى. وهى التى يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذى يطلع على أسرار عالمى الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هى وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والأرواح المجردة الالهية، فهذه القوة لانسبة لها فى الشرف والفضل إلى تلك القوى الخمسة النباتية والحيوانية، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن النفس الانسانية أشرف النفوس الموجودة فى هذا العالم وإن أردت أن تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية، فتأمل ما كتبناه فى هذا الكتاب فى تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) فانا ذكرنا هناك عشرين وجها فى بيان أن القوة العقلية أجل وأعلى من القوة الجسمية فلا فائدة فى الاعادة، وأما بيان أن البدن الانسانى أشرف أجسام هذا العالم، فالمفسرون إنما ذكروا فى تفسير قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) هذا النوع من الفضائل وذكروا أشياء، أحدها: روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (ولقد كرمنا بنى آدم) قال: كل شىء يأكل بفيه إلا ابن آدم فانه يأكل بيديه. وقيل: إن الرشيد أحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء فى

التفسير عن جدك فى قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فرد الملاعق وأكل بأصابعه . وثانيها : قال الضحاك : بالنطق والتمييز وتحقيق الكلام أن من عرف شيئا ، فاما أن يعجز عن تعريف غيره كونه عارفا بذلك الشىء أو يقدر على هذا التعريف .

﴿أما القسم الأول﴾ فهو حال جملة الحيوانات سوى الانسان ، فانه إذا حصل فى باطنها ألم أو لذة فانها تعجز عن تعريف غيرها تلك الأحوال تعريفا تاما وافيا .

﴿وأما القسم الثانى﴾ فهو الانسان ، فانه يمكنه تعريف غيره كل ماعرفه ووقف عليه وأحاط به فكونه قادرا على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقا ، وبهذا البيان ظهر أن الانسان الأخرس داخل فى هذا الوصف ، لأنه وإن عجز عن تعريف غيره مافى قلبه بطريق اللسان ، فانه يمكنه ذلك بطريق الاشارة وبطريق الكتابة وغيرهما ولايدخل فيه الببغاء ، لأنه وإن قدر على تعريفات قليلة ، فلا قدرة له على تعريف جميع الأحوال على سبيل الكمال والتمام . وثالثها : قال عطاء : بامتداد القامة .

واعلم أن هذا الكلام غير تام لأن الأشجار أطول من قامة الانسان بل ينبغى أن يشترط فيه شرط ، وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية ، والقوى الحسية والحركية . ورابعها : قال يمان بحسن الصورة ، والدليل عليه قوله تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) لما ذكر الله تعالى خلقة الانسان قال (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) وإن شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر ، وليكن هذا المثال الواحد أنموذجا لك فى هذا الباب . وخامسها : قال بعضهم من كرامات الآدمى أن آتاه الله الخط . وتحقيق الكلام فى هذا الباب أن العلم الذى يقدر الانسان على استنباطه يكون قليلا . أما إذا استنبط الانسان علما وأودعه فى الكتاب ، وجاء الانسان الثانى واستعان بذلك الكتاب ، وضم اليه من عند نفسه أشياء أخرى ثم لايزالون يتعاقبون ، ويضم كل متأخر مباحث كثيرة إلى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية إلى أقصى الغايات وأكمل النهايات ، ومعلوم أن هذا الباب لايتأتى إلا بواسطة الخط والكتبة ، ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) وسادسها : أن أجسام هذا العالم إما بسائط وإما مركبات ، أما البسائط فهى الأرض والماء

والهواء والنار . والانسان ينتفع بكل هذه الأربع ، أما الأرض فهى لنا كالأم الحاضنة قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة الينا ، وهى الفراش والمهد ، والمهاد ، وأما الماء فانتفاعنا به فى الشرب و الزراعة والحراثة ظاهر ، وأيضا سخر البحر لنأكل منه لحما طريا ، ونستخرج منه حلية نلبسها ونرى الفلك مواخر فيه ، وأما الهواء فهو مادة حياتنا ، ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن على هذه المعمورة ، وأما النار فبها طبخ الأغذية والأشربة ونضجها ، وهى قائمة مقام الشمس و القمر فى الليالى المظلمة ، وهى الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر :

ومن يرد فى الشتاء فاكهة   فان نار الشتاء فاكهته

وأما المركبات فهى إما الآثار العلوية ، وإما المعادن والنبات ، وأما الحيوان والانسان كالمستولى على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة أو خان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الانسان والانسان فيه كالرئيس المخدوم ، والملك المطاع وسائر الحيوانات بالنسبة اليه كالعبيد ، وكل ذلك يدل على كونه مخصوصا من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل والله أعلم . وسابعها : أن المخلوقات تنقسم إلى أربعة أقسام إلى ماحصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة ، وإلى مايكون بالعكس وهم البهائم وإلى ماخلا عن القسمين وهو النبات والجمادات وإلى ماحصل النوعان فيه وهو الانسان ، ولا شك أن الانسان لكونه مستجمعا للقوة العقلية القدسية المحضة ، وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية ، ولا شك أيضاً أنه أفضل من الأجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات ، وإذا ثبت ذلك ظهر أن الله تعالى فضل الانسان على أكثر أقسام المخلوقات . بقى ههنا بحث فى أن الملك أفضل أم البشر ؟ والمعنى أن الجوهر البسيط الموصوف بالقوة العقلية القدسية المحضة أفضل أم البشر المستجمع لهاتين القوتين ؟ وذلك بحث آخر وثامنها : الموجود إما أن يكون أزليا وأبديا معا وهو الله سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون لاأزليا ولاأبديا وهو عالم الدنيا مع كل مافيه من المعادن والنبات والحيوان ، وهذا أخس الأقسام ، وإما أن يكون أزليا لاأبديا وهو الممتنع الوجود لأن ماثبت قدمه امتنع عدمه ، وإما أن لايكون أزليا ولكنه يكون أبديا ، وهو الانسان والملك ، ولاشك أن هذا القسم أشرف من القسم الثانى والثالث وذلك يقتضى كون الانسان أشرف من أكثر مخلوقات الله تعالى . وتاسعها : العالم العلوى أشرف من العالم السفلى ، وروح الانسان من جنس الأرواح العلوية والجواهر القدسية فليس فى موجودات

العالم السفلى شىء حصل فيه شىء من العالم العلوى إلا الانسان فوجب كون الانسان أشرف موجودات العالم السفلى . وعاشرها : أشرف الموجودات هو الله تعالى ، وإذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالى أتم ، وجب أن يكون أشرف ، لكن أقرب موجودات هذا العالم من الله هو الانسان بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه وأعضاؤه مكرمة بطاعة الله تعالى فوجب الجزم بأن أشرف موجودات هذا العالم السفلى هو الانسان ، ولما ثبت أن الانسان موجود ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بايجاد الواجب لذاته ثبت أن كل ما حصل للانسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهى إنما حصلت باحسان الله تعالى وإنعامه فلهذا المعنى قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) ومن تمام كرامته على الله تعالى أنه تعالى لما خلقه فى أول الأمر وصف نفسه بأنه أكرم فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للانسان فقال (ولقد كرمنا بنى آدم) ووصف نفسه بالكرم فى آخر أحوال الانسان فقال (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم) وهذا يدل على أنه لا نهاية لكرم الله تعالى ولفضله وإحسانه مع الانسان والله أعلم .

﴿والوجه الحادى عشر﴾ قال بعضهم هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون . ومن كان مخلوقا بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل ، وكان أكرم وأكمل ولما جعلنا من أولاده وجب كون بنى آدم أكرم وأكمل والله أعلم .

﴿النوع الثانى﴾ من المدائح المذكورة فى هذه الآية قوله (وحملناهم فى البر والبحر) قال ابن عباس فى البر على الخيل والبغال والحمير والابل وفى البحر على السفن ، وهذا أيضا من مؤكدات التكريم المذكور أولا ، لأنه تعالى سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه ، وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم ، كل ذلك مما يدل على أن الانسان فى هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ما سواه فهو رعيته وتبع له .

﴿النوع الثالث﴾ من المدائح قوله (ورزقناهم من الطيبات) وذلك لأن الأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، وكلا القسمين إنما يغتذى الانسان منه بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ ، وذلك مما لا يحصل إلا للانسان .

﴿النوع الرابع﴾ قوله (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وههنا بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أنه قال فى أول الآية (ولقد كرمنا بنى آدم) وقال فى آخرها (وفضلناهم)

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا «٧١» وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا «٧٢»

ولا بد من الفرق بين هـذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار ، والأقرب أن يقال : إنه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ، ثم إنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ، فالأول هو التكريم والثانى هو التفضيل .

﴿البحث الثانى﴾ انه تعالى لم يقل : وفضلناهم على الكل بل قال (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فهذا يدل على أنه حصل فى مخلوقات الله تعالى شىء لايكون الانسان مفضلا عليه ، وكل من أثبت هذا القسم قال إنه هو الملائكة ، فلزم القول بأن الانسان ليس أفضل من الملائكة بل الملك أفضل من الانسان، وهذا القول مذهب ابن عباس واختيار الزجاج على مارواه الواحدى فى البسيط.

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على بحثين :

﴿البحث الأول﴾ أن الأنبياء عليهم السلام أفضل أم الملائكة ؟ وقد سبق ذكر هذه المسألة بالاستقصاء فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)

﴿والبحث الثانى﴾ أن عوام الملائكة وعوام المؤمنين أيهما أفضل ؟ منهم من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة. واحتجوا عليه بما روى عن زيد بن أسلم أنه قال : قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا ذلك فى الآخرة ، فقال : وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له (كن) فكان . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده . هكذا أورده الواحدى فى البسيط ، وأما القائلون بأن الملك أفضل من البشر على الاطلاق فقد عولوا على هذه الآية ، وهو فى الحقيقة تمسك بدليل الخطاب لأن تقرير الدليل أن يقال : إن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال فى القليل بالضد ، وذلك تمسك بدليل الخطاب والله أعلم .

قوله تعالى ﴿يوم ندعوا كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الانسان فى الدنيا ذكر أحوال درجاته فى الآخرة فى هذه الآية وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول وقرأ الحسن يدعو كل أناس قال الفراء وأهل العربية لا يعرفون وجها لهذه القراءة المنقولة عن الحسن ولعله قرأ يدعى بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوى أنه قرأ يدعو

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله يوم ندعو نصب باضمار اذكر ولا يجوز أن يقال العامل فيه قوله وفضلناهم لأنه فعل ماض ويمكن أن يجاب عنه فيقال المراد ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (بامامهم) الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبى إمام أمته ، والخليفة إمام رعيته ، والقرآن إمام المسلمين وإمام القوم هو الذى يقتدى به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام ههنا أقوالا (القول الأول) إمامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ويكون المعنى انه ينادى يوم القيامة ياأمة ابراهيم يا أمة موسى ياأمة عيسى يا أمة محمد فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادى ياأتباع فرعون ياأتباع نمروذ ياأتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر وعلى هذا القول فالباء فى قوله بامامهم فيه وجهان (الأول) أن يكون التقدير يدعو كل أناس بامامهم تبعاً وشيعة لأمامهم كما تقول أدعوك باسمك (والثانى) أن يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف فى موضع الحال كأنه قيل يدعو كل أناس مختلطين بامامهم أى يدعون وامامهم فيهم نحو ركب بجنوده (والقول الثانى) وهو قول الضحاك وابن زيد بامامهم أى بكتابهم الذى أنزل عليهم وعلى هذا التقدير ينادى فى القيامة ياأهل القرآن ياأهل التوراة ياأهل الانجيل (والقول الثالث) قال الحسن بكتابهم الذى فيه أعمالهم وهو قول الربيع وأبى العالية والدليل على أن هذا الكتاب يسمى إماماً قوله تعالى (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) فسمى الله تعالى هذا الكتاب إماما ، وتقدير الباء على هذا القول بمعنى مع أى ندعو كل أناس ومعهم كتابهم كقولك ادفعه اليه برمته أى ومعه رمته (القول الرابع) قال صاحب الكشاف ومن بدع التفاسير أن الامام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا ثم قال صاحب الكشاف وليت شعرى أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته (والقول الخامس) أقول فى اللفظ احتمال آخر وهو أن أنواع الأخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولى على كل إنسان نوع من تلك الأخلاق فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود أو شهوة الضياع ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد وفى جانب الأخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه العفة أو الشجاعة أو

الكرم أو طلب العلم والزهد إذا عرفت هذا فنقول : الداعى إلى الأفعال الظاهرة من تلك الأخلاق الباطنه فذلك الخلق الباطن كالامام له والملك المطاع والرئيس المتبوع فيوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق فهذا هو المراد من قوله (يوم ندعو كل أناس بامامهم) فهذا الاحتمال خطر بالبال والله أعلم بمراده ثم قال تعالى (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) قال صاحب الكشاف إنما قال أولئك لأن من أوتى فى معنى الجمع والفتيل القشرة التى فى شق النواة وسمى بهذا الاسم لأنه إذا أراد الانسان استخراجه انفتل وهذا يضرب مثلا للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقير فى ضرب المثل به والمعنى لا ينقصون من الثواب بمقدار فتيل ونظيره قوله (ولا يظلمون شيئاً ، فلا يخاف ظلما ولا هضما) وروى مجاهد عن ابن عباس انه قال الفتيل هو الوسخ الذى يظهر بفتل الانسان إبهامه بسبابته وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول فان قيل لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرءونه أيضا قلنا الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازى الشديدة فيستولى الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لاجرم انهم يقرءون كتابهم على أحسن الوجوه وأثبتها ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارىء لأهل المحشر (هاؤم اقرأوا كتابيه) فظهر الفرق والله أعلم ثم قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائى ومن كان فى هذه أعمى بالامالة والكسر فهو فى الآخرة أعمى بالفتح وقرأ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى رواية بالامالة فيهما قال أبو على الفارسى الوجه فى تصحيح قراءة أبى عمرو أن المراد بالأعمى فى الكلمة الأولى كونه فى نفسه أعمى وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الامالة وأما فى الكلمة الثانية فالمراد من الأعمى أفعل التفضيل فكانت بمعنى أفعل من وبهذا التقدير لا تكون لفظة أعمى تامة فلم تقبل الامالة والحاصل ان إدخال الامالة فى الأولى دل على أنه ليس المراد أفعل التفضيل وتركها فى فى الثانية يدل على أن المراد منها أفعل التفضيل والله أعلم (١)

﴿ المسألة الثانية ﴾ لاشك أنه ليس المراد من قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى) عمى البصر بل المراد منه عمى القلب أما قوله فهو فى الآخرة أعمى ففيه قولان (القول الأول) أن المراد منه أيضاً عمى القلب وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الأول) قال عكرمة جاء نفر من أهل

---

(١) لم يجوز النحاة أفعل التفضيل من أعمى لأن الوصف رباعى والعمى ءا لا تفارت قيه وألزموا أن يقال أشد أو أكثر . فأعمى الاولى يصف بالعمى كالثانية لكن التفاوت فى الثانية يفهم من قوله تعالى (وأضل سبيلا)

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا «٧٣» وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا «٧٤» إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ

اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرأ ماقبلها فقرأ (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر إلى قوله تفضيلا) قال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قد رآى وعاين فهو فى أمر الآخرة التى لم يرولم يعاين أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا الوجه فقوله فى هذه إشارة إلى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة (وثانياً) روى أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى فى خلق السموات والأرض والبحار والجبال والناس والدواب فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضل سبيلا وأبعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله فمن كان فى هذه إشارة إلى الدنيا وعلى هذين القولين فالمراد من كان فى الدنيا أعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل فبأن يكون فى الآخرة أعمى القلب عن معرفة أحوال الآخرة أولى فالعمى فى المرتين حصل فى الدنيا (وثالثها) قال الحسن من كان فى الدنيا ضالا كافراً فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا لأنه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لاتقبل توبته وفى الدنيا يهتدى إلى التخلص من أبواب الآفات وفى الآخرة لايهتدى إلى ذلك البتة (ورابعها) انه لايمكن حمل العمى الثانى على الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة أى ومن كان فى هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله فهو فى الآخرة أعمى عن طريق الجنة (وخامسها) أن الذين حصل لهم عمى القلب فى الدنيا إنما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها فهذه الرغبة تزداد فى الآخرة وتعظم هناك حسرتها على فوات الدنيا وليس معهم شىء من أنوار معرفة الله تعالى فيبقون فى ظلمة شديدة وحسرة عظيمة فذاك هو المراد من العمى (القول الثانى) أن يحمل العمى الثانى على عمى العين والبصر فمن كان فى هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين والبصر كما قال (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما) وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم والله أعلم

قوله تعالى ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا ﴾

عَلَيْنَا نَصِيراً «٧٥»

إعلم أنه تعالى لما عدد فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس فى رواية عطاء نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططاً ، وقالوا متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فكرروا ذلك الالتماس ، وقالوا إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم ، فان كرهت مانقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا ، فقل : الله أمرنى بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع ، فصاح عليهم عمر وقال : أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه ؟ فأنزل الله هذه الآية ، وروى صاحب الكشاف أنهم جاءوا بكاتبهم فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ثقيف لايعشرون ولا يحشرون ، فقالوا ولا يجبون ، فسكت رسول الله ، ثم قالوا للكاتب : ا كتب ولا يجبون والكاتب ينظر إلى رسول الله ﷺ فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه ، وقال : أسعرتم قلب نبينا يامعشر قريش ، أسعر الله قلوبكم ناراً . فقالوا لسنا نكلمك إنما نكلم محمداً ، فنزلت هذه الآية واعلم أن هذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا إن هذه الآيات مدنية . وروى أن قريشا قالوا له : اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة ، حتى نؤمن بك . فنزلت هذه الآية وقال الحسن : الكفار أخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا كف يامحمد عن ذم آلهتنا وشتمها فلو كان ذلك حقاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحق منك فوقع فى قلب رسول الله ﷺ أن يكف عن شتم آلهتهم . وعلى هذا التقدير فهذه الآية مكية ، وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لاندعك حتى تستلم آلهتنا (١) فوقع فى نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية ، فنزلت هذه الآية

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج معنى الكلام كادوا يفتنونك ودخلت إن واللام للتأكيد وإن مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، والمعنى إن الشأن [أنهم] قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين [و] أصل الفتنة الاختبار يقال فتن الصائغ الذهب إذا أدخله النار وأذابه

(١) فى الأصل حتى تستلم بآلهتنا . واستلم فعل متعدى لا يحتاج إلى جار فلذلك آثرت حذفه . وما بين الأقواس المربعة هنا وفيما يأتى زيادة اقتضاها سياق الكلام وليست فى الأصول .

لتميز جيده من رديئه ثم استعملوه فى كل من أزال الشىء عن حده وجهته فقالوا فتنه فقوله (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) أى يزيلونك ويصرفونك عن الذى أوحينا إليك يعنى القرآن ، والمعنى عن حكمه وذلك لأن فى إعطائهم ماسألوه مخالفة لحكم القرآن ، وقوله (لتفترى علينا غيره) أى غير ماأوحينا إليك وهو قولهم : قل الله أمرنى بذلك (وإذاً لاتخذوك خليلا) أى لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كونهم وراض بشركهم ثم قال (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا إياك (لقد كدت تركن اليهم) أى تميل اليهم شيئا قليلا وقوله (شيئا) عبارة عن المصدر أى ركونا قليلا قال ابن عباس يريد حيث سكت عن جوابهم . قال قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ « اللهم لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين » ثم توعده فى ذلك أشد التوعد فقال (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشىء مثله فان الرجل إذا قال لوكيله أعط فلاناً شيئاً فأعطاه درهما فقال أضعفه كان المعنى ضم إلى ذلك الدرهم مثله إذا عرفت هذا فنقول : إنما حسن إضمار العذاب فى قوله (ضعف الحياة وضعف الممات) لما تقدم فى القرآن من وصف العذاب بالضعف فى قوله (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفاً فى النار) وقال (لكل ضعف ولكن لاتعلمون) وحاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون إليه همتك لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة والسبب فى تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله تعالى فى حق الأنبياء عليهم السلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى (يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) فان قيل قال عليه السلام : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فموجب هذا الحديث أنه عليه السلام لو رضى بما قالوه لكان وزره مثل وزر كل أحد من أولئك الكفار وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائداً على الضعف قلنا إثبات الضعف لايدل على نفى الزائد عليه إلا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى (ثم لاتجد لك علينا نصيراً) يعنى إذا أذقناك العذاب المضاعف لم تجد أحداً يخلصك من عذابنا وعقابنا والله أعلم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه (الأول) أن الآية دلت على أنه عليه السلام قرب من أن يفترى على الله ، والفرية على الله من أعظم الذنوب (والثانى) أنها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه لقرب من أن يركن إلى دينهم ويميل إلى مذهبهم (والثالث) أنه لولا سبق جرم وجناية وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد والجواب عن الأول : أن

كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية أنه قرب وقوعه فى الفتنة ، وهذا القدر لا يدل على الوقوع فى تلك الفتنة فانا إذا قلنا كاد الأمير أن يضرب فلانا لا يفهم منه أنه ضربه ، والجواب عن الثانى : أن كلمة لولا تفيد انتفاء الشىء لثبوت غيره ، تقول لولا على لهلك عمر ، معناه ان وجود على منع من حصول الهلاك لعمر ، فكذلك ههنا قوله (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم) معناه أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان حصول ذلك التثبيت مانعا من حصول ذلك الركون ، والجواب عن الثالث : أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الاقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) ومنها قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) ومنها قوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) والله أعلم

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم بأنه لا عصمة عن المعاصى إلا بتوفيق الله تعالى بقوله (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا) قالوا إنه تعالى بين أنه لولا تثبيت الله تعالى له لمال إلى طريقة الكفار ولا شك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أقوى من غيره فى قوة الدين وصفاء اليقين فلما بين الله تعالى أن بقاءه معصوما عن الكفر والضلال لم يحصل إلا باعانة الله تعالى وإغاثته كان حصول هذا المعنى فى حق غيره أولى . قالت المعتزلة : المراد بهذا التثبيت الألطاف الصارفة له عن ذلك وهى ماخطر بباله من ذكر وعده ووعيده ، ومن ذكر أن كونه نبياً من عند الله تعالى يمنع من ذلك ، والجواب : لا شك أن هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع فى ذلك العمل المحذور ، فنقول : لو لم يوجد المقتضى للاقدام على ذلك العمل المحذور فى حق الرسول لما كان إلى إيجاد هذا المانع حاجة وحيث وقعت الحاجة إلى تحصيل هذا المانع علمنا أن المقتضى قد حصل فى حق الرسول ﷺ وأن هذا المانع الذى فعله الله تعالى منع ذلك المقتضى من العمل وهذا لا يتم إلا إذا قلنا إن القدرة مع الداعى توجب الفعل ، فاذا حصلت داعية أخرى معارضة للداعية الأولى اختل المؤثر فامتنع الفعل ونحن لا نريد إلا إثبات هذا المعنى والله أعلم

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال القفال رحمه الله : قد ذكرنا فى سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة ، ويمكن أيضا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه ، فتارة كانوا يقولون : إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك ، فأنزل الله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) وقوله (ودوا لو تدهن فيدهنون) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى (ولا تمدن عينيك) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا «٧٦» سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا «٧٧»

وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه ، فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم ، وعلى هذا الطريق فلا حاجة فى تفسير هذه الآيات إلى شىء من تلك الروايات . والله أعلم

﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا . ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ .

فى هذه الآية قولان (الأول) قال قتادة : هم أهل مكة هموا باخراج النبى ﷺ من مكة ، ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ، ولكن الله منعهم من اخراجه ، حتى أمره الله بالخروج ، ثم إنه قل لبثهم بعد خروج النبى ﷺ من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد (والقول الثانى) قال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله مانعك منهم . فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة قيل بذى الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع . فالقول الأول اختيار الزجاج وهو الوجه لأن السورة مكية فان صح القول الثانى كانت الآية مدنية ، والأرض فى قوله (ليستفزونك من الأرض) على القول الأول مكة وعلى القول الثانى المدينة وكثر فى التنزيل ذكر الأرض والمراد منها مكان مخصوص كقوله (أو ينفوا من الأرض) يعنى من مواضعهم وقوله (فلن أبرح الأرض) يعنى الأرض التى كان قصدها لطلب الميرة ، فان قيل قال الله تعالى (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) يعنى مكة والمراد أهلها فذكر أنهم أخرجوه وقال فى هذه الآية (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) فكيف [يمكن] الجمع بينهما على قول من قال الأرض فى هذه الآية مكة ؟ قلنا إنهم هموا باخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب إخراجهم وإنما خرج بأمر الله تعالى ، فزال التناقض .

ثم قال تعالى (وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عن عاصم خلفك بفتح الخاء وسكون اللام

أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا «٧٨» وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا «٧٩» وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا «٨٠» وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ

والباقون خلافك زعم الأخفش أن خلافك فى معنى خلفك وروى ذلك يونس عن عيسى وهذا كقوله (بمقعدهم خلاف رسول الله) . وقال الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصير

قال صاحب الكشاف قرىء لا يلبثون وفى قراءة أبى لا يلبثوا على إعمال إذن ، فان قيل ماوجه القراءتين ؟ قلنا أما السابقة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد والفعل فى خبر كاد واقع موقع الاسم وأما قراءة أبى ففيها الجملة برأسها التى هى قوله (إذاً لا يلبثون) عطف على جملة قوله (وإن كادوا ليستفزونك) ثم قال تعالى (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعنى أن كل قوم أخرجوا نبيهم من ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم فقوله (سنة) نصب على المصدر المؤكد أى سننا ذلك سنة فيمن قد أرسلنا قبلك ثم قال (ولا تجد لسنتنا تحويلا) والمعنى أن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة وتمام الكلام فى هذا الباب أن اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة ليس أمراً ثابتاً له لذاته وإلا لزم أن يدوم أبداً على تلك الحالة وأن لا يتميز الشىء عما يماثله فى تلك الصفات بل إنما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص وذلك التخصيص هو أنه تعالى يريد تحصيله فى ذلك الوقت ثم تتعلق قدرته بتحصيله فى ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله فى ذلك الوقت ثم نقول هذه الصفات الثلاثة التى هى المؤثرة فى حصول ذلك الاختصاص إن كانت حادثة افتقر حدوثها إلى تخصيص آخر ولزم التسلسل وهو محال وإن كانت قديمة فالقديم يمتنع تغيره لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة فى ذلك الاختصاص ممتنعاً كان التغير فى تلك الأشياء المقدرة ممتنعا فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى (ولا تجد لسنتنا تحويلا)

قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً . وقل جاء الحق وزهق الباطل

وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً «٨١»

إن الباطل كان زهوقاً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى النظم وجوه (الأول) أنه تعالى لما قرر أمر الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الأمر بالطاعات بعد الايمان وأشرف الطاعات بعد الايمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها (الثانى) أنه تعالى لما قال (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض) أمره تعالى بالاقبال على عبادته لكى ينصره عليهم فكأنه قيل له لاتبال بسعيهم فى إخراجك من بلدتك ولا تلتفت إليهم واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات فانه تعالى يدفع مكرهم وشرهم عنك ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالباً على أديانهم ونظيره قوله فى سورة طه (فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) وقال (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والوجه (الثالث) فى تقرير النظم أن اليهود لما قالوا له اذهب إلى الشام فانه مسكن الأنبياء عزم صلى الله عليه وسلم على الذهاب اليه فكأنه قيل له المعبود واحد فى كل البلاد وما النصرة والدولة الا بتأييده ونصرته فداوم على الصلوات وارجع إلى مقرك ومسكنك وإذا دخلته ورجعت اليه فقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى فى هذا البلد سلطانا نصيراً فى تقرير دينك وإظهار شرعك والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف أهل اللغة والمفسرون فى معنى دلوك الشمس على قولين (أحدهما) أن دلوكها غروبها وهذا القول مروى عن جماعة من الصحابة ، فنقل الواحدى فى البسيط عن على عليه السلام أنه قال : دلوك الشمس غروبها ، وروى زر بن حبيش أن عبد الله بن مسعود قال : دلوك الشمس غروبها ، وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين (والقول الثانى) أن دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو اختيار الأكثرين من الصحابة والتابعين واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه (الحجة الأولى) روى الواحدى فى البسيط عن جابر أنه قال « طعم عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم خرجوا حين زالت الشمس فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا حين دلكت الشمس » (الحجة الثانية) روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بى الظهر » . (الحجة الثالثة) قال أهل اللغة معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة ، وقيل لها إذا أفلت دالكة لأنها فى الحالتين زائلة . هكذا قاله الأزهرى وقال القفال : أصل الدلوك الميل ، يقال مالت الشمس للزوال ، ويقال مالت للغروب ، اذا عرفت هذا

فنقول : وجب أن يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لأنه تعالى علق إقامة الصلاة بالدلوك ، والدلوك عبارة عن الميل والزوال ، فوجب أن يقال إنه أول ماحصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء وجب أن يتعلق به وجوب الصلاة وذلك يدل على أن المراد من الدلوك فى هذه الآية ميلها عن كبد السماء وهذه حجة قوية فى هذا الباب استنبطتها بناء على ما اتفق عليه أهل اللغة : أن الدلوك عبارة عن الميل والزوال والله أعلم . (الحجة الرابعة) قال الأزهرى الأولى حمل الدلوك على الزوال فى نصف النهار ، والمعنى (أقم الصلاة) أى أدمها من وقت زوال الشمس الى غسق الليل وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم قال (وقرآن الفجر) فاذا حملنا الدلوك على الزوال دخلت الصلوات الخمس فى هذه الآية ، وإن حملناه على الغروب لم يدخل فيه إلا ثلاث صلوات وهى المغرب والعشاء والفجر وحمل كلام الله تعالى على مايكون أكثر فائدة أولى فوجب أن يكون المراد من الدلوك الزوال ، واحتج الفراء على قوله الدلوك هو الغروب بقول الشاعر:

هذا مقام قدمى رباح وقفت حتى دلكت براح

وبراح اسم الشمس أى حتى غابت ، واحتج ابن قتيبة بقول ذى الرمة :

مصابيح ليست باللواتى يقودها نجوم ولا أفلا كهن الدوالك

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لأن عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير وهذا المعنى حاصل فى الغروب فكان الغروب نوعا من أنواع الدلوك فكان وقوع لفظ الدلوك على الغروب لاينافى وقوعه على الزوال كما أن وقوع لفظ الحيوان على الانسان لا ينافى وقوعه على الفرس ومنهم من احتج أيضا على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لأن الانسان يدلك عينيه عند النظر إليها وهذا إنما يصح فى الوقت الذى يمكن النظر إليها ومعلوم أنها عند كونها فى فى وسط السماء لايمكن النظر إليها ، أما عند قربها من الغروب فيمكن النظر إليها [و] عند ماينظر الانسان إليها فى ذلك الوقت يدلك عينيه ، فثبت أن لفظ الدلوك مختص بالغروب . والجواب أن الحاجة إلى ذلك التبيين عند كونها فى وسط السماء أتم فهذا الذى ذكرته بأن يدل على أن الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء أولى والله أعلم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الواحدى : اللام فى قوله لدلوك الشمس لام الأجل والسبب وذلك لأن الصلاة إنما تجب بزوال الشمس فيجب على المصلى اقامتها لأجل دلوك الشمس

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (إلى غسق الليل) غسق الليل سواده وظلمته قال الكسائى : غسق الليل غسوقا ، والغسق : الاسم ، بفتح السين . وقال النضر بن شميل : غسق الليل دخول أوله ، وأتيته حين غسق الليل ، أى حين يختلط ويسد المناظر ، وأصل هذا الحرف من السيلان يقال : غسقت العين تغسق . وهو هملان العين بالماء ، والغاسق السائل ، ومن هذا يقال لما يسيل من

أهل النار : الغساق ، فمعنى غسق الليل أى انصب بظلامه ، وذلك أن الظلمة كأنها تنصب على العالم ، وأما قول المفسرين ، قال ابن جريج قلت لعطاء : ما غسق الليل ؟ قال أوله حين يدخل . وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس ما الغسق : قال دخول الليل بظلمته ، وقال الأزهرى : غسق الليل عند غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها ، يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة إذا امتلأت دما ، قال لأنا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت الصلوات الأربع فيه وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولو حملنا الغسق على ظهور أول الظلمة لم يدخل فيه إلا الظهر والمغرب فوجب أن يكون الأول أولى ، واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث شريف فان فسرنا الغسق بظهور أول الظلمة كان الغسق عبارة عن أول المغرب وعلى هذا التقدير يكون المذكور فى الآية ثلاثة أوقات وقت الزوال ووقت أول المغرب ووقت الفجر وهذا يقتضى أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركا بين هاتين الصلاتين وأن يكون أول المغرب وقتا للمغرب والعشاء فيكون هذا الوقت مشتركا أيضا بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقا إلا أنه دل الدليل على أن الجمع فى الحضر من غير عذر ولا يجوز فوجب أن يكون الجمع جائزا بعذر السفر وعذر المطر وغيره ، أما إن فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول الظلمة المتراكمة إنما تحصل عند غيبوبة الشفق الأبيض وكلمة الى لانتهاء الغاية والحكم الممدود الى غاية يكون مشروعا قبل حصول تلك الغاية فوجب جواز إقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الأبيض وهذا إنما يصح إذا قلنا إنها تجب عند غيبوبة الشفق الأحمر والله أعلم

﴿المسألة الخامسة﴾ قوله وقرآن الفجر أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح وانتصابه بالعطف على الصلاة فى قوله أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وفيه فوائد (الأولى) أن هذه الآية تدل على أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة (الفائدة الثانية) أنه تعالى أضاف القرآن إلى الفجر والتقدير أقم قرآن الفجر فوجب أن تتعلق القراءة بحصول الفجر وفى أول طلوع الصبح قد حصل الفجر لأن الفجر سمى فجراً لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح وظاهر الأمر للوجوب فمقتضى هذا اللفظ وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه إلا أنا أجمعنا على أن هذا الوجوب غير حاصل ،فوجب أن يبقى الندب لأن الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك فاذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب أن يرتفع المنع من الترك وأن يبقى أصل الرجحان حتى تنقل مخالفة الدليل فثبت أن هذه الآية تقتضى أن إقامة الفجر فى أول الوقت أفضل وهذا يدل على صحة مذهب الشافعى فى أن التغليس أفضل من التنوير والله أعلم (الفائدة الثالثة) أن الفقهاء بينوا أن السنة أن تكون القراءة فى هذه الصلاة أطول من القراءة فى سائر الصلوات فالمقصود من قوله وقرآن الفجر الحث على أن تطويل القراءة فى هذه الصلاة مطلوب لأن التخصيص بالذكر يدل

على كونه أكمل من غيره (الفائدة الرابعة) أنه وصف قرآن الفجر بكونه مشهوداً قال الجمهور معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فى صلاة الصبح خلف الامام تنزل ملائكة النهار عليهم وهم فى صلاة الغداة وقبل أن تعرج ملائكة الليل فاذا فرغ الامام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار ثم إن ملائكة الليل إذا صعدت قالت يا رب إنا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا أتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا أنى قد غفرت لهم . وأقول هذا أيضاً دليل قوى فى أن التغليس أفضل من التنوير لأن الانسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففى ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار فبهذا الطريق تحضر فى هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة فى وقت التنوير فهناك ما بقيت الظلمة فلم يبق فى ذلك الوقت أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فثبت أن قوله تعالى (إنه كان مشهودا) دليل قوى على أن التغليس أفضل وعندى فى تفسير قوله تعالى (إنه كان مشهودا) احتمال آخر وذلك لأنه كلما كانت الحوادث الحادثة أعظم وأكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى أكمل فالانسان إذا شرع فى أداء صلاة الصبح من أول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية فى العالم ، فاذا امتدت القراءة فى أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة إلى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم ، والضوء مناسب للحياة والوجود . وعلى هذا التقدير فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت إلى الحياة ومن العدم إلى الوجود ثم إنه مع ذلك يشاهد فى أثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة إلى الضوء ومن الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة ومن العدم إلى الوجود . وهذه الحالة حالة عجيبة تشهد العقول والأرواح بأنه لا يقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة الغير المتناهية وحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة وينفتح على العقل والروح أبواب المكاشفات الروحانية الالهية فتصير الصلاة التى هى عبارة عن أعمال الجوارح مشهودا عليها بهذه المكاشفات الالهية المقدسة ولذلك فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم إذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح فى أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة إلى النور ومن السكون إلى الحركة فانه يجد فى قلبه روحا وراحة ومزيدا فى نور المعرفة وقوة اليقين فهذا هو المراد من قوله (إن قرآن الفجر كان مشهودا) وظهر أن هذا الاعتبار لا يحصل إلا عند أداء صلاة الفجر على سبيل التغليس فهذا ما خطر بالبال والله أعلم بمراده . وفى الآية احتمال ثالث وهو أن يكون المراد من قوله (إن قرآن الفجر كان مشهودا) الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة ويكون المعنى كونه مشهودا بالجماعة الكثيرة ومزيد التحقيق فيه أنابينا أن تأثير هذه الصلاة فى تصفية القلب وفى تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات فاذا حضر جمع من المسلمين فى المسجد

لأداء هذه العبادة استنار قلب كل واحد منهم ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته فى ذلك الوقت من قلب كل واحد إلى قلب الآخر فتصير أرواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة إذا وقعت عليها أنوار الشمس فانه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا إلى الأخرى فكذا فى هذه الصورة ولهذا السبب فان كل من له ذوق سليم وأدى هذه الصلاة فى هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فسحة ونورا وراحة (الفائدة الخامسة) قوله (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) يحتمل أن يكون السبب فى كونه مشهودا هو أن الانسان لما نام طول الليل فصار كالغافل فى هذه المدة عن مراقبة أحوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله وصارت هذه الألواح كألواح سطرت فيها نقوش فاسدة ثم غسلت وأزيلت تلك النقوش عنها ففى أول وقت القيام من المنام صارت ألواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة . فاذا تسارع الانسان فى ذلك الوقت إلى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والاقدام على الأفعال الدالة على تعظيم الله تعالى انتقش فى لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة ، ثم إن حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة ، وهى النقوش المتولدة من الميل إلى الدنيا وشهواتها فبهذا الطريق يترشح الميل إلى معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته ويضعف الميل الى الدنيا وشهواتها . إذا عرفت هذا فنقول هذه الحكمة إنما تحصل إذا شرع الانسان فى الصلاة من أول قيامه من النوم عند التغليس وذلك يدل على المقصود واعلم أن أكثر الخلق وقعوا فى أمراض القلوب وهى حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى والأنبياء كالأطباء الحاذقين والمريض ربما قد قوى مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه فى أكثر الأمر ، إلا أن الطبيب إذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى فى إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فان لم يقدر على إزالته فانه يسعى فى تقليله وتخفيفه . إذا عرفت هذا فنقول : مرض حب الدنيا مستول على الخلق ولا علاج له إلا بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس ، وقل من يقبله وينقاد له . لاجرم [أن] الأنبياء اجتهدوا فى تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشروع فى الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم مما ينفع فى إزالة هذا المرض من الوجه الذى قررناه فوجب أن يكون مشروعا والله أعلم بأسرار كلامه .

أما قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) فاعلم أنه تعالى لما أمر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والاشارة أردفه بالحث على صلاة الليل وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله فتهجد به أى بالقرآن كما قال (قم الليل إلا قليلا) الى قوله (ورتل القرآن ترتيلا) .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال الواحدى الهجود فى اللغة النوم وهو معروف كثير فى الشعر يقال :

أهجدته وهجدته أى أنمته ومنه قول لبيد : هجدنا فقد طال السرى

كأنه قال نومنا فان السرى قد طال علينا حتى غلبنا النوم وروى أبو عبيد عن أبى عبيدة الهاجد النائم والهاجد المصلى بالليل وروى ثعلب عن ابن الأعرابى مثل هذا القول كأنه قال هجد الرجل إذا صلى من الليل وهجد إذا نام بالليل فعند هؤلاء هذا اللفظ من الأضداد وأما الأزهرى فانه توسط فى تفسير هذا اللفظ وقال المعروف فى كلام العرب أن الهاجد هو النائم ثم رأينا أن فى الشرع يقال لمن قام من النوم الى الصلاة إنه متهجد فوجب أن يحمل هذا على أنه سمى متهجداً لالقائه الهجود عن نفسه كما قيل للعابد متحنث لالقائه الحنث عن نفسه وهو الاثم . ويقال فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب أى يلقى الحرج والاثم والحوب عن نفسه . وأقول فيه احتمال آخر وهو أن الانسان إنما يترك لذة النوم ويتحمل مشقة القيام الى الصلاة ليطيب رقاده وهجوده عند الموت فلما كان غرضه من ترك هذا الهجود أن يصل الى الهجود اللذيذ عند الموت كان هذا القيام طلباً لذلك الهجود فسمى تهجداً لهذا السبب (وفيه وجه ثالث) وهو ماروى أن الحجاج بن عمرو المازنى قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلى حتى يصبح أنه قد تهجد إنما التهجد الصلاة بعد الرقاد ثم صلاة أخرى بعد رقدة ثم صلاة أخرى بعد رقدة هكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ . إذا عرفت هذا فنقول كلما صلى الانسان طلب هجوداً ورقاداً فلا يبعد أنه سمى تهجداً لهذا السبب .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (من) فى قوله (ومن الليل) لابدله من متعلق والفاء فى قوله (فتهجد) لابد له من معطوف عليه والتقدير قم من الليل أى فى بعض الليل فتهجد به وقوله (به) أى بالقرآن والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن .

﴿ البحث الرابع ﴾ معنى النافلة فى اللغة ما كان زيادة على الأصل ذكرناه فى قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال) ومعناها أيضاً فى هذه الآية الزيادة وفى تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على أن صلاة الليل هل كانت واجبة على النبى ﷺ أم لا فمن الناس من قال إنها كانت واجبة عليه ثم نسخت فصارت نافلة أى تطوعا وزيادة على الفرائض وذكر مجاهد والسدى فى تفسير كونها (نافلة) وجهاً حسناً قالا إنه تعالى غفر للنبى ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكل طاعة يأتى بها سوى المكتوبة فانه لا يكون تأثيرها فى كفارة الذنوب البتة بل يكون تأثيرها فى زيادة الدرجات وكثرة الثواب وكان المقصود من تلك العبادة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلاف الأمة فان لهم ذنوباً محتاجة الى الكفارات فهذه الطاعة محتاجون اليها لتكفير الذنوب والسيئات فثبت أن هذه الطاعات إنما تكون زوائد ونوافل فى حق النبى ﷺ لا فى حق غيره فلهذا السبب قال (نافلة لك) يعنى أنها زوائد ونوافل فى حقك لا فى حق غيرك وتقريره ماذكرناه . وأما الذين قالوا إن صلاة الليل كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم قالوا معنى كونها نافلة له على التخصيص أنها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصصت بها من بين أمتك ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله فتهجد

أمر وصيغة الأمر للوجوب فوجب كون هذا التهجد واجباً فلو حملنا قوله نافلة لك على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الأصل فوجب أن يكون معنى كونها نافلة له ما ذكرناه من كون وجوبها زائداً على وجوب الصلوات الخمس والله أعلم .

﴿ البحث الخامس ﴾ قوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر) وإن كان ظاهر الأمر فيه مختصا بالرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه فى المعنى عام فى حق الأمة والدليل عليه أنه قال ومن الليل فتهجد به نافلة لك فبين أن الأمر بالتهجد مخصوص بالرسول وهذا يدل على أن الأمر بالصلاة الخمس غير مخصوص بالرسول عليه السلام وإلا لم يكن لتقييد الأمر بالتهجد بهذا القيد فائدة أصلا والله أعلم . ثم قال تعالى : (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) اتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعانى لأن لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع إنسانا فى شىء ثم حرمه كان عاراً والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً فى شىء ثم لا يعطيه ذلك . وقوله (مقاما محموداً) فيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ فى انتصاب قوله محموداً وجهان (الأول) أن يكون انتصابه على الحال من قوله يبعثك أى يبعثك محمودا (والثانى) أن يكون نعتاً للمقام وهو ظاهر

﴿ البحث الثانى ﴾ فى تفسير المقام المحمود أقوال (الأول) أنه الشفاعة قال الواحدى أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال النبى ﷺ فى هذه الآية « هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى » وأقول اللفظ مشعر به وذلك لأن الانسان إنما يصير محمودا إذا حمده حامد والحمد إنما يكون على الانعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً أنعم رسول الله ﷺ فيه على قوم فحمدوه على ذلك الانعام وذلك الانعام لايجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع لأن ذلك كان حاصلا فى الحال وقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) تطميع وتطميع الانسان فى الشىء الذى وعده فى الحال محال فوجب أن يكون ذلك الانعام الذى لأجله يصير محمودا إنعاما سيصل منه حصل له بعد ذلك إلى الناس وما ذاك إلا شفاعته عند الله فدل هذا على أن لفظ الآية وهو قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) يدل على هذا المعنى وأيضاً التنكير فى قوله مقاما محمودا يدل على أنه يحصل للنبى عليه السلام فى ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ومن المعلوم أن حمد الانسان على سعيه فى التخليص عن العقاب أعظم من حمده فى السعى فى زيادة من الثواب لاحاجة به اليها لأن احتياج الانسان إلى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التى لاحاجة به إلى تحصيلها وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) هو الشفاعة فى إسقاط العقاب على ماهو مذهب أهل السنة ولما ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعارا قوياً ثم وردت الأخبار الصحيحة فى تقرير هذا المعنى وجب حل اللفظ عليه ومما يؤكدهذا الوجه الدعاء المشهور وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه به الأولون والآخرون

واتفق الناس على أن المراد منه الشفاعة (والقول الثانى) قال حذيفة « يجمع الناس فى صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت » فهذا هو المراد من قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وأقول القول الأول أولى لأن سعيه فى الشفاعة يفيده إقدام الناس على حمده فيصير محمودا وأما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد إلا الثواب أما الحمد فلا فان قالوا لم لايجوز أن يقال إنه تعالى يحمده على هذا القول قلنا لأن الحمد فى اللغة مختص بالثناء المذكور فى مقابلة الانعام فقط فان ورد لفظ الحمد فى غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز (القول الثالث) المراد مقام تحمد عاقبته وهذا أيضاً ضعيف للوجه الذى ذكرناه فى القول الثانى (القول الرابع) قال الواحدى روى عن ابن مسعود أنه قال « يقعد الله محمدا على العرش » وعن مجاهد أنه قال يجلسه معه على العرش ، ثم قال الواحدى وهذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه (الأول) أن البعث ضد الاجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث ويقال بعث الله الميت أى أقامه من قبره فتفسير البعث بالاجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد (والثانى) أنه تعالى قال مقاما محمودا ولم يقل مقعدا والمقام موضع القيام لاموضع القعود (والثالث) لو كان تعالى جالساً على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدودا متناهياً ومن كان كذلك فهو محدث (والرابع) يقال إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير اعزاز لأن هؤلاء الجهال والحمق يقولون فى كل أهل الجنة إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا فيها فى الدنيا وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة (والخامس) أنه إذا قيل السلطان بعث فلاناً فهم منه أنه أرسله إلى قوم لاصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه فثبت أن هذا القول كلام رذل ساقط لا يميل اليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين والله أعلم ثم قال تعالى (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ أنا ذكرنا فى تفسير قوله (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض) قولين أحدهما المراد منه سعى كفار مكة فى إخراجه منها والثانى المراد منه أن اليهود قالوا له الأولى لك أن تخرج من المدينة إلى الشام ثم إنه تعالى قال له (أقم الصلاة) واشتغل بعبادة الله تعالى ولا تلتفت إلى هؤلاء الجهال فانه تعالى ناصرك ومعينك ثم عاد بعد هذا الكلام الى شرح تلك الواقعة فان فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا إخراجه من مكة كان معنى هذه الآية أنه تعالى أمره بالهجرة الى المدينة وقال له (وقل رب أدخلنى مدخل صدق - وهو المدينة - وأخرجنى مخرج صدق - وهو مكة) وهذا قول الحسن وقتادة وإن فسرنا تلك الآية بأن المراد منها أن اليهود

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

حملوه على الخروج من المدينة والذهاب الى الشام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ثم أمره الله تعالى بأن يرجع إليها كان المراد أنه عليه الصلاة والسلام عند العود إلى المدينة قال (رب أدخلنى مدخل صدق ـ وهو المدينة ـ وأخرجنى مخرج صدق) يعنى أخرجنى منها إلى مكة مخرج صدق أى افتحها لى (والقول الثانى) فى تفسير هذه الآية وهو أكمل مما سبق أن المراد (وقل رب أدخلنى ـ فى الصلاة ـ وأخرجنى) منها مع الصدق والاخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم شكرك (والقول الثالث) وهو أكمل مما سبق أن المراد (وقل رب أدخلنى ـ فى القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك ـ وأخرجنى) منها بعد الفراغ منها إخراجا لا يبقى على منها تبعة ربقية . (والقول الرابع) وهو أعلى مما سبق (وقل رب أدخلنى) فى بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وقدسك ثم أخرجنى من الاشتغال بالدليل الى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل فى آثار حدوث المحدثات إلى الاستغراق فى معرفة الأحد الفرد المنزه عن التكثيرات والتغيرات (والقول الخامس) أدخلنى فى كل ماتدخلنى فيه مع الصدق فى عبوديتك والاستغراق بمعرفتك وأخرجنى عن كل ما تخرجنى عنه مع الصدق فى العبودية والمعرفة والمحبة والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلا فى كل دخول وخروج وحركة وسكون (والقول السادس) أدخلنى القبر مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق

﴿ البحث الثانى ﴾ مدخل بضم الميم مصدر كالادخال يقال أدخلته مدخلا كما قال (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) ومعنى إضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى إدخالا حسناً وإخراجا حسناً لايرى فيهما مايكره ثم قال تعالى (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً) أى حجة بينة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى , وبالجملة فقد سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه بأنه يعصمه من الناس فقال (والله يعصمك من الناس) وقال (ألا إن حزب الله هم المفلحون) وقال (ليظهره على الدين كله) ولما سأل الله النصرة بين الله له أنه أجاب دعاءه فقال (وقل جاء الحق ـ وهو دينه وشرعه ـ وزهق الباطل) وهو كل ماسواه من الأديان والشرائع ، وزهق بطل واضمحل ، وأصله من زهقت نفسه تزهق أى هلكت ، وعن ابن مسعود « أنه دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب على وجهه » وقوله (إن الباطل كان زهوقا) يعنى أن الباطل وإن اتفقت له دولة وصولة إلا أنها لاتبقى بل تزول على أسرع الوجوه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا

خَسَارًا «٨٢» وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا «٨٣» قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا «٨٤»

خساراً . وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا . قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾

إعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الالهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث وإثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ونبه على مافيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك فى القرآن أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة) ولفظة من هاهنا ليست للتبعيض بل هى للجنس كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) والمعنى وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ماهو شفاء . فجميع القرآن شفاء للمؤمنين ، واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، وشفاء أيضا من الأمراض الجسمانية ، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر ، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة ، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة فى الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها ، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ فى هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لاجرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحانى . وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف مافيها من المفاسد والارشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية ، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لايفهم منها شىء آثاراً عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد ، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا كان أولى ويتأكد ما ذكرنا بما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من لم يستشف بالقرآن فلاشفاه الله تعالى » وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما يفيد

الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء . وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية ، والأخلاق الفاضلة التى بها يصل الانسان الى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة ، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعى فى تكميل موجبات الصحة لاجرم بدأ الله تعالى فى هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة ، واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سببا للخسار والضلال فى حق الظالمين والمراد به المشركون وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضباً وحقدا وحسداً وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم الى الأعمال الباطلة وتزيد فى تقوية تلك الأخلاق الفاسدة فى جواهر نفوسهم ثم لايزال الخلق الخبيث النفسانى يحمل على الأعمال الفاسدة والإتيان بتلك الأعمال يقوى تلك الأخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سبباً لتزايد هؤلاء المشركين الضالين فى درجات الخزى والضلال والفساد والنكال ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلى فى وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال (وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الانسان هاهنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد ، بل المراد أن نوع الانسان من شأنه أنه إذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله تعالى متمردا عن طاعة الله كما قال (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى)

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله أعرض أى ولى ظهره أى عرضه إلى ناحية ونآى بجانبه أى تباعد ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشىء أن يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لأن ذلك عادة المتكبرين وفى قوله نأى قراءات (إحداها) وهى قراءة العامة بفتح النون والهمزة وفى حم السجدة مثله وهى اللغة الغالبة والنأى البعد يقال نأى أى بعد (وثانيها) قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء فى رأى ويجوز أن يكون من ناء بمعنى نهض (وثالثها) قراءة حمزة والكسائى بامالة الفتحتين وذلك لأنهم أمالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون إتباعا للكسرة مثل رأى (ورابعها) قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر ونصير عن الكسائى وحمزة نأى بفتح النون وكسر الهمزة على الأصل فى فتح النون وإمالة الهمزة . ثم قال تعالى : (وإذا مسه الشر كان يؤوسا) أى إذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤوساً شديد اليأس من رحمة الله (ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) والحاصل أنه إن فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسى ذكر الله ، وإن بقى فى الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى فهذا المسكين محروم أبداً عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن)

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٨٥»

إلى قوله (ربى أهانن) وكذلك قوله (إلإن انسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) ثم قال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) قال الزجاج الشاكلة الطريقة والمذهب . والدليل عليه أنه يقال هذا طريق ذو شواكل أى يتشعب منه طرق كثيرة ثم الذى يقوى عندى أن المراد من الآية ذلك قوله تعالى (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) وفيه وجه آخر وهو أن المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فان كانت نفسه نفساً مشرقة خيرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة وإن كانت نفسه نفساً كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة ، وأقول : العقلاء اختلفوا فى أن النفوس الناطقة البشرية هل هى مختلفة بالماهية أم لا ؟ منهم من قال إنها مختلفة بالماهية وإن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهياتها ، ومنهم من قال إنها متساوية فى الماهية واختلاف أفعالها لأجل اختلاف أمزجتها . والمختار عندى هو القسم الأول والقرآن مشعر بذلك ، وذلك لأنه تعالى بين فى الآية المتقدمة أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة إلى أقوام آخرين يفيد الخسار والخزى ثم أتبعه بقوله (قل كل يعمل على شاكلته) ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال ، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزى والضلال كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتسود وجهه . وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال .

قوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إعلم أنه تعالى لما ختم الآية المتقدمة بقوله (كل يعمل على شاكلته) وذكرنا أن المراد منه مشاكلة الأرواح للأفعال الصادرة عنها وجب البحث هاهنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ للمفسرين فى الروح المذكورة فى هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذى هو سبب الحياة ، روى أن اليهود قالوا لقريش اسألوا محمداً عن ثلاث فان أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبى : اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام غداً أخبركم ولم يقل إن شاء

الله فانقطع عنه الوحى أربعين يوماً ثم نزل الوحى بعده (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وبين أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومن الناس من طعن فى هذه الرواية من وجوه (أولها) أن الروح ليس أعظم شأناً ولا أعلى مكاناً من الله تعالى فاذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأى مانع يمنع من معرفة الروح (وثانيها) أن اليهود قالوا إن أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبى وهذا كلام بعيد عن العقل لأن قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ليست إلا حكاية من الحكايات وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلا على النبوة وأيضا فالحكاية التى يذكرها إما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته فان كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها وإن كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة فى ذكر هذه الحكاية . وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلا على صحة النبوة (وثالثها) أن مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين فلو قال الرسول صلى الله عليه وسلم إنى لا أعرفها لأورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فان الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقير أى انسان كان فكيف الرسول الذى هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء (ورابعها) أنه تعالى قال فى حقه (الرحمن علم القرآن) (وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما) وقال (وقل رب زدنى علما) وقال فى صفة القرآن (ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) ، وكان عليه السلام يقول « أرنا الأشياء كما هى » فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول أنا لا أعرف هذه المسألة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق بل المختار عندنا أنهم سألوه عن الروح وأنه صلى الله عليه وسلم أجاب عنه على أحسن الوجوه وتقريره أن المذكور فى الاية أنهم سألوه عن الروح والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة (أحدها) أن يقال ماهية الروح أهو متحيز أو حال فى المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال فى التحيز (وثانيها) أن يقال الروح قديمة أو حادثة (وثالثها) أن يقال الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تفنى (ورابعها) أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة ، وقوله (يسألونك عن الروح) ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سألوا أو عن غيرها إلا أنه تعالى ذكر له فى الجواب عن هذا السؤال قوله (قل الروح من أمر ربى) وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التى ذكرناها إحداهما السؤال عن ماهية الروح والثانية عن قدمها وحدوثها .

﴿ أما البحث الأول ﴾ فهم قالوا ما حقيقة الروح وماهيته ؟ أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والاخلاط ، أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه

الأجسام والأعراض ؟ فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض وذلك لأن هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الاخلاط والعناصر ، وأما الروح فانه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله (كن فيكون) فقالوا لم كان شيئاً مغايراً لهذه الأجسام ولهذه الأعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره فى إفادة الحياة لهذا الجسد ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فان أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة . فانا نعلم أن السكنجبين له خاصية تقتضى قطع الصفراء فأما إذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة فذاك غير معلوم فثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها فكذلك هاهنا وهذا هو المراد من قوله (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) .

﴿ وأما المبحث الثانى ﴾ فهو أن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل قال تعالى (وما أمر فرعون برشيد) وقال (فلما جاء أمرنا) أى فعلنا فقوله (قل الروح من أمر ربى) أى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة فقال بل هى حادثة وإنما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف فهى لاتزال تكون فى التغيير من حال إلى حال وفى التبديل من نقصان الى كمال والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث فقوله (قل الروح من أمر ربى) يدل على أنهم سألوه أن الروح هل هى حادثة فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه وهو المراد من قوله (قل الروح من أمر ربى) ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال وهو المراد من قوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فهذا مانقوله فى هذا الباب والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى ذكر سائر الأقوال المقولة فى نفس الروح المذكورة فى هذه الآية . إعلم أن الناس ذكروا أقوالا أخرى سوى ما تقدم ذكره (فالقول الأول) أن المراد من هذا الروح هو القرآن قالوا وذلك لأن الله تعالى سمى القرآن فى كثير من الآيات روحا واللائق بالروح المسئول عنه فى هذا الموضع ليس إلا القرآن فلا بد من تقرير مقامين (المقام الأول) تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) وقوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) وأيضا السبب فى تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه فى تفسير قوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) (وأما بيان المقام الثانى) وهو أن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدمه قوله (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) والذى تأخر عنه قوله (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) إلى قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على

أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فلما كان ما قبل هذه الآية فى وصف القرآن وما بعدها كذلك وجب أيضا أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا أنه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر وإنما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله فقال (قل الروح من أمر ربى) أى القرآن ظهر بأمر ربى وليس من جنس كلام البشر (القول الثانى) أن الروح المسئول عنه فى هذه الآية ملك من ملائكة السموات وهو أعظمهم قدراً وقوة وهو المراد من قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) ونقلوا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال هو ملك له سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف لسان ، لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة قالوا ولم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش ولو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل ، ولقائل أن يقول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الأول) أن هذا التفصيل لما عرفه على ، فالنبى أولى أن يكون قد عرفه فلم لم يخبرهم به ، وأيضا أن عليا ما كان ينزل عليه الوحى ، فهذا التفصيل ماعرفه الا من النبى صلى الله عليه وسلم فلم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الشرح والبيان لعلى ولم يذكره لغيره (الثانى) أن ذلك الملك إن كان حيوانا واحدا وعاقلا واحداً لم يكن فى تكثير تلك اللغات فائدة وإن كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيوانا آخر لم يكن ذلك ملكا واحدا بل يكون ذلك مجموع ملائكة (والثالث) أن هذا شىء مجهول الوجود فكيف يسأل عنه ، أما الروح الذى هو سبب الحياة فهو شىء تتوفر دواعى العقلاء على معرفته فصرف هذا السؤال اليه أولى (والقول الرابع) وهو قول الحسن وقتادة أن هذا الروح جبريل والدليل عليه أنه تعالى سمى جبريل بالروح فى قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وفى قوله (فأرسلنا اليها روحنا) ويؤكد هذا أنه تعالى قال (قل الروح من أمر ربى) [فى جبريل] وقال [حكاية عن] جبريل (وما نتنزل إلا بأمر ربك) فسألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحى اليه (والقول الخامس) قال مجاهد الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ولهم أيد وأرجل ورؤوس وقال أبو صالح يشبهون الناس وليسوا بالناس ولم أجد فى القرآن ولا فى الأخبار الصحيحة شيئاً يمكن التمسك به فى إثبات هذا القول وأيضا فهذا شىء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال اليه فحاصل ماذكرناه فى تفسير الروح المذكور فى هذه الآية هذه الأقوال الخمسة والله أعلم بالصواب.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى شرح مذاهب الناس فى حقيقة الانسان ، إعلم أن العلم الضرورى حاصل بأن هاهنا شيئاً اليه يشير الانسان بقوله أنا وإذا قال الانسان علمت وفهمت وأبصرت

وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت فالمشار اليه لكل أحد بقوله أنا إما أن يكون جسما أوعرضا أو بمجموع الجسم والعرض أو شيئا مغايراً للجسم والعرض أو من ذلك الشيء الثالث فهذا ضبط معقول (أما القسم الأول) وهو أن يقال إن الانسان جسم فذلك الجسم إما أن يكون هو هذه البنية أو جسما داخلا فى هذه البنية أو جسما خارجا عنها ، أما القائلون بأن الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس فهم جمهور المتكلمين وهؤلاء يقولون الانسان لايحتاج تعريفه إلى ذكر حد أو رسم بل الواجب أن يقال الانسان هو الجسم المبنى بهذه البنية المحسوسة واعلم أن هذا القول عندنا باطل وتقريره أنهم قالوا الانسان هو هذا الجسم المحسوس ، فاذا أبطلنا كون الانسان عبارة عن هذا الجسم وأبطلنا كون الانسان محسوساً فقد بطل كلامهم بالكلية والذى يدل على أنه لا يمكن أن يكون الانسان عبارة [عن] هذا الجسم وجوه (الحجة الأولى) أن العلم البديهى حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزال والعلم الضرورى حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقى ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعى بأن الانسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة (الحجة الثانية) أن الانسان حال ما يكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص فانه فى تلك الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه وعن أعضائه وأبعاضه بمجموعها ومفصلها وهو فى تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة بدليل أنه فى تلك الحالة قد يقول غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وأبصرت وجهك ، وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو فى تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وأبعاضه و [يكون] المعلوم غير معلوم فالانسان يجب أن يكون مغايراً لجملة هذا البدن ولكل واحدمن أعضائه وأبعاضه (الحجة الثالثة) أن كل أحد يحكم عقله باضافة كل واحد من هذه الأعضاء إلى نفسه فيقول رأسى وعينى ويدى ورجلى ولسانى وقلبى والمضاف غير المضاف اليه فوجب أن يكون الشيء الذى هو الانسان مغايراً لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الأعضاء. فان قالوا قد يقول نفسى وذاتى فيضيف النفس والذات الى نفسه فيلزم أن يكون الشيء وذاته مغايرة لنفسه وهو محال قلنا قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشيء وذاته الحقيقة المخصوصة التى يشير اليها كل أحد بقوله أنا فاذا قال نفسى وذاتى فان كان المراد البدن فعندنا أنه مغاير لجوهر الانسان ، أما إذا أريد بالنفس والذات المخصوصة المشار اليها بقوله أنا فلا نسلم أن الانسان يمكنه أن يضيف ذلك الشيء الى نفسه بقوله إنسانى وذلك لأن عين الإنسان ذاته فكيف يضيفه مرة أخرى إلى ذاته (الحجة الرابعة) أن كل دليل على أن الانسان يمتنع أن يكون جسما فهو أيضا يدل على أنه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم وسيأتي تقرير تلك الدلائل (الحجة الخامسة) أن الانسان قد يكون حياً حال ما يكون البدن ميتاً فوجب كون

الانسان مغايراً لهذا البدن والدليل على صحة ماذكرناه قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فهذا النص صريح فى أن أولئك المقتولين أحياء والحس يدل على أن هذا الجسد ميت .

﴿ الحجة السادسة ﴾ أن قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) وقوله (أغرقوا فأدخلوا ناراً) يدل على أن الانسان يحيا بعد الموت وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام « أنبياء الله لايموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار » وكذلك قوله عليه السلام « القبر روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النار » وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام « من مات فقد قامت قيامته » كل هذه النصوص تدل على أن الانسان يبقى بعد موت الجسد، وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت . ولو جوزنا كونه حياً جاز مثله فى جميع الجمادات ، وذلك عين السفسطة . وإذا ثبت أن الانسان شىء وكان الجسد ميتاً لزم أن الانسان شىء غير هذا الجسد .

﴿ الحجة السابعة ﴾ قوله عليه السلام فى خطبة طويلة له « حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ، ويقول يا أهلى وياولدى لاتلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله وغير حله فالغنى لغيرى والتبعة على فاحذروا مثل ماحل بى » وجه الاستدلال أن النبى ﷺ صرح بأن حال مايكون الجسد محمولا على النعش بقى هناك شىء ينادى ويقول ياأهلى وياولدى جمعت المال من حله وغير حله ومعلوم أن الذى كان الأهل أهلا له وكان جامعاً للمال من الحرام والحلال والذى بقى فى رقبته الوبال ليس إلا ذلك الانسان فهذا تصريح بأن فى الوقت الذى كان فيه الجسد ميتاً محمولا كان ذلك الانسان حياً باقياً فاهما وذلك تصريح بأن الانسان شىء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل .

﴿ الحجة الثامنة ﴾ قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) والخطاب بقوله ارجعى إنما هو متوجه عليها حال الموت فدل هذا على أن الشىء الذى يرجع إلى الله بعد موت الجسد يكون حياً راضياً عن الله ويكون راضياً عنه الله والذى يكون راضياً ليس إلا الانسان فهذا يدل على أن الانسان بقى حياً بعد موت الجسد والحى غير الميت فالانسان مغاير لهذا الجسد .

﴿ الحجة التاسعة ﴾ قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون . ثم ردوا الى الله مولاهم الحق) أثبت كونهم مردودين الى الله الذى هو مولاهم حال كون الجسد ميتاً فوجب أن يكون ذلك المردود الى الله مغايراً لذلك الجسد الميت .

﴿ الحجة العاشرة ﴾ نرى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زياراتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا

أحياء لكان التصدق عنهم عبثاً ، والدعاء لهم عبثاً ، ولكان الذهاب الى زيارتهم عبثاً ، فالاطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الانسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لايموت ، بل [الذى] يموت هذا الجسد .

﴿ الحجة الحادية عشرة ﴾ أن كثيراً من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته فى المنام ويقول له إذهب الى الموضع الفلانى فان فيه ذهباً دفنته لك وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه فى النوم من غير تفاوت ، ولولا أن الانسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك ، ولما دل هذا الدليل على أن الانسان يبقى بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت كان الانسان مغايراً لهذا الجسد الميت .

﴿ الحجة الثانية عشرة ﴾ أن الانسان اذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تقطع يداه أو رجلاه أو تقلع عيناه أو تقطع أذناه الى غيرها من الأعضاء فان ذلك الانسان يجد من قلبه وعقله أنه هو عين ذلك الانسان ولم يقع فى عين ذلك الانسان تفاوت حتى أنه يقول أنا ذلك الانسان الذى كنت موجوداً قبل ذلك إلا أنه يقول إنهم قطعوا يدى ورجلى ، وذلك برهان يقينى على أن ذلك الانسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض وذلك يبطل قول من يقول الانسان عبارة عن هذه البنيـة المخصوصة .

﴿ الحجة الثالثة عشرة ﴾ أن القرآن والأحاديث يدلان على أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم فى صورة القردة والخنازير فنقول : إن ذلك الانسان هل بقى حال ذلك المسخ أو لم يبق ؟ فان لم يبق كان هذا إماتة لذلك الانسان وخلقا لذلك الخنزير وليس هذا من المسخ فى شيء . وإن قلنا إن ذلك الانسان بقى حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير : ذلك الانسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق ، فوجب أن يكون ذلك الانسان شيئاً مغايراً لتلك البنية .

﴿ الحجة الرابعة عشرة ﴾ أن رسول الله ﷺ كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة دحية الكلبى وكان يرى إبليس فى صورة الشيخ النجدى فهاهنا بنية الانسان وهيكله وشكله حاصل مع أن حقيقة الانسان غير حاصلة وهذا يدل على أن الانسان ليس عبارة عن هذه البنية ، وهذا الهيكل . والفرق بين هذه الحجة والتى قبلها أنه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنيـة وهذا الهيكل .

﴿ الحجة الخامسة عشرة ﴾ أن الزانى يزنى بفرجه فيضرب على ظهره فوجب أن يكون الانسان شيئاً آخر سوى الفرج وسوى الظهر ، ويقال إن ذلك الشيء يستعمل الفرج فى عمل والظهر فى عمل آخر ، فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشيء إلا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو .

﴿ الحجة السادسة عشرة ﴾ أنى إذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا أو لا تفعل كذا

فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهى ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه ولا شيئاً من أعضائه بعينه ، فوجب أن يكون المأمور والمنهى والمخاطب شيئا مغايراً لهذه الأعضاء ، وذلك يدل على أن ذلك المأمور والمنهى غير هذا الجسد فان قالوا لم لايجوز أن يقال المأمور والمنهى جملة هذا البدن لاشىء من أعضائه وأبعاضه ؟ قلنا بوجه التكليف على الجملة إنما يصح لوكانت الجملة فاهمة عالمة فنقول لو كانت الجملة فاهمة عالمة فاما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة ، والأول يقتضى قيام العرض بالمحال الكثيرة وهو محال ، والثانى يقتضى أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالما فاهما مدركا على سبيل الاستقلال ، وقد بينا أن العلم الضرورى حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس عالما فاهما مدركا بالاستقلال فسقط هذا السؤال .

﴿ الحجة السابعة عشرة ﴾ أن الانسان يجب أن يكون عالما ، والعلم لايحصل إلا فى القلب فيلزم أن يكون الانسان عبارة عن الشىء الموجود فى القلب وإذا ثبت هذا بطل القول بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل ، وهذه الجثة إنما قلنا إن الانسان يجب أن يكون عالما لأنه فاعل مختار ، والفاعل المختار هو الذى يفعل بواسطة القلب والاختيار وهما مشروطان بالعلم لأن مالا يكون مقصوداً امتنع القصد الى تكوينه فثبت أن الانسان يجب أن يكون عالماً بالأشياء وإنما قلنا إن العلم لايوجد إلا فى القلب للبرهان والقرآن . أما البرهان فلأنا نجد العلم الضرورى بأنا نجد علومنا من ناحية القلب ، وأما القرآن فآيات نحو قوله تعالى (لهم قلوب لايفقهون بها) وقوله (كتب فى قلوبهم الايمان) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وإذا ثبت أن الانسان يجب أن يكون عالماً ، وثبت أن العلم ليس إلا فى القلب ثبت أن الانسان شىء فى القلب أو شىء له تعلق بالقلب وعلى التقديرين فانه يبطل قول من يقول الانسان هو هذا الجسد وهذا الهيكل .

﴿ وأما البحث الثانى ﴾ وهو بيان أن الانسان غير محسوس وهو أن حقيقة الإنسان شىء مغاير للسطح واللون وكل ماهو مرئى فهو إما السطح وإما اللون وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس أن حقيقة الانسان غير مرئية ولا محسوسة وهذا برهان يقينى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى شرح مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود فى داخل البدن اعلم أن الأجسام الموجودة فى هذا العالم السفلى إما أن تكون أحد العناصر الأربعة أو ما يكون متولداً من امتزاجها ، ويمتنع أن يحصل فى البدن الانسانى جسم عنصرى خالص بل لا بد وأن يكون الحاصل جسما متولداً من امتزاجات هذه الأربعة فنقول : أما الجسم الذى تغلب عليه الأرضية فهو الأعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا : الانسان شىء مغاير لهذا الجسد بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الأعضاء وذلك لأن هذه الأعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية فلا جرم لم يقل أحد من العقلاء بأن الانسان عبارة عن أحد هذه الأعضاء ، وأما الجسم الذى تغلب عليه المائية فهو

الأخلاط الأربعة ولم يقل أحد فى شىء منها إنه الانسان إلا فى الدم فان منهم من قال إنه هو الروح بدليل أنه إذا خرج لزم الموت ، أما الجسم الذى تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الأرواح وهى نوعان (أحدهما) أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة إما فى القلب أو فى الدماغ وقالوا إنها هى الروح وإنها هى الانسان ثم اختلفوا فمنهم من يقول الانسان هو الروح الذى فى القلب ، ومنهم من يقول إنه جزء لايتجزأ فى الدماغ ، ومنهم من يقول الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الأرواح القلبية والدماغية وتلك الأجزاء النارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية وهى الانسان ، ومن الناس من يقول الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة ، والجوهر على طبيعة ضوء الشمس وهى لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق فاذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله (فاذا سويته) نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الالهية فى داخل أعضاء البدن نفاذ النار فى الفحم ونفاذ دهن السمسم فى السمسم ، ونفاذ ماء الورد فى جسم الورد ، ونفاذ تلك الأجسام السماوية فى جوهر البدن هو المراد بقوله (ونفخت فيه من روحى) ثم إن البدن مادام يبقى سليما قابلا لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقى حياً ، فاذا تولدت فى البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط الغياظة من سريان تلك الأجسام الشريفة فيها فانفصلت عن هذا البدن فحينئذ يعرض الموت ، فهذا مذهب قوى شريف يجب التأمل فيه فانه شديد المطابقة لما ورد فى الكتب الالهية من أحوال الحياة والموت ، فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود فى داخل البدن ، وأما أن الانسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحدا ذهب الى هذا القول (أما القسم الثانى) وهو أن يقال الانسان عرض حال فى البدن ، فهذا لا يقول به عاقل لأن من المعلوم بالضرورة أن الانسان جوهر لأنه موصوف بالعلم والقدرة والتدبر والتصرف ، ومن كان كذلك كان جوهراً والجوهر لا يكون عرضاً بل الذى يمكن أن يقول به كل عاقل هو أن الانسان يشترط أن يكون موصوفا بأعراض مخصوصة ، وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال (القول الأول) أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحد منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هى المزاج ؛ ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هى الانسانية وبعضها هى الفرسية ، فالانسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص ، هذا قول جمهور الأطباء ومنكرى بقاء النفس وقول أبى الحسين البصرى من المعتزلة (والقول الثانى) أن الانسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا ليس هاهنا إلا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الأعراض المخصوصة وهى الحياة والعلم والقدرة ، وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة (والقول الثالث) أن الإنسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة والإنسان إنما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده

وهيئة أعضائه وأجزائه إلا أن هذا مشكل فان الملائكة قد يتشبهون بصور الناس فهاهنا صورة الإنسان حاصلة مع عدم الإنسانية وفى صورة المسخ معنى الإنسانية حاصل مع أن هذه الصورة غير حاصلة فقد بطل اعتبار هذا الشكل فى حصول معنى الانسانية طرداً وعكساً (أما القسم الثالث) وهو أن يقال الإنسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية فهو قول أكثر الإلهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معاداً روحانيا وثوابا وعقاباً وحساباً روحانيا وذهب إليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبى القاسم الراغب الأصفهانى والشيخ أبى حامد الغزالى رحمهما الله ، ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمى ، ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد ، ومن الكرامية جماعة ، واعلم أن القائلين باثبات النفس فريقان (الأول) وهم المحققون منهم من قال الإنسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص ، وهذا البدن وعلى هذا التقدير فالانسان غير موجود فى داخل العالم ولا فى خارجه وغير متصل فى داخل العالم ولا فى خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلا على سبيل التصرف والتدبير (والفريق الثانى) الذين قالوا النفس إذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن ، والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الانسان فاذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن فهذه جملة مذاهب الناس فى الإنسان وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول إنها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وأن تلك الأجسام تكون سارية فى البدن وما دام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن فاذا انفصلت تلك الأجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى دلائل مثبتى النفس من ناحية العقل احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها إقناعية فلنذكر الوجوه القطعية

﴿ الحجة الأولى ﴾ لاشك أن الإنسان جوهر فاما أن يكون جوهراً متحيزاً أو غير متحيز والأول باطل فتعين الثانى والذى يدل على أنه يمتنع أن يكون جوهراً متحيزاً أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزاً غير تلك الذات ولو كان كذلك لكان كل ما علم الإنسان ذاته المخصوصة وجب أن يعلم كونه متحيزاً بمقدار مخصوص وليس الأمر كذلك فوجب أن لا يكون الإنسان جوهراً متحيزاً فنفتقر فى تقرير هذا الدليل الى مقدمات ثلاثة (المقدمة الأولى) لو كان الإنسان جوهراً متحيزاً لكان كونه متحيزاً عين ذاته المخصوصة والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة ، إما أن يكون متحيزاً أو لا يكون والقسمان باطلان فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل إنما قلنا إنه يمتنع أن يكون محل التحيز لأنه يلزم كون الشىء الواحد متحيزاً مرتين ولأنه يلزم اجتماع المثلين ولأنه ليس جعل أحدهما

ذاتاً والآخر صفة أولى من العكس ولأن التحيز الثانى إن كان عين الذات فهو المقصود وإن كان صفة لزم التسلسل وهو محال وإنما قلنا إنه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لأن حقيقة التحيز هو الذهاب فى الجهات والامتداد فيها ، والشيء الذى لا يكون متحيزاً لم يكن له اختصاص بالجهات وحصوله فيها ليس بمتحيز محال ، فثبت بهذا أنه لو كان الإنسان جوهراً متحيزاً لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة (المقدمة الثانية) لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة ، والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولا لزم اجتماع النفى والإثبات فى الشيء الواحد وهو محال (المقدمة الثالثة) أنا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد فى الجهات الثلاثة وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان فان الإنسان حال كونه مشتغلا بشيء من المهمات مثل أن يقول لعبده لم فعلت كذا ولم خالفت أمرى وإنى أبالغ فى تأديبك وضربك فعند ما يقول لم خالفت أمرى يكون عالما بذاته المخصوصة إذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم أن ذلك الإنسان خالفه ولامتنع أن يخبر عن نفسه بأنه على عزم أن يؤدبه ويضربه ففى هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع أنه فى تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد فى الجهات والحصول فى الحيز فثبت بما ذكرنا أنه لو كان ذات الإنسان جوهراً متحيزاً لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة ولو كان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت أنه ليس كذلك فيلزم أن يقال ذات الإنسان ليس جوهراً متحيزا وذلك هو المطلوب ، فان قالوا هذا معارض بأنه لو كان جوهراً مجردا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرا مجردا وليس الأمر كذلك قلنا الفرق ظاهر لأن كونه مجردا معناه أنه ليس بمتحيز ولا حالا فى المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لأن السلب ليس عين الثبوت ، وإذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وأن لا يكون ذلك السلب معلوما بخلاف كونه متحيزاً فانا قد دللنا على أن تقدير كون الإنسان جوهراً متحيزاً يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولا فظهر الفرق .

﴿الحجة الثانية﴾ النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه فهذه الحجة مبنية على مقدمات (المقدمة الأولى) هى قولنا النفس واحدة ولنا هاهنا مقامان تارة ندعى العلم البديهى فيه وأخرى نقيم البرهان على صحته ، أما (المقام الأول) وهو إدعاء البديهية فنقول المراد من النفس هو الشيء الذى يشير اليه كل أحد بقوله أنا وكل أحد يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته المخصوصة بقوله أنا كان ذلك المشار اليه واحداً غير متعدد فان قيل لم لا يجوز أن يكون المشار اليه لكل أحد بقوله أنا وإن كان واحداً إلا أن ذلك الواحد يكون مركبا من أشياء كثيرة قلنا إنه لا حاجة لنا فى هذا المقام إلى دفع هذا السؤال بل نقول المشار اليه بقول أنا معلوم بالضرورة أنه شيء واحد فأما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء

كثيرة أو هو واحد فى نفسه واحد فى حقيقته فهذا لا حاجة اليه فى هذا المقام ، (أما المقام الثانى) وهو مقام الاستدلال فالذى يدل على وحدة النفس وجوه .

﴿الحجة الأولى﴾ أن الغضب حالة نفسانية تحدث عند إرادة دفع المنافر والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطا بالشعور بكون الشىء ملايماً ومنافراً فالقوة الغضبية التى هى قوة دافعة للمنافر إن لم يكن لها شعور بكونه منافراً امتنع انبعاثها لدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لأن القصد إلى الجذب تارة والى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشىء فالشىء المحكوم عليه بكونه دافعاً للمنافر على سبيل الاختيار لابد وأن يكون له شعور بكونه منافراً فالذى يغضب لابد وأن يكون هو بعينه مدركا فثبت بهذا البرهان اليقينى مباينة حاصلة فى ذوات متباينة .

﴿الحجة الثانية﴾ أنا إذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلا بفعله الخاص امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعاً للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به . وإذا ثبت هذا فنقول لو كان محل الادراك والفكر جوهراً ومحل الغضب جوهراً آخر ومحل الشهوة جوهراً ثالثاً وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعا للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثانى باطل فان اشتغال الانسان بالشهوة وانصبابه اليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه إليه وبالعكس فعلمنا أن هذه الأمور الثلاثة ليست مبادىء مستقلة بل هى صفات مختلفة بجوهر واحد فلاجرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال عائقا له عن الإشتغال بالفعل الآخر

﴿الحجة الثالثة﴾ أنا إذا أدركنا أشياء فقد يكون الادراك سببا لحصول الشهوة وقد يصير سبباً لحصول الغضب فلوكان الجوهر المدرك مغايراً للذى يغضب والذى يشتهى فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهى من ذلك الادراك أثر ولا خبر فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا أن صاحب الادراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه .

﴿الحجة الرابعة﴾ أن حقيقة الحيوان أنه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالارادة فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالادارة إلا عند حصول الداعى ولا معنى للداعى إلا الشعور بخير يرغب فى جذبه أو بشر يرغب فى دفعه وهذا يقتضى أن يكون المتحرك بالارادة هو بعينه مدركا للخير والشر والملذ والمؤذى والنافع والضار فثبت بما ذكرنا أن النفس الانسانية شىء واحد وثبت أن ذلك الشىء هو المبصر والسامع والشام والذائق واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهى والغاضب وهو الموصوف بجميع الإدراكات لكل المدركات وهو الموصوف بجميع الأفعال الإختيارية والحركات الإرادية ، وأما (المقدمة الثانية) فى بيان أنه لما كانت النفس شيئا واحداً وجب أن لا تكون النفس فى هذا البدن ولا شيئاً من أجزائه فنقول أما بيان أنه متى كان الأمر كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر

والتفكر والعلم بأن هذه القوى غير سارية فى جملة أجزاء البدن علم بديهى بل هو من أقوى العلوم البديهية ، وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزءاً من أجزاء هذا البدن فانا نعلم بالضرورة أنه ليس فى البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالابصار والسماع والفكر والذكر بل الذى يتبادر إلى الخاطر أن الأبصار مخصوص بالعين لا بسائر الأعضاء والسماع مخصوص بالأذن لا بسائر الأعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الاعضاء وكذلك القول فى سائر الادراكات وسائر الأفعال فأما أن يقال إنه حصل فى البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الإدراكات وبكل هذه الأفعال فالعلم الضرورى حاصل بأنه ليس الأمر كذلك فثبت بما ذكرنا أن النفس الانسانية شىء واحد موصوف بجملة هذه الإدراكات وبجملة هذه الافعال وثبت بالبديهية أن جملة البدن ليست كذلك وثبت أيضاً أن شيئا من أجزاء البدن ليس كذلك فحينئذ يحصل اليقين بأن النفس شىء مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب . ولنقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول : إنا نعلم بالضرورة أنا إذا أبصرنا شيئا عرفناه وإذا عرفناه اشتهيناه وإذا اشتهيناه حركنا أبداننا إلى القرب منه فوجب القطع بأن الذى أبصر هو الذى عرف وأن الذى عرف هو الذى اشتهى وأن الذى اشتهى هو الذى حرك إلى القرب منه فيلزم القطع بأن المبصر لذلك الشىء والعارف به والمشتهى والمتحرك إلى القرب منه شىء واحد إذ لو كان المبصر شيئا والعارف شيئا ثانيا والمشتهى شيئا ثالثا والمتحرك شيئا رابعا لكان الذى أبصر لم يعرف ، والذى عرف لم يشته والذى اشتهى لم يتحرك ، ومن المعلوم أن كون الشىء مبصراً لشىء لا يقتضى صيرورة شىء آخر عالما بذلك الشىء وكذلك القول فى سائر المراتب وأيضا فانا نعلم بالضرورة أن الرائى للمرئيات لما رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الأعضاء إلى القرب منها ونعلم أيضا بالضرورة أن الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره وأيضا العقلاء قالوا الحيوان لا بد أن يكون حساسا متحركا بالارادة فانه إن لم يحس بشىء لم يشعر بكونه ملائما أو بكونه منافراً وإذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريداً للجذب أو الدفع فثبت أن الشىء الذى يكون متحركا بالارادة فانه بعينه يجب أن يكون حساسا فثبت أن المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الإدراكات وأن المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شىء واحد وأيضا فلأنا إذا تكلمنا بكلام نقصد منه تفهيم الغير [عقلنا] معانى تلك الكلمات ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعانى ولما حصلت هذه الإرادة فى قلوبنا حاولنا إدخال تلك الحروف والأصوات فى الوجود لنتوسل بها إلى تعريف غيرنا تلك المعانى . إذا ثبت هذا فنقول : إن كان محل العلم والإرادة ومحل تلك الحروف والاصوات جسما واحداً لزم أن يقال إن محل العلوم والارادات هو الحنجرة واللهاة واللسان ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، وإن قلنا محل العلوم والإردات هو القلب لزم أيضاً أن يكون محل الصوت هو القلب وذلك أيضا باطل بالضرورة ،

وإن قلنا محل الكلام هو الحنجرة واللهاة واللسان ، ومحل العلوم والإرادات هو القلب ، ومحل القدرة هو الأعصاب والأوتار والعضلات ، كنا قد وزعنا هذه الأمور على هذه الأعضاء المختلفة لكنا أبطلنا ذلك . وبينا أن المدرك لجميع المدركات والمحرك لجميع الأعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئاً واحداً ، فلم يبق إلا أن يقال فى الإدراك والقدرة على التحريك [أنه] شىء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن وأن هذه الأعضاء جارية مجرى الآلات والأدوات فكما أن الإنسان يعقل أفعالا مختلفة بواسطة آلات مختلفة فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب ، فهذه الأعضاء آلات النفس وأدوات لها ، والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبير وهذا البرهان برهان شريف يقينى فى ثبوت هذا المطلوب والله أعلم .

﴿ المقدمة الثالثة ﴾ لو كان الإنسان عبارة عن هذا الجسد لكان إما أن يقوم بكل واحد من الأجزاء حياة وعلم وقدرة على حدة ، وإما أن يقوم بمجموع الأجزاء حياة وعلم وقدرة ، والقسمان باطلان فبطل القول بكون الإنسان عبارة عن هذا الجسد ، وأما بطلان القسم الأول فلأنه يقتضى كون كل واحد من أجزاء الجسد حياً عالما قادراً على سبيل الاستقلال فوجب أن لا يكون الإنسان الواحد حيواناً واحداً بل أحياء عالمين قادرين وحينئذ لا يبقى فرق بين الإنسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لأنى أجد ذاتى ذاتاً واحدة لاحيوانات كثيرين ، وأيضاً فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيواناً واحداً على حدة فحينئذ لا يكون لكل واحد منهما خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع أن يريد هذا أن يتحرك إلى هذا الجانب ويريد الجزء الآخر أن يتحرك إلى الجانب الآخر فحينئذ يقع التدافع بين أجزاء بدن الإنسان الواحد كما يقع بين شخصين . وفساد ذلك معلوم بالبديهة ، وأما بطلان القسم الثانى فلأنه يقتضى قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة ، وذلك معلوم البطلان بالضرورة ولأنه لو جاز حلول الصفة الواحدة فى المحال الكثيرة لم يبعد أيضاً حصول الجسم الواحد فى الأحياز الكثيرة ولأن بتقدير أن تحصل الصفة الواحدة فى المحال المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الأجزاء حياً عاقلا عالماً فيتجرد الأمر إلى كون هذه الجثة الواحدة أناساً كثيرين ، ولما ظهر فساد القسمين ثبت أن الإنسان ليس هو هذه الجثة . فان قالوا : لم لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد ، ثم إن تلك الحياة تقتضى صيرورة جملة الأجزاء أحياء قلنا هذا باطل لأنه لامعنى للحياة إلا الحيية ، ولامعنى للعلم إلا العالمية ، وبتقدير أن نساعد على أن الحياة معنى يوجب الحيية والعلم معنى يوجب العالمية إلا أنا نقول إن حصل فى مجموع جثة بمجموع حياة واحدة وعالمية واحدة فقد حصلت الصفة الواحدة فى المحال الكثيرة وهو محال ، وإن حصل فى كل جزء وجثة حياة على حدة

وعالمية على حدة عاد ماذكرنا من كون الإنسان الواحد أناساً كثيرين وهو محال .

﴿ المقدمة الرابعة ﴾ أنا لما تأملنا فى أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم ، وذلك يدل على أن النفس ليست جسما ، وتقرير هذه المنافاة من وجوه (الأول) أن كل جسم حصلت فيه صورة فانه لايقبل صورة أخرى من جنس الصورة الأولى إلا بعد زوال الصورة الأولى زوالا تاماً مثاله : أن الشمع إذا حصل فيه شكل التثليث امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول عنه ، نعم إنا وجدنا الحال فى تصور النفس بصور المعقولات بالضد من ذلك فان النفس التى لم تقبل صورة عقلية البتة يبعد قبولها شيئاً من الصور العقلية فاذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية أسهل ، ثم إن النفس لاتزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف البتة بل كلما كان قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع ، ولهذا السبب يزداد الإنسان فهماً وإدراكا كلما ازداد تخرجا وارتباطاً فى العلوم فثبت أن قبول النفس للصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصورة وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم (والثانى) أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر فى النفس وأثر فى البدن ، أما أثرها فى النفس فهو تأثيرها فى إخراج النفس من القوة إلى الفعل فى التعقلات والإدراكات وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها ، وأما أثرها فى البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه ، وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت إلى الماليخوليا وسوق الموت فثبت بما ذكرنا أن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته فلو كانت النفس هى البدن لصار الشىء الواحد سبباً لكماله ونقصانه معاً ولحياته وموته معاً ، وأنه محال (والثالث) أنا إذا شاهدنا أنه ربما كان بدن الإنسان ضعيفاً نحيفاً ، فاذا لاح له نور من الأنوار القدسية وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب حصل لذلك الإنسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية . ولم يعبأ بحضور أكابر السلاطين ولم يقم لهم وزنا . ولولا أن النفس شىء سوى البدن لما كان الأمر كذلك (الرابع) أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية وكلما أمعن الإنسان فى الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقى محروماً عن آثار النطق والعقل والمعرفة ولولا أن النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك (الخامس) أنا نرى أن النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فانها تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتأخذ باليد وتمشى بالرجل ، أما إذا آل الأمر إلى العقل والإدراك فانها مستقلة بذاتها فى هذا الفعل من غير إعانة شىء من الآلات ولذلك فان الإنسان لايمكنه أن يبصر شيئاً إذا أغمض عينيه وأن لا يسمع صوتاً إذا سد أذنيه . كما لا يمكنه البتة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالماً به فعلمنا أن النفس غنية بذاتها

فى العلوم والمعارف عن شىء من الآلات البدنية ، فهذه الوجوه الخمسة أمارات قوية فى أن النفس ليست بجسم ، وفى المسألة الأولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها فى كتبنا الحكمية فلا فائدة فى الاعادة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى إثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية .

﴿ الحجة الأولى ﴾ قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد فدل ذلك على أن النفس التى ينساها الانسان عند فرط الجهل شىء آخر غير هذا البدن .

﴿ الحجة الثانية ﴾ قوله تعالى (أخرجوا أنفسكم) وهذا صريح أن النفس غير البدن وقد استقصينا فى تفسير هذه فليرجع اليه .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) إلى قوله (فكسونا العظام لحماً) ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال الجسمانية ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال (ثم أنشأناه خلقاً آخر) وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمانية وذلك يدل على أن الروح شىء مغاير للبدن فان قالوا هذه الآية حجة عليكم لأنه تعالى قال (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) وكلمة من للتبعيض وهذا يدل على أن الانسان بعض من أبعاض الطين قلنا كلمة من أصلها لابتداء الغاية كقولك خرجت من البصرة الى الكوفة فقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الانسان حاصلا من هذه السلالة ونحن نقول بموجبه لأنه تعالى يسوى المزاج أولا ثم ينفخ فيه الروح فيكون ابتداء تخليقه من السلالة .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ قوله (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) ميز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله (من روحى) دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وهذه الآية صريحة فى وجود شىء موصوف بالادراك والتحريك حقاً لأن الالهام عبارة عن الادراك ، وأما الفجور والتقوى فهو فعل وهذه الآية صريحة فى أن الانسان شىء واحد وهو موصوف أيضاً بالادراك والتحريك وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلا بد من اثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

﴿الحجة السادسة﴾ قوله تعالى (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) فهذا تصريح بأن الانسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات . واعلم أن الأحاديث الواردة فى صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد ، والعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ويروى هذه الأخبار الكثيرة ثم يقول توفى رسول الله ﷺ وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب والله أعلم .

﴿المسألة السابعة﴾ فى دلالة الآية التى نحن فى تفسيرها على صحة ماذكرناه أن الروح لو كان جسما منتقلا من حالة إلى حالة ومن صفة الى صفة لكان مساوياً للبدن فى كونه متولداً من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى فاذا سئل رسول الله ﷺ عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحا مثل ما ذكر فى كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ، ثم مضغة فلما لم يقل ذلك بل قال (إنه من أمر ربى) بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل فى الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له (كن فيكون) دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسى مجرد واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضيات وأرباب المكاشفات والمشاهدات مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب قال الواسطى : خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر ، وأما بيان أن تعلقه الأول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره إلى جملة الأعضاء فقد شرحناه فى تفسير قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) واحتج المنكرون بوجوه (الأول) لو كانت مساوية لذات الله فى كونه ليس بجسم ولا عرض لكانت مساوية له فى تمام الماهية وذلك محال (الثانى) قوله تعالى (قتل الانسان ما أكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) وهذا تصريح بأن الانسان شيء مخلوق من النطفة ، وأنه يموت ويدخل القبر ثم إنه تعالى يخرجه من القبر، ولو لم يكن الانسان عبارة عن هذه الجثة لم تكن الاحوال المذكورة فى هذه الآية صحيحة (الثالث) قوله (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله) الى قوله (يرزقون فرحين) وهذا يدل على أن الروح جسم لأن الأرزاق والفرح من صفات الأجسام (الجواب عن الأول) أن المساواة فى أنه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز مساواة فى صفة سلبية والمساواة فى الصفة السلبية لا توجب المماثلة واعلم أن جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجوداً ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وجب أن يكون مثلا للاله أو جزءاً للاله وذلك جهل فاحش وغلط قبيح وتحقيقه ما ذكرناه من أن المساواة فى السلوب

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا «٨٦»

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً «٨٧»

لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات وأن كل ماهيتين مختلفتين فلا بد أن يشتركا فى سلب كل ما عداهما ، فلتكن هذه الدقيقة معلومة فانها مغلاطة عظيمة للجهال ، والجواب عن (الثانى) أنه لما كان الانسان فى العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة أطلق عليه اسم الانسان فى العرف ، والجواب عن (الثالث) أن الرزق المذكور فى الآية محمول على ما يقوى حالهم ويكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته بل نقول هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لأن أبدانهم قد بليت تحت التراب والله تعالى يقول إن أرواحهم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش وهذا يدل على أن الروح غير البدن وليكن هذا آخر كلامنا فى هذا الباب ولنرجع إلى علم التفسير ثم قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وعلى قولنا قد ذكرنا فيه احتمالين ، أما المفسرون فقالوا إن النبى ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلا » فقالوا ما أعجب شأنك يامحمد ساعة تقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وساعة تقول هذا . فنزل قوله (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) إلى آخره وما ذكروه ليس بلازم لأن الشىء قد يكون قليلا بالنسبة إلى شىء كثيراً بالنسبة إلى شىء آخر فالعلوم الحاصلة عند الناس قليلة جداً بالنسبة إلى علم الله وبالنسبة إلى حقائق الأشياء ولكنها كثيرة بالنسبة إلى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية .

قوله تعالى ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا . إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ وفى الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ إعلم أنه تعالى لما بين فى الآية الأولى أنه ما آتاهم (من العلم إلا قليلا) بين فى هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضاً لقدر عليه وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة إلا أنه تعالى قادر عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الكعبى بهذه الآية على أن القرآن مخلوق فقال والذى يقدر على إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديماً بل يجب أن يكون محدثاً . وهذا الاستدلال بعيد لأن المراد بهذا الإذهاب إزالة العلم به عن القلوب وإزالة النقوش الدالة عليه عن المصحف وذلك لا يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثاً وقوله (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى لا تجد من تتوكل عليه فى رد شىء منه ثم قال (إلا رحمة من ربك) أى إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا «٨٨»

يبقاء القرآن على أنه تعالى من على جميع العلماء بنوعين من المنة (أحدهما) تسهيل ذلك العلم عليه (الثانى) إبقاء حفظه عليه وقوله (إن فضله كان عليك كبيراً) فيه قولان (الأول) المراد أن فضله كان عليك كبيراً بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك (الثانى) المراد أن فضله كان عليك كبيراً بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود فلما كان كذلك لاجرم أنعم عليك أيضاً بابقاء العلم والقرآن عليك .

قوله تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) بالغنا فى بيان إعجاز القرآن ، وللناس فيه قولان منهم من قال : القرآن معجز فى نفسه ، ومنهم من قال إنه ليس فى نفسه معجزاً إلا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الإثبات بمعارضته مع أن تلك الدواعى كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة والمختار عندنا فى هذا الباب أن نقول القرآن فى نفسه إما أن يكون معجزاً أولا يكون فان كان معجزاً فقد حصل المطلوب ، وإن لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع . وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجباً لازماً فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون معجزاً فهذا هو الطريق الذى نختاره فى هذا الباب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول هب أنه قد ظهر عجز الإنسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته ؟ وأيضا فلم لايجوز أن يقال إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد صلى الله عليه وسلم وخصوه به على سبيل السعى فى إضلال الخلق فعلى هذا إنما تعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم إذا عرفتم أن محمداً صادق فى قوله أنه ليس من كلام الجن بل هو من كلام الله تعالى فحينئذ يلزم الدور وليس لأحد أن يقول كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لأنا نقول إن هذه الآية دلت على وقوع التحدى مع الجن ، وإنما يحسن هذا التحدى لو كانوا فصحاء بلغاء ، ومتى كان الأمر كذلك كان الاحتمال المذكور قائماً . أجاب العلماء عن الأول بان عجز البشر عن معارضته يكفى فى إثبات كونه معجزاً وعن الثانى أن ذلك لو وقع لوجب فى حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه وعلى أنه تعالى قد أجاب عن هذا

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا «٨٩» وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا «٩٠» أَوْ تَكُونَ لَكَ

السؤال بالأجوبة الشافية الكافية فى آخر سورة الشعراء فى قوله (قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم) وقد شرحنا هذه الأجوبة هناك فلا فائدة فى الإعادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالت المعتزلة الآية دالة على أن القرآن مخلوق لأن التحدى بالقديم وهذه المسألة قد ذكرناها أيضاً بالاستقصاء فى سورة البقرة فلا فائدة فى الإعادة .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾

وهذا الكلام يحتمل وجوها (أحدها) أنه وقع التحدى بكل القرآن كما فى هذه الآية ، ووقع التحدى أيضا بعشر سور منه كما فى قوله تعالى (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) ووقع التحدى بالسورة الواحدة كما فى قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) ووقع التحدى بكلام من سورة واحدة كما فى قوله (فليأتوا بحديث مثله) فقوله (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يحتمل أن يكون المراد منه التحدى كما شرحناه ، ثم انهم مع ظهور عجزهم فى جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم (وثانيها) أن يكون المراد من قوله (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أنا أخبرناهم بأن الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود كيف ابتلاهم بأنواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مراراً وأطواراً ثم إن هؤلاء الأقوام يعنى أهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر (وثالثها) أن يكون المراد أنه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفى الشركاء والأضداد فى هـذا القرآن مراراً كثيرة ، وذكر شبهات منكرى النبوة والمعاد مراراً وأطوارا ، وأجاب عنها ثم أردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوة والمعاد ، ثم إن هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مصرين على الشرك وإنكار النبوة .

ثم قال تعالى ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ يريد [أبى] أكثر أهل مكة (إلا كفورا) أى جحودا للحق ، وذلك أنهم أنكروا مالا حاجة إلى إظهاره ، فان قيل كيف جاز (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) ولا يجوز أن يقال ضربت إلا زيدا ، قلنا لفظ أبى يفيد النفى كأنه قيل فلم يرضوا إلا كفورا

قوله تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك

جَنَّةٌ من نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا «٩١» أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا «٩٢» أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا «٩٣»

جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾

إعلم أنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ فحينئذ تم الدليل على كونه نبيا صادقا لأنا نقول إن محمدا ادعى النبوة وظهر المعجز على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبي صادق ، فهذا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وليس من شرط كونه نبيا صادقاً تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهى الأمر فيه إلى مقطع وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزا آخر ولا ينتهى الأمر فيه إلى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين لأنه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعدأن ظهر كون القرآن معجزا التمسوا من الرسول ﷺ ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس «أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى الرسول ﷺ وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يامحمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعا أى نهراً وعيوناً نزرع فيها فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل منهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف أى من ذهب فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتى قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع ، قالوا فاذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أى قطعاً بالعذاب وقوله كما زعمت إشارة إلى قوله (إذا السماء انشقت ، إذا السماء انفطرت) فقال عبد الله بن أمية المخزومى وأمه عمة رسول الله ﷺ لا والذى يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا ! » فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إعلم أنهم اقترحوا على رسول الله ﷺ أنواعا من المعجزات أولها قولهم

(حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) قرأ عاصم وحمزة والكسائى تفجر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره أبو حاتم قال لأن الينبوع واحد والباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة ولم يختلفوا فى الثانية مشددة لأجل الأنهار ، لأنها جمع يقال فجرت الماء فجراً وفجرته تفجيرا ، فمن ثقل أراد به كثرة الأنفجار من الينبوع وهو وإن كان واحداً فلكثرة الانفجار فيه يحسن أن يثقل كما تقول ضرب زيد إذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وان كان الفاعل واحداً ومن خفف فلأن الينبوع واحد ، وقوله ينبوعا ، يعنى : عيناً ينبع الماء منه ، تقول نبع الماء ينبع نبعا ونبوعا ونبعا ذكره الفراء ، قال القوم أزل عنا جبال مكة ، وفجر لنا الينبوع ليسهل علينا أمر الزراعة والحراثة (وثانيها) قولهم (أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) والتقدير كأنهم قالوا هب أنك لا تفجر هذه الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك (وثالثها) قولهم (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن عامر كسفاً بفتح السين هاهنا وفى سائر القرآن بسكونها ، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم هاهنا ، وفى الروم بفتح السين ، وفى باقى القرآن بسكونها ؛ وقرأ حفص فى سائر القرآن بالفتح إلا فى الروم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى فى الروم بفتح السين ، وفى سائر القرآن بسكون السين ، قال الواحدى رحمه الله كسفا ، فيه وجهان من القراءة سكون السين وفتحها ، قال أبو زيد يقال : كسفت الثوب أكسفه كسفا إذا قطعته قطعاً ، وقال الليث : الكسف ، قطع العرقوب ، والكسفة : القطعة ، وقال الفراء سمعت أعرابياً يقول لبزاز أعطنى كسفة : يريد قطعه ، فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوها (أحدها) قال الفراء أن يكون جمع كسفة مثل : دمنة ودمن وسدرة وسدر (وثانيها) قال أبو على : إذا كان المصدر الكسف ، فالكسف الشىء المقطوع كما تقول فى الطحن والطبخ السقى ، ويؤكد هذا قوله (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) (وثالثها) قال الزجاج : من قرأ : كسفا كأنه قال أو يسقطها طبقا علينا واشتقاقه من كسفت الشىء إذا غطيته ، وأما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر ، وهو نصب على الحال فى القراءتين جميعاً كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (كما زعمت) فيه وجوه (الأول) قال عكرمة كما زعمت يامحمد أنك نبى فأسقط السماء علينا (والثانى) قال آخرون كما زعمت أن ربك إن شاء فعل (الثالث) يمكن أن يكون المراد ماذكره الله تعالى فى هذه السورة فى قوله (أفأمنتم أن نخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصباً) فقيل اجعل السماء قطعاً متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا (ورابعها) قولهم (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) وفى لفظ القبيل وجوه (الأول) القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر ، وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا أنه لا يجوز عليه المقابلة ويقرب منه قوله (وحشرنا عليهم كل شىء قبلا) . (والقول الثانى) ما قاله ابن عباس يريد فوجا

بعد فوج . قال الليث وكل جند من الجن والإنس قبيل وذكرنا ذلك فى قوله (إنه يراكم هو وقبيله) (القول الثالث) إن قوله قبيلا معناه هاهنا ضامنا و كفيلا ، قال الزجاج يقال قبلت به أقبل كقولك كفلت به أكفل ، وعلى هذا القول فهو واحد أريد به الجمع كقوله تعالى (وحسن أولئك رفيقا) (والقول الرابع) قال أبو على معناه المعاينة والدليل عليه قوله تعالى (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) . (وخامسها) قولهم (أو يكون لك بيت من زخرف) قال مجاهد : كنا لا ندرى ماالزخرف حتى رأيت فى قراءة عبد الله (أو يكون لك بيت من ذهب) قال الزجاج : الزخرف الزينة يدل عليه قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) أى أخذت كمال زينتها ولا شىء فى تحسين البيت وتزيينه كالذهب (وسادسها) قولهم (أو ترقى فى السماء) قال الفراء يقال رقيت وأنا أرقى رقى ورقيا وأنشد :

أنت الذى كلفتنى رقى الدرج على الكلال والمشيب والعرج

وقوله فى السماء أى فى معارج السماء فحذف المضاف ، يقال رقى السلم ورقى الدرجة ثم قالوا (ولن نؤمن لرقيك) أى لن نؤمن لأجل رقيك (حتى تنزل علينا كتاباً من السماء) فيه تصديقك قال عبد الله بن أمية (لن نؤمن) حتى تضع على السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول . ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد ﷺ (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) وفيه مباحث

﴿ المبحث الأول ﴾ أنه تعالى حكى من قول الكفار قولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (قل سبحان ربى) وكل ذلك كلام القوم وإنا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتاً فى النظم فصح بهذا صحة ماقاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا (والجواب) أن هذا القرآن قليل لايظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال .

﴿ البحث الثانى ﴾ هذه الآيات من أدل الدلائل على أن المجىء والذهاب على الله محال لأن كلمة سبحان للتنزيه عما لا ينبغى ، وقوله سبحان ربى تنزيه لله تعالى عن شىء لا يليق به أو نسب اليه مما تقدم ذكره وليس فيما تقدم ذكره شىء لا يليق بالله إلا قولهم أو تأتى بالله فدل هذا على أن قوله (سبحان ربى) تنزيه لله عن الإتيان والمجىء وذلك يدل على فساد قول المشبهة فى أن الله تعالى يجىء ويذهب . فان قالوا : لم لايجوز أن يكون المراد تنزيه الله تعالى عن أن يتحكم عليه المتحكمون فى اقتراح الأشياء ؟ قلنا القوم لم يتحكموا على الله ، وإنما قالوا للرسول ﷺ إن كنت نبياً صادقا فاطلب من الله أن يشرفك بهذه المعجزات فالقوم تحكموا على الرسول وما تحكموا على الله فلا يليق حمل قوله (سبحان ربى) على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم أو تأتى بالله

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا «٩٤» قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا «٩٥» قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا «٩٦»

﴿ البحث الثالث ﴾ تقرير هذا الجواب أن يقال : إما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الإتيان من عند نفسى بهذه الأشياء أو طلبتم منى أن أطلب من الله تعالى إظهارها على يدى لتدل على كونى رسولا حقا من عند الله ، والأول باطل لأنى بشر والبشر لاقدرة له على هذه الأشياء والثانى أيضا باطل لأنى قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهى القرآن والدلالة على كونها معجزة فطلب هذه المعجزات طلب لما لاحاجة اليه ولاضرورة فكأن طلبها يجرى مجرى التعنت والتحكم وأنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكم على الله فسقط هذا السؤال فثبت أن قوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) جواب كاف فى هذا الباب ، وحاصل الكلام أنه سبحانه بين بقوله (سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) كونهم على الضلال فى الإلهيات ، وفى النبوات . أما فى الإلهيات فيدل على ضلالهم قوله سبحان ربى أى سبحانه عن أن يكون له إتيان ومجيء وذهاب وأما فى النبوات فيدل على ضلالهم قوله (هل كنت إلا بشراً رسولا) وتقريره ما ذكرناه

قوله تعالى ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾

إعلم أنه تعالى لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها حكى عنهم شبهة أخرى وهى أن القوم استبعدوا أن يبعث الله الى الخلق رسولا من البشر بل اعتقدوا أن الله تعالى لو أرسل رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) قوله (ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) وتقرير هذا الجواب أن بتقدير أن يبعث الله ملكا رسولا الى الخلق فالخلق إنما يؤمنون بكونه رسولا من عند الله لأجل قيام المعجز الدال على صدقه وذلك المعجز هو الذى يهديهم إلى معرفة ذلك الملك فى إدعاء رسالة الله تعالى فالمراد من قوله تعالى (إذ جاءهم الهدى) هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لابد وأن يكون

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا «٩٧» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا

من الملائكة تحكما فاسداً وتعنتنا باطلا (الوجه الثانى) من الأجوبة التى ذكرها الله فى هذه الآية عن هذه الشبهة هو أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس الى الجنس أميل أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر وهو المراد من قوله (لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا)، (الوجه الثالث) من الأجوبة المذكورة فى هذه الآية قوله (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم) وتقريره أن الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواى كان ذلك شهادة من الله تعالى على كونى صادقاً ومن شهد الله على صدقه فهو صادق فبعد ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكا لا إنساناً تحكم فاسد لا يلتفت اليه ولما ذكر الله تعالى هذه الأجوبة الثلاثة أردفها بما يجرى مجرى التهديد الوعيد فقال (إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) يعنى يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق .

قوله تعالى ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾

إعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم فى إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الاجمالى وهو قوله (إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل ، أما قوله (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) فالمقصود تسلية الرسول وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالايمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم فى الهدى والضلال والمعتزلة حملوا هذا الإضلال تارة على الإضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الألطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع وهذه المباحث قد ذكرناها مراراً فلا فائدة فى الاعادة ، أما قوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً) فان قيل كيف يمكنهم المشى على وجوههم قلنا الجواب من وجهين : (الأول) إنهم يسحبون على وجوههم قال تعالى (يوم يسحبون فى النار على وجوههم) ، (الثانى) روى أبو هريرة قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم قال إن الذى

يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، قال حكماء الاسلام الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الأبرار وحضرة الإله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لا جرم كان حشرهم على وجوههم ، وأما قوله (عمياً وبكماً وصماً) فاعلم أن واحداً قال لابن عباس رضى الله عنه : أليس أنه تعالى يقول (ورآى المجرمون النار) وقال (سمعوا لها تغيظا وزفيراً) وقال (دعوا هنالك ثبوراً) وقال (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) وقال حكاية عن الكفار (والله ربنا ما كنا مشركين) فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال ههنا (عمياً وبكماً وصماً) أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه (الأول) قال ابن عباس عمياً لا يرون شيئاً يسرهم صماً لا يسمعون شيئاً يسرهم بكماً لا ينطقون بحجة (الثانى) قال فى رواية عطاء عمياً عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه بكماً عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صماً عن ثناء الله تعالى على أوليائه (الثالث) قال مقاتل انه حين يقال لهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون) يصيرون عمياً بكماً صماً ، أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون (الرابع) أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا على أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا إلزام حجة الله عليهم إلا أنهم إذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله عمياً وبكماً وصماً (والجواب) أن الآيات السابقة تدل على أنهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ، أما قوله تعالى (مأواهم جهنم) فظاهر ، وأما قوله (كلما خبت زدناهم سعيراً) ففيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال الواحدى الخبو سكون النار يقال خبت النار تخبو إذا سكن لهبها ومعنى خبت سكنت وطفئت يقال فى مصدره الخبو وأخبأها المخبىء إخباء أى أخمدها ثم قال (زدناهم سعيراً) قال ابن قتيبة زدناهم سعيراً أى تلهباً .

﴿ البحث الثانى ﴾ لقائل أن يقول إنه تعالى لا يخفف عنهم العذاب وقوله (كلما خبت) يدل على أن العذاب يخف فى ذلك الوقت قلنا كلما خبت يقتضى سكون لهب النار ، أما لا يدل هذا على أنه يخف العذاب فى ذلك الوقت (١) .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (كلما خبت زدناهم سعيراً) ظاهره يقتضى وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد من الحالة الأولى وإذا كان كذلك كانت الحالة الأولى بالنسبة الى الحالة الثانية تخفيفاً (والجواب) الزيادة حصلت فى الحالة الأولى أخف من حصولها فى الحالة الثانية فكان العذاب شديداً ويحتمل أن يقال لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل فى أوقاته غير مشعور به نعوذ بالله منه ولما ذكر تعالى أنواع هذا الوعيد قال ذلك (جزاؤهم بأنهم كفروا) والباء فى قوله بأنهم كفروا باء السببية وهو حجة لمن يقول العمل علة الجزاء والله أعلم .

---

(١) مقتضى الكلام أن يقال : لكن لا يدل هذا على أن يخفف العذاب الخ .

وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا «٩٨» أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا «٩٩» قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا «١٠٠»

قوله تعالى ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ إعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات منكرى النبوة عاد إلى حكاية شبهة منكرى الحشر والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهة هى أن الإنسان بعد أن يصير رفاتاً ورميما يبعد أن يعود هو بعينه وأجاب الله تعالى عنه بأن من قدر على خلق السموات والأرض لم يبعد أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم وفى قوله (قادر على أن يخلق مثلهم) قولان : (الأول) المعنى قادر على أن يخلقهم ثانياً فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقول المتكلمون أن الاعادة مثل الابتداء (القول الثانى) المراد قادر على أن يخلق عبيداً آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى (ويأت بخلق جديد) وقوله (ويستبدل قوما غيركم) قال الواحدى والقول هو الأول لأنه أشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور أن البعث والقيامة أمر ممكن الوجود فى نفسه أردفه بأن لوقوعه ودخوله فى الوجود وقتاً معلوماً عند الله وهو قوله (وجعل لهم أجلا لاريب فيه) ثم قال تعالى (فأبى الظالمون إلا كفوراً) أى بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا إلا الكفر والنفور والجحود .

قوله تعالى ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ وفى الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الكفار لما قالوا (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) طلبوا إجراء الأنهار والعيون فى بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم فبين الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولما أقدموا على إيصال النفع إلى أحد وعلى هذا التقدير فلا فائدة فى إسعافهم بهذا المطلوب الذى التمسوه فهذا هو الكلام فى وجه النظم والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لو أنتم) فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان ، (أما البحث النحوى) فهو أن كلمة (لو) من شأنها أن تختص بالفعل لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشىء

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا «١٠١» قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا «١٠٢» فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا «١٠٣» وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا «١٠٤»

لانتفاء غيره والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذى يدل على الآثار والأحوال والمنتفى هو الأحوال والآثار لا الذوات فثبت أن كلمة (لو) مختصة بالأفعال وأنشدوا قول المتلمس :

لو غير أخوالى أرادوا نقيصتى ... نصبت لهم فوق العرانين مأتما

والمعنى لو أراد غير أخوالى (وأما البحث) المتعلق بعلم البيان فهو أن التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله (أنتم تملكون) دلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية فكان المعنى أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشىء ثم قال تعالى (وكان الإنسان قتوراً) أى بخيلا يقال قتر يقتر قترا وأقتر إقتارا وقتر تقتيرا إذا قصر فى الانفاق فان قيل فقد دخل فى الانسان الجواد الكريم فالجواب من وجوه (الأول) أن الأصل فى الانسان البخل لأنه خلق محتاجاً والمحتاج لابد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج فثبت أن الأصل فى الانسان البخل (الثانى) إن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل (الثالث) إن المراد بهذا الإنسان المعهود السابق (وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا)

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ فى الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المقصود من هذا الكلام أيضا الجواب عن قولهم (لن نؤمن لك)

حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة فقال تعالى (إنا آتينا موسى) معجزات مساوية لهذه الأشياء التى طلبتموها بل أقوى منها وأعظم فلو حصل فى علمنا أن جعلها فى زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا فى حق موسى فدل هذا على إنا إنما لم نفعلها فى زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة فى فعلها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إعلم أنه تعالى ذكر فى القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام (أحدها) أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحاً (وثانيها) إنقلاب العصا حية (وثالثها) تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها (ورابعها) اليد البيضاء وخمسة أخر وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (والعاشر) شق البحر وهو قوله (وإذ فرقنا بكم البحر) (والحادى عشر) الحجر وهو قوله (أن اضرب بعصاك الحجر) (الثانى عشر) إظلال الجبل وهو قوله تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة)(والثالث عشر) انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه (والرابع عشر والخامس عشر) قوله تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات) . (والسادس عشر) الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله (تسع آيات بينات) فذكر محمد بن كعب فى مسألة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال ياغلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى ذكر فى القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام وقال فى هذه الآية (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لأنا بينا فى أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد بل نقول إنما يتمسك فى هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول : أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهى العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبقى الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما ولما لم تكن تلك الأحوال مستندة إلى حجة ظنية فضلا عن حجة يقينية لاجرم تركت تلك الروايات ، وفى تفسير قوله تعالى (تسع آيات بينات) أقوال أجودها ما روى صفوان بن عسال أنه قال إن يهودياً قال لصاحبه إذهب بنا إلى هذا النبى نسأله عن تسع آيات فذهبا إلى النبى ﷺ وسألاه عنها فقال هن أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن تعدلوا فى السبت فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالوا نشهد إنك نبى ولولا نخاف القتل وإلا اتبعناك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فاسأل بنى اسرائيل إذ جاءهم) فيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ فيه وجوه (الوجه الأول) أنه اعتراض دخل فى الكلام والتقدير (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) -إذ جاء بنى إسرائيل فاسألهم- وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من

سؤال بنى إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد (والوجه الثانى) أن يكون قوله فاسأل بنى إسرائيل أى سلهم عن فرعون. وقل له أرسل معى بنى اسرائيل (والوجه الثالث) سل بنى إسرائيل أى سلهم أن يوافقوك والتمس منهم الإيمان الصالح. وعلى هذا التأويل فالتقدير فقلنا له سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك.

﴿ البحث الثانى ﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يسأل بنى إسرائيل معناه الذين كانوا موجودين فى زمان النبى ﷺ والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا فى زمانه إلا أن الذين كانوا فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا فى زمان موسى حسنت هذه الكناية. ثم أخبر تعالى أن فرعون قال لموسى (إنى لأظنك ياموسى مسحورا) وفى لفظ المسحور وجوه (الأول) قال الفراء إنه بمعنى الساحر كالمشئوم والميمون وذكرنا هذا فى قوله (حجاباً مستورا)، (الثانى) أنه مفعول من السحر أى أن الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب (الثالث) قال محمد بن جرير الطبرى معناه أعطيت علم السحر، فهذه العجائب التى تأتى بها من ذلك السحر ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض) وفيه مباحث:

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ الكسائى علمت بضم التاء أى علمت أنها من علم الله فان علمت وأقررت وإلا هلكت والباقون بالفتح وضم التاء قراءة على وفتحها قراءة ابن عباس وكان على رضى الله عنه يقول والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذى علم فبلغ ذلك ابن عباس رضى الله عنهما فاحتج بقوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) على أن فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام قال الزجاج الأجود فى القراءة الفتح لأن علم فرعون بأنها آيات نازلة من عند الله أوكد فى الحجة فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفسه، وأجاب الناصرون لقراءة على عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا قوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) يدل على أنهم استيقنوا شيئاً ما فأما أنهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس فى الآية ما يدل عليه، وأجابوا عن الوجه الثانى بأن فرعون قال (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) قال موسى (لقد علمت) فكأنه نفى ذلك وقال لقد علمت صحة ما أتيت به علما صحيحاً علم العقلاء. واعلم أن هذه الآيات من عند الله ولا تشك فى ذلك بسبب سفاهتك.

﴿ البحث الثانى ﴾ التقدير ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله: والعيش بعد أولئك الأقوام وقوله بصائر أى حججاً بينة كأنها بصائر العقول وتحقيق الكلام أن المعجزة فعل خارق للعادة فعله فاعله لغرض تصديق المدعى ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة

بهذين الوصفين لأنها كانت أفعالا خارقة للعادة وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة لايقدر عليها إلا الله ثم إن تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت فأصناف تلك الأفعال لايقدر عليها أحد إلا الله ، وكذا القول فى فرق البحر وإظلال الجبل فثبت أن تلك الأشياء ماأنزلها إلا رب السموات (الصفة الثانية) أنه تعالى إنما خلقها لتدل على صدق موسى فى دعوة النبوة ، وهذا هو المراد من قوله (ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض) حال كونها بصائر أى دالة على صدق موسى فى دعواه وهذه الدقائق لايمكن فهمها من القرآن إلا بعد إتقان علم الأصول وأقول يبعد أن يصير غير علم الأصول العقلى قاهراً فى تفسير كلام الله ثم حكى تعالى أن موسى قال لفرعون (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) واعلم أن فرعون قال لموسى (وإنى لأظنك ياموسى مسحورا) فعارضه موسى وقال له (وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً) قال الفراء : المثبور الملعون المحبوس عن الخير والعرب تقول ماثبرك عن هذا أى مامنعك منه وما صرفك ، وقال أبو زيد يقال ثبرت فلاناً عن الشىء أثبره أى رددته عنه ، وقال مجاهد وقتادة هالكا ، وقال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، والثبور الهلاك ، ومن معروف الكلام فلان يدعو بالويل والثبور عند مصيبة تناله ، وقال تعالى (دعوا هنالك ثبورا . لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبورا كثيراً) واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحوراً أجابه موسى بأنك مثبور يعنى هذه الآيات ظاهرة ، وهذه المعجزات قاهرة ولايرتاب العاقل فى أنها من عند الله وفى أنه تعالى إنما أظهرها لأجل تصديق وأنت تنكرها فلا يحملك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور ، ثم قال تعالى (فأراد أن يستفزهم من الأرض) يعنى أراد فرعون أن يخرجهم يعنى موسى وقومه بنى إسرائيل ، ومعنى تفسير الاستفزاز تقدم[1] فى هذه السورة من الأرض يعنى أرض مصر ، قال الزجاج : لا يبعد أن يكون المراد من استفزازهم إخراجهم منهم بالقتل أو بالتنحية ثم قال (فأغرقناه ومن معه جميعاً) المعنى ماذكره الله تعالى فى قوله (ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله) أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال (لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض) خالصة لكم خالية من عدوكم قال تعالى (فاذا جاء وعد الآخرة) يريد القيامة (جئنا بكم لفيفاً) من هاهنا وهاهنا ، واللفيف الجمع العظيم من أخلاط شتى من الشريف والدنىء والمطيع والعاصى والقوى والضعيف ، وكل شىء خلطته بشىء آخر فقد لففته ، ومنه قيل لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض وقوله التفت الزحوف ومنه ، التفت الساق بالساق ، والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطاً يعنى جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر .

---

(١) يريد تفسير معنى الاستفزاز فقلب ، ولعلها حرفت إلى ماتراه

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً «١٠٥» وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً «١٠٦» قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً «١٠٧» وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً «١٠٨»

قوله تعالى ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا . قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾

إعلم أنه تعالى لما بين أن القرآن معجز قاهر دال على الصدق فى قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن) ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ، ثم أجاب الله بأنه لاحاجة إلى إظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة ، منها أن قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله فكذا هاهنا ، ثم إنه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التى اقترحوها ثم كفروا بها وجب إنزال عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز فى الحكمة لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذى لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنا ، ولما تم هذا الجواب عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) والمعنى أنه ما أردنا بانزاله إلا تقرير الحق والصدق وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل وفى هذه الآية فوائد (الفائدة الأولى) أن الحق هو الثابت الذى لايزول كما أن الباطل هو الزائل الذاهب ، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لاتزول وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ومشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النسخ والنقض والتحريف ، وأيضا فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فكان هذا الكتاب حقا من كل الوجوه (الفائدة الثانية) أن قوله (وبالحق أنزلناه) يفيد الحصر

ومعناه أنه ما أنزل لمقصود آخر سوى إظهار الحق وقالت المعتزلة ، وهذا يدل على أنه ماقصد بانزاله إضلال أحد من الخلق ولا اغواوه ولا منعه عن دين الله (الفائدة الثالثة) قوله (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يدل على أن الإنزال غير النزول ، فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق وأن يكون التكوين غير المكون على ماذهب اليه قوم (الفائدة الرابعة) قال أبو على الفارسى الباء فى قوله (وبالحق أنزلناه) بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلاحه ، والمعنى أنزلنا القرآن مع الحق وقوله (وبالحق نزل) فيه احتمالان (أحدهما) أن يكون التقدير نزل بالحق كما تقول نزلت بزيد وعلى هذا التقدير الحق محمد ﷺ لأن القرآن نزل به أى عليه (الثانى) أن تكون بمعنى مع كما قلنا فى قوله (وبالحق أنزلناه) ثم قال تعالى (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيراً) والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لاشىء عليك من كفرهم فانى ماأرسلتك إلا مبشراً للمطيعين ونذيراً للجاحدين فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به وإلا فليس عليك من كفرهم شىء .

ثم قال ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن القوم قالوا : هب إن هذا القرآن معجز إلا أنه بتقدير أن يكون الأمر كذلك فكان من الواجب أن ينزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الإعجاز فجعلوا إتيان الرسول بهذا القرآن متفرقا شبهة فى أنه يتفكر فى فصل فصل ويقرأه على الناس فأجاب الله عنه بأنه إنما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل

﴿ البحث الثانى ﴾ قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء السفلى ، ثم فصل فى السنين التى نزل فيها ، قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث بالفتح والضم على مهل وتؤدة أى لا على فورة. قال الفراء : يقال مكث ومكث يمكث ، والفتح قراءة عاصم فى قوله (فمكث غير بعيد) .

﴿ البحث الثالث ﴾ الاختيار عند الأئمة فرقناه بالتخفيف وفسره أبو عمرو بيناه قال أبو عبيد التخفيف أعجب إلى لأن تفسيره بيناه ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى إلا أنه أنزل متفرقاً فالفرق يتضمن التبيين ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الاعرابى أنه قال فرقت أفرق بين الكلام وفرقت بين الأجسام ويدل عليه أيضاً قوله ﷺ « البيعان بالخيار مالم يتفرقا » ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق ثم قال (ونزلناه تنزيلا) أى على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والانكار أى أنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الأعذار فاختاروا ماتريدون ثم قال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله) أى من قبل نزول القرآن قال مجاهد هم ناس من أهل

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا «١١٠» وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ

الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد ﷺ خروا سجداً منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام ثم قال (يخرون للأذقان سجداً) وفيه أقوال : (القول الأول) قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكلما يبتدىء الانسان بالخرور الى السجود فأقرب الأشياء من الجبهة الى الأرض الذقن (والقول الثانى) أن الأذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم (والقول الثالث) ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض فى معرض السجود كالمغشى عليه ومتى كان الأمر كذلك كان خروره على الذقن فى موضع السجود فقوله (يخرون للأذقان) كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ثم بقى فى الآية سؤالان (السؤال الأول) لم قال (يخرون للاذقان سجداً) ولم يقل يسجدون ؟ والجواب المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى أنهم يسقطون (السؤال الثانى) لم قال (يخرون للاذقان) ولم يقل على الاذقان والجواب العرب تقول اذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن والله أعلم ، ثم قال تعالى (ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) والمعنى انهم يقولون فى سجودهم (سبحان ربنا) أى ينزهونه ويعظمونه (ان كان وعد ربنا لمفعولا) أى بانزال القرآن وبعث محمد وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأن الوعد ببعثة محمد سبق فى كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد ثم قال (ويخرون للأذقان يبكون)والفائدة فى هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفى حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدل عليه قوله (ويزيدهم خشوعاً) ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم وقوله (يبكون) معناه الحال (ويزيدهم خشوعا) أى تواضعاً واعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبايمانهم وامتناعهم منه وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم .

قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن

لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا «١١١»

له ولى من الذل وكبره تكبيراً ﴾

قال صاحب الكشاف المراد بهما الاسم لا المسمى والواو للتخيير بمعنى (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) أى سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا إما هذا وإما هذا والتنوين فى (أيا) عوض عن المضاف اليه و (ما) صلة للابهام المؤكد لما فى أى والتقدير أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم (فله الأسماء الحسنى) والضمير فى قوله (فله) ليس براجع الى أحد الإسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى (أياً ما تدعوا) فهو حسن فوضع موضعه قوله (فله الأسماء الحسنى) لأنه إذا حسنت أسماؤه فقد حسن هذان الإسمان لأنهما منها ومعنى حسن أسماء الله كونها مفيدة لمعانى التحميد والتقديس وقد سبق الاستقصاء فى هذا الباب فى آخر سورة الأعراف فى تفسير قوله (ولله الأسماء الحسنى) فادعوه بها واحتج الجبائى بهذه الآية فقال لو كان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح أن يقال ياظالم وحينئذ يبطل ما ثبت فى هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة (والجواب) أنا لانسلم أنه لو كان خالقاً لأفعال العباد لصح وصفه بأنه ظالم وجائر كما أنه لايلزم من كونه خالقاً للحركة والسكون والسواد والبياض أن يقال يامتحرك وياساكن ويا أسود ويا أبيض[1] فان قالوا فيلزم جواز ان يقال ياخالق الظلم والجور قلنا فيلزمكم أن تقولوا ياخالق العذرات والديدان والخنافس وكما أنكم تقولون أن ذلك حق فى نفس الأمر ولكن الأدب أن يقال ياخالق السموات والأرض فكذا قولنا هنا ، ثم قال تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (ولاتجهر بصلاتك) فيه أقوال (الأول) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه (ولاتجهر بصلاتك) فيسمع المشركون فيسبوا الله عدواً بغيراً علم (ولا تخافت بها) فلا تسمع أصحابك وابتغ بين ذلك سبيلا (القول الثانى) روى أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة ، وكان أبو بكر يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر لم تخفى صوتك فقال أناجى ربى ، وقد علم حاجتى وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبى ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا (القول الثالث) معناه (ولاتجهر بصلاتك) كلها (ولا تخافت بها) كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل

---

(١) يقتضى القياس فى الرد على الجبائى أن يقول : يا محرك ويامسكن ويامسود ويامبيض وهذه الأسماء وإن صلحت أسماء لله إلا أن الحق أن أسماء الله توقيفية وهى تسعة وتسعون كلها فى القرآن فلا ينبغى أن يسمى بغيرها . (الصاوى)

وتخافت بصلاة النهار (والقول الرابع) ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضى الله عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة رضى الله عنها هى فى الدعاء وروى هذا مرفوعا أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية إنما ذلك فى الدعاء والمسألة لاترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها فالجهر بالدعاء منهى عنه والمبالغة فى الإسرار غير جائزة والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال لم يخافت من أسمع أذنيه (والقول الخامس) قال الحسن لا تراء بعلانيتها ولا تسىء بسريتها .

﴿ البحث الثانى ﴾ الصلاة عبارة عن مجموع الأفعال والأذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت فالمراد ههنا من الصلوات بعض أجزاء ماهية الصلاة وهو الأذكار والقرآن وهو من باب إطلاق اسم الكل لإرادة الجزء .

﴿ البحث الثالث ﴾ يقال خفت صوته يخفت خفتاً وخفوتاً إذا ضعف وسكن وصوت خفيت أى خفيض ومنه يقال للرجل إذا مات قد خفت أى انقطع كلامه وخفت الزرع إذا ذبل وخفت الرجل يخافت بقراءته إذا لم يبين قراءته برفع الصوت وقد تخافت القوم إذا تساروا بينهم وأقول ثبت فى كتب الأخلاق أن كلا طرفى الأمور ذميم والعدل هو رعاية الوسط ولهذا المعنى مدح الله هذه الأمة بقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وقال فى مدح المؤمنين (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وأمر الله رسوله فقال (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط) فكذا ههنا نهى عن الطرفين وهو الجهر والمخافتة وأمر بالتوسط بينهما فقال (وابتغ بين ذلك سبيلا) ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وهو بعيد واعلم أنه تعالى لما أمر أن لايذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهى السلوب ثلاثة أنواع من الصفات (النوع الأول) من الصفات أنه لم يتخذ ولداً والسبب فيه وجوه (الأول) أن الولد هو الشىء المتولد من جزء من أجزاء شىء آخر فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لايقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد (الثانى) أن كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده (الثالث) أن الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضياً ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام فى كل الأوقات فوجب أن لايستحق الحمد على الإطلاق (والنوع الثانى) من الصفات السلبية قوله (ولم يكن له شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر (والنوع الثالث) قوله (ولم يكن له ولى من الذل) والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولى من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله

على ذلك الإنعام أو منعه منه ، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وكان منزهاً عن أن يكون له ولى يلى أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجل أقسام الشكر ثم قال تعالى (وكبره تكبيراً) ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقروناً بالتكبير ويحتمل أنواعا من المعانى (أولها) تكبيره فى ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غنى عن كل ما سواه (وثانيها) تكبيره فى صفاته وذلك من ثلاثة أوجه (أولها) أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص (وثالثها) أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات (ورابعها) أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال (النوع الثالث) من تكبير الله تكبيره فى أفعاله وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر فقال أهل السنة إنا نحمد الله ونكبره ونعظمه على أن يجرى فى سلطانه شىء لا على وفق حكمه وإرادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وإرادته ، وقالت المعتزلة إنا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلا لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضى التنزيه والتقديس عنها وعن إرادتها وسمعت أن الأستاذ أبا اسحاق الإسفراينى كان جالسا فى دار الصاحب بن عباد فدخل القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الأستاذ أبو اسحاق سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء[1] (النوع الرابع) تكبير الله فى أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهى والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء (النوع الخامس) تكبير الله فى أسمائه وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة (النوع السادس) من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ فى التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفى بمعرفة جلال الله ، ولسانه لا يفى بشكره ، وجوارحه وأعضاؤه لا تفى بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكنه مجده وعزته . وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت إنه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال المصنف رحمه الله تعالى : « تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم فى بلدة غزنين سنة إحدى وستمائة والحمد لله والصلاة على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما » .

---

(١) لهذه المحاورة تتمة وهى أن القاضى عبد الجبار رد عليه بقوله (أيريد ربك أن يعصى ؟ فحجه أبو اسحاق بقوله : أيعصى ربك كرها عنه ؟ والاسفراينى من أهل السنة وعبد الجبار من المعتزلة .

﴿ سورة الكهف ﴾

مائة وإحدى عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا «١» قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا «٢» مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا «٣»

﴿ سورة الكهف ﴾

قال ابن عباس إنها مكية غير آيتين منها فيهما ذكر عيينة بن حصن الفزارى وعن قتادة أنها مكية وعن رسول الله ﷺ قال « ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت ؟ هى سورة الكهف » .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما الكلام فى حقائق قولنا (الحمد لله) فقد سبق ، والذى أقوله ههنا أن التسبيح أينما جاء فانما جاء مقدماً على التحميد ، ألاترى أنه يقال (سبحان الله والحمد لله) إذا عرفت هذا فنقول : إنه جل جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) وذكر التحميد عند ما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن التسبيح أول الأمر لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لاينبغى وهو إشارة إلى كونه كاملا فى ذاته والتحميد عبارة عن كونه مكملا لغيره ، ولاشك أن أول الأمر هو كونه كاملا فى ذاته . ونهاية الأمر كونه مكملا لغيره . فلا جرم وقع الابتداء فى الذكر بقولنا سبحان الله ثم ذكر بعده الحمد لله تنبيها على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية . إذا عرفت هذا فنقول : ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد . وهذا تنبيه على أن الإسراء به

أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله ، والأمر فى الحقيقة كذلك لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضى حصول الكمال له ، وإنزال الكتاب عليه يقتضى كونه مكملا للأرواح البشرية وناقلا لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية ، ولاشك أن هذا الثانى أكمل . وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقاماً أن يصير [العبد] عالماً فى ذاته معلما لغيره ولهذا روى فى الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال : « من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيما فى السموات » .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن الإسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت إلى فوق وإنزال الكتاب عليه عبارة عن إنزال نور الوحى عليه من فوق الى تحت ، ولاشك أن هذا الثانى أكمل .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن منافع الإسراء به كانت مقصورة عليه ألا ترى أنه تعالى قال هنالك (لنريه من آياتنا) ومنافع انزال الكتاب عليه متعدية ، ألا ترى أنه قال (لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين) والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشبهة استدلوا بلفظ الإسراء فى السورة المتقدمة وبلفظ الإنزال فى هذه السورة على أنه تعالى مختص بجهة فوق (والجواب) عنه مذكور بالتمام فى سورة الأعراف فى تفسير قوله تعالى (ثم استوى على العرش) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا ، أما كونه نعمة عليه فلأنه تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والإكرام وأسرار أحوال الملائكة والأنبياء وأحوال القضاء والقدر ، وتعلق أحوال العالم السفلى بأحوال العالم العلوى ، وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا ، وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب ، وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ، وتصيير النفس كالمرآة التى يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت ، فلاشك أن ذلك من أعظم النعم ، وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلأنه مشتمل على التكاليف والأحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وبالجملة فهو كتاب كامل فى أقصى الدرجات فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع أمته أن يحمدوا الله عليه فعلمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) ثم إنه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال (ولم يجعل له عوجا قيما) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أنا قد ذكرنا أن الشىء يجب أن يكون كاملا فى ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاماً فى ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير(١) إذا عرفت هذا فنقول فى قوله (ولم يجعل له عوجا) إشارة إلى كونه كاملا فى ذاته وقوله (قيما) إشارة إلى كونه مكملا لغيره لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير ونظيره قوله فى أول سورة البقرة فى صفة الكتاب (لاريب فيه هدى للمتقين) فقوله (لاريب فيه) إشارة الى كونه فى نفسه بالغاً فى الصحة وعدم

(١) يظهر أنه وقع فى العبارة تحريف ولعل الصواب أن يقال : بأن يفيض على غيره الكمال . وهذا نظير قوله فيما سبق فى نفس هذا البحث : ثم يكون مكملا لغيره . «الصاوى»

الاخلال إلى حيث يجب على العاقل أن لايرتاب فيه وقوله (هدى للمتقين) إشارة إلى كونه سبباً لهداية الخلق وإكمال حالهم فقوله (ولم يجعل له عوجاً) قائم مقام قوله (لاريب فيه) وقوله (قيما) قائم مقام قوله (هدى للمتقين) وهذه أسرار لطيفة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال أهل اللغة العوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان ، والمراد منه وجوه : (أحدها) نفى التناقض عن آياته كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) . (وثانيها) أن كل ماذكرالله من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولاخلل فى شىء منها البتة (وثالثها) أن الإنسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجهاً إلى عالم الآخرة وإلى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بنى على طريق عالم القيامة حتى أن المسافر إذا نزل فيه اشتغل بالمهمات التى يجب رعايتها فى هذا السفر ثم يرتحل منه متوجهاً إلى عالم الآخرة فكل مادعاه فى الدنيا إلى الآخرة ومن الجسمانيات الى الروحانيات ومن الخلق الى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية إلى الاستنارة بالأنوار الصمدانية فثبت أنه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى (ولم يجعل له عوجاً) (الصفة الثانية) للكتاب وهى قوله (قيما) قال ابن عباس يريد مستقيما وهذا عندى مشكل لأنه لامعنى لنفى الاعوجاج إلا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وأنه باطل، بل الحق ما ذكرناه وأن المراد من كونه (قيما) أنه سبب لهداية الخلق وأنه يجرى مجرى من يكون قيما للأطفال ، فالأرواح البشرية كالأطفال ، والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال الواحدى جميع أهل اللغة والتفسير قالوا هذا من التقديم والتأخير والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا . وأقول قد بينا ما يدل على فساد هذا الكلام لأنا بينا أن قوله (ولم يجعل له عوجا) يدل على كونه كاملا فى ذاته ، وقوله (قيما) يدل على كونه مكملا لغيره وكونه كاملا فى ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملا لغيره فثبت بالبرهان العقلى أن الترتيب الصحيح هو الذى ذكره الله تعالى وهو قوله (ولم يجعل له عوجاً قيما) فظهر أن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب اليه .

﴿ البحث الرابع ﴾ اختلف النحويون فى انتصاب قوله (قيما) وذكروا فيه وجوها (الأول) قال صاحب الكشاف لايجوز جعله حالا من الكتاب لأن قوله (ولم يجعل له عوجا) معطوف على قوله (أنزل) فهو داخل فى حيز الصلة فجعله حالا من الكتاب يوجب الفصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة ، وأنه لايجوز . قال : ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير (ولم يجعل له عوجا ـ وجعله ـ قيما) . (الوجه الثانى) قال الأصفهانى الذى نرى فيه أن يقال قوله (ولم يجعل له عوجا) حال وقوله (قيما) حال أخرى وهما حالان متواليان والتقدير أنزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجا قيما (الوجه الثالث) قال السيد صاحب حل العقد

يمكن أن يكون قوله (قيما) بدلا من قوله (ولم يجعل له عوجا) لأن معنى (لم يجعل له عوجا) أنه جعله مستقيما فكأنه قيل (أنزل على عبده الكتاب) وجعله (قيما) ، (الوجه الرابع) أن يكون حالا من الضمير فى قوله (ولم يجعل له عوجا) أى حال كونه قائماً بمصالح العباد وأحكام الدين ، واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه (أنزل على عبده الكتاب) الموصوف بهذه الصفات المذكورة أردفه ببيان ما لأجله أنزله فقال (لينذر بأساً شديداً من لدنه) وأنذر متعد إلى مفعولين كقوله (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) إلا أنه اقتصر ههنا على أحدهما وأصله (لينذر ـ الذين كفروا ـ بأساً شديداً) كما قال فى ضده (ويبشر المؤمنين) والبأس مأخوذ من قوله تعالى (بعذاب بئيس) وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأساً وبآسة وقوله (من لدنه) أى صادراً من عنده قال الزجاج وفى (لدن) لغات يقال لدن ولدى ولد والمعنى واحد ، قال وهى لا تتمكن تمكن عند لأنك تقول هذا القول صواب عندى ولا تقول صواب لدنى وتقول عندى مال عظيم والمال غائب عنك ولدنى لما يليك لا غير وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بسكون الدال مع إشمام الضم وكسر النون والهاء وهى لغة بنى كلاب ثم قال تعالى (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً) واعلم أن المقصود من إرسال الرسل إنذار المذنبين وبشارة المطيعين ، ولما كان دفع الضرر أهم عند [ذوى] العقول من إيصال النفع لا جرم قدم الإنذار على التبشير فى اللفظ ، قال صاحب الكشاف وقرىء ويبشر بالتخفيف والتثقيل وقوله (ما كثين فيه أبداً) يعنى خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله (أن لهم أجراً) قال القاضى الآية دالة على صحة قولنا فى مسائل (أحدها) أن القرآن مخلوق وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى وصفه بالإنزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فان القديم لا يجوز عليه التغير (الثانى) وصفه بكونه كتاباً والكتب هو الجمع وهو سمى كتاباً لكونه مجموعاً من الحروف والكلمات وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث (الثالث) أنه تعالى أثبت الحمد لنفسه على إنزال الكتاب والحمد إنما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة (الرابع) أنه وصف الكتاب بأنه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك فثبت أنه محدث مخلوق (وثانيها) مسألة خلق الأعمال فان هذه الآيات تدل على قولنا فى هذه المسألة من وجوه (الأول) نفس الأمر بالحمد لأنه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب إذ الانتفاع به إنما يحصل إذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه وهو إنما يفعل ذلك لو كان مستقلا بنفسه ، أما إذا لم يكن مستقلا بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر فى اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيما أثر فى استقامة فعله ، أما إذا كان العبد قادراً على الفعل مختاراً فيه بقى لعوج الكتاب واستقامته أثر فى فعله (والثانى) أنه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سبباً لكفر البعض وأنزل الباقى ليؤمن البعض الآخر فمن أين أن الكتاب قيم لا عوج فيه ؟ لأنه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك (والثالث) قوله (لينذر) وفيه دلالة على أنه تعالى أراد منه ﷺ

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا «٤» مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا «٥» فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا «٦»

إنذار الكل وتبشير الكل وبتقدير أنه يكون خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى لم يبق للانذار والتبشير معنى لأنه تعالى إذا خلق الإيمان فيه حصل شاء أو لم يشأ وإذا خلق الكفر فيه حصل شاء أو لم يشاء فبقي الإنذار والتبشير على الكفر والإيمان جارياً مجرى الإنذار والتبشير على كونه طويلا قصيرا وأسود وأبيض مما لاقدرة له عليه (والرابع) وصفه المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات فان كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل لهم البتة (الخامس) إيجابه لهم الأجر الحسن على ما عملوا فان كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا إيجاب ولا استحقاق .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال قوله (لينذر) يدل على أنه تعالى إنما يفعل أفعاله لأغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول إن فعله غير معلل بالغرض ، واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت فى هذا الكتاب فلا فائدة فى الإعادة .

قوله تعالى ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً . مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) معطوف على قوله (لينذر بأساً شديداً من لدنه) والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه فالأول عام فى حق كل من استحق العذاب ، والثانى خاص بمن أثبت لله ولداً ، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى (وملائكته وجبريل وميكال) فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف (أحدها) كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله (وثانيها) النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله و (ثالثها) اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والكلام فى أن إثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه فى سورة الأنعام فى تفسير قوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) وتمامه مذكور فى سورة مريم ، ثم إنه تعالى أنكر على القائلين باثبات الولد لله تعالى من وجهين (الأول) قوله (مالهم

به من علم ولا لآبائهم) فان قيل اتخاذ الله ولداً محال فى نفسه فكيف قيل ماالهم به من علم ؟ قلنا انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به . ونظيره قوله (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على أن القول فى الدين بغير علم باطل ، والقول بالقياس الظنى قول فى الدين بغير علم فيكون باطلا وتمام تقريره مذكور فى قوله (ولا تقف ماليس لك به علم) وقوله (ولا لآبائهم) أى ولا لأحد من أسلافهم ، وهذا مبالغة فى كون تلك المقالة باطلة فاسدة (النوع الثانى) مما ذكره الله فى إبطاله قوله (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قرىء (كبرت كلمة) بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، قال الواحدى ومعنى التمييز أنك إذا قلت كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتوهم أنها كبرت كذباً أو جهلا أو افتراء فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فحصل فيه الإضمار ، أما من رفع فلم يضمر شيئا كما تقول عظم فلان فلذلك قال النحويون والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (كبرت) أى كبرت الكلمة ، والمراد من هذه الكلمة ماحكاه الله تعالى عنهم فى قوله (قالوا اتخذ الله ولدا) فصارت مضمرة فى كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة .

﴿ البحث الثالث ﴾ احتج النظام فى إثبات قوله : أن الكلام جسم بهذه الآية قال إنه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة ؛ والحركة لا تصح إلا على الأجسام . والجواب أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق ، فلما كان خرج النفس سببا لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة .

﴿ البحث الرابع ﴾ قوله (تخرج من أفواههم) يدل على أن هذا الكلام مستكره جداً عند العقل ؛ كأنه يقول هذا الذى يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم البتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان ، فكأنه شيء يجرى به لسانهم على سبيل التقليد ، لأنهم مع أنها قولهم عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها ثم قال تعالى (إن يقولون إلا كذبا) ومعناه ظاهر ، واعلم أن الناس قد اختلفوا فى حقيقة الكذب . فعندنا أنه الخبر الذى لا يطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا ؟ ومن الناس من قال شرط كونه كذباً أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق ، وهذا القيد عندنا باطل ، والدليل عليه هذه الآية فانه تعالى وصف قولهم باثبات الولد لله بكونه كذبا ، مع أن الكثير منهم يقول ذلك ، ولا يعلم كونه باطلا ، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقاً أو لم يعلم ، ثم قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وفيه مباحث :

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «٧» وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا «٨»

﴿ البحث الأول ﴾ المقصود منه أن يقال للرسول : لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فانا بعثناك منذراً ومبشراً فأما تحصيل الإيمان فى قلوبهم فلا قدرة لك عليه . والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال الليث بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشىء . وقال الأخفش والفراء أصل البخع الجهد يقال بخعت لك نفسى أى جهدتها ، وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت بخع الأرض أى جهدها حتى أخذ مافيها من أموال الملوك . وقال الكسائى بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وعلى هذا معنى (باخع نفسك) أى ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا قاتل نفسك ومهلكها والأصل ماذكرناه ، هكذا قال الواحدى .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (على آثارهم) أى من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أى بعده وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحى وتبطله بالكلية فاذا كان موته قريباً من موت الأول كان موته حاصلا حال بقاء آثار الأول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان .

﴿ البحث الرابع ﴾ قوله (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) المراد بالحديث القرآن قال القاضى وهذا يقتضى وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول إنه قديم وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهى حادثة .

﴿ البحث الخامس ﴾ قوله (أسفاً) الأسف المبالغة فى الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله (غضبان أسفاً) فى سورة الأعراف وعند قوله (يا أسفا على يوسف) وفى انتصابه وجوه (الأول) أنه نصب على المصدر ودل ماقبله من الكلام على أنه يأسف (الثانى) يجوز أن يكون مفعولا له أى للأسف كقولك جئتك ابتغاء الخير (والثالث) قال الزجاج (أسفاً) منصوب لأنه مصدر فى موضع الحال .

﴿ البحث السادس ﴾ الفاء فى قوله (فلعلك) جواب الشرط وهو قوله (إن لم يؤمنوا) قدم عليه ومعناه التأخير .

قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال القاضى وجه النظم كأنه تعالى يقول يا محمد إنى خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم يكفرون و يتمردون مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم . فأنت أيضاً يا محمد ينبغى أن لا تنتهى فى الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى تفسير هذه الزينة فقال بعضهم النبات والشجر وضم بعضهم إليه الذهب والفضة والمعادن ، وضم بعضهم إليه سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الأرض . وبالجملة فليس بالأرض إلا المواليد الثلاثة وهى المعادن والنبات والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الإنسان ، وقال القاضى الأولى أنه لا يدخل فى هذه الزينة المكلف لأنه تعالى قال (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) فمن يبلوه يجب أن لا يدخل فى ذلك فأما سائر النبات والحيوان فانهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به ، وقوله (زينة لها) أى للأرض ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الأرض زينة للأرض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب أما قوله (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى لا يعلم الحوادث إلا عند دخولها فى الوجود فعلى هذا الإبتلاء والإمتحان على الله جائز ، واحتج عليه بأنه تعالى لو كان عالماً بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع وإلا لزم إنقلاب علمه جهلا وذلك محال والمفضى إلى المحال محال ولو كان ذلك واجباً فالذى علم وقوعه يجب كونه فاعلا له ولا قدرة له على الترك والذى علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل وعلى هذا يلزم أن لا يكون الله قادراً على شىء أصلا بل يكون موجبا بالذات وأيضاً فيلزم أن لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك لأن ما علم الله وقوعه امتنع من العبد تركه وما علم الله عدمه امتنع منه فعله فالقول بكونه تعالى عالماً بالأشياء قبل وقوعها يقدح فى الربوبية وفى العبودية وذلك باطل فثبت أنه تعالى إنما يعلم الأشياء عند وقوعها وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه وعند هذا قال يجرى قوله تعالى (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) على ظاهره ، وأما جمهور علماء الاسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا إنه تعالى من الأزل الى الأبد عالم بجميع الجزئيات فالابتلاء والامتحان محالان عليه وأينما وردت هذه الألفاظ فالمراد أنه تعالى يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً كثيرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضى معنى قوله (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) هو أنه يبلوهم ليبصرهم أيهم أطوع لله وأشد استمراراً على خدمته لأن من هذا حاله هو الذى يفوز بالجنة فبين تعالى أنه كلف لأجل ذلك لا لأجل أن يعصى ، فدل ذلك على بطلان قول من يقول خلق بعضهم للنار .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا «٩» إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا «١٠» فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا «١١» ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا «١٢»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اللام فى قوله (لنبلوهم) تدل ظاهراً على أن أفعال الله معللة بالأغراض عند المعتزلة ، وأصحابنا قالوا هذا محال لأن التعليل بالغرض إنما يصح فى حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة ، وهذا يقتضى العجز وهو على الله محال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الزجاج أيهم رفع بالإبتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملا أم ذاك ، ثم قال تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا) والمعنى أنه تعالى بين أنه إنما زين الأرض لأجل الإمتحان والإبتلاء لا لأجل أن يبقى الإنسان فيها متنعماً أبداً لأنه يزهد فيها بقوله (وإنا لجاعلون ما عليها الآية) ونظيره قوله (كل من عليها فان) وقوله (فيذرها قاعا) الآية ، وقوله (وإذا الأرض مدت) الآية . والمعنى أنه لابد من المجازاة بعد فناء ما على الأرض ، وتخصيص الإبطال والإهلاك بما على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أن سائر الآيات دلت على أن الأرض أيضاً لاتبقى وهو قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال أبو عبيدة : الصعيد المستوى من الأرض ، وقال الزجاج هو الطريق الذى لانبات فيه ، وقد ذكرنا تفسير الصعيد فى آية التيمم ، وأما الجرز فقال الفراء : الجرز الأرض التى لانبات عليها ، يقال جرزت الأرض فهى مجروزة ، وجرزها الجراد والشاء والإبل إذا أكلت ما عليها ، وامرأة جروز إذا كانت أكولا ، وسيف جراز إذا كان مستأصلا ، ونظيره قوله تعالى (نسوق الماء إلى الأرض الجرز) .

قوله تعالى ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى : أم حسبت أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط ، فلا تحسبن ذلك فان آياتنا كلها عجب ، فان من كان قادراً على تخليق السموات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن

والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم ، هذا هو الوجه فى تقرير النظم ، والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وذكر محمد بن اسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم ، وكان النضر يخلفه فى مجلسه إذا قام ، فقال أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فانهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود سلوه عن ثلاث : عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فان حديثهم عجب ، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح وما هو ؟ فان أخبركم فهو نبى وإلا فهو متقول ، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد ، وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤا رسول الله ﷺ وسألوه فقال رسول الله ﷺ أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به ، وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم ، وفيها خبر أولئك الفتية ، وخبر الرجل الطواف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكهف الغار الواسع فى الجبل فاذا صغر فهو الغار ، وفى الرقيم أقوال (الأول) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين وحنانا والأواه والرقيم (الثانى) روى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الرقيم فقال زعم كعب أنها القرية التى خرجوا منها وهو قول السدى (الثالث) قال سعيد بن جبير ومجاهد : الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وشد ذلك اللوح على باب الكهف ، وهذا قول جميع أهل المعانى والعربية قالوا الرقيم الكتاب ، والأصل فيه المرقوم ، ثم نقل إلى فعيل ، والرقم الكتابة ، ومنه قوله تعالى (كتاب مرقوم) أى مكتوب ، قال الفراء : الرقيم لوح كان فيه أسماؤهم وصفاتهم ، ونظن أنه إنما سمى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه ، وقيل الناس رقموا حديثهم نقراً فى جانب الجبل ، وقوله (كانوا من آياتنا عجبا) المراد أحسبت أن واقعتهم كانت عجيبة فى

أحوال مخلوقاتنا فلا تحسب ذلك فان تلك الواقعة ليست عجيبة فى جانب مخلوقاتنا ، والعجب ههنا مصدر سمى المفعول به ، والتقدير كانوا معجوبا منهم ، فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر ، ثم قال تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف) لا يجوز أن يكون إذ هنا متعلقا بما قبله على تقدير أم حسبت إذ أوى الفتية لأنه كان بين النبى وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذى أووا فيه إلى الكهف بل يتعلق بمحذوف ، والتقدير اذكر إذ أوى ، ومعنى أوى الفتية فى الكهف صاروا إليه وجعلوه مأواهم قال فقالوا (ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهى الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء. وقوله من لدنك يدل على عظمة تلك الرحمة وهى التى تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده وهيىء لنا أى أصلح من قولك هيأت الأمر فتهيأ (من أمرنا رشداً) الرشد والرشاد نقيض الضلال وفى تفسير اللفظ وجهان (الأول) التقدير وهيىء لنا أمراً ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين (الثانى) اجعل أمرنا رشداً كله كقولك رأيت منك رشداً ثم قال تعالى (فضربنا على آذانهم) قال المفسرون معناه أنمناهم وتقدير الكلام أنه تعالى ضرب على آذانهم حجاباً يمنع من أن تصل إلى أسماعهم الأصوات الموقظة والتقدير ضربنا عليهم حجاباً إلا أنه حذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم إنه تعالى بين أنه انما ضرب على آذانهم فى الكهف وهو ظرف المكان وقوله سنين عدداً ظرف الزمان وفى قوله عدداً بحثان (الأول) قال الزجاج ذكر العدد ههنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شيء مما يعد إذا ذكر فيه العدد ووصف به أريد كثرته لأنه إذا قل فهم مقداره بدون التعديد أما إذا أكثر فهناك يحتاج إلى التعديد فاذا قلت أقمت أياماً عدداً أردت به الكثرة .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى انتصاب قوله عدداً وجهان (أحدهما) نعت لسنين المعنى سنين ذات عدد أى معدودة هذا قول الفراء وقول الزجاج وعلى هذا يجوز فى الآية ضربان من التقدير (أحدهما) حذف المضاف (والثانى) تسمية المفعول باسم المصدر قال الزجاج ويجوز أن ينتصب على المصدر ، المعنى تعد عداً ثم قال تعالى (ثم بعثناهم) يريد من بعد نومهم يعنى أيقظناهم بعد نومهم وقوله (لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ثم بعثناهم) لنعلم اللام لام الغرض فيدل على أن أفعال الله معللة بالأغراض وقد سبق الكلام فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر اللفظ يقتضى أنه تعالى إنما بعثهم ليحصل له هذا العلم وعند هذا يرجع إلى أنه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها أم لا . فقال هشام لا يعلمها إلا عند حدوثها واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق ، ونظائر هذه الآية كثيرة فى القرآن منها ماسبق فى هذه السورة ومنها قوله فى سورة البقرة (إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وفى آل عمران

(ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) وقوله (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) وقوله (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم).

﴿المسألة الثالثة﴾ (أى) رفع بالإبتداء (وأحصى) خبره وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله (لنعلم) فى لفظة (أى) بل بقيت على ارتفاعها ونظيره قوله اذهب فاعلم أيهم قام قال تعالى (سلهم أيهم بذلك زعيم) وقوله (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) وقرىء ليعلم على فعل مالم يسم فاعله وفى هذه القراءة فائدتان (إحداهما) أن على هذا التقدير لا يلزم إثبات العلم المتجدد لله بل المقصود أنا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق (والثانية) أن على هذا التقدير يجب ظهور النصب فى لفظة أى، لكن لقائل أن يقول الإشكال بعد باق لأن ارتفاع لفظة أى بالإبتداء لا باسناد يعلم إليه. وللمجيب أن يجيب فيقول: إنه لا يمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لأن العوامل النحوية علامات ومعرفات ولا يمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشىء الواحد والله أعلم.

﴿المسألة الرابعة﴾ اختلفوا فى الحزبين فقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك فالملوك حزب وأصحاب الكهف حزب (والقول الثانى) قال مجاهد الحزبان من هذه الفتية لأن أصحاب الكهف لما انتهوا اختلفوا فى أنهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) فالحزبان هما هذان، وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول (القول الثالث) قال الفراء: إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم.

﴿المسألة الخامسة﴾ قال أبو على الفارسى قوله أحصى ليس من باب أفعل التفضيل لأن هذا البناء من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس فأما قولهم ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب وأفلس من ابن المدلق، فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه بل الصواب أن أحصى فعل ماض وهو خبر المبتدأ والمبتدأ والخبر مفعول نعلم وأمدا مفعول به لأحصى وما فى قوله تعالى (لما لبثوا) مصدرية والتقدير أحصى أمداً للبثهم، وحاصل الكلام لنعلم أى الحزبين أحصى أمد ذلك اللبث، ونظيره قوله (أحصاه الله) وقوله (وأحصى كل شى عدداً).

﴿المسألة السادسة﴾ احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر ونذكر هذه المسألة ههنا على سبيل الاُستقصاء فنقول قبل الخوض فى الدليل على جواز الكرامات نفتقر إلى تقديم مقدمتين:

﴿المقدمة الأولى﴾ فى بيان أن الولى ماهو فنقول ههنا وجهان (الأول) أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية (الثانى)

أن يكون فعيلا بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح . وهو الذى يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالى عن كل أنواع المعاصى ويديم توفيقه على الطاعات واعلم أن هذا الإسم مأخوذ من قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا) وقوله (وهو يتولى الصالحين) وقوله تعالى (أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) وقوله (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) وقوله (إنما وليكم الله ورسوله) وأقول الولى هو القريب فى اللغة فاذا كان العبد قريباً من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه وكان الرب قريباً منه برحمته وفضله وإحسانه فهناك حصلت الولاية .

﴿المقدمة الثانية﴾ إذا ظهر فعل خارق للعادة على الإنسان فذاك إما أن يكون مقروناً بالدعوى أولا مع الدعوى والقسم الأول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى إما أن تكون دعوى الإلهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين ، فهذه أربعة أقسام (القسم الأول) ادعاء الإلهية وجوز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نقل، أن فرعون كان يدعى الإلهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده وكما نقل ذلك أيضا فى حق الدجال قال أصحابنا وإنما جاز ذلك لأن شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضى إلى التلبيس (والقسم الثانى) وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لأنه إما أن يكون ذلك المدعى صادقا أو كاذباً فان كان صادقاً وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الأنبياء ، وإن كان كاذباً لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير أن تظهر وجب حصول المعارضة (وأما القسم الثالث) وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا فى أنه هل يجوز أن يدعى الكرامات ثم إنها تحصل على وفق دعواه أم لا (وأما القسم الرابع) وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده وعند المعتزلة لا يجوز (وأما القسم الثانى) وهو أن تظهر خوارق العادات على يد انسان من غير شيء من الدعاوى ، فذلك الإنسان إما أن يكون صالحاً مرضياً عند الله ، وإما أن يكون خبيثاً مذنباً . والأول هو القول بكرامات الأولياء ، وقد اتفق أصحابنا على جوازه وأنكرها المعتزلة إلا أبا الحسين البصرى وصاحبه محمود الخوارزمى (وأما القسم الثالث) وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله تعالى فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام فى هاتين المقدمتين ، إذا عرفت ذلك فنقول : الذى يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والأخبار والآثار والمعقول . أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات :

﴿ الحجة الأولى ﴾ قصة مريم عليها السلام ، وقد شرحناها فى سورة آل عمران فلا نعيدها

﴿ الحجة الثانية ﴾ قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم فى النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وأنه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود)

إلى قوله (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين) ومن الناس من تمسك فى هذه المسألة بقوله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) وقد بينا أن ذلك الذى كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال . أجاب القاضى عنه بأن قال لابد من أن يكون فيهم أو فى ذلك الزمان نبى يصير ذلك علماً له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات، قلنا إنه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء لأن إقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لأن الناس لا يصدقونه فى هذه الواقعة لأنهم لا يعرفون كونهم صادقين فى هذه الدعوى إلا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤا فى هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء فلم يبق إلا أن تجعل كرامة للأولياء وإحساناً اليهم . أما الأخبار فكثيرة : (الخبر الأول) ما أخرج فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم عليه السلام وصبى فى زمن جريج الناسك وصبى آخر . أما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلا عابدا ببنى اسرائيل وكانت له أم فكان يوماً يصلى إذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يارب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلى فدعته ثانياً فقال مثل ذلك حتى قال ثلاث مرات وكان يصلى ويدعها فاشتد ذلك على أمه قالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات ، وكانت زانية هناك فقالت لهم أنا أفتن جريجاً حتى يزنى فأتته فلم تقدر على شىء ، وكان هناك راع يأوى بالليل إلى أصل صومعته فلما أعياها راودت الراعى على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدى هذا من جريج فأتاها بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام قال أبو هريرة كأنى أنظر إلى النبى ﷺ حين قال بيده ياغلام من أبوك؟ فقال الراعى فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه . وقالوا نبنى صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم ، وبناها كما كانت ، وأما الصبى الآخر فان امرأة كان معها صبى لها ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت اللهم اجعل ابنى مثل هذا فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه . فقال الصبى اللهم اجعلنى مثلها .فقالت له أمه فى ذلك فقال إن الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وإن هذه قيل انها زنت ولم تزن وقيل انها سرقت ولم تسرق وهى تقول حسبى الله » (الخبر الثانى) وهو خبر الغار وهو مشهور فى الصحاح عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار فقالوا والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما فناما فى ظل شجرة يوما فلم أبرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما

فقمت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه ، ثم قال الآخر كانت لى ابنة عم وكانت أحب الناس الى فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى وأعطيتها مالا عظيما على أن تخلى بينى وبين نفسها فلما قدرت عليها قالت لايجوز لك أن تفك الخاتم إلابحقه ! فتحرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لايستطيعون الخروج منها ، قال رسول الله ﷺ ثم قال الثالث اللهم انى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين وقال ياعبد الله أدإلى أجرتى ، فقلت له كل ماترى من أجرتك من الإبل والغنم والرقيق فقال ياعبد الله أتستهزىءبى ؟ فقلت إنى لاأستهزىء بك فأخذ ذلك كله اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون » وهـذا حديث حسن صحيح متفق عليه (الخبر الثالث) قوله ﷺ « رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره » ولم يفرق بين شىء وشىء فيما يقسم به على الله (الخبر الرابع) روى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت اليه البقرة فقالت إنى لم أخلق لهـذا ، وإنما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبى ﷺ آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما » (الخبر الخامس) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال بينما رجل يسمع رعداً أو صوتاً فى السحاب : أن اسق حديقة فلان ، قال فعدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك؟ قال فلان بن فلان بن فلان قلت: فماتصنع بحديقتك هذه إذاصرمتها ؟ قال ولم تسأل عن ذلك ؟ قلت لأنى سمعت صوتاً فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال أما إذ قلت فانى أجعلها أثلاثا فأجعـل لنفسى وأهلى ثلثاً وأجعـل للمساكين وابن السبيل ثلثاً وأنفق عليها ثلثاً » (أما الآثار) فلنبدأ بما نقل أنه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم بمـا ظهر عن سائر الصحابة ، أما أبو بكر رضى الله عنه فمن كراماته أنه لمـا حملت جنازته إلى باب قبر النبى ﷺ ونودى السـلام عليك يارسول الله هـذا أبو بكر بالباب فاذا الباب قد انفتح وإذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب إلى الحبيب ، وأما عمر رضى الله عنـه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته وأحدها ما روى أنه بعث جيشاً وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر ياسارية الجبل الجبل قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فـكتبت تاريخ تلك الكلمة فقـدم رسول مقـدم الجيش فقال يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح ياسارية الجبل الجبل فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قلت سمعت بعض

المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال لأبى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لاجرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم (الثانى) روى أن نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة[1] وكان لايجرى حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء ، فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة إلى عمر ، فكتب عمر على خزفة : أيها النيل إن كنت تجرى بأمر الله فاجر ، وإن كنت تجرى بأمرك فلا حاجة بنا إليك ! فألقيت تلك الخزفة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك (الثالث) وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وماحدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك (الرابع) وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة : يانار اسكنى باذن الله فألقوها فى النار فانطفأت فى الحال (الخامس) روى أن رسول ملك الروم جاء الى عمر فطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك ، وإنما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر رضى الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب ، فعجب الرسول من ذلك وقال : إن أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة ! ثم قال فى نفسه : إنى وجدته خالياً فأقتله وأخلص الناس منه . فلما رفع السيف أخرج الله من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئاً فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم . وأقول هذه الوقائع رويت بالآحاد ، وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول لو نظرت فى كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لأحد من أول عهد آدم الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ، ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات . وأما عثمان رضى الله عنه فروى أنس قال سرت فى الطريق فرفعت عينى إلى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالى أراكم تدخلون على وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة (الثانى) أنه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) (الثالث) أن جهجاها الغفارى انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته فوقعت الأكلة فى ركبته . وأما على كرم الله وجهه فيروى أن واحداً من محبيه سرق وكان عبداً أسود فأتى به إلى على فقال له أسرقت ؟ قال نعم . فقطع يده فانصرف من عند على عليه السلام فلقيه سلمان الفارسى وابن الكرا ، فقال ابن الكرا من قطع يدك فقال أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال قطع يدك وتمدحه ؟ فقال : ولم لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار ! فسمع سلمان ذلك فأخبر به علياً فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع

(١) قوله مرة واحدة ، لامفهوم له . والمراد بيان أنه يمتنع عن الفيض ويكون ماؤه قليلا وهو إذا كان كذلك لا يجرى بل يكون أشبه بالراكد .

الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برأت باذن الله تعالى وجميل صنعه . أما سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيئاً قليلا (الأول) روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد فخرج الأسد الى يريدني فقلت يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله ﷺ فتقدم ودلني على الطريق ثم همهم فظننت أنه يودعني ورجع (الثاني) روى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلا آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وفي يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما انفرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله (الثالث) قالوا لخالد بن الوليد إن في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا على فرس ومعه زق خمر ، فقال ماهذا ؟ قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا . فذهب الرجل إلى أصحابه فقال أتيتكم بخمر ماشربت العرب مثلها ! فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ماجئتنا إلا بخل ؟ . فقال هذا والله دعاء خالد بن الوليد (الرابع) الواقعة المشهورة وهي أن خالد بن الوليد أكل كفاً من السم على اسم الله وماضره (الخامس) روى ان ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء (السادس) روى أن النبي ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الأعظم ومشوا على الماء . وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها . وأما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرمات فمن وجوه :

﴿ الحجة الأولى ﴾ أن العبد ولي الله قال الله تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) والرب ولي العبد قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا) وقال (وهو يتولى الصالحين) وقال (إنما وليكم الله ورسوله) وقال (أنت مولانا) وقال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) فثبت أن الرب ولي العبد وأن العبد ولي الرب وأيضاً الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب قال تعالى (يحبهم ويحبونه)وقال (والذين آمنوا أشد حباً لله) وقال (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)وإذا ثبت هذا فنقول :العبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ماأمره الله وكل مافيه رضاه وترك كل مانهى الله وزجر عنه فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة مايريده العبد بل هو أولى لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل مايريده الله ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى ولهذا قال تعالى (أوفوا بعهدي أوف بعهدكم) .

﴿ الحجة الثانية ﴾ لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إما لأجل أن الله ليس أهلا لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لأجل أن المؤمن ليس أهلا لأن يعطيه الله هذه العطية ، والأول قدح في

قدرة الله وهو كفر ، والثانى باطل فان معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من إعطاء رغيف واحد فى مفازة أو تسخير حية أو أسد فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفاً فى مفازة فأى بعد فيه ؟

﴿ الحجة الثالثة ﴾ قال النبى ﷺ حكاية عن رب العزة « ماتقرب عبد الى بمثل أداء ماافترضت عليه ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً ويداً ورجلا بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى » وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق فى سمعهم نصيب لغير الله ولا فى بصرهم ولا فى سائر أعضائهم إذ لو بقى هناك نصيب لغير الله لما قال أنا سمعه وبصره . إذا ثبت هذا فنقول : لا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل الله برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية فأى بعد فى أن يعطيه رغيفاً واحداً أو شربة ماء فى مفازة .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ قال عليه السلام حاكياً عن رب العزة « من آذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » فجعل إيذاء الولى قائماً مقام إيذائه وهذا قريب من قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقال (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً) وقال (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) فجعل بيعة محمد ﷺ بيعة مع الله ورضاء محمد صلى الله عليه وسلم رضاء الله وإيذاء محمد صلى الله عليه وسلم إيذاء الله فلا جرم كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات إلى أبلغ الغايات فكذا ههنا لما قال « من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » دل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولى قائماً مقام إيذاء نفسه ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول « يوم القيامة مرضت فلم تعدنى ، استسقيتك فما سقيتنى ، استطعمتك فما أطعمتنى فيقول يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين ! فيقول إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندى » وكذا فى السقى والإطعام فدلت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات فأى بعد فى أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر له كلباً أو ورداً (١) .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ أنا نشاهد فى العرف أن من خصه الملك بالخدمة الخاصة وأذن له فى الدخول عليه فى مجلس الأنس فقد يخصه أيضاً بأن يقدره على مالا يقدر عليه غيره ، بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فانه يتبعه هذه المناصب فجعل القرب أصلا والمنصب تبعاً وأعظم الملوك هو رب العالمين فاذا شرف عبداً بأنه أوصله إلى عتبات خدمته ودرجات كرامته وأوقفه على أسرار معرفته ورفع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه فأى

---

(١) الورد بفتح الواو وسكون الراء ، اسم من اسماء الأسد . (الصاوي)

بعد فى أن يظهر بعض تلك الكرامات فى هذا العالم مع أن كل هذا العالم بالنسبة إلى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض .

﴿ الحجة السادسة ﴾ لاشك أن المتولى للأفعال هو الروح لا البدن ولا شك أن معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ماقررناه فى تفسير قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره) وقال عليه السلام «أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» ولهذا المعنى نرى أن كل من كان أكثر علماً بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلباً وأقل ضعفاً ولهذا قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية . وذلك لأن علياً كرم الله وجهه فى ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الأجساد وأشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الأرواح الملكية وتلألأت فيه أضواء عالم القدس والعظمة فلا جرم حصل له من القدرة ماقدر بها على مالم يقدر عليه غيره وكذلك العبد إذا واظب على الطاعات بلغ إلى المقام الذى يقول الله كنت له سمعاً وبصراً فاذا صار نور جلال الله سمعاً له سمع القريب والبعيد وإذا صار ذلك النور بصراً له رأى القريب والبعيدوإذا صار ذلك النور يداً له قدر على التصرف فى الصعب والسهل والبعيد والقريب .

﴿الحجة السابعة﴾ وهى مبنية على القوانين العقلية الحكمية ، وهى أنا قد بينا أن جوهرالروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع المقدسين المطهرين إلا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق فى تدبيره صار فى ذلك الاستغراق الى حيث نسى الوطن الأول والمسكن المتقدم وصار بالكلية متشبها بهذا الجسم الفاسد فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر على شىء من الأفعال ، أما إذا استأنست بمعرفة الله ومحبته وقل انغماسها فى تدبير هذا البدن ، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدسة ، وفاضت عليها من تلك الأنوار قويت على التصرف فى أجسام هذا العالم مثل قوة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال وذلك هو الكرامات ، وفيه دقيقة أخرى وهى أن مذهبنا أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة ، وفيها النورانية والكدرة ، وفيها الحرة والنذلة والأرواح الفلكية أيضا كذلك ، ألا ترى إلى جبريل كيف قال الله فى وصفه (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) وقال فى قوم آخرين من الملائكة (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً) فكذا ههنا فاذا اتفق فى نفس من النفوس كونها قوية ، القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة ، ثم انضاف إليها أنواع الرياضات التى تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف فى هيولى عالم الكون والفساد باعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية أضواء حضرة الجلال والعزة . ولنقبض ههنا عنان البيان فان وراءها أسراراً دقيقة وأحوالا

عميقة من لم يصل اليها لم يصدق بها ، ونسأل الله الإعانة على إدراك الخيرات ، واحتج المنكرون للكرامات بوجوه (الشبهة الأولى) وهى التى عليها يعولون وبها يضلون أن ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلا على النبوة فلو حصل لغير نبى لبطلت هذه الدلالة لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح فى كونه دليلا ، وذلك باطل (والشبهة الثانية) تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه « لن يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم » قالوا هذا يدل على أن التقرب الى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرب اليه بأداء النوافل ، ثم إن المتقرب اليه بأداء الفرائض لا يحصل له شىء من الكرامات فالمتقرب اليه بأداء النوافل أولى أن لا يحصل له ذلك (الشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) والقول بأن الولى ينتقل من بلد إلى بلد بعيد - لا على الوجه - طعن فى هذه الآية ، وأيضاً أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة إلا فى أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال أن الولى ينتقل من بلد نفسه إلى الحج فى يوم واحد (الشبهة الرابعة) قالوا هذا الولى الذى تظهر عليه الكرامات إذا ادعى على إنسان درهما فهل نطالبه بالبينة أم لا ؟ فان طالبناه بالبينة كان عبثاً لأن ظهور الكرامات عليه يدل على أنه لا يكذب ، ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى ، وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام « البينة على المدعى » فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل (الشبهة الخامسة) إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين فاذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقا للعادة وذلك يقدح فى المعجزة والكرامة (والجواب) عن الشبهة الأولى أن الناس اختلفوا فى أنه هل يجوز للولى دعوى الولاية ؟ فقال قوم من المحققين إن ذلك لا يجوز ، فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية ، والسبب فى هذا الفرق أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا الى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر وإذا ادعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم فاقدام الأنبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان ، أما ثبوت الولاية للولى فليس الجهل بها كفراً ولا معرفتها إيماناً فكان دعوى الولاية طلباً لشهوة النفس ، فعلمنا أن النبى يجب عليه إظهار دعوى النبوة والولى لا يجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق : أما الذين قالوا يجوز للولى دعوى الولاية فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه : (الأول) أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الإنسان مبرءاً عن المعصية ، ثم إن اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقا فى دعوى النبوة ، وإن اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقاً فى دعوى الولاية ، وبهذا

الطريق لايكون ظهور الكرامة على الأولياء طعنا فى معجزات الأنبياء عليهم السلام (الثانى) أن النبى صلى الله عليه وسلم يدعى المعجزة ويقطع بها ؛ والولى إذا ادعى الكرامة لايقطع بها لأن المعجزة يجب ظهورها ، أما الكرامة [ف]لايجب ظهورها (الثالث) أنه يجب نفى المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة (الرابع) أنا لانجوز ظهور الكرامة على الولى عند ادعاء الولاية إلا إذا أقر عند تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبى ومتى كان الأمر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبى ومؤكدة لرسالته وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعناً فى نبوة النبى بل يصير مقوياً لها (والجواب) عن الشبهة الثانية أن التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل ؛ أما الولى فانما يكون ولياً إذا كان آتياً بالفرائض والنوافل ، ولا شك أنه يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق ، و(الجواب) عن الشبهة الثالثة أن قوله تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) محمول على المعهود المتعارف ، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم . وهذا هو (الجواب) عن الشبهة الرابعة وهى التمسك بقوله عليه السلام البينة على المدعى (والجواب) عن الشبهة الخامسة ان المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وكما قال إبليس (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم من الكرامات فى الأوقات النادرة قادحا فى كونها على خلاف العادة .

﴿ المسألة السابعة ﴾ فى الفرق بين الكرامات والاستدراج . اعلم أن من أراد شيئاً فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيها عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة بل قد يكون ذلك إكراماً للعبد وقد يكون استدراجاً له ولهذا الاستدراج أسماء كثيرة من القرآن (أحدها) الاستدراج قال الله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله كل ما يريده فى الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعداً من الله وتحقيقه أنه ثبت فى العلوم العقلية أن تكرر الأفعال سبب لحصول الملكة الراسخة فاذا مال قلب العبد الى الدنيا ثم أعطاه الله مراده فحينئذ يصل الطالب الى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة وحصول اللذة يزيد فى الميل وحصول الميل يوجب مزيد السعى ولا يزال يتأدى كل واحد منهما الى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة ومعلوم أن الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف فلاجرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة الى أن يتكامل فهذا هو الاستدراج (وثانيها) المكر قال تعالى (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)وقال(ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون) (وثالثها) الكيد قال تعالى (يخادعون الله وهو خادعهم) وقال (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم) (ورابعها) الإملاء قال تعالى (ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيراً لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً) (وخامسها)

الإهلاك قال تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم) وقال فى فرعون (واستكبر هو و جنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لايدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات بقى علينا أن نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات . فنقول إن صاحب الكرامة لايستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فانه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج ، وأما صاحب الاستدراج فانه يستأنس بذلك الذى يظهر عليه ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقاً لها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة فاذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجا لا كرامة . فلهذا المعنى قال المحققون أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله إنما وقع فى مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء . والذى يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه :

﴿ الحجة الأولى ﴾ أن هذا الغرور إنما يحصل إذا اعتقد الرجل أنه مستحق لهذه الكرامة لأن بتقدير أن لا يكون مستحقاً لها امتنع حصول الفرح بها بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولى وفضله أكبر من فرحه بنفسه فثبت أن الفرح بالكرامة أكثر من فرحه بنفسه وثبت أن الفرح بالكرامة لايحصل إلا إذا اعتقد أنه أهل ومستحق لها وهذا عين الجهل لأن الملائكة قالوا (لاعلم لنا إلا ما علمتنا)وقال تعالى (وما قدروا الله حق قدره) وأيضاً قد ثبت بالبرهان اليقينى أنه لاحق لأحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق .

﴿ الحجة الثانية ﴾ أن الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب عن الحق والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أن من اعتقد فى نفسه أنه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق فى جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل . رأيت فى بعض الكتب أنه قرأ المقرىء فى مجلس الأستاذ أبى على الدقاق قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى [ذكره] عندك فان بقى عملك فى نظرك فهو مدفوع وإن لم يبق معك فهو مرفوع مقبول .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أن صاحب الكرامة إنما وجد الكرامة لاظهار الذل والتواضع فى حضرة الله فاذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق ثبوته يؤديه الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر النبى ﷺ مناقب نفسه

وفضائلها كان يقول فى آخر كل واحد منها ولا فخر يعنى لا أفتخر بهذه الكرامات وإنما أفتخر بالمكرم والمعطى .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ أن ظاهر الكرامات فى حق إبليس وفى حق بلعام كان عظيما ثم قيل لإبليس وكان من الكافرين وقيل لبلعام فمثله كمثل الكلب وقيل لعلماء بنى اسرائيل (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقيل أيضا فى حقهم (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) فبين أن وقوعهم فى الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما أوتوا من العلم والزهد .

﴿ الحجة السادسة ﴾ أن الكرامة غير المكرم وكل ماهو غير المكرم فهو ذليل وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل ، ولهذا المعنى قال الخليل صلوات الله عليه : (١) أما إليك فلا ، فالاستغناء بالفقير فقر والتقوى بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والاقبال بالكلية على الحق خلاص .فثبت أن الفقير إذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته . أما إذا كان لايشاهد فى الكرامات إلا المكرم ولا فى الإعزاز إلا المعز ولا فى الخلق إلا الخالق فهناك يحق الوصول .

﴿ الحجة السابعة ﴾ أن الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات إبليس وفرعون ، قال إبليس (أنا خير منه)وقال فرعون (أليس لى ملك مصر) وكل من ادعى الإلهية أو النبوة بالكذب فليس له غرض إلا تزيين النفس وتقوية الحرص والعجب ولهذا قال عليه السلام «ثلاث مهلكات ، وختمها بقوله : وإعجاب المرء بنفسه » .

﴿ الحجة الثامنة ﴾ أنه تعالى قال (فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالاشتغال بخدمة المعطى لا بالفرح بالعطية .

﴿ الحجة التاسعة ﴾ أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون ملكا نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً ترك الملك ، ولا شك أن وجدان الملك الذى يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات ثم إنه ﷺ ترك ذلك الملك واختار العبودية لأنه إذا كان عبداً كان افتخاره بمولاه وإذا كان ملكا كان افتخاره بعبيده ، فلما اختار العبودية لاجرم جعل السنة التى فى التحيات التى رواها ابن مسعود « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » وقيل فى المعراج (سبحان الذى أسرى بعبده) .

﴿ الحجة العاشرة ﴾ أن محب المولى غير ، ومحب ما للمولى غير ، فمن أحب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى ، فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على أنه ما كان محباً للمولى بل كان محباً لنصيب نفسه ونصيب النفس إنما يطلب للنفس فهذا الشخص ما أحب إلا نفسه ، وما كان المولى محبوباً له بل جعل المولى وسيلة إلى تحصيل ذلك المطلوب . والصنم الأكبر هو النفس كما قال تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) فهذا الإنسان عابد للصنم الأكبر

(١) هذا من خطابه لجبريل عليه السلام فانه لما ألقى فى النار سأله جبريل فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم عليه السلام أما إليك فلا ! .

حتى أن المحققين قالوا لامضرة فى عبادة شىء من الأصنام مثل المضرة الحاصلة فى عبادة النفس ولا خوف من عبادة الأصنام كالخوف من الفرح بالكرامات .

﴿ الحجة الحادية عشرة ﴾ قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وهذا يدل على أن من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شىء من هذه الأفعال والأحوال .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى أن الولى هل يعرف كونه ولياً ، قال الأستاذ أبو بكر بن فورك لايجوز وقال الأستاذ أبو على الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيرى يجوز ، وحجة المانعين وجوه :

﴿ الحجة الأولى ﴾ لو عرف الرجل كونه ولياً لحصل له الأمن بدليل قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) لكن حصول الأمن غير جائز ويدل عليه وجوه : (أحدها) قوله تعالى (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) واليأس أيضا غير جائز لقوله تعالى (إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ولقوله تعالى (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) والمعنى فيه أن الأمن لايحصل إلا عند اعتقاد العجز ، واليأس لايحصل إلا عند اعتقاد البخل واعتقاد العجز والبخل فى حق الله كفر ، فلا جرم كان حصول الأمن والقنوط كفرا (الثانى) أن الطاعات وإن كثرت إلا أن قهر الحق أعظم ومع كون القهر غالباً لا يحصل الأمن (الثالث) أن الأمن يقتضى زوال العبودية وترك الخدمة والعبودية يوجب العداوة والأمن يقتضى ترك الخوف (الرابع) أنه تعالى وصف المخلصين بقوله (ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) قيل رغبا فى ثوابنا ، ورهباً من عقابنا . وقيل رغبا فى فضلنا ، ورهبا من عدلنا . وقيل رغباً فى وصالنا ، ورهبا من فراقنا . والأحسن أن يقال رغبا فينا ، ورهبا منا .

﴿ الحجة الثانية ﴾ على أن الولى لايعرف كونه وليا ؛ أن الولى إنما يصير ولياً لأجل أن الحق يحبه لا لأجل أنه يحب الحق ، وكذلك القول فى العدو ، ثم إن محبة الحق وعداوته سران لايطلع عليهما أحد فطاعات العباد ومعاصيهم لاتؤثر فى محبة الحق وعداوته لأن الطاعات والمعاصى محدثة ، وصفات الحق قديمة غير متناهية ، والمحدث المتناهى لايصير غالباً للقديم غير المتناهى . وعلى هذا التقدير فربما كان العبد فى الحال فى عين المعصية إلا أن نصيبه من الأزل عين المحبة . وربما كان العبد فى الحال فى عين الطاعة ولكن نصيبه من الأزل عين العداوة وتمام التحقيق أن محبته وعداوته صفة ، وصفة الحق غير معللة ، ومن كانت محبته لالعلة ، فانه يمتنع أن يصير عدواً بعلة المعصية ، ومن كانت عدواته لا لعلة يمتنع أن يصير محباً لعلة الطاعة ، ولما كانت محبة الحق وعداوته سرين لايطلع عليهما لاجرم قال عيسى عليه السلام (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب) .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ على أن الولى لايعرف كونه ولياً ؛ أن الحكم بكونه ولياً وبكونه من أهل

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى «١٣» وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا «١٤» هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا «١٥»

الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة ، والدليل عليه قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ولم يقل من عمل حسنة فله عشر أمثالها ، وهذا يدل على أن استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لامن أول العمل ؛ والذى يؤكد ذلك أنه لو مضى عمره فى الكفر ثم أسلم فى آخر الأمر كان من أهل الثواب وبالضد ، وهذا دليل على أن العبرة بالخاتمة لا بأول العمل ، ولهذا قال تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف) فثبت أن العبرة فى الولاية والعداوة وكونه من أهل الثواب أو من أهل العقاب بالخاتمة ، فظهر أن الخاتمة غير معلومة لأحد ، فوجب القطع بأن الولى لا يعلم كونه ولياً ، أما الذين قالوا إن الولى قد يعرف كونه ولياً فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الولاية لها ركنان (أحدهما) كونه فى الظاهر منقاداً للشريعة (الثانى) كونه فى الباطن مستغرقاً فى نور الحقيقة ، فاذا حصل الأمران وعرف الإنسان حصولهما عرف لامحالة كونه ولياً ، أما الانقياد فى الظاهر للشريعة فظاهر ، وأما استغراق الباطن فى نور الحقيقة فهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله ، وأن لايكون له استقرار مع شىء سوى الله (والجواب) أن تداخل(١) الأغلاط فى هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر ، والتجربة خطر ، والجزم غرور . ودون الوصول إلى عالم الربوبية أستار ، تارة من النيران ، وأخرى من الأنوار ، والله العالم بحقائق الأسرار ، ولنرجع إلى التفسير .

قوله تعالى ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾

اعلم أنه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى على وجه الصدق (إنهم فتية آمنوا بربهم) كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله ، ثم قال تعالى فى صفاتهم (وربطنا على قلوبهم) أى ألهمناها الصبر وثبتناها (إذ قاموا) وفى هذا القيام أقوال (الأول) قال مجاهد كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم أكبر القوم إنى لأجد

(١) فى الأصل تداخل هكذا ولعل الصواب مداخل لأنه وصفها فيما بعد بقوله كثيرة غامضة .

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا «١٦» وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ

فى نفسى شيئاً ماأظن أن أحداً يجده ، قالوا ما تجد ؟ قال أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والأرض (القول الثانى) أنهم قاموا بين يدى ملكهم دقيانوس الجبار ، وقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، وذلك لأنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية ، وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار ، وأقروا بربوبية الله ، وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والأنداد (والقول الثالث) وهو قول عطاء ومقاتل أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم وهذا بعيد لأن الله استأنف قصتهم بقوله (نحن نقص عليك) وقوله (لقد قلنا إذاً شططا) معنى الشطط فى اللغة مجاوزة الحد ، قال الفراء يقال قد أشط فى السوم إذا جاوز الحد ولم يسمع إلا أشط يشط أشطاطا وشططا ، وحكى الزجاج وغيره شط الرجل وأشط إذا جاوز الحد ، ومنه قوله (ولا تشطط) وأصل هذا من قولهم شطت الدار إذا بعدت ، فالشطط البعد عن الحق ، وهو ههنا منصوب على المصدر ، والمعنى لقد قلنا إذا قولا شططاً ، أما قوله (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) هذا من قول أصحاب الكهف ويعنون الذين كانوا فى زمان دقيانوس عبدوا الأصنام (لولا يأتون - هلا يأتون - عليهم بسلطان بين) بحجة بينة ، ومعنى عليهم أى على عبادة الإلهة ، ومعنى الكلام أن عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول ، ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية . فقال إنه تعالى استدل على عدم الشركاء والأضداد بعدم الدليل عليها فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية ، ثم قال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى أن الحكم بثبوت الشىء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه ، وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد .

قوله تعالى ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد

وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً «١٧»

ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾

إعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض (وإذ اعتزلتموهم) واعتزلتم الشيء الذى يعبدونه إلا الله فانكم لم تعتزلوا عبادة الله (فأووا إلى الكهف) قال الفراء هو جواب إذ كما تقول إذ فعلت كذا فافعل كذا ، ومعناه : إذهبوا إليه واجعلوه مأواكم (ينشر لكم ربكم من رحمته) أى يبسطها عليكم (ويهيء لكم من أمركم مرفقا) قرأ نافع وابن عامر وعاصم فى رواية مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء والباقون مرفقا بكسر الميم وفتح الفاء ، قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق ، وكان الكسائى ينكر فى مرفق الإنسان الذى فى اليد إلا كسر الميم وفتح الفاء ، والفراء يجيزه فى الأمر وفى اليد وقيل هما لغتان إلا أن الفتح أقيس والكسر أكثر وقيل المرفق ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح المرافق ثم قال تعالى (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ ابن عامر تَزْوَرُّ ساكنة الزاى المعجمة مشددة الراء مثل تحمر ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى تزاور بالألف والتخفيف والباقون تزاور بالتشديد والألف والكل بمعنى واحد ، والتزاور هو الميل والانحراف ، ومنه زاره إذا مال اليه والزور الميل عن الصدق ، وأما التشديد فأصله تتزاور سكنت التاء الثانية وأدغمت فى الزاى ، وأما التخفيف فهو تفاعل من الزور وأما تزور فهو من الإزورار .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (وترى الشمس) أى أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة فى المخاطبة تكون على هذا النحو ، ومعناه أنك لو رأيته لرأيته على هذه الصورة .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (ذات اليمين) أى جهة اليمين وأصله أن ذات صفة أقيمت مقام الموصوف لأنها تأنيث ذو فى قولهم رجل ذو مال ، وامرأة ذات مال ، والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين ، وأما قوله (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال الكسائى قرضت المكان أى عدلت عنه وقال أبو عبيدة القرض فى أشياء فمنها القطع ، وكذلك السير فى البلاد أى إذا قطعها . تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب إنما قرضته فقوله (تقرضهم ذات الشمال) أى تعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال

﴿ البحث الثانى ﴾ للمفسرين ههنا قولان (القول الأول) أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله فضوء

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا «١٨»

الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل ، والمقصود أن الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم فهى مصونة عن العفونة والفساد (والقول الثانى) أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع . وكذا القول حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف ، وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله (ذلك من آيات الله) قال ولو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمراً معتاداً مألوفاً فلم يكن ذلك من آيات الله ، وأما إذا حملنا الآية على هذا الوجه الثانى كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله ، واعلم أنه تعالى أخبر بعد ذلك أنهم كانوا فى متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء ، قال (وهم فى فجوة منه) أى من الكهف ، والفجوة متسع فى مكان ، قال أبو عبيدة وجمعها فجوات ، ومنه الحديث «فاذا وجد فجوة نص» ثم قال تعالى (ذلك من آيات الله) وفيه قولان الذين قالوا إنه يمنع وصول ضوء الشمس بقدرته قالوا المراد من قوله ذلك أى ذلك التزاور والميل ، والذين لم يقولوا به قالوا المراد بقوله ذلك أى ذلك الحفظ الذى حفظهم الله فى ذلك الغار تلك المدة الطويلة ، من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ، ثم بين تعالى أنه كما أن بقاءهم هذه المدة الطويلة مصوناً عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه ، فكذلك رجوعهم أولا عن الكفر ورغبتهم فى الإيمان كان باعانة الله ولطفه فقال (من يهد الله فهو المهتد) مثل أصحاب الكهف (ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) كدقيانوس الكافر وأصحابه ، ومناظرات أهل الجبر والقدر فى هذه الآية معلومة .

قوله تعالى ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾

اعلم أن معنى قوله (وتحسبهم) على ما ذكرناه فى قوله (وترى الشمس) أى لو رأيتهم لحسبتهم (أيقاظاً) وهو جمع يقظ ويقظان قاله الأخفش وأبو عبيدة والزجاج وأنشدوا لرؤبة :

ووجدوا إخوانهم أيقاظاً

ومثله قوله نجد ونجدان وأنجاد ، وهم رقود أى نائمون وهومصدر سمى المفعول به كما يقال قوم ركوع وقعود وسجود يوصف الجمع بالمصدر ، ومن قال إنه جمع راقد فقد أبعد لأنه لم يجمع فاعل على فعول قال الواحدى وإنما يحسبون (أيقاظا) لأن أعينهم مفتحة وهم نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن أنهم أيقاظ ، والدليل عليه قوله تعالى (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) واختلفوا فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن لهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون على أيمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقوداً تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء . وأقول هذه التقديرات لاسبيل للعقل اليها ، ولفظ القرآن لا يدل عليه ، وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم ، وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب ؟ وقوله (ذات) منصوبة على الظرف لأن المعنى (نقلبهم) فى ناحية (اليمين) أو على ناحية (اليمين) كما قلنا فى قوله (تزاور عن كهفهم ذات اليمين) وقوله (وكلبهم باسط ذراعيه) قال ابن عباس وأكثر المفسرين قالوا إنهم هربوا ليلا من ملكهم ، فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه ، وقال كعب مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارا ، فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا جانبى أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم ، وقال عبيد بن عمير كان ذلك كلب صيدهم ومعنى (باسط ذراعيه) أى يلقيهما على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين ، ومنه الحديث فى الصلاة «أنه نهى عن افتراش السبع» وقال «لاتفترش ذراعيك افتراش السبع» قوله (بالوصيد) يعنى فناء الكهف قال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار وجمعه وصائد ووصد ، وقال يونس والأخفش والفراء الوصيد والأصيد لغتان مثل الوكاف والإكاف ، وقال السدى (الوصيد) الباب والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت ، ثم قال (لو اطلعت عليهم) أى أشرفت عليهم يقال اطلعت عليهم أى أشرفت عليهم ، ويقال أطلعت فلانا على الشىء فاطلع وقوله (لوليت منهم فراراً) قال الزجاج قوله (فراراً) منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم فررت (ولملئت منهم رعباً) أى فزعاً وخوفاً قيل فى التفسير طالت شعورهم وأظفارهم وبقيت أعينهم مفتوحة وهم نيام ، فلهذا السبب لو رآهم الرائى لهرب منهم مرعوباً ، وقيل إنه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعا شديداً ، فأما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به . وهذا هو الأصح وقوله (ولملئت منهم رعباً) قرأ نافع وابن كثير لملئت بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام ، وروى عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد إلا أن فى التشديد مبالغة ، قال الأخفش الخفيفة أجود فى كلام العرب ، يقال ملأتنى رعباً ، ولا يكادون يعرفون ملأتني ، ويدل على هذا أكثر استعمالهم كقوله :

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا «١٩» إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا «٢٠»

فيملأ بيتنا أقطاً وسمناً (١)

وقول الآخر :

ومن مالىء عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقال الآخر : لا تملأ الدلو وعرق فيها

وقال الآخر : امتلأ الحوض وقال قطنى

وقد جاء التثقيل أيضاً ، وأنشدوا للمخبل السعدى :

وإذ فتك النعمان بالناس محرماً فملأ من عوف بن كعب سلاسله

وقرأ ابن عامر والكسائى رعباً بضم العين فى جميع القرآن والباقون بالإسكان .

قوله تعالى ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم . فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾

اعلم أن التقدير وكما (زدناهم هدى ، وربطنا ، على قلوبهم ، فضربنا على آذانهم) وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم أى أحييناهم من تلك النومة التى تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساءل تنازع واختلاف فى مدة لبثهم ، فان قيل هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا ؟ قلنا لا يبعد ذلك لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة ، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته . ثم قال تعالى

---

(١) هذا صدر بيت من أبيات لامرىء القيس منها : إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصى
فتملأ بيتنا أقطا وسمناً وحسبك من غنى شبع ورى

(قال قائل منهم كم لبثتم) أى كم مقدار لبثنا فى هـذا الكهف (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) قال المفسرون إنهم دخلوا الكهف غدوة و بعثهم الله فى آخر النهار ، فلذلك قالوا لبثنا يوماً فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم ، ثم قال تعالى (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) ، قال ابن عباس هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى لأنه لما نظر إلى أشعارهم وأظفارهم و بشرة وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعلم أن مثل ذلك التغير لا يحصل إلا فى الأيام الطويلة . ثم قال (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم بورقكم ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ[ها] مكسورة الواو ساكنة الراء وقرأ ابن كثير بورقكم بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم القاف فى الكاف ، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه ، والورق إسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ، ويدل عليه ماروى أن عرفجة اتخذ أنفا من ورق ، وفيه لغات ورق وورق وورق مثل كبد وكبد وكبد ، ذكره الفراء والزجاج قال الفراء وكسر الواو أردؤها ، ويقال أيضاً للورق الرقة ، قال الأزهرى أصله ورق مثل صلة وعدة ، قال المفسرون كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم يعنى بالمدينة التى يقال لها اليوم طرسوس ، وهذه الآية تدل على أن السعى فى إمساك الزاد أمر مهم مشروع وأنه لايبطل التوكل وقوله (فلينظر أيها أزكى طعاما) قال ابن عباس يريد ماحل من الذبائح لأن عامة أهل بلدهم كانوا مجوساً وفيهم قوم يخفون إيمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالماً فقولهم (أزكى طعاماً) يريدون أيها أبعد عن الغصب ، وقيل أيها أطيب وألذ ، وقيل أيها أرخص ، قال الزجاج : قوله (أيها) رفع بالابتداء و (أزكى) خبره و (طعاما) نصب على التمييز ، وقوله (وليتلطف) أى يكون ذلك فى سر وكتمان يعنى دخول المدينة وشراء الطعام (ولا يشعرن بكم أحداً) أى لايخبرن بمكانكم أحداً من أهل المدينة (إنهم أن يظهروا عليكم) أى يطلعوا ويشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم من قولهم ظهرت على فلان إذا علوته وظهرت على السطح إذا صرت فوقه ، ومنه قوله تعالى (فأصبحوا ظاهرين) أى عالين ، وكذلك قوله (ليظهره على الدين كله) أى ليعليه وقوله (يرجموكم) يقتلوكم ، والرجم بمعنى القتل كثير فى التنزيل كقوله (ولولا رهطك لرجمناك) وقوله (أن ترجمون) وأصله الرمى ، قال الزجاج أى يقتلوكم بالرجم ، والرجم أخبث أنواع القتل (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى يردوكم إلى دينهم (ولن تفلحوا إذاً أبداً) أى إذا رجعتم إلى دينهم لن تسعدوا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال الزجاج قوله (إذاً أبدا) يدل على الشرط أى ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبداً ، قال القاضى ماعلى المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل ، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر ، فان قيل أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر حتى إنهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا (ولن تفلحوا إذاً أبدا)

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا «٢١» سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا «٢٢»

قلنا يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فانه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين فى الحقيقة ، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم . بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل ، فلاتمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ إعلم أن المعنى كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وأنمناهم وقلبناهم وبعثناهم لما فيها من الحكم الظاهرة ، فكذلك أعثرنا عليهم أى أطلعنا غيرهم على أحوالهم يقال عثرت على كذا أى علمته وقالوا إن أصل هذا أن من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه فعرفه ، فكان العثار سبباً لحصول العلم والتبين فأطلق اسم السبب على المسبب واختلفوا فى السبب الذى لأجله عرف الناس واقعة أصحاب الكهف على وجهين : (الأول) أنه طالت شعورهم وأظفارهم طولا مخالفاً للعادة وظهرت فى بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على أن مدتهم قد طالت طولا خارجا عن العادة (والثانى) أن ذلك الرجل لما ذهب الى السوق ليشترى الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام هذه النقود غيرموجودة فى هذا اليوم . وإنما كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر فلعلك وجدت كنزا ، واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل الى ملك البلد فقال الملك من أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال : بعت بها أمس شيئاً من التمر ، وخرجنا فرارا من

الملك دقيانوس فعرف ذلك الملك أنه ما وجد كنزا وأن الله بعثه بعد موته ثم قال تعالى (ليعلموا أن وعد الله حق) يعنى أنا إنما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم أن وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر روى أن ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث إلا أنه كان مع كفره منصفاً فجعل الله أمر الفتية دليلا للملك ، وقيل بل اختلفت الأمة فى ذلك الزمان فقال بعضهم الجسد والروح يبعثان جميعاً ، وقال آخرون الروح تبعث ، وأما الجسد فتأكله الأرض . ثم إن ذلك الملك كان يتضرع إلى الله أن يظهر له آية يستدل بها على ماهو الحق فى هذه المسألة فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب أهل الكهف . فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للاجساد ، لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث فقوله (إذ يتنازعون بينهم) متعلق بأعثرنا أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم ، واختلفوا فى المراد بهذا التنازع فقيل كانوا يتنازعون فى صحة البعث ، فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته ، وقالوا كما قدر الله على حفظ أجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين فكذلك يقدر على حشر الأجساد بعد موتها ، وقيل إن الملك وقومه لما رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عاد القوم إلى كهفهم فأماتهم الله فعند هذا اختلف الناس ، فقال قوم إنهم نيام كالكرة الأولى وقال آخرون بل الآن ماتوا (والقول الثالث) أن بعضهم قال : الأولى أن يسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم أحد ولا يقف على أحوالهم انسان . وقال آخرون : بل الأولى أن يبنى على باب الكهف مسجد وهذا القول يدل على أن أولئك الأقوام كانوا عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة (والقول الرابع) أن الكفار قالوا : إنهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنياناً ، والمسلمون قالوا كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجداً (والقول الخامس) أنهم تنازعوا فى قدر مكثهم (والسادس) أنهم تنازعوا فى عددهم وأسمائهم ، ثم قال تعالى (ربهم أعلم بهم) وهذا فيه وجهان (أحدهما) أنه من كلام المتنازعين كأنهم لما تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام فى أسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم (الثانى) أن هذا من كلام الله تعالى ذكره رداً للخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين ثم قال تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم) قيل المراد به الملك المسلم ، وقيل أولياء أصحاب الكهف ، وقيل رؤساء البلد (لنتخذن عليهم مسجداً) نعبد الله فيه ونستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد ، ثم قال تعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) الضمير فى قوله (سيقولون) عائد إلى المتنازعين ، روى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبى ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال العاقب وكان نسطورياً كانوا خمسة سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، قال أكثر المفسرين هذا الأخير هو الحق ويدل عليه وجوه (الأول) أن الواو فى قوله (وثامنهم) هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك

جاءنى رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ، ومنه قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم . وأنهم قالوا قولا متقررا متحققا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس (الوجه الثانى) قالوا إنه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب أن تحصل به فائدة زائدة صوناً للفظ عن التعطيل ، وكل من أثبت هذه الفائدة الزائدة قال المراد منها تخصيص هذا القول بالاثبات والتصحيح (الوجه الثالث) أنه تعالى أتبع القولين الأولين بقوله (رجماً بالغيب) وتخصيص الشىء بالوصف يدل على أن الحال فى الباقى بخلافه ، فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الأولان ، وأن يكون القول الثالث مخالفاً لهما فى كونهما رجما بالظن (والوجه الرابع) أنه تعالى لما حكى قولهم (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) قال بعده (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) فاتباع القولين الأولين بكونهما رجماً بالغيب وإتباع هذا القول الثالث بقوله (قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل) يدل على أن هذا القول ممتاز عن القولين الأولين بمزيد القوة والصحة (والوجه الخامس) أنه تعالى قال (مايعلمهم إلا قليل) وهذا يقتضى أنه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكل من قال من المسلمين قولا فى هذا الباب قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول . كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : كانوا سبعة وأسماؤهم هذا : يمليخا ، مكسلمينا ، مسلثينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوس ، ودبرنوس ، وسادنوس ، وكان الملك يستشير هؤلاء الستة فى مهماته ، والسابع هو الراعى الذى وافقهم لما هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير ، وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : أنا من ذلك العدد القليل ، وكان يقول إنهم سبعة وثامنهم كلبهم .

(الوجه السادس) أنه تعالى لما قال (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل) والظاهر أنه تعالى لما حكى الأقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل لأنه يبعد أنه تعالى ذكر الأقوال الباطلة ولم يذكر ماهو الحق . فثبت أن جملة الأقوال الحقة والباطلة ليست إلا هذه الثلاثة ، ثم خص الأولين بأنهما رجم بالغيب فوجب أن يكون الحق هو هذا الثالث (الوجه السابع) أنه تعالى قال لرسوله (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً) فمنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم فى هذا الباب ، وهذا إنما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة ، وأيضاً أنه تعالى قال (مايعلمهم إلا قليل) ويبعد أن يحصل العلم بذلك لغير النبى ولا يحصل للنبى ، فعلمنا أن العلم بهذه الواقعة حصل للنبى عليه السلام ، والظاهر أنه لم يحصل ذلك العلم إلا بهذا الوحى ، لأن الأصل فيما سواه العدم ، وأن يكون الأمر كذلك فكان الحق هو قوله (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) واعلم أن هذه الوجوه وإن كان بعضها أضعف

من بعض إلا أنه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام والله أعلم . بقى فى الآية مباحث

﴿ البحث الأول ﴾ فى الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه

﴿ البحث الثانى ﴾ خص القول الأول بسين الاستقبال ، وهو قوله سيقولون ، والسبب فيه أن حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه .

﴿ البحث الثالث ﴾ الرجم هو الرمى ، والغيب ما غاب عن الإنسان فقوله (رجماً بالغيب) معناه أن يرمى ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة ، يقال فلان يرمى بالكلام رمياً ، أى يتكلم من غير تدبر .

﴿ البحث الرابع ﴾ ذكروا فى فائدة الواو فى قوله (وثامنهم كلبهم) وجوها (الوجه الأول) ما ذكرنا أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال (وثانيها) أن السبعة عند العرب أصل فى المبالغة فى العدد قال تعالى (إن تستغفر لهم سبعين مرة) وإذا كان كذلك فاذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف ، فقالوا وثمانية ، فجاء هذا الكلام على هذا القانون ، قالوا ويدل عليه نظيره فى ثلاث آيات ، وهى قوله (والناهون عن المنكر) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة وقوله (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ، وقوله (ثيبات وأبكارا) هو العدد الثامن مما تقدم ، والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية ، ومعناه ما ذكرناه ، قال القفال : وهذا ليس بشىء ، والدليل عليه قوله تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) ولم يذكر الواو فى النعت الثامن ، ثم قال تعالى (قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل) وهذا هو الحق ، لأن العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التى حدثت فى الماضى والمستقبل لاتحصل إلا عند الله تعالى ، وإلا عند من أخبره الله عنها . وقال ابن عباس أنا من أولئك القليل ، قال القاضى إن كان قد عرفه ببيان الرسول صح ، وإن كان قد تعلق فيه بحرف الواو فضعيف ، ويمكن أن يقال الوجوه السبعة المذكورة وإن كانت لاتفيد الجزم إلا أنها تفيد الظن ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين ، عن المراء والاستفتاء ، أما النهى عن المراء ، فقوله (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) والمراد من المراء الظاهر أن لا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد ، بل يقول : هذا التعيين لادليل عليه ، فوجب التوقف وترك القطع . ونظيره قوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) وأما النهى عن الاستفتاء فقوله (ولا تستفت فيهم منهم أحداً ، وذلك لأنه لما ثبت أنه ليس عندهم علم فى هذا الباب وجب المنع من استفتائهم ، واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا لأن قوله (رجماً بالغيب) وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل ظناً بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا : رجم بالظن مكان قولهم ظن ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين ، ألا ترى إلى قوله : وما هو عنها بالحديث المرجم(١)

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى والرواية المشهورة : وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما القول عنها بالحديث المرجم

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا «٢٣» إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا «٢٤» وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا «٢٥» قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا «٢٦»

أى المظنون هكذا قاله صاحب الكشاف ، وذلك يدل على أن القول بالظن مذموم عند الله ثم إنه تعالى لما ذم هذه الطريقة رتب عليه من استفتاء هؤلاء الظانين ، فدل ذلك على أن الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله ، وجواب مثبتى القياس عنه قد ذكرناه مرارا .

قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا ، إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً . ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً . قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً ﴾ إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المفسرون إن القوم لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة ، قال عليه السلام أجيبكم عنها غدا ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحى خمسة عشر يوما وفى رواية أخرى أربعين يوما ، ثم نزلت هذه الآية ، اعترض القاضى على هذا الكلام من وجهين (الأول) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عالما بأنه إذا أخبر عن أنه سيفعل الفعل الفلانى غداً فربما جاءته الوفاة قبل الغد ، وربما عاقه عائق آخر عن الإقدام على ذلك الفعل غدا ، وإذا كان كل هذه الأمور محتملا ، فلو لم يقل إن شاء الله ربما خرج الكلام مخالفاً لما عليه الوجود وذلك يوجب التنفير عنه وعن كلامه عليه السلام ، أما إذا قال إن شاء الله كان محترزاً عن هذا المحذور ، وإذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشىء ولم يقل فيه إن شاء الله (الثانى) أن هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب ويمكن أن يجاب عن الأول : إنه لا نزاع أن الأولى أن يقول إن شاء الله إلا أنه ربما اتفق له أنه نسى هذا الكلام لسبب من الأسباب فكان ذلك من باب ترك الأولى والأفضل ، وأن يجاب عن الثانى أن اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحدا منها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إلا أن يشاء الله) ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا ، وفيه قولان (الأول) التقدير (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) أن يأذن لك فى ذلك القول ، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك أنك تفعل الفعل الفلانى إلا إذا أذن الله لك فى ذلك الإخبار (القول الثانى) أن يكون التقدير (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً) إلا أن تقول (إن شاء الله) والسبب فى أنه لابد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلانى غداً لم يبعد أن يموت قبل مجىء الغد ، ولم يبعد أيضاً لو بقى حياً أن يعوقه عن ذلك الفعل شىء من العوائق ، فاذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذباً فى ذلك الوعد ، والكذب منفرو ذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول (إن شاء الله) حتى أن بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود لم يصر كاذباً فلم يحصل التنفير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إعلم أن مذهب المعتزلة أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله تعالى مغلوبة ، وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الإيمان من المؤمن وعلى هذا التقرير فارادة الله تعالى غالبة وإرادة العبد مغلوبة إذا عرفت هذا فنقول إذا قال العبد لأفعلن كذا غداً إلا أن يشاء الله والله إنما يدفع عنه الكذب إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد فان على هذا القول يكون التقدير أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلانى إلا إذا كانت إرادة الله بخلافه فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتى فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل ، أما بتقدير أن تكون ارادة الله تعالى مغلوبة فانها لا تصلح عذراً فى هذا الباب ، لأن المغلوب لا يمنع الغالب . إذا ثبت هذا فنقول : أجمعت الأمة على أنه إذا قال والله لأفعلن كذا ثم قال إن شاء الله دافعاً للحنث فلا يكون دافعاً للحنث إلا إذا كانت إرادة الله غالبة ، فلما حصل دفع الحنث بالاجماع وجب القطع بكون إرادة الله تعالى غالبة وأنه لا يحصل فى الوجود إلا ما أراده الله وأصحابنا أكدوا هذا الكلام فى صورة معينة وهو أن الرجل إذا كان له على انسان دين وكان ذلك المديون قادراً على أداء الدين فقال والله لأقضين هذا الدين غداً ، ثم قال ان شاء الله فاذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث وعلى قول المعتزلة أنه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله (ان شاء الله) تعليق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب أن يحنث ، ولما أجمعوا على أنه لا يحنث علمنا أن ذلك انما كان لأن الله تعالى ما شاء ذلك الفعل مع أن ذلك الفعل قد أمر الله به ورغب فيه وزجر عن الإخلال به وثبت أنه تعالى قد ينهى عن الشىء ويريده وقد يأمر بالشىء ولا يريده وهو المطلوب ، فان قيل هب أن الأمر كما ذكرتم إلا أن كثيراً من الفقهاء قالوا اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق إن شاء الله لم يقع الطلاق فما السبب فيه ؟ قلنا السبب هو انه لما علق وقوع الطلاق علي مشيئة الله لم يقع الا اذا عرفنا وقوع

الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا أولا حصول هـذه المشيئة لـكن مشيئة الله تعالى غيب فلا سبيل الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة قد وقع وحصـل وهو الطلاق فعلى هذا الطريق لانعرف حصول المشيئة الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولا نعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا وقوع المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منها على العلم بالآخرة ، وهو دورو الدور باطل فلهذا السبب قالوا الطلاق غير واقع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج القائلون بأن المعدوم شىء بقوله (ولاتقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) قالوا الشىء الذى سيفعله الفاعل غداً سماه الله تعالى فى الحال بأنه شىء لقوله (ولا تقولن لشىء) ومعلوم أن الشىء الذى سيفعله الفاعل غداً فهو معدوم فى الحال ، فوجب تسمية المعدوم بأنه شىء . والجواب أن هذا الاستدلال لايفيد إلا أن المعدوم مسمى بكونه شيئاً وعندنا أن السبب فيه أن الذى سيصير شيئاً يجوز تسميته بكونه شيئاً فى الحال كما أنه قال (أتى أمر الله) والمراد سيأتى أمر الله ، أما قوله (واذ كر ربك إذا نسيت) ففيه وجهان (الأول) أنه كلام متعلق بما قبله والتقدير انه إذا نسى أن يقول إن شاء الله فليذكره إذا تذكره وعند هـذا اختلفوا فقال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يحصل التذكر إلا بعد مدة طويلة ثم ذكر إن شاء الله كفى فى دفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو أسبوع أو يوم ، وعن طاوس أنه يقدر على الاستثناء فى مجلسه ، وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب الناقة الغزيرة ، وعند عامة الفقهاء أنه لاأثر له فى الأحكام مالم يكن موصولا ، واحتج ابن عباس بقوله (واذكر ربك إذا نسيت) لأن الظاهر أن المراد من قوله (واذ كر ربك إذا نسيت) هو الذى تقدم ذكره فى قوله (إلا أن يشاء الله) وقوله (واذكر ربك) غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الأوقات فوجب أن يجب عليه هذا الذكر فى أى وقت حصل هذا التذكر وكل من قال وجب هـذا الذكر قال إنه إنما وجب لدفع الحنث وذلك يفيـد المطلوب ، واعلم أن استدلال ابن عباس رضى الله عنهما ظاهر فى أن الاستثناء لايجب أن يكون متصلا ، أما الفقهاء فقالوا إنا لو جوزنا ذلك لزم أن لايستقر شىء من العقود والأيمـان ، يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال ، أبو حنيفة رحمه الله :هذا يرجع عليك ،فانك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن المنصور كلامه ورضى به . واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع الى تخصيص النص بالقياس وفيه ما فيه . وأيضا فلو قال إن شاء الله على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحد فهو معتبر ودافع للحنث بالاجماع مع أن المحذور الذى ذكرتم حاصل فيه . فثبت أن الذى عولوا عليه ليس بقوى ، والأولى أن يحتجوا فى وجوب كون الاستثناء متصلا بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى (أوفوا بالعقود) وقال (وأوفوا بالعهد) فالآتى بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لأجل هذه الآيات

خالفنا هذا الدليل فيما إذا كان متصلا لأن الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن لفظ الاستثناء وحده لا يفيد شيئاً ، فهو جار مجرى نصف اللفظ(١) الواحدة ، فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة ، وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا أنه لم يلزم شىء بخلاف ما اذا كان الاستثناء متصلا فانه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم والقول الثانى أن قوله (واذكر ربك اذا نسيت) لا تعلق له بما قبله بل هو كلام مستأنف وعلى هذا القول ففيه وجوه (أحدها) واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، والمراد منه الترغيب فى الاهتمام بذكر هذه الكلمة (وثانيها) واذكر ربك اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى (وثالثها) حمله بعضهم على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها ، وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد لأن تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد إتمام الكلام فى هذه القضية وجعله كلاما مستأنفاً يوجب صيرورة الكلام مبتدأ منقطعاً وذلك لا يجوز ثم قال تعالى (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) وفيه وجوه (الأول) أن ترك قوله (إن شاء الله) ليس بحسن وذكره أحسن من تركه وقوله (لأقرب من هذا رشداً) المراد منه ذكر هذه الجملة (الثانى) إذا وعدهم بشىء وقال معه إن شاء الله فيقول عسى أن يهدينى ربى لشىء أحسن وأكمل مما وعدتكم به (والثالث) أن قوله (لأقرب من هذا رشداً) إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة أنى نبى من عند الله صادق القول فى ادعاء النبوة ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف ، وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك ، وأما قوله تعالى (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا) فاعلم أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف وفى قوله (ولبثوا فى كهفهم) قولان (الأول) أن هذا حكاية كلام القوم والدليل عليه أنه تعالى قال (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) وكذا إلى أن قال (ولبثوا فى كهفهم) أى أن أولئك الأقوام قالوا ذلك ويؤكده أنه تعالى قال بعده (قل الله أعلم بما لبثوا) وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده أيضاً ما روى فى مصحف عبد الله : وقالوا ولبثوا فى كهفهم (والقول الثانى) أن قوله (ولبثوا فى كهفهم) هو كلام الله تعالى فانه أخبر عن كمية تلك المدة . وأما قوله (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) فهو كلام قد تقدم وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) وقوله (قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض) لا يوجب أن ما قبله حكاية ، وذلك لأنه تعالى أراد (قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض) فارجعوا الى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب .

---

(١) هكذا فى الأصل : اللفظ الواحدة ، والصواب أن يقال اللفظ الواحد ، أو اللفظة الواحدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والكسائى ثلثمائة سنين بغير تنوين والباقون بالتنوين وذلك لأن قوله (سنين) عطف بيان لقوله (ثلثمائة) لأنه لما قال (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة) لم يعرف أنها أيام أم شهور أم سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله (ثلثمائة) فكان هذا عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير أى لبثوا سنين ثلثمائة . وأما وجه قراءة حمزة فهو أن الواجب فى الإضافة ثلثمائة سنة إلا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله (بالأخسرين أعمالا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وازدادوا تسعاً) المعنى وازدادوا تسع سنين فان قالوا : لم لم يقل ثلثمائة وتسع سنين ؟ وما الفائدة فى قوله (وازدادوا تسعاً) ؟ قلنا قال بعضهم : كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية ، وهذا مشكل لأنه لا يصح بالحساب هذا القول ، ويمكن أن يقال : لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين ثم قال (قل الله أعلم بما لبثوا) معناه أنه تعالى أعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيها (١) ، وإنما كان أولى بأن يكون عالما به لأنه موجد للسموات والأرض ومدبر للعالم ، وإذا كان كذلك كان عالما بغيب السموات والأرض فيكون عالما بهذه الواقعة لامحالة ثم قال تعالى (أبصر به وأسمع) وهذه كلمة تذكر فى التعجب ، والمعنى ما أبصره وما أسمعه ، وقد بالغنا فى تفسير كلمة التعجب فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) ثم قال تعالى (مالهم من دونه من ولى) وفيه وجوه (الأول) مالأصحاب الكهف من دون الله من ولى فانه هو الذى يتولى حفظهم فى ذلك النوم الطويل (الثانى) ليس لهؤلاء المختلفين فى مدة لبث أهل الكهف ولى من دون الله يتولى أمرهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم فاذا كانوا محتاجين إلى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير أعلامه (الثالث) أن بعض القوم لما ذكروا فى هذا الباب أقوالا على خلاف قول الله فقد استوجبوا العقاب ، فبين الله أنه ليس لهم من دونه ولى يمنع الله من إنزال العقاب عليهم . ثم قال (ولا يشرك فى حكمه أحداً) والمعنى أنه تعالى لما حكم أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لأحد أن يقول قولا بخلافه . والأصل أن الإثنين إذا كانا لشريكين فان الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذلك مانعاً لكل واحد منهما من إمضاء الأمر على وفق مايريده . وحاصله يرجع إلى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى (ولا يشرك فى حكمه أحداً) وقرأ ابن عامر ولا تشرك بالتاء والجزم على النهى والخطاب عطفا على قوله (ولا تقولن لشىء) أو على قوله (واذكر ربك إذا نسيت) والمعنى ولا تسأل أحداً عما أخبرك الله به من عدة أصحاب الكهف واقتصر على حكمه وبيانه ولا تشرك أحداً فى طلب معرفة تلك الواقعة وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر والمعنى أنه تعالى لايفعل ذلك .

---

(١) فى الأصل من الناس الذين اختلفوا فيه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى زمان أصحاب الكهف وفى مكانهم ، أما الزمان الذى حصلوا فيه ، فقيل إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام وإن موسى ذكرهم فى التوراة ، ولهذا السبب فان اليهود سألوا عنهم ، وقيل إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبر المسيح بخبرهم ثم بعثوا فى الوقت الذى بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح . وحكى القفال هذ القول عن محمد بن اسحق . وقال قوم إنهم لم يموتوا ولا يموتون إلى يوم القيامة . وأما مكان هذا الكهف ، فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمى المنجم أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الروم ، قال فوجه ملك الروم معى أقواماً إلى الموضع الذى يقال إنهم فيه ، قال وإن الرجل الموكل بذلك الموضع فزعنى من الدخول عليهم ، قال فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم قال وعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره ، ثم قال القفال والذى عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف أو موضع آخر ، والذى أخبر الله عنه وجب القطع به ولا عبرة بقول أهل الروم إن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف ، وذكر فى الكشاف عن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله من هو خير منك ، فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا ، فقال لا بن عباس : لا أنتهى حتى أعلم حالهم ، فبعث أناساً فقال لهم اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم ، وأقول العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال ، وإنما يستفاد ذلك من نص ، وذلك مفقود فثبت أنه لا سبيل إليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إعلم أن مدار القول باثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة (أحدها) أنه تعالى قادر على كل الممكنات (والثانى) أنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات (وثالثها) أن كل ما كان ممكن الحصول فى بعض الأوقات كان ممكن الحصول فى سائر الأوقات فاذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة ثبت القول بامكان البعث والقيامة ، فكذلك هاهنا ثبت أنه تعالى عالم قادر على الكل ، وثبت أن بقاء الإنسان حياً فى النوم مدة يوم ممكن فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب أن يكون ممكناً بمعنى أن إله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة . وأما الفلاسفة فانهم يقولون أيضاً لا يبعد وقوع أشكال فلكية غريبة توجب فى هيولى عالم الكون والفساد حصول أحوال غريبة نادرة ، وأقول : هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة فى هذا العالم فسورة بنى إسرائيل اشتملت على الإسراء بجسد محمد ﷺ من مكة إلى الشام وهو حالة عجيبة ، وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم فى النوم مدة ثلثمائة سنة وأزيد وهو أيضاً حالة عجيبة ، وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الأب وهو أيضاً حالة عجيبة .

وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا «٢٧» وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

والمعتمد فى بيان إمكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة فى هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التى ذكرناها .ومما يدل على أن هذا المعنى من الممكنات أن أبا على بن سينا ذكر فى باب الزمان من كتاب الشفاء أن أرسطاطاليس الحكيم ذكر أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف ، ثم قال أبو على ويدل التاريخ على أنهم كانوا قبل أصحاب الكهف .

قوله تعالى ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد فى قصة واحدة ، وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ﷺ إن أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه وأطنب فى جملة هذه الآيات فى بيان أن الذى اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل ، ثم إنه تعالى جعل الأصل فى هذا الباب شيئا واحداً وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذى أوحاه الله إليه وعلى العمل به وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك) وفى الآية مسألة وهى : أن قوله (اتل) يتناول القراءة ويتناول الاتباع أيضا فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذى أوحى إليك والزم العمل به ثم قال (لا مبدل لكلماته) أى يمتنع تطرق التغيير والتبديل إليه وهذه الآية يمكن التمسك بها فى إثبات أن تخصيص النص بالقياس غير جائز لأن قوله (اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك) معناه الزم العمل بمقتضى هذا الكتاب وذلك يقتضى وجوب العمل بمقتضى ظاهره ، فان قيل فيجب ألا يتطرق النسخ إليه قلنا هذا هو مذهب أبى مسلم الأصفهانى فليس يبعد ، وأيضاً فالنسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت فى وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلا .أما قوله (ولن تجد من دونه ملتحداً) اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ قال أهل اللغة هو من لحد وألحد إذا مال ومنه قوله تعالى (لسان الذى يلحدون إليه) والملحد المائل عن الدين والمعنى ولن تجد من دونه ملجأ فى البيان والرشاد .

قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا «٢٨»

ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾

اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك ، فاذا حضرنا لم يحضروا ، وتعين لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية فبين فيها إنه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولا تلتفت الى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم فى نظرك وزنا سواء غابوا أو حضروا . وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل . ونظير هذه الآية قد سبق فى سورة الأنعام وهو قوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) فى تلك الآية نهى الرسول ﷺ عن طردهم وفى هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم فقوله (واصبر نفسك) أصل الصبر الحبس ومنه نهى رسول الله ﷺ عن المصبورة وهى البهيمة تحبس فترمى ، أما قوله (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر بالغدوة بضم الغين والباقون بالغداة وكلاهما لغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (بالغداة والعشى) وجوه : (الأول) المراد كونهم مواظبين على هذا العمل فى كل الأوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى إلا شتم الناس (الثانى) أن المراد صلاة الفجر والعصر (الثالث) المراد أن الغداة هى الوقت الذى ينتقل الإنسان فيه من النوم إلى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من اليقظة إلى النوم ومن الحياة الى الموت والإنسان العاقل يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه ، ثم قال (ولا تعد عيناك عنهم) يقال عداه إذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره وجاء القوم عدا زيداً وإنما عدى بلفظة عن لأنها تفيد المباعدة فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرىء (ولا تعد عينيك) ولا تعد عينيك من أعداه وعداه نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله شعر : فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له

والمقصود من الآية أنه تعالى نهى رسول الله ﷺ عن أن يزدرى فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته فى مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم وقوله (تريد زينة الحياة الدنيا) نصب فى موضع الحال ، يعنى أنك [إن] فعلت ذلك لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ، ولما بالغ فى أمره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات إلى أقوال الاغنياء والمتكبرين فقال (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى هو الذى يخلق الجهل والغفلة فى قلوب الجهال لأن قوله (أغفلنا) يدل على هذا المعنى ، قالت المعتزلة المراد بقوله تعالى (أغفلنا قلبه

عن ذكرنا) أنا وجدنا قلبه غافلا وليس المراد خلق الغفلة فيه ، والدليل عليه ماروى عن عمرو بن معديكرب الزبيدى أنه قال لبنى سليم : قاتلنا كم فما أجبنا كم ، وسألنا كم فما أبخلنا كم ، وهجونا كم فما أفحمنا كم .أى ماوجدنا كم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين .ثم نقول حمل اللفظ على هذا المعنى أولى ويدل عليه وجوه : (الأول) أنه لو كان كذلك لما استحقوا الذم (الثانى) أنه تعالى قال بعد هذه الآية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ولو كان تعالى خلق الغفلة فى قلبه لما صح ذلك (الثالث) لو كان المراد هو أنه تعالى جعل قلبه غافلا لوجب أن يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه . لأن على هذا التقدير يكون ذلك من أفعال المطاوعة ، وهى إنما تعطف بالفاء لا بالواو ، ويقال كسرته فانكسر ودفعته فاندفع ولا يقال وانكسر واندفع (الرابع) قوله تعالى (واتبع هواه) ولو كان تعالى أغفل فى الحقيقة قلبه لم يجز أن يضاف ذلك إلى اتباعه هواه . والجواب : قوله المراد من قوله (أغفلنا) أى وجدناه غافلا ، وليس المراد تحصيل الغفلة فيه . قلنا الجواب عنه من وجهين (الأول) أن الاشترك خلاف الأصل فوجب أن يعتقد أن وزن الأفعال حقيقة فى أحدهما مجاز فى الآخر وجعله حقيقة فى التكوين مجازاً فى الوجدان أولى من العكس وبيانه من وجوه : (أحدها) أن مجيء بناء الأفعال بمعنى التكوين أكثر من مجيئه بمعنى الوجدان والكثرة دليل الرجحان (وثانيها) أن مبادرة الفهم من هذا البناء الى التكوين أكثر من مبادرته إلى الوجدان ومبادرة الفهم دليل الرجحان (وثالثها) أنا إن جعلناه حقيقة فى التكوين أمكن جعله مجازاً فى الوجدان لأن العلم بالشيء تابع لحصول المعلوم ، فجعل اللفظ حقيقة فى المتبوع ومجازا فى التبع موافق للمعقول ، أما لو جعلناه حقيقة فى الوجدان مجازاً فى الايجاد لزم جعله حقيقة فى التبع مجازا فى الأصل وأنه عكس المعقول فثبت أن الأصل جعل هذا البناء حقيقة فى الايجاد لا فى الوجدان (الوجه الثانى) فى الجواب عن السؤال أنا نسلم كون اللفظ مشتركا بالنسبة إلى الايجاد وإلى الوجدان إلا أنا نقول يجب حمل قوله (أغفلنا) على إيجاد الغفلة وذلك لأن الدليل العقلى دل على أنه يمتنع كون العبد موجداً للغفلة فى نفسه والدليل عليه أنه إذا حاول إيجاد الغفلة ، فاما أن يحاول إيجاد مطلق الغفلة أو يحاول إيجاد الغفلة عن شيء معين والأول باطل ، وإلا لم يكن بأن تحصل له الغفلة عن هذا الشيء أولى بأن تحصل له الغفلة عن شيء آخر ،لأن الطبيعة المشترك فيها بين الأنواع الكثيرة تكون نسبتها الى كل تلك الأنواع على السوية ، أما الثانى فهو أيضاً باطل لأن الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات إلا بكونها منتسبة إلى ذلك الشيء المعين بعينه ، فعلى هذا لا يمكنه أن يقصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا إذا تصور أن تلك الغفلة غفلة عن كذا ، ولا يمكنه أن يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا إلا اذا تصور كذا لأن العلم بنسبة أمر إلى أمر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين .فثبت أنه لا يمكنه القصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا مع الشعور بكذا لكن الغفلة عن كذا ضد الشعور بكذا ؛ فثبت

أن العبد لا يمكنه إيجاد هذه الغفلة الا عند اجتماع الضدين وذلك محال ، والموقوف على المحال محال ، فثبت أن العبد غير قادر على إيجاد الغفلة ، فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها فى العباد هو الله ، وهذه نكتة قاطعة فى إثبات هذا المطلوب ، وعند هذا يظهر أن المراد بقوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه) هو إيجاد الغفلة لا وجدانها ، أما حديث المدح والذم فقد عارضناه مراراً وأطواراً بالعلم والداعى ، أماقوله تعالى بعد هذه الآية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فالبحث عنه سيأتى إن شاء الله تعالى ، أما قوله (ولا تطع من أغفلنا قلبه) لو كان المراد إيجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء ، لا ذكر الواو ، فنقول هذا إنما يلزم لو كان خلق الغفلة فى القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى كما أن الكسر من لوازمه حصول الانكسار ، وليس الأمر كذلك لأنه لا يلزم من حصول الغفلة عن الله حصول متابعة الهوى لاحتمال أن يصير غافلا عن ذكر الله ، ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفاً لا ينافى مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال ، وذكر القفال فى تأويل الآية على مذهب المعتزلة وجوها أخرى (فأحدها) أنه تعالى لما صب عليهم الدنيا صباً وأدى ذلك إلى رسوخ الغفلة فى قلوبهم صح على هذا التأويل أنه تعالى حصل الغفلة فى قلوبهم كما فى قوله تعالى (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) ، (والوجه الثانى) أن معنى قوله (أغفلنا) أى تركناه غافلا فلم نسمه بسمة أهل الطهارة والتقوى وهومن قولهم بعير غفل أى لاسمة عليه (وثالثها) أن المراد من قوله أغفلنا قلبه أى خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه فيقال فى (الوجه الأول) إن فتح باب لذات الدنيا عليه هل يؤثر فى حصول الغفلة فى قلبه أو لا يؤثر ، فان أثر كان أثر إيصال اللذات اليه سببا لحصول الغفلة فى قلبه . وذلك عين القول بأنه تعالى فعل ما يوجب حصول الغفلة فى قلبه ، وإن كان لا تأثير له فى حصول هذه الغفلة بطل إسناده اليه ، وقد يقال فى (الوجه الثانى) إن قوله أغفلنا قلبه بمنزلة قوله سودنا قلبه وبيضنا وجهه ولا يفيد إلا ما ذكرناه ، ويقال فى الوجه الثالث إن كان لتلك التخلية أثر فى حصول تلك الغفلة فقد صح قولنا ، وإلا بطل استناد تلك الغفلة إلى الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الحق ويكون مملوءا من الهوى الداعى الى الاشتغال بالخلق وتحقيق القول أن ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة لأن الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة ، والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله ، وما سوى الله فهو ممكن الوجود لذاته . والإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق ، وإذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة فالإعراض عن الحق هو المراد بقوله (أغفلنا قلبه عن ذكرنا) والإقبال على الخلق هو المراد بقوله (واتبع هواه) .

وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا «٢٩»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل (فرطاً) أى مجاوزا للحد من قولهم : فرس فرط ، إذا كان متقدما الخيل ، قال الليث : الفرط الأمر الذى يفرط فيه يقال كل أمر فلان فرط ، وأنشد شعراً :

لقد كلفتنى شططا وأمراً خائبا فرطا

أى مضيعاً ، فقوله وكان أمره فرطا معناه أن الأمر الذى يلزمه الحفظ له والإهتمام به وهو أمر دينه يكون مخصوصا بايقاع التفريط والتقصيرفيه ، وهذه الحالة صفة من لاينظر لدينه وإنما عمله لدنياه . فبين تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم أنهم مقصرون فى مهماتهم معرضون عما وجب عليهم من التدبر فى الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة ، والحاصل أنه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والإعراض عن غير ذكر الله فقال (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) ووصف هؤلاء الأغنياء بالإعراض عن ذكر الله تعالى والإقبال على غير الله وهو قوله (أغفلنا قلبه واتبع هواه) ثم أمر رسوله بمجالسة أولئك والمباعدة عن هؤلاء ، روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كنت جالساً فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضا من العرى وقارىء يقرأ القرآن فجاء رسول الله ﷺ فقال ماذا كنتم تصنعون؟ قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نستمع ، فقال عليه السلام « الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت إلى أن أصبر نفسى معهم » ثم جلس وسطنا وقال « أبشروا ياصعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل الأغنياء بمقدار خمسين ألف سنة » .

قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ فى الآية مسائل ﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تقرير النظم وجوه (الأول) أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لايلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت الفقراء آمنا بك قال بعده (وقل الحق من ربكم) أى قل لهؤلاء إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله فان قبلتموه عاد النفع اليكم وإن لم تقبلوه عاد الضرر اليكم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة (الوجه الثانى) فى تقرير النظم يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله ، والحق الذى

جاءنى من عنده أن أصبر نفسى مع هؤلاء الفقراء ولا أطردهم ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا (والوجه الثالث) فى تقرير النظم أن يكون المراد هو أن الحق الذى جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وأن الله تعالى لم يأذن فى طرد من آمن وعمل صالحاً لأجل أن يدخل فى الإيمان جمع من الكفار ، فان قيل أليس أن العقل يقتضى ترجيح الأهم على المهم فطرد أولئك الفقراء لايوجب إلا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل . أما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر ، وهذا ضرر عظيم ، قلنا : أما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمسلم إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فايمانه ليس بايمان بل هو نفاق قبيح ، فوجب على العاقل أن لايلتفت إلى إيمان من هذا حاله وصفته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة قوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) صريح فى أن الأمر فى الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره . فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن ، ولقد سألنى بعضهم عن هذه الآية فقلت هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لأن الآية صريحة فى أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل أيضاً يدل له ، فان العقل الاختيارى يمتنع حصوله بدون القصد اليه وبدون الاختيار له . اذا عرفت هذا فنقول حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزم أن يكون كل قصد واختيار مسبوقا بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال ، فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى فى العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضرورى والاختيار الضرورى يوجب الفعل فالإنسان شاء أولم يشأ إن لم تحصل فى قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل ، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه ، فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل ، ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة . فالإنسان مضطر فى صورة مختار ، ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله هذا المعنى فى باب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فقال : فان قلت إنى أجد فى نفسى وجدانا ضرورياً أنى إن شئت الفعل قدرت على الفعل وان شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بى لابغيرى . وأجاب عنه ، وقال : هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة ، وإن لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل . بل العقل يشهد بأنه يشاء الفعل لابسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة ، وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار فى هذا المقام لحصول المشيئة فى القلب أمر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضاً أمر لازم وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ الآية تدل على أن صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعى محال .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن صيغة الأمر لا لمعنى الطلب فى كتاب الله كثيرة ثم نقل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أنها تدل على أنه تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين، بل نفع الإيمان يعود عليهم ، وضرر الكفر يعود عليهم ، كما قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) ، واعلم أنه تعالى لما وصف الكفر والإيمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة ، وبذكر الوعد على الايمان والعمل الصالح . أما الوعيد فقوله تعالى (إنا أعتدنا للظالمين ناراً) يقول أعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة فى غير موضعها والأنفة فى غير محلها فقد ما استحسن بهواه وأنف عن قبول الحق لأجل أن الذين قبلوه فقراء ومساكين ، فهذا كله ظلم ووضع للشىء فى غير موضعه . فأخبر تعالى أنه أعد لهؤلاء الأقوام ناراً وهى الجحيم ، ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين : (الصفة الأولى) قوله (أحاط بهم سرادقها) والسرادق هو الحجزة التى تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئاً شبيهاً بذلك يحيط بهم من جميع الجهات ، والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة بهم من كل الجوانب . وقال بعضهم المراد من هذا السرادق الدخان الذى وصفه الله فى قوله (انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب) وقالوا هذه الاحاطة بهم إنما تكون قبل دخولهم النار فيغشاهم هذا الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط (والصفة الثانية) لهذه النار قوله (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل) قيل فى حديث مرفوع إنه دردى الزيت وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل ، قال أبو عبيدة والأخفش كل شىء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل ، وقيل إنه الصديد والقيح ، وقيل إنه ضرب من القطران . ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لأنهم إذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى (تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية) ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم (أن أفيضوا علينا من الماء) وقال فى آية أخرى (سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) فاذا استغاثوا من حرجهنم صب عليهم القطران الذى يعم كل أبدانهم كالقميص وقوله تعالى (يغاثوا بماء كالمهل) وارد على سبيل الاستهزاء كقوله : تحية بينهم ضرب وجيع .

ثم قال تعالى (بئس الشراب) أى أن الماء الذى هو كالمهل بئس الشراب لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ فى احتراق الأجسام مبلغاً عظيماً ثم قال تعالى (وساءت مرتفقاً) قال قائلون ساءت النار منزلا ومجتمعاً للرفقة لأن أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنة قال تعالى فى صفة أهل الجنة (وحسن أولئك رفيقاً) وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا «٣٠» أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا «٣١»

والمعنى بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة وقال آخرون مرتفقاً أى متكأ ، وسمى المرفق مرفقاً لأنه يتكأ عليه ،فالاتكاء إنما يكون للاستراحة ، والمرتفق موضع الاستراحة والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يدل على أن العمل الصالح مغاير للايمان لأن العطف يوجب المغايرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله : (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) ظاهره يقتضى أنه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله أجراً ، وعند أصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد وعند المعتزلة لذات الفعل وهو باطل لأن نعم الله كثيرة وهى موجبة للشكر والعبودية فلايصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لأن أداء الواجب لايوجب شيئاً آخر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ نظير قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الخ قول الشاعر :

إن الخليفة إن الله سربله ... سربال ملك به ترجى الخواتيم

كرر أن تأكيداً للاعمال والجزاء عليها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أولئك خبر إن وإنا لانضيع اعتراض ولك أن تجعل إنا لانضيع وأولئك خبرين معاً ولك أن تجعل أولئك كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم واعلم أنه تعالى لما أثبت الأجر المبهم أردفه بالتفصيل من وجوه : (أولها) صفة مكانهم وهو قوله (أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار) والعدن فى اللغة عبارة عن الإقامة فيجوز أن يكون المعنى أولئك لهم جنات إقامة كما يقال هذه دار إقامة ، ويجوز أن يكون العدن إسما لموضع معين من الجنة

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا «٣٢» كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا «٣٣» وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا «٣٤» وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن

وهو وسطها وأشرف أماكنها وقد استقصينا فيه فيما تقدم وقوله (جنات) لفظ جمع فيمكن أن يكون المراد ماقاله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ويمكن أن يكون المراد أن نصيب كل واحد من المكلفين جنة على حدة وذكر أن من صفات تلك الجنات أن الأنهار تجرى من تحتها وذلك لأن أفضل المساكن فى الدنيا البساتين التى يجرى فيها الأنهار (وثانيها) إن لباس أهل الدنيا إما لباس التحلى ، وإما لباس التستر ، أما لباس التحلى فقال تعالى فى صفته (يحلون فيها من أساور من ذهب) والمعنى أنه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة وقال بعضهم على كل واحد منهم ثلاثة أسورة سوار من ذهب لأجل هذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة) وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى (ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ، وأما لباس التستر فقوله (ويلبسون ثياباً خضرامن سندس واستبرق) والمراد من سندس الآخرة واستبرق الآخرة والأول هو الديباج الرقيق وهو الخز والثانى هو الديباج الصفيق وقيل أصله فارسى معرب وهو استبره أى غليظ فان قيل ما السبب فى أنه تعالى قال فى الحلى (يحلون) على فعل مالم يسم فاعله وقال فى السندس والاستبرق ويلبسون فأضاف اللبس اليهم قلنا يحتمل أن يكون اللبس اشارة الى ما استوجبوه بعملهم وأن يكون الحلى اشارة الى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم (وثالثها) كيفية جلوسهم فقال فى صفتها متكئين فيها على الأرائك قالوا الأرائك جمع أريكة وهى سرير فى حجلة ، أما للسرير وحده فلا يسمى أريكة . ولما وصف الله تعالى هذه الأقسام قال (نعم الثواب وحسنت مرتفقاً) والمراد أن يكون هذا فى مقابلة ما تقدم ذكره من قوله (وساءت مرتفقاً) .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن

تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا «٣٥» وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا «٣٦» قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا «٣٧» لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا «٣٨» وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا «٣٩» فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا «٤٠» أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا «٤١» وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا «٤٢» وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا «٤٣» هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا «٤٤»

تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لاقوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيدا زلقاً أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا ﴾ .

إعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لايوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، أما الذى يجب

حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور فى الآية فقال (واضرب لهم مثلا رجلين) أى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين فى بنى اسرائيل أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله تعالى (قال قائل منهم انى كان لى قرين) ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر أرضا فقال المؤمن اللهم إنى أشترى منك أرضاً فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارا بألف فقال المؤمن اللهم إنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال المؤمن اللهم إنى جعلت ألفاً صداقاً للحور العين ثم اشترى أخوه خدماً وضياعا بألف فقال المؤمن اللهم إنى اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به ثم أصابه حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله وقوله تعالى (جعلنا لأحدهما جنتين) ، فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات : (الصفة الأولى) كونها جنة وسمى البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار وأصل الكلمة من الستر والتغطية ، (والصفة الثانية) قوله (وحففناهما بنخل) أى وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين نظيره قوله تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش) أى واقفين حول العرش محيطين به ، والحفاف جانب الشىء والأحفة جمع فمعنى قول القائل حف به القوم أى صاروا فى أحفته وهى جوانبه قال الشاعر :

له لحظات فى حفافى سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل

قال صاحب الكشاف حفوه إذا طافوا به ، وحففته بهم أى جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا كقوله غشيته وغشيته به ، قال وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين فى كرومهم وهى أن يجعلوها محفوفة بالأشجار المثمرة ، وهو أيضاً حسن فى المنظر (الصفة الثالثة) (وجعلنا بينهما زرعا) والمقصود منه أمور (أحدها) أن تكون تلك الأرض جامعة للأقوات والفواكه (وثانيها) أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف ومع ذلك فانها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض (وثالثها) أن مثل هذه الأرض تأتى فى كل وقت بمنفعة أخرى وهى ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة (الصفة الرابعة) قوله تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) كلا إسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان ، وكلتا اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان . وإذا أضيفا إلى المظهر كانا بالألف فى الأحوال الثلاثة كقولك جاءنى كلا أخويك ، ورأيت كلا أخويك ، ومررت بكلا أخويك . وجاءنى كلتا أختيك ، ورأيت كلتا أختيك ، ومررت بكلتا أختيك ، وإذا أضيفا إلى المضمر كانا فى الرفع بالألف ، وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالألف فى الأحوال الثلاثة أيضا . وقوله (آتت أكلها) حمل على اللفظ لأن كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز ، وقوله (ولم تظلم

منه شيئاً) أى لم تنقص والظلم النقصان ، يقول الرجل ظلمنى حق أى نقصنى (الصفة الخامسة) قوله تعالى (وفجرنا خلالهما نهراً) أى كان النهر يجرى فى داخل تلك الجنتين . وفى قراءة يعقوب وفجرنا مخففة وفى قراءة الباقين وفجرنا مشددة والتخفيف هو الأصل لأنه نهر واحد والتشديد على المبالغة لأن النهر يمتد فيكون كأنهار و(خلالهما) أى وسطهما وبينهما . ومنه قوله تعالى (ولأوضعوا خلالكم). ومنه يقال خللت القوم أى دخلت بين القوم (الصفة السادسة) قوله تعالى (وكان له ثمر) قرأ عاصم بفتح الثاء والميم فى الموضعين وهو جمع ثمار أو ثمرة ، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم فى الحرفين والباقون بضم الثاء والميم فى الحرفين ذكر أهل اللغة : أنه بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ، وبالفتح حمل الشجر قال قطرب كان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد ، وأنشد للحارث بن كلدة : ولقد رأيت معاشراً قد أثمروا مالا وولداً

وقال النابغة :

مهلا فداء لك الأقوام كلهم ما أثمروه أمن مال ومن ولد

وقوله (وكان له ثمر) أى أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثر . وعن مجاهد الذهب والفضة أى كان مع الجنتين أشياء من النقود ، ولما ذكر الله تعالى هذه الصفات قال بعده (فقال له صاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) والمعنى أن المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله وبالبعث والمحاورة مراجعة الكلام من قولهم : حار إذا رجع ، قال تعالى (إنه ظن أن لن يحور بلى) ، فذكر تعالى أن عند هذه المحاورة قال الكافر (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه ، وحاصل الكلام أن الكافر ترفع على المؤمن بجاهه وماله ، ثم إنه أراد أن يظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال (ودخل جنته) وأراه إياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور وأخبره بصنوف مايملكه من المال ، فان قيل لم أفرد الجنة بعد التثنية قلنا المراد أنه ليس له جنة ولا نصيب فى الجنة التى وعد المتقون المؤمنون وهذا الذى ملكه فى الدنيا هو جنته لاغير ولم يقصد الجنتين ولا واحداً منهما ، ثم قال تعالى (وهو ظالم لنفسه) وهو اعتراض وقع فى أثناء الكلام ، والمراد التنبيه على أنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى الكفران والجحود لقدرته على البعث كان واضعا تلك النعم فى غير موضعها ، ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال (وما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة) فجمع بين هذين ، فالأول قطعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد أبد مع أنها متغيرة متبدلة . فان قيل هب أنه شك فى القيامة فكيف قال ماأظن أن تبيد هـــذه أبداً مع أن الحدس يدل على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية ؟ قلنا المراد أنها لاتبيد مدة حياته ووجوده ، ثم قال (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) أى مرجعاً وعاقبة وانتصابه على التمييز ونظيره قوله تعالى (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) وقوله (لأوتين مالا

وولدا) والسبب فى وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لما أعطاه المال فى الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له ، والاستحقاق باق بعد الموت فوجب حصول العطاء . والمقدمة الأولى كاذبة فان فتح باب الدنيا على الإنسان يكون فى أكثر الأمر للاستدراج والتملية ، قرأ نافع وابن كثير خيراً منهما ، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين ، والباقون منها ، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التى دخلها ، ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن الإنسان الأول قال (وما أظن الساعة قائمة) وهذا الثانى كفره حيث قال (أكفرت بالذى خلقك من تراب) وهذا يدل على أن الشاك فى حصول البعث كافر .

﴿ البحث الثانى ﴾ هذا الاستدلال يحتمل وجهين (الأول) يرجع إلى الطريقة المذكورة فى القرآن وهو أنه تعالى لما قدر على الابتداء وجب أن يقدر على الإعادة فقوله (خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) إشارة إلى خلق الإنسان فى الابتداء (الوجه الثانى) أنه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثاً ، وإنما خلقك للعبودية وإذا خلقك لهذا المعنى وجب أن يحصل للمطيع ثواب وللمذنب عقاب وتقريره ماذكرناه فى سورة يس ، ويدل على هذا الوجه قوله (ثم سواك رجلا) أى هيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهـل يجوز فى العقل مع هذه الحالة إهماله أمرك ثم قال المؤمن (لكنا هو الله ربى) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال أهل اللغة لكنا أصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فاجتمعت النونان فادغمت نون لكن فى النون التى بعدها ومثله :

وتقليننى لكن إياك لا أقلى

أى لكن أنا لا أقليك وهو فى قوله (هو الله ربى) ضمير الشأن وقوله (الله ربى) جملة من المبتدأ والخبر واقعة فى معرض الخبر لقوله هو فان قيل قوله (لكنا) استدراك لماذا ؟ قلنا لقوله (أكفرت) كأنه قال لأخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر .

﴿ والبحث الثانى ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمى ونافع فى رواية (لكناهو الله ربى) فى الوصل بالألف . وفى قراءة الباقين (لكن هو الله ربى) بغير ألف والمعنى واحد ثم قال المؤمن (ولا أشرك بربى أحداً) ذكر القفال فيه وجوهاً : (أحدها) إنى لا أرى الفقر والغنى إلا منه فأحمده إذا أعطى واصبر إذا ابتلى ولا أتكبر عندما ينعم على ولا أرى كثرة المال والأعوان من نفسى وذلك لأن الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى إعطاء العز والغنى . (وثانيها) لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء . (وثالثها) أن هذا الكافر لما عجز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساوياً للخلق فى هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر (ولولا إذ دخلت جنتك

قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فأمره أن يقول هذين الكلامين الأول قوله (ماشاء الله) وفيه وجهان : (الأول) أن تكون (ما) شرطية ويكون الجزاء محذوفا والتقدير أى شىء شاء الله كان . (والثانى) أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف وتقديره الأمر ماشاء الله ، واحتج أصحابنا بهذا على أن كل ما أراده الله وقع وكل مالم يرده لم يقع وهـــذا يدل على أنه ما أراد الله الايمان من الكافر وهو صريح فى إبطال قول المعتزلة أجاب الكعبى عنه بأن تأويل قولهم ماشاء بما تولى فعله لا بما هو فعل العباد كما قالوا لا مرد لأمر الله لم يرد ما أمر به العباد ثم قال لا يمتنع أن يحصل فى سلطانه ما لا يريده كما يحصل فيه ما نهى عنه ، واعلم أن الذى ذكر الكعبى ليس جواباً عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص وقياس الارادة على الأمر باطل لأن هـذا النص دال على أنه لا يوجد إلا ما أراده الله وليس فى النصوص ما يدل على أنه لايدخل فى الوجود إلا ما أمر به فظهر الفرق وأجاب القفال عنه بأن قال هلا إذا دخلت بستانك قلت ما شاء الله كقول الانسان هذه الأشياء الموجودة فى هذا البســـتان ما شاء الله ومثله قوله (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) وهم ثلاثة وقوله (وقولوا حطة) أى قولوا هذه حطة وإذا كان كذلك كان المراد من هذا الشىء الموجود فى البستان شىء شاء الله تكوينه وعلى هذا التقدير لم يلزم أن يقال كل ماشاء الله وقع لأن هـذا الحكم غير عام فى الكل بل مختص بالأشياء المشاهدة فى البستان وهـذا التأويل الذى ذكره القفال أحسن بكثير مما ذكره الجبائى والكعبى ، وأقول إنه على جوابه لايدفع الإشكال على المعتزلة لأن عمارة ذلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديدفلا يصح أيضاً على قول المعتزلة أن يقال هذا واقع بمشيئة الله . اللهم إلا أن نقول المراد أن هـذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى إلا أن هـذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل (والكلام الثانى) الذى أمر المؤمن الكافر بأن يقوله هو قوله (لا قوة إلا بالله) أى لاقوة لأحد على أمر من الأمور إلا باعانة الله وإقداره . والمقصود إنه قال المؤمن للكافر هلاقلت عند دخول جنتك الأمر ما شاء الله والكائن ماقدره الله اعترافاً بأنها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فان أمرها بيده إن شاء تركها وإن شاء خربها ، وهلا قلت لاقوة إلا بالله اقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة الله وتأييده لايقوى أحد فى بدنه ولافى ملك يده إلا بالله ثم ان المؤمن لما علم الكافر الايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال (إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً) من قرأ أقل بالنصب فقد جعل أنا فصلا وأقل مفعولا ثانيا ومن قرأ أقل بالرفع جعل قوله (أنا) مبتدأ وقوله (أقل) خبر والجملة مفعولا ثانياً لترن واعلم أن ذكر الولد ههنا يدل على أن المراد بالنفر المذكور فى قوله (وأعز نفراً) الأعوان والأولاد كأنه يقول له إن كنت ترانى (أقل مالا وولداً) وأنصاراً فى الدنيا الفانية (فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك) إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة . ويرسل على جنتك (حسباناً من السماء) أى عذاباً وتخريباً والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب

أى مقداراً قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها . قال الزجاج عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك وقيل حسباناً أى مرامى الواحد منها حسبانة وهى الصواعق (فتصبح صعيداً زلقاً) أى فتصبح جنتك أرضاً ملساء لانبات فيها والصعيد وجه الأرض ، زلقاً أى تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقاً ثم قال (أو يصبح ماؤها غوراً) أى يغوص ويسفل فى الأرض (فلن تستطيع له طلباً) أى فيصير بحيث لا تقدر على رده إلى موضعه قال أهل اللغة فى قوله (ماؤها غوراً) أى غائراً وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال فلان زور وصوم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ويقال نساء نوح أى نوائح ثم أخبر الله تعالى أنه حقق ماقدره هذا المؤمن فقال (وأحيط بثمره) وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية وأصله من إحاطة العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله (إلا أن يحاط بكم) ومثله قولهم أتى عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم . ثم قال تعالى (فأصبح يقلب كفيه) وهو كناية عن الندم والحسرة فان من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى ، وقد يمسح إحداهما على الأخرى ، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق فى الجنة التى وعظه أخوه فيها وعذله (وهى خاوية على عروشها) أى ساقطة على عروشها فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ويمكن أن يراد من العروش السقوف وهى سقطت على الجدران . وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها ، ثم قال تعالى (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً) والمعنى أن المؤمن لما قال (لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا) فهذا الكافر تذكر كلامه وقال (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) فان قيل هذا الكلام يوهم أنه إنما هلكت جنته بشؤم شركه وليس الأمر كذلك لأن أنواع البلاء أكثرها إنما يقع للمؤمنين قال تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » وأيضاً فلما قال (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) فقد ندم على الشرك ورغب فى التوحيد فوجب أن يصير مؤمناً فلم قال بعده (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) والجواب عن (السؤال الأول) أنه لما عظمت حسرته لأجل أنه أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضاً فى كل عمره عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقى الحرمان عن الدنيا والدين عليه . فلهذا السبب عظمت حسرته والجواب عن (السؤال الثانى) أنه إنما ندم على الشرك لاعتقاده انه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو إنما رغب فى التوحيد والرد عن الشرك لأجل طلب الدنيا فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولا عند الله ثم قال تعالى (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ حمزة والكسائى (ولم يكن له فئة) بالياء لأن قوله (فئة) جمع فاذا

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

تقدم على الكناية جاز التذكير ، ولأنه رعاية للمعنى . والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لأن الكناية عائدة إلى اللفظة وهى الفئة .

﴿البحث الثانى﴾ المراد من قوله (ينصرونه من دون الله) هو أنه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله أى هو الله تعالى وحده القادر على نصرته ولا يقدر أحد غيره أن ينصره ثم قال تعالى (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبى)

﴿المسألة الأولى﴾ اختلف القراء فى ثلاثة مواضع من هذه الآية (أولها) فى لفظ الولاية ففى قراءة حمزة والكسائى بكسر الواو وفى قراءة الباقين بالفتح وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال كسر الواو لحن قال صاحب الكشاف الولاية بالفتح النصرة والتولى وبالكسر السلطان والملك (وثانيها) قرأ أبو عمرو والكسائى قوله الحق بالرفع والتقدير هنالك الولاية الحق لله وقرأ الباقون بالجر صفة لله (وثالثها) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائى وابن عامر عقباً بضم القاف وقرأ عاصم وحمزة عقبى بتسكين القاف .

﴿المسألة الثانية﴾ (هنالك الولاية لله) فيه وجوه (الأول) أنه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ماذكر علمنا أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر وعرفنا أن الأمر هكذا يكون فى حق كل مؤمن وكافر فقال (هنالك الولاية لله الحق) أى فى مثل ذلك الوقت وفى مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالى أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار إليهم فقوله هنالك إشارة إلى الموضع والوقت الذى يريد الله إظهار كرامة أوليائه وإذلال أعدائه [فيهما] (والوجه الثانى) فى التأويل أن يكون المعنى فى مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويلتجىء إليه كل محتاج مضطر يعنى أن قوله (ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) كلمة ألجىء إليها ذلك الكافر فقالها جزعاً مما ساقه اليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها (والوجه الثالث) المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفى صدورهم من أعدائهم يعنى أنه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فى قوله (فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء) ويعضده قوله (هو خير ثواباً وخير عقبى) أى لأوليائه (والوجه الرابع) أن قوله هنالك إشارة إلى الدار الآخرة أى فى تلك الدار الآخرة الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم لله ثم قال تعالى (هو خير ثواباً أى فى الآخرة لمن آمن به والتجأ اليه (وخير عقبى) أى هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه وقد ذكرنا أنه قرىء عقبى بضم القاف وسكونها وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة (١) .

قوله تعالى : ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض

(١) عقبى رسمت فى المصحف هكذا (عقبا) بالألف وهى ترسم إملاء (عقبى) بالياء إذا سكنت القاف فى قراءة عاصم وحمزة على زنة فعلى ، وأما إذا ضمت القاف فتكون جمع عقبي وترسم بالألف حينئذ فى قراءة الباقين .

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا «٤٥» الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا «٤٦»

فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾

اعلم أن المقصود : اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال (واضرب لهم) أى لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين (مثل الحياة الدنيا) ثم ذكر المثل فقال (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) وحينئذ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره كما قال تعالى (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ثم إذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيما ، وهو النبت المتكسر المتفتت . ومنه قوله : هشمت أنفه وهشمت الثريد . وأنشد :

عمرو الذى هشم الثريد لأهله ورجال مكة مسنتون عجاف

وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب (وكان الله على كل شيء مقتدراً) بتكوينه أولا وتنميته وسطاً وإبطاله آخراً وأحوال الدنيا أيضاً كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تنتهى إلى الهلاك والفناء ؛ ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به . والباء فى قوله (فاختلط به نبات الأرض) فيه وجوه (الأول) التقدير فاختلط بعض أنواع النبات بسائر الأنواع بسبب هذا الماء وذلك لأن عند نزول المطر يقوى النبات ويختلط بعضه بالبعض ويشتبك بعضه بالبعض ويصير فى المنظر فى غاية الحسن والزينة (والثانى) فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفا . وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الأرض ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منها بصفة صاحبه .

قوله تعالى ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾

لما بين تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل وسنعقد منه قياس الإنتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ينتج إنتاجا بديهياً أن المال والبنين سريعة الانقضاء والإنقراض . ومن المقتضى البديهى أن ما كان كذلك فانه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له

فى نظره وزناً فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد ثم ذكر مايدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الأغنياء فقال (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) وتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقى خير من المنقرض المنقضى وهذا معلوم بالضرورة ، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة ، لأن خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة فى تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) فى بيان أن الادراكات العقلية أفضل من الحسية وإذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هى السعادات الأخروية فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية والله أعلم . والمفسرون ذكروا فى الباقيات الصالحات أقوالا قيل إنها قولنا « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » وللشيخ الغزالى رحمه الله فى تفسير هذه الكلمات وجه لطيف ، فقال روى أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر مرات ، فاذا قال والحمد لله صارت عشرين ، فاذا قال ولا إله إلا الله صارت ثلاثين ، فاذا قال والله أكبر صارت أربعين . قال وتحقيق القول فيه أن أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق فى معرفة الله وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه سبحانه منزهاً عن كل مالا ينبغى فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بأن الحق سبحانه مع كونه منزهاً عن كل مالا ينبغى فهو المبدأ لإفادة كل ماينبغى ولإفاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة فلا جرم قلنا تضاعف الثواب فاذا قال مع ذلك ولا إله إلا الله فقد أقر بأن الذى تنزه عن كل مالا ينبغى فهو المبدأ لكل ماينبغى وليس فى الوجود موجود هكذا إلا الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال والله أكبر معناه أنه أكبر وأعظم من أن يصل العقل إلى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة لاجرم صارت درجات الثواب أربعة (والقول الثانى) أن الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس (والقول الثالث) أنها الطيب من القول كما قال تعالى (وهدوا إلى الطيب من القول) (والقول الرابع) أن كل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بمعرفة الله وبمحبته وخدمته فهو الباقيات الصالحات وكل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك وذلك أن كل ماسوى الحق سبحانه فهو فان لذاته هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات اليه عملا باطلا وسعياً ضائعا . أما الحق لذاته فهو الباقى لايقبل الزوال لاجرم كان الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وطاعته هو الذى يبقى بقاء لايزول ولا يفنى ثم قال تعالى (خير عند ربك ثوابا وخير أملا) أى كل عمل أريد به وجه الله فلا شك أن مايتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الأمل يكون خيراً وأفضل ، لأن صاحب تلك الأعمال يؤمل فى الدنيا ثواب الله ونصيبه فى الآخرة .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا «٤٧» وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا «٤٨» وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا «٤٩»

قوله تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين خساسة الدنيا وشرف القيامة أردفه بأحوال القيامة فقال (ويوم نسير الجبال) والمقصود منه الرد على المشركين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأعوان واختلفوا فى الناصب لقوله (ويوم نسير الجبال) على وجوه : (أحدها) أنه يكون التقدير واذكر لهم (يوم نسير الجبال) عطفا على قوله (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) . (الثانى) أنه يكون التقدير (ويوم نسير الجبال) حصل كذا وكذا يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) لأن القول مضمر فى هذا الموضع فكان المعنى أنه يقال لهم هذا فى هذا الموضع (الثالث) أن يكون التقدير (خير أملا) فى (يوم نسير الجبال) والأول أظهر . إذا عرفت هذا فنقول : إنه ذكر فى الآية من أحوال القيامة أنواعا (النوع الأول) قوله (ويوم نسير الجبال) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير على فعل ما لم يسم فاعله الجبال بالرفع باسناد تسير إليه اعتباراً بقوله تعالى (وإذا الجبال سيرت) والباقون نسير باسناد فعل التسيير إلى نفسه [تعالى و] الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير ، والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتباراً بقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) والمعنى واحد لأنها إذا سيرت فمسيرها ليس إلا الله سبحانه . ونقل صاحب الكشاف قراءة أخرى وهى تسير الجبال باسناد تسير الى الجبال .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (ويوم نسير الجبال) ليس فى لفظ الآية ما يدل على أنها إلى أين تسير ، فيحتمل أن يقال إنه تعالى يسيرها الى الموضع الذى يريده ولم يبين ذلك الموضع لخلقه

والحق أن المراد أنه تعالى يسيرها إلى العدم لقوله تعالى (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعا صفصفاً لاترى فيها عوجا ولا أمتا) ولقوله (وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) و (النوع الثانى) من أحوال القيامة قوله تعالى (وترى الأرض بارزة) وفى تفسيره وجوه : (أحدها) أنه لم يبق على وجهها شىء من العمارات، ولا شىء من الجبال، ولا شىء من الأشجار، فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها، وهو المراد من قوله (لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً) (وثانيها) أن المراد من كونها بارزة أنها أبرزت ما فى بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فهى بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف، ودليله قوله تعالى (وألقت ما فيها وتخلت) وقوله (وأخرجت الأرض أثقالها) وقوله (وبرزوا لله جميعاً). (وثالثها) أن وجوه الأرض كانت مستورة بالجبال والبحار، فلما أفنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد أن كانت مستورة و (النوع الثالث) من أحوال القيامة قوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم أحداً، أى لم نترك من الأولين والآخرين أحداً إلا وجمعناهم لذلك اليوم، ونظيره قوله تعالى (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) ومعنى لم نغادر لم نترك، يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر ترك الوفاء، ومنه الغدير لأنه ما تركته السيول، ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لأنها تجعلها خلفها.

ولما ذكر الله تعالى حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم، فقال (وعرضوا على ربك صفاً) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير الصف وجوه (أحدها) أنه تعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضاً. قال القفال ويشبه أن يكون الصف راجعا الى الظهور والبروز، ومنه اشتق الصفصف للصحراء (وثانيها) لا يبعد أن يكون الخلق صفوفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التى يكون بعضها خلف بعض، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفاً صفوفا كقوله (يخرجكم طفلا) أى أطفالا (وثالثها) صفا أى قياما، كما قال تعالى (فاذكروا اسم الله عليها صواف) قالوا قياما،

﴿المسأله الثانية﴾ قالت المشبهة قوله تعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) يدل على أنه تعالى يحضر فى ذلك المكان وتعرض عليه أهل القيامة صفاً، وكذلك قوله تعالى (لقد جئتمونا) يدل على أنه تعالى يحضر فى ذلك المكان، وأجيب عنه بأنه تعالى جعل وقوفهم فى الموضع الذى يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضاً عليه، لا على أنه تعالى يحضر فى مكان وعرضوا عليه ليراهم بعد أن لم يكن يراهم، ثم قال تعالى (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) وليس المراد حصول المساواة من كل الوجوه، لأنهم خلقوا صغاراً ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد أنه قال للمشركين المنكرين للبعث المفتخرين فى الدنيا على فقراء المؤمنين بالأموال والأنصار

(لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان ونظيره قوله تعالى (لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) وقال تعالى (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ـ الى قوله ـ ويأتينا فرداً) ثم قال تعالى (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) أى كنتم مع التعزز على المؤمنين بالأموال والأنصار تنكرون البعث والقيامة فالآن قد تركتم الأموال والأنصار فى الدنيا وشاهدتم أن البعث والقيامة حق ، ثم قال تعالى (ووضع الكتاب) والمراد أنه يوضع فى هذا اليوم كتاب كل إنسان فى يده إما فى اليمين أو فى الشمال ، والمراد الجنس وهو صحف الأعمال (وترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى خائفين مما فى الكتاب من أعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون ، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون ياويلتنا ينادون هلكتهم التى هلكوها خاصة من بين الهلكات (مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وهى عبارة عن الإحاطة بمعنى لا يترك شيئاً من المعاصى سواء كانت صغيرة أو كبيرة إلا وهى مذكورة فى هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) وقوله (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وإدخال تاء التأنيث فى الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة (إلا أحصاها) إلا ضبطها وحصرها ، قال بعض العلماء : ضجوا من الصغائر قبل الكبائر(١) . لأن تلك الصغائر هى التى جرتهم الى الكبائر فاحترزوا من الصغائر جداً (ووجدوا ما عملوا حاضرا) فى الصحف عتيداً أو جزاء ما عملوا (ولا يظلم ربك أحداً) معناه أنه لا يكتب عليه مالم يفعل ، ولا يزيد فى عقابه المستحق ، ولا يعذب أحداً بجرم غيره ، بقى فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الجبائى هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة فى مسائل : (أحدها) أنه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالماً (وثانيها) أنه لا يعذب الأطفال بغير ذنب (وثالثها) بطلان قولهم لله أن يفعل مايشاء ويعذب من غير جرم لأن الخلق خلقه إذ لو كان كذلك لما كان لنفى الظلم عنه معنى لأن بتقدير أنه إذا فعل أى شىء أراد لم يكن ظلماً منه لم يكن لقوله إنه لا يظلم فائدة فيقال له (أما الجواب) عن الأولين فهو المعارضة بالعلم والداعى ، وأما الجواب عن هذا الثالث فهو أنه تعالى قال (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ولم يدل هذا على أن اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عن رسول الله ﷺ أنه قال « يحاسب الناس فى القيامة على ثلاثة(٢) يوسف ، وأيوب ، وسليمان . فيدعو بالمملوك ويقول له ماشغلك عنى فيقول جعلتنى عبداً للآدمى فلم تفرغنى فيدعو يوسف السلام ، ويقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك عن عبادتى فيؤمر به الى النار ،

---

(١) نظير هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أيحاسب الانسان على ما يتكلم به ؟ فقال « وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم » والحصائد جمع حصيدة ، وهى الكلمة الهيتة . (٢) أى ثلاثة صنوف ومثل .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا «٥٠» مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا «٥١» وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا «٥٢» وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا

ثم يدعو بالمبتلى فاذا قال شغلتنى بالبلاء دعا بأيوب عليه السلام فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك عن عبادتى فيؤمر به الى النار ، ثم يؤتى بالملك فى الدنيا مع ما آتاه الله من الغنى والسعة ،فيقول ماذا عملت فيما آتيتك فيقول شغلنى الملك عن ذلك فيدعى بسليمان عليه السلام فيقول هذا عبدى سليمان آتيته أكثر ما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتى اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار » ، وعن معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال « لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن جسده فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه كيف عمل به »

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على إثبات صغائر وكبائر فى الذنوب ، وهذا متفق عليه بين المسلمين إلا أنهم اختلفوا فى تفسيره فقالت المعتزلة الكبيرة مايزيد عقابه على ثواب فاعله ، والصغيرة ماينقص عقابه عن ثواب فاعله ، واعلم أن هذا الحد إنما يصح لو ثبت أن الفعل يوجب ثواباً وعقاباً وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها فى سورة البقرة ، فى إبطال القول بالإحباط والتكفير بل الحق عندنا أن الطاعات محصورة فى نوعين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فكل ماكان أقوى فى كونه جهلا بالله كان أعظم فى كونه كبيرة ، وكل ما كان أقوى فى كونه إضرارا بالغير كان أكثر فى كونه ذنبا أو معصية فهذا هو الضبط .

قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا . ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا . ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتهم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها

أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا «٥٣»

ولم يجدوا عنها مصرفا) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى ، وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتنى من نار وخلقته من طين فأنا أشرف منه فى الأصل والنسب فكيف أسجد وكيف أتواضع له ! وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس مع هؤلاء الفقراء مع أنا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيهاً على أن هذه الطريقة هى بعينها طريقة إبليس ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الإقتداء بها فى قوله (أفتتخذونه وذريته أولياء) فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر ، وذكر القاضى وجهاً آخر فقال إنه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجرى عند الحشر ووضع الكتاب وكأن الله تعالى يريد أن يذكر ههنا أنه ينادى المشركين ويقول لهم أين شركائى الذى زعمتم وكان قد علم تعالى أن إبليس هو الذى يحمل الانسان على إثبات هؤلاء الشركاء ، لاجرم قدم قصته فى هذه الآية إتماماً لذلك الغرض ثم قال القاضى وهذه القصة وإن كان تعالى قد كررها فى سور كثيرة إلا أن فى كل موضع منها فائدة مجددة .

(المسألة الثانية) أنه تعالى بين فى هذه الآية أن إبليس كان من الجن وللناس فى هذه المسألة ثلاثة أقوال (الأول) أنه من الملائكة وكونه من الملائكة لاينافى كونه من الجن ولهم فيه وجوه (الأول) أن قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) (وجعلوا لله شركاء الجن) (والثانى) أن الجن سموا جناً للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون فى الجن (الثالث) أنه كان خازن الجنة ونسب إلى الجنة كقولهم كوفى وبصرى وعن سعيد بن جبير أنه كان من الجنانين الذين يعملون فى الجنات حى من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذخلقوا رواه القاضى فى تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير (والقول الثانى) أنه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من نار وهو أبوهم (والقول الثالث) قول من قال كان من الملائكة فمسخ وغير . وهذه المسألة قد أحكمناها فى سورة البقرة وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلا فى هذه الآية وهو قوله (افتتخذونه وذريته أولياء من دونى) والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب أن لايكون إبليس من الملائكة . بقى أن يقال إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن إبليس من الملائكة فكيف تناوله ذاك الأمر ، وأيضاً

لولم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم ، وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء ثم قال تعالى (ففسق عن أمر ربه) وفى ظاهره إشكال لأن الفاسق لايفسق عن أمر ربه ، فلهذا السبب ذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال الفراء ففسق عن أمر ربه أى خرج عن طاعته . والعرب تقول فسقت الرطبة من قشرها أى خرجت ، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة :

يهوين فى نجد وغور غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا

(الثانى) حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه قال : لما أمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الأمر ، والمعنى أنه لولا ذلك الأمر السابق لما حصل الفسق ، فلأجل هذا المعنى حسن أن يقال فسق عن أمر ربه (الثالث) قال قطرب : فسق عن أمر ربه رده كقوله واسأل القرية واسأل العير قال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من هذا الكلام أن إبليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون هو أشرف من آدم ، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم ، إنكم فى هذا القول اقتديتم بابليس فى تكبره على آدم فلما علمتم أن إبليس عدو لكم فكيف تقتدون به فى هذه الطريقة المذمومة . هذا هو تقرير الكلام . فان قيل إن هذا الكلام لا يتم إلا باثبات مقدمات (فأولها) إثبات إبليس (وثانيها) إثبات ذرية إبليس (وثالثها) إثبات عداوة بين إبليس وذريته وبين أولاد آدم (ورابعها) أن هذا القول الذى قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بابليس . وكل هذه المقدمات الأربعة لاسبيل إلى إثباتها إلا بقول النبى ﷺ . فالجاهل بصدق النبى جاهل بها . إذا عرفت هذا فنقول المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبياً صادقا أوماعرفوا ذلك ؟ فان عرفوا كونه نبياً صادقا قبلوا قوله فى كل مايقوله فكلما نهاهم النبى محمد ﷺ عن قول انتهوا عنه ، وحينئذ فلا حاجة إلى قصة إبليس وإن لم يعرفوا كونه نبياً جهلوا كل هذه المقدمات الأربعة ولم يعرفوا صحتها فحينئذ لا يكون فى إيرادها عليهم فائدة والجواب أن المشركين كانوا قد سمعوا قصة إبليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا أن ابليس إنما تكبر على آدم بسبب نسبه ، فاذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجراً لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائى فى هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه فى العبد ، إذ لو أراده وخلقه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر إبليس أقل من ضرر الله عليهم ! فكيف يوبخهم بقوله (بئس للظالمين بدلا) !؟ تعالى الله عنه علوا كبيرا . بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من إبليس بل الضرر كله من الله . والجواب المعارضة بالداعى والعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين

أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله ، لأن الداعى لهم إلى ترك دين محمد ﷺ هو النخوة واظهار العجب . فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعى فهو متبع لأبليس حتى أن من كان غرضه فى إظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتد بابليس وهومقام صعب غرق فيه أكثر الخلق فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى (بئس للظالمين بدلا) أى بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته ، ثم قال (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى أن الضمير فى قوله (ما أشهدتهم) إلى من يعود ؟ فيه وجوه : (أحدها) وهو الذى ذهب اليه الأكثرون أن المعنى ما أشهدت الذى اتخذتموهم أولياء خلق السموات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله (اقتلوا أنفسكم) يعنى ما أشهدتهم لأعتضد بهم والدليل عليه قوله (وما كنت متخذ المضلين عضداً) أى وما كنت متخذهم فوضع الظاهر موضع المضمر بياناً لإضلالهم وقوله (عضداً) أى أعواناً (وثانيها) وهو أقرب عندى أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم بدليل قوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) ولا اعتضدت بهم فى تدبير الدنيا والآخرة ، بل هم قوم كسائر الخلق ، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فانك تقول له لست بسلطان البلد ولا ذرية المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة ، فلم تقدم عليها والذى يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات ، وفى هذه الآية المذكورة الأقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى (بئس للظالمين بدلا) والمراد بالظالمين أولئك الكفار (وثالثها) أن يكون المراد من قوله (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم فى الأزل من أحوال السعادة والشقاوة . فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته فى الأزل والشقى من حكم الله بشقاوته فى الأزل ، وأنتم غافلون عن أحوال الأزل كأنه تعالى قال (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وإذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل ، بل ربما صار الأمر فى الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء وما كنت بالفتح ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغى لك أن تعتز بهم . وقرأ على رضوان الله عليه (متخذاً المضلين) بالتنوين على الأصل ، وقرأ الحسن (عضداً) بسكون الضاد ونقل ضمتها إلى العين ، وقرىء (عضداً) بالفتح وسكون الضاد (وعضداً) بضمتين (وعضداً)

بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد من عضده إذا قواه وأعانه ، واعلم أنه تعالى لما قرر أن القول الذى قالوه فى الافتخار على الفقراء اقتداء بابليس عاد بعده الى التهويل بأحوال يوم القيامة فقال (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ حمزة (نقول) بالنون عطفاً على قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) و (أولياء من دونى) (وما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، وماكنت متخذ المضلين عضداً) والباقون قرأوا بالياء .

﴿ البحث الثانى ﴾ واذكر يوم نقول عطفاً على قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا) .

﴿ البحث الثالث ﴾ المعنى واذكر لهم يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة إذ يقول الله لهم (نادوا شركائى) أى ادعوا من زعمتم أنهم شركاء لى حيث أهلتموهم للعبادة ، ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم والمراد بالشركاء الجن فدعوهم ولم يذكر تعالى فى هذه الآية أنهم كيف دعوا الشركاء لأنه تعالى(١) بين ذلك فى آية أخرى وهو أنهم قالوا (إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا) ثم قال تعالى (فلم يستجيبوا لهم) أى لم يجيبوهم الى مادعوهم اليه ولم يدفعوا عنهم ضررا وما أوصلوا اليهم نفعاً . ثم قال تعالى (وجعلنا بينهم موبقاً) وفيه وجوه : (الأول) قال صاحب الكشاف الموبق المهلك من وبق يبق وبوقا ووبقا . إذا هلك وأوبقه غيره فيجوز أن يكون مصدراً كالمورد والموعد وتقرير هذا الوجه أن يقال : إن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم وبينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عيسى الجنة وصار الملائكة إلى حيث أراد الله من دار الكرامة وحصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادى فى جهنم (الوجه الثانى) قال الحسن (موبقاً) أى عداوة والمعنى عداوة هى فى شدتها هلاك . ومنه قوله : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً . (الوجه الثالث) قال الفراء البين المواصلة أى جعلنا مواصلتهم فى الدنيا هلاكا فى يوم القيامة (الوجه الرابع) الموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده ، لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ثم قال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) وفى هذا الظن قولان : (الأول) أن الظن ههنا بمعنى العلم واليقين (والثانى) وهو الأقرب أن المعنى أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها فى تلك الساعة من غير تأخير ومهلة ، لشدة مايسمعون من تغيظها وزفيرها . كما قال (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) وقوله (مواقعوها) أى مخالطوها فان مخالطة الشيء لغيره إذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ثم قال تعالى (ولم يجدوا عنها مصرفا) أي لم يجدوا عن النار معدلا إلى غيرها لأن الملائكة تسوقهم اليها .

---

(١) فى الأصل النسخة الأميرية (لا أنه تعالى) ولعل ما أثبتناه هو الصواب إن شاء الله .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا «٥٤» وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا «٥٥» وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا «٥٦»

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾ .

اعلم أن أولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبين تعالى بالوجوه الكثيرة أن قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين ، قال بعده (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل) وهو إشارة إلى ماسبق والتصريف يقتضى التكرير والأمر كذلك لأنه تعالى أجاب عن شبهتهم التى ذكروها من وجوه كثيرة ومع تلك الجوابات الشافية والأمثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لايتركون المجادلة الباطلة فقال وكان الإنسان أكثر شىء جدلا أى أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل وانتصاب قوله جدلا على التمييز قال بعض المحققين والآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام جادلوهم فى الدين حتى صاروا هم مجادلين لأن المجادلة لا تحصل إلا من الطرفين وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ثم قال (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قالت المعتزلة الآية دالة على أنه لم يوجد ما يمنع من الإقدام على الإيمان وذلك يدل على فساد قول من يقول إنه حصل المانع . قال أصحابنا العلم بأنه لايؤمن مضاد لوجود الإيمان . فاذا كان ذلك العلم قائماً كان المانع قائماً . وأيضاً حصول الداعى إلى الكفر قائم وإلا لما وجب لأن الفعل الاختيارى بدون الداعى محال ، ووجود الداعى إلى الكفر مانع من حصول الإيمان . وإذا ثبت هذا ظهر أن المراد مقدار الموانع المحسوسة .

﴿ البحث الثانى ﴾ المعنى أنه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الإسلام ، وثبت أنه

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا «٥٧» وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا «٥٨» وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا «٥٩»

لا مانع لهم من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة . والأعذار زائلة فلم لم يقدموا على الإيمان ثم قال تعالى (إلا أن تأتيهم سنة الأولين - وهو عذاب الاستئصال - أو يأتيهم العذاب قبلا) قرأ حمزة وعاصم والكسائي قبلا بضم القاف والباء جميعاً وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء وقيل مقابلة وعيانا والباقون قبلا بكسر القاف وفتح الباء أي عيانا أيضا ، وروى صاحب الكشاف قبلا بفتحتين أي مستقبلا . والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا ، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا ، واعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين ، لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين . ثم بين تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعا وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق . وهذا يدل على أن الأنبياء كانوا يجادلونهم لما بينا أن المجادلة إنما تحصل من الجانبين وبين تعالى أيضا أنهم اتخذوا آيات الله وهي القرآن وإنذارات الأنبياء هزواً وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة . قال النحويون ما في قوله (وما أنذروا) يجوز أن تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفا ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إنذارهم .

قوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا . وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا . وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾

إعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار جدالهم بالباطل وصفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا «٦٠» فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا «٦١»

والخذلان (الصفة الأولى) قوله (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) أى لا ظلم أعظم من كفر من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ماقدمت يداه أى مع إعراضه عن التأمل فى الدلائل والبينات يتناسى ماقدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم (الصفة الثانية)[قوله](إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً)وقد مر تفسير هذه الآية على الاستقصاء فى سورة الأنعام ، والعجب أن قوله (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه) متمسك القدرية ، وقوله (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) إلى آخر الآية متمسك الجبرية وقلما نجد فى القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلا ومعها آية للفريق الآخر ، والتجربة تكشف عن صدق قولنا . وما ذاك إلا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين ثم قال تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة) الغفور البليغ المغفرة وهو اشارة إلى دفع المضار ذو الرحمة الموصوف بالرحمة ، وإنما ذكر لفظ المبالغة فى المغفرة لا فى الرحمة ، لأن المغفرة ترك الإضرار وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادرا عليها ، أما فعل الرحمة فهو متناه لأن ترك ما لا نهاية له ممكن ، أما فعل ما لا نهاية له فمحال(١) ويمكن أن يقال المراد أنه يغفر كثيراً لأنه ذو الرحمة ولا حاجة به اليها فيهبها من المحتاجين كثيراً ثم استشهد بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير إمهال مع إفراطهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال (بل لهم موعد) وهو إما يوم القيامة ، وإما فى الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح[وقوله](لن يجدوا من دونه موئلا) [أى]منجى ولا ملجأ ، يقال وأل إذا لجأ ، ووأل اليه إذا لجأ اليه ، ثم قال تعالى (وتلك القرى) يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار اليها ليعتبروا ، وتلك مبتدأ ، والقرى صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأصناف الأجناس وأهلكناهم خبر والمعنى ، وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة (وجعلنا لمهلكهم موعداً) أى وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر ، والمهلك الإهلاك أو وقته ، وقرىء لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة ، أى لهلاكهم أو وقت هلاكهم ، والموعد وقت أو مصدر ، والمراد إنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم ندع أن نضرب له وقتا ليكونوا إلى التوبة أقرب .

قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً . فلما بلغا

(١) فى الأصل النسخة الاميرية (أما فعل مالا نهاية له محال) .

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا «٦٢» قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا «٦٣» قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا «٦٣»

مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هـذا نصباً . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾

اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى أن موسى عليه السلام ذهب الى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا فى نفسه إلا أنه يعين على ماهو المقصود فى القصتين السابقتين . أما نفع هذه القصة فى الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام فى حقه ذهب الى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر ، وأما نفع هذه القصة فى قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبى وإلا فلا ، وهذا ليس بشىء لأنه لايلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع ، كما أن كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه فظهر بما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ، ومع ذلك فهى نافعة فى تقرير المقصود فى فى القصتين المتقدمتين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكثر العلماء على أن موسى المذكور فى هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة . وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس إن نوفا ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس صاحب موسى بن عمران ، وإنما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب ، وقيل هو كان نبياً قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس كذب عدو الله ، واعلم أنه كان ليوسف عليه السلام ولدان أفرائيم وميشا فولد أفرائيم نون وولد نون يوشع ابن نون وهو صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته ، وأما ولد ميشا فقيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران ، ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم والخضر هو الذى خرق

السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، وموسى بن ميشا معه ، هذا هو قول جمهور اليهود ، واحتج القفال على صحة قولنا إن موسى هذا هو صاحب التوراة قال إن الله تعالى ماذكر موسى فى كتابه إلا وأراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الإنصراف إليه ، ولو كان المراد شخصاً آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وإزالة الشبهة ، كما أنه لما كان المشهور فى العرف من أبى حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الإسم وأردنا به رجلا سواء لقيدناه مثل أن نقول قال أبو حنيفة الدينورى ، وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه تعالى بعد أن أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وحج خصمه(١) بالمعجزات القاهرة العظيمة التى لم يتفق مثلها لأكثر أكابر الأنبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك لتعلم الاستفادة ، وأجيب عنه بأنه لا يبعد أن العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعض الأشياء فيحتاج فى تعلمها إلى من دونه وهذا أمر متعارف معلوم ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى فتى موسى فالأكثرون على أنه يوشع بن نون ، وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى هريرة عن أبى ابن كعب عن النبى ﷺ يقول فتاه يوشع بن نون ، (والقول الثانى) أن فتى موسى أخو يوشع وكان صاحباً لموسى عليه السلام فى هذا السفر (والقول الثالث) روى عمرو بن عبيد عن الحسن فى قوله (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح) قال يعنى عبده ، قال القفال واللغة تحتمل ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايقولن أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى » وهذا يدل على أنهم كانوا يسمون العبد فتى والأمة فتاة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل إن موسى عليه السلام لما أعطى الألواح وكلمه الله تعالى قال : من الذى أفضل منى وأعلم ؟ فقيل عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر ، وفى رواية أخرى أن موسى عليه السلام لما أوتى من العلم ماأوتى ظن أنه لا أحد مثله فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال ياموسى أنظر إلى هذا الطير الصغير يهوى إلى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع فأنت فيما أوتيت من العلم دون قدر مايحمل هذا الطير بمنقاره من البحر ، قال الأصوليون هذه الرواية ضعيفة لأن الأنبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لانهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية وكل قدر متناه فان الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم إلا وفوقها مرتبة ولهذا قال تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) وإذا كانت هذه المقدمات معلومة فمن المستبعد جداً أن يقطع العاقل بأنه لا أحد أعلم منى(٢) لاسيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الأشياء وشدة براءته عن الأخلاق الذميمة كالعجب والتيه والصلف (والرواية الثالثة) قيل إن موسى

---

(١) قوله وحج خصمه يريد بخصمه فرعون وما ذكره الله تعالى فى كتابه من الآيات فى محاجة فرعون . هذا ولموسى عليه السلام محاجة مع آدم عليه السلام فى الأكل من الشجرة ولكن كانت الحجة لآدم على موسى ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فحج آدم موسى »

(٢) يعنى أنه لايجرؤ إنسان على ادعاء انتهاء العلم إليه إلا إذا سلب نعمة العقل ؛ وكان الأنسب أن يقول (منه)

عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك ؟ قال الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال فأى عبادك أقضى ؟ قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال فأى عبادك أعلم ؟ قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ، فقال موسى عليه السلام إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فادللنى عليه ، فقال أعلم منك الخضر قال فأين أطلبه ؟ قال على الساحل عند الصخرة قال يا رب كيف لى به ؟ قال تأخذ حوتاً فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك . فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر الى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه فى البحر فرجع من ذلك الموضع إلى الموضع الذى طفر الحوت فيه الى البحر فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال وأنى بارضك السلام ! فعرفه نفسه ، فقال ياموسى أنا على علم علمنى الله لاتعلمه أنت وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا ، فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء فقال الخضر ماينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر - أقول نسبة ذلك القدر القليل الذى أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء الى كلية ماء البحر نسبة متناه إلى متناه ونسبة معلومات جميع المخلوقات الى معلومات الله تعالى نسبة متناه إلى غير متناه ، فأين إحدى النسبتين من الأخرى والله العالم بحقائق الأمور ، ونرجع إلى التفسير ، أما قوله تعالى (لا أبرح) قال الزجاج قوله (لا أبرح) ليس معناه لا أزول ، لأنه لو كان كذلك لم يقطع أرضاً ، أقول يمكن أن يجاب عنه بأن الزوال عن الشيء عبارة عن تركه والاعراض عنه ، يقال زال فلان عن طريقته فى الجود أى تركها ، فقوله لا أبرح بمعنى لا أزول عن السير والذهاب بمعنى لا أترك هذا العمل وهذا الفعل - وأقول المشهور عند الجمهور أن قوله لا أبرح معناه لا أزول ، والعرب تقول لا أبرح ولا أزال ولا أنفك ولا أفتأ بمعنى واحد . قال القفال وقالوا أصل قولهم لا أبرح من البراح كما أن أصل لا أزال من الزوال يقال زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت إلا أن المستعمل فى هذه اللفظة يزال فقوله لا أبرح أى أقيم لأن البراح هو العدم فقوله لا أبرح يكون عدماً للعدم فيكون ثبوتاً فقوله لا أزال ولا أبرح يفيد الدوام والثبات على العمل فان قيل إذا كان قوله لا أبرح بمعنى لا أزال فلابد من الخبر قلنا حذف الخبر لأن الحال والكلام يدلان عليه ، أما الحال فلأنها كانت حال سفر ، وأما الكلام فلأن قوله (حتى أبلغ مجمع البحرين) غاية مضروبة تستدعى شيئاً هى غاية له فيكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ويحتمل أن يكون المعنى لا أبرح مما أنا عليه يعنى ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول لا أبرح المكان . وأما مجمع البحرين فهو المكان الذى وعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلى المشرق وقيل غيره وليس فى اللفظ مايدل على تعيين هذين البحرين فان صح بالخبر الصحيح شيء فذاك وإلا فالأولى السكوت عنه ، ومن الناس من قال : البحران موسى والخضر

لأنهما كانا بحرى العلم وقرىء مجمع بكسر الميم ثم قال أو أمضى حقباً أى أسير زماناً طويلا وقيل الحقب ثمانون سنة وقد تكلمنا فى هذا اللفظ فى قوله تعال (لابثين فيها أحقاباً) وحاصل الكلام أن الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العالم ، وما أعلمه موضعه بعينه ، فقال موسى عليه السلام لا أزال أمضى حتى يجتمع البحران فيصيرا بحراً واحداً أو أمضى دهراً طويلا حتى أجد هذا العالم ، وهذا إخبار من موسى بأنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم فى السفر لأجل طلب العلم وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك ثم قال تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما) والمعنى فانطلقا إلى أن بلغا مجمع بينهما والضمير فى قوله بينهما إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) مجمع بينهما أى مجمع البحرين وهو كأنه إشارة إلى [قول]موسى لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أى لحقق[الله]ما قاله (والقول الثانى) أن المعنى فلما بلغ الموضع الذى يجتمع[فيه]موسى وصاحبه الذى كان يقصده لأن ذلك الموضع الذى وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذى كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه ولأجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد أن ذكر الحوت صار إليه وهو معنى حسن ، والمفسرون على القول الأول ، ثم قال تعالى (نسيا حوتهما) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ الروايات تدل على أنه تعالى بين لموسى عليه السلام أن هذا العالم موضعه مجمع البحرين إلا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حياً علامة على مسكنه المعين كمن يطلب إنساناً فيقال له إن موضعه محلة كذا من الرى فاذا انتهيت إلى المحلة فسل فلاناً عن داره وأين ماذهب بك فاتبعه فانك تصل إليه فكذا ههنا قيل له إن موضعه مجمع البحرين فاذا وصلت إليه رأيت الحوت انقلب حياً وطفر إلى البحر ، فيحتمل أنه قيل له فهنالك موضعه ويحتمل أنه قيل له فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فانك تجده . إذا عرفت هذا فنقول إن موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة إلى البحر وسارت وفى كيفية طفرها روايات أيضاً قيل إن الفتى كان يغسل السمكة لأنها كانت مملحة فطفرت وسارت وقيل إن يوشع توضأ فى ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب فى الماء وقيل انفجر[ت]هناك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين إلى السمكة فحييت وطفرت إلى البحر فهذا هو الكلام فى صفة الحوت .

﴿ البحث الثانى ﴾ المراد من قوله (نسيا حوتهما) أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب ، فان قيل انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلا على الوصول إلى المطلوب فكيف يعقل حصول النسيان فى هذا المعنى ؟ أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيراً فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان . وعندى فيه جواب آخر وهو أن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضرورى تنبيهاً

لموسى عليه السلام على أن العلم لايحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر ، أما قوله (فاتخذ سبيله فى البحر سرباً) ففيه وجوه (الأول) أن يكون التقدير سرب فى البحر سرباً إلا أنه أقيم قوله فاتخذ مقام قوله سرب والسرب هو الذهاب ومنه قوله (وسارب بالنهار) (الثانى) أن الله تعالى أمسك إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه فلما جاوز أى موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول إلى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيراً وتعبا وجاعا (قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال) الفتى (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة) الهمزة فى أرأيت همزة الاستفهام ورأيت على معناه الأصلى وقد جاء هذا الكلام على ماهو المتعارف بين الناس فانه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه أرأيت ماحدث لى ؟ كذلك ههنا كأنه قال أرأيت ماوقع لى منه إذ أوينا إلى الصخرة ، فحذف مفعول أرأيت لأن قوله (فانى نسيت الحوت) يدل عليه ثم قال (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ أنه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير فانى نسيت الحوت واتخذ سبيله فى البحر عجبا . والسبب فى وقوع هذا الاعتراض مايجرى مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال الكعبى (وما أنسانيه إلا الشيطان ان أذكره) يدل على أنه تعالى ماخلق ذلك النسيان وما أراده وإلا كانت إضافته إلى الله تعالى أوجب من إضافته إلى الشيطان لأنه تعالى إذا خلقه فيه لم يكن لسعى الشيطان فى وجوده ولا فى عدمه ، أثر قال القاضى والمراد بالنسيان أن يشتغل قلب الانسان بوساوسه التى هى من فعله دون النسيان الذى يضاد الذكر لأن ذلك لايصح أن يكون إلا من قبل الله تعالى .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله أن أذكره بدل من الهاء فى أنسانيه أى) وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ثم قال (واتخذ سبيله فى البحر عجباً) وفيه وجوه : (الأول) أن قوله عجباً صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله فى البحر إتخاذاً عجباً ووجه كونه عجباً انقلابه من المكتل وصيرورته حياً وإلقاء نفسه فى البحر على غفلة منهما (والثانى) أن يكون المراد منه ماذكرنا أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب (الثالث) قيل إنه تم الكلام عند قوله (واتخذ سبيله فى البحر) ثم قال بعده عجباً والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التى رآها ومن نسيانه لها وقيل إن قوله عجباً حكاية لتعجب موسى وهو ليس بقوله ، ثم قال تعالى (قال ذلك ما كنا نبغ) أى قال موسى ذلك الذى كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر وقوله نبغ أصله نبغى فحذفت الياء طلباً للتخفيف لدلالة الكسرة عليه ، وكان القياس أن لايحذف لأنهم إنما يحذفون الياء فى الأسماء وهذا فعل إلا أنه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لأنها تحذف مع الساكن الذى يكون بعدها كقولك ماتبغى اليوم ؟ فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضاً مع غير الساكن ثم قال فارتدا على آثارهما أى

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا «٦٥» قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا «٦٦» قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا «٦٧» وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا «٦٨» قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا «٦٩» قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا «٧٠»

فرجعا وقوله (قصصاً) فيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر فى موضع الحال أى رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما (والثانى) أن يكون مصدراً لقوله فارتدا على آثارهما ، لأن معناه فاقتصا على آثارهما . وحاصل الكلام أنهما لما عرفا أنهما تجاوزا عن الموضع الذى يسكن فيه ذلك العالم رجعا وعادا إليه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فوجدا عبداً من عبادنا) فيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبياً واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه تعالى قال (آتيناه رحمة من عندنا) والرحمة هى النبوة بدليل قوله تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك) وقوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) والمراد من هذه الرحمة النبوة ، ولقائل أن يقول نسلم أن النبوة رحمة أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة .

﴿ الحجة الثانية ﴾ قوله تعالى (وعلمناه من لدنا علما) وهذا يقتضى أنه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحى من الله . وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله وذلك لا يدل على النبوة .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أن موسى عليه السلام قال (هل أتبعك على أن تعلمنى) والنبى لا يتبع غير النبى

فى التعليم وهذا أيضاً ضعيف ، لأن النبي لا يتبع غير النبى فى العلوم التى باعتبارها صار نبياً أما فى غير تلك العلوم فلا .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له (وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً) وأما موسى فانه أظهر التواضع له حيث قال (لا أعصى لك أمراً) وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى ، ومن لا يكون نبياً لا يكون فوق النبى وهذا أيضا ضعيف لأنه يجوز أن يكون غير النبى فوق النبى فى علوم لا تتوقف نبوته عليها . فلم قلتم إن ذلك لا يجوز فان قالوا لأنه يوجب التنفير . قلنا فارسال موسى إلى التعلم منه بعد إنزال الله عليه التوراة و تكليمه بغير واسطة يوجب التنفير ، فان قالوا إن هذا لا يوجب التنفير فكذا القول فيما ذكروه .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ احتج الأصم على نبوته بقوله فى أثناء القصة (وما فعلته عن أمرى) ومعناه فعلته بوحى الله ، وهو يدل على النبوة . وهذا أيضا دليل ضعيف وضعفه ظاهر .

﴿ الحجة السادسة ﴾ ماروى أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال السلام عليك ، فقال وعليك السلام يانبى بنى اسرائيل . فقال موسى عليه السلام من عرفك هذا ؟ قال الذى بعثك إلى . قالوا وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحى والوحى لا يكون إلا مع النبوة ، ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والإلهامات .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال الأكثرون إن ذلك العبد هو الخضر ، وقالوا إنما سمى بالخضر لأنه كان لا يقف موقفاً إلا اخضر ذلك الموضع ، قال الجبائى قد ظهرت الرواية أن الخضر إنما بعث بعد موسى عليه السلام من بنى إسرائيل . فان صح ذلك لم يجز أن يكون هذا العبد هو الخضر . وأيضا فبتقدير أن يكون هذا العبد هو الخضر ، وقد ثبت أنه يجب أن يكون نبياً فهذا يقتضى أن يكون الخضر أعلى شأنا من موسى صاحب التوراة ، لأنا قد بينا أن الألفاظ المذكورة فى هذه الآيات تدل على أن ذلك كان يترفع على موسى ، وكان موسى يظهر التواضع له إلا أن كون الخضر أعلى شأنا من موسى غير جائز لأن الخضر إما أن يقال إنه كان من بنى إسرائيل أو ما كان من بنى إسرائيل ، فان قلنا إنه كان من بنى إسرائيل [فقد] كان من أمة موسى لقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون (أرسل معنا بنى إسرائيل) والأمة لا تكون أعلى حالا من النبى ، وإن قلنا إنه ما كان من بنى إسرائيل لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله تعالى لبنى إسرائيل (وإنى فضلتكم على العالمين) وهذه الكلمات تقوى قول من يقول : إن موسى هذا غير موسى صاحب التوراة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وعلمناه من لدنا علما) يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة ، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية ، وللشيخ أبي حامد الغزالى رسالة فى إثبات العلوم اللدنية ، وأقول تحقيق الكلام فى هذا الباب أن نقول :

إذا أدركنا أمراً من الأمور وتصورنا حقيقة من الحقائق فاما أن نحكم عليه بحكم وهو التصديق أو لا نحكم وهو التصور ، وكل واحد من هذين القسمين فاما أن يكون نظرياً حاصلا من غير كسب وطلب ، وإما أن يكون كسبياً ، أما العلوم النظرية فهى تحصل فى النفس والعقل من غير كسب وطلب ، مثل تصورنا الألم واللذة ، والوجود والعدم ، ومثل تصديقنا بأن النفى والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وأن الواحد نصف الإثنين . وأما العلوم الكسبية فهى التى لا تكون حاصلة فى جوهر النفس ابتداء بل لابد من طريق يتوصل به إلى اكتساب تلك العلوم ، وهذا الطريق على قسمين (أحدهما) أن يتكلف الإنسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها إلى استعلام المجهولات . وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروى والاستدلال ، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذى لا يتم إلا بالجهد والطلب . و(النوع الثانى) أن يسعى الانسان بواسطة الرياضات والمجاهدات فى أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوة العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية فى جوهر العقل ، وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعى وطلب فى التفكر والتأمل ، وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ، إذا عرفت هذا فنقول : جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية فقد تكون النفس نفساً مشرقة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية فلا جرم كانت أبداً شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والأنوار الإلهية ، فلا جزم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار على سبيل الكمال والتمام ، وهذا هو المراد بالعلم اللدنى وهو المراد من قوله (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) وأما النفس التى ما بلغت فى صفاء الجوهر وإشراق العنصر فهى النفس الناقصة البليدة التى لا يمكنها تحصيل المعارف والعلوم إلا بمتوسط بشرى يحتال فى تعليمه وتعلمه والقسم الأول بالنسبة إلى القسم الثانى كالشمس بالنسبة الى الأضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة إلى الجداول الجزئية وكالروح الأعظم بالنسبة إلى الأرواح الجزئية . فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ ، ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها فى هذا الكتاب . ثم قال تعالى (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب (رشداً) بفتح الراء والشين وعن ابن عباس رضى الله عنهما بضم الراء والشين والباقون بضم الراء وتسكين الشين قال القفال وهى لغات فى معنى واحد يقال رَشَد ورُشْد مثل نكر ونكر[1] كما يقال سقم وسقم وشغل وشغل وبخل وبخل وعدم وعدم وقوله (رشداً) أى علماً ذا رشد قال القفال قوله (رشداً) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون الرشد راجعا إلى الخضر أى مما علمك الله وأرشدك به (والثانى) أن يرجع ذلك إلى موسى ويكون المعنى على أن تعلمنى وترشدنى مما علمت .

---

(١) لعل الصواب : مثل شكر شكر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد يتعلم من الخضر (فأحدها) أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال (هل أتبعك) . (وثانيها) أن استأذن فى إثبات هـذا التبعية فانه قال هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعاً لك وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع (وثالثها) أنه قال على أن (تعلمنى) وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم (ورابعها) أنه قال (مما علمت) وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله ، وهذا أيضا مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلنى مساوياً فى العلم لك ، بل أطلب منك أن تعطينى جزأ من أجزاء علمك ، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع اليه جزأ من أجزاء ماله (وخامسها) أن قوله (مما علمت) اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم (وسادسها) أن قوله (رشداً) طلب منه للارشاد والهـداية والارشاد هو الأمر الذى لو لم يحصـل لحصلت الغواية والضلال (وسابعها) أن قوله (تعلمنى مما علمت) معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك على عند هذا التعليم شبيهاً بانعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم ولهذا المعنى قيل أنا عبد من تعلمت منه حرفاً (وثامنها) أن المتابعـة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلا لذلك الغير ، فانا إذا قلنا لا إله إلا الله فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم فى ذكر هذه الكلمة ، لأنا لانقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها بل إنمـا نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها ، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها لاجرم كنا متابعين فى فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ثبت هذا فنقول قوله (هل أتبعك) يدل على أنه يأتى بمثل أفعال ذلك الأسـتاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها . وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه فى أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض (وتاسعها) أن قوله (أتبعك) يدل على طلب متابعته مطلقاً فى جميع الأمور غير مقيد بشىء دون شىء (وعاشرها) أنه ثبت بالإخبار أن الخضر عرف أولا أنه نبى بنى إسرائيل وأنه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذى كلمه الله عز وجل من غير واسـطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ثم إنه عليه السلام مع هـذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً فى طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة وهـذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لأرباب العـلم أكمل وأشد (والحادى عشر) أنه قال (هل أتبعك على أن تعلمنى) فأثبت كونه تبعاً له أولا ثم طلب ثانياً أن يعلمه وهـذا منه ابتداء بالخدمة ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم . (والثانى عشر) أنه قال (هل أتبعك على أن تعلمنى) فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً كان قال لا أطلب منك على هـذه المتابعة المـال والجاه ولا غرض لى إلا طلب العلم ثم إنه تعالى

حكى عن الخضر أنه قال (إنك لن تستطيع معى صبراً . وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المتعلم على قسمين متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ، ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض . ثم إنه يريد أن يخالط إنسانا أكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم فى هذا القسم الثانى شاق شديد ، وذلك لأنه إذا رأى شيئاً أو سمع كلاما فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكراً إلا أنه كان فى الحقيقة حقاً صواباً ، فهذا المتعلم لأجل أنه ألف القيل والقال وتعود الكلام والجدال يغتر ظاهره ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته ، وحينئذ يقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة ، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر فاذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة ، وهذا هو الذى أشار اليه الخضر بقوله (إنك لن تستطيع معى صبرا) إشارة إلى أنه ألف الكلام وتعود الإثبات والإبطال والاستدلال والاعتراض ، وقوله (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هى ، وقد ذكرنا أنه متى حصل الأمران صعب السكوت وعسر التعليم وانتهى الأمر بالآخرة (١) إلى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بقوله (إنك لن تستطيع معى صبراً) على أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل . قالوا لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر فيلزم أن يصير قوله (إنك لن تستطيع معى صبراً) كذباً ، ولما بطل ذلك علمنا أن الاستطاعة لا توجد قبل الفعل . أجاب الجبائى عنه أن المراد من هذا القول أنه يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه ، يقال فى العرف : إن فلانا لا يستطيع أن يرى فلاناً و[لا] أن يجالسه إذا كان يثقل عليه ذلك ونظيره قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع) أى كان يشق عليهم الاستماع ، فيقال له هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وإنه لا يجوز . وأقول مما يؤكد هذا الاستدلال الذى ذكره الأصحاب قوله تعالى (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) استبعد حصول الصبر على مالم يقف الإنسان على حقيقته ، ولو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم ، ولو كان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعداً لأن القادر على الفعل لا يبعد منه إقدامه على ذلك الفعل ، ولما حكم الله باستبعاده علمنا أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل . ثم حكى الله تعالى عن موسى أنه قال (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الطاعنون فى عصمة الله الأنبياء بهذه الآية فقالوا إن الخضر قال لموسى (إنك لن تستطيع معى صبراً) وقال موسى (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى

---

(١) الصواب بآخرة ، يعنى نهاية الأمر وعاقبته .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا «٧١» قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا «٧٢» قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا «٧٣»

لك أمراً) وكل واحد من هذين القولين يكذب الآخر فيلزم إلحاق الكذب بأحدهما وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الأنبياء عليهم السلام ، والجواب أن يحمل قوله (إنك لن تستطيع معى صبرا) على الأكثر الأغلب وعلى هذا التقدير فلا يلزم ماذكروه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لفظة إن كان كذا تفيد الشك فقوله (ستجدنى إن شاء الله صابراً) معناه ستجدنى صابراً إن شاء الله كونى صابراً ، وهذا يقتضى وقوع الشك فى أن الله هل يريد كونه صابراً أم لا ، ولا شك أن الصبر فى مقام التوقف واجب ، فهذا يقتضى أن الله تعالى قد لا يريد من العبد ماأوجبه عليه ، وهذا يدل على صحة قولنا إن الله تعالى قد يأمر بالشيء مع أنه لا يريده ، قالت المعتزلة هذه الكلمة إنما تذكر رعاية للأدب فيما يريد الانسان أن يفعله فى المستقبل فيقال لهم هذا الأدب إن صح معناه فقد ثبت المطلوب ، وإن فسد فأى أدب فى ذكر هذا الكلام الباطل؟

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ولا أعصى لك أمرا) يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب لأن تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية ، والعاصى يستحق العقاب لقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم) وهذا يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قول الخضر لموسى عليه السلام (وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً) نسبة إلى قلة العلم والخبر ، وقول موسى له (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) تواضع شديد وإظهار للتحمل التام والتواضع الشديد ، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات ، وأما المعلم فان رأى أن فى التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وإرشاداً إلى الخير . فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم فى الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم ثم قال (فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) أى لا تستخبرنى عما تراه منى مما لا تعلم وجهه حتى أكون أنا المبتدىء لتعليمك إياه وإخبارك به ، وفى قراءة ابن عامر فلا تسألن محركة اللام مشددة النون بغير ياء . وروى عنه لا تسألنى مثقلة مع الياء وهى قراءة نافع ، وفى قراءة الباقين لا تسألن خفيفة والمعنى واحد .

قوله تعالى ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ﴾

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا «٧٤» قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا «٧٥» قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا «٧٦»

اعلم أن موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا فانتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة فركباها وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة ، وأقول لعله أقدم على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق إلى أهلها فعند ذلك قال موسى له (أخرقتها لتغرق أهلها) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ حمزة والكسائى (ليغرق أهلها) بفتح الياء على إسناد الغرق الى الأهل والباقون لتغرق أهلها على الخطاب ، والتقدير لتغرق أنت أهل هذه السفينة .

﴿ البحث الثانى ﴾ أن موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الأمر المنكر بحسب الظاهر نسى الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ماقال ، واحتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين (الأول) أنه ثبت بالدليل أن ذلك العالم كان من الأنبياء ، ثم قال موسى عليه السلام (أخرقتها لتغرق أهلها) فان صدق موسى فى هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبى ، وإن كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام . (الثانى) أنه التزم أن لا يعترض على ذلك العالم . وجرت العهود المؤكدة لذلك ، ثم إنه خالف تلك العهود وذلك ذنب (والجواب عن الأول) أنه لما شاهد موسى عليه السلام منه الأمر الخارج عن العادة قال هذا الكلام ، لا لأجل أنه اعتقد فيه أنه فعل قبيحاً ، بل لأنه أحب أن يقف على وجهه وسببه ، وقد يقال فى الشىء العجيب الذى لايعرف سببه إنه إمر يقال أمر الأمر إذا عظم وقال الشاعر : داهية دهياء

(وعلى الثانى) انه فعل بناء على النسيان ، ثم إنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه لما خالف الشرط لم يزد على أن قال (ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً) فعند هذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله (لا تؤاخذنى بما نسيت) أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى بشىء (ولا ترهقنى من أمرى عسراً) يقال رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أى ولا تغشنى من أمرى عسراً ، وهو اتباعه إياه يعنى ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة ، وقرىء (عسراً) بضمتين .

قوله تعالى ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً . قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ﴾

اعلم أن لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ بدليل أنه يقال رأى الشيخ خير من مشهد الغلام جعل الشيخ نقيضاً للغلام وذلك يدل على أن الغلام هو الشاب وأصله من الاغتلام وهو شدة الشبق وذلك إنما يكون فى الشباب ، وأما تناول هذا اللفظ للصبى الصغير فظاهر ، وليس فى القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان أو كان منفردا ؟ وهل كان مسلماً أو كان كافراً ؟ وهل كان منعزلا ؟ وهل كان بالغاً أو كان صغيرا ، وكان اسم الغلام بالصغير أليق وإن احتمل الكبير إلا أن قوله (بغير نفس) أليق بالبالغ منه بالصبى لأن الصبى لا يقتل وإن قتل ، وأيضاً فهل قتله بأن حز رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس فى لفظ القرآن ما يدل على شىء من هذه الأقسام فعند هذا قال موسى عليه السلام (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو زاكية بالألف والباقون زكية بغير ألف قال الكسائى الزاكية والزكية لغتان ومعناهما الطاهرة ، وقال أبو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى أذنبت ثم تابت .

﴿ البحث الثانى ﴾ ظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس إلا لأجل القصاص بالنفس وليس الأمر كذلك لأنه قد يحل دمه بسبب من الأسباب ، وجوابه أن السبب الأقوى هو ذاك .

﴿ البحث الثالث ﴾ النكر أعظم من الإمر فى القبح ، وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة لأن ذلك ما كان اتلافاً للنفس لأنه كان يمكن أن لا يحصل الغرق ، أما ههنا حصل الإتلاف قطعاً فكان أنكر وقيل إن قوله (لقد جئت شيئاً إمراً) أى عجباً والنكر أعظم من العجب وقيل النكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس فهو أبلغ فى تقبيح الشىء من الإمر ومنهم من قال الإمر أعظم قال لأن خرق السفينة يؤدى إلى إتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس إلا إتلاف شخص واحد وأيضاً الإمر هو الداهية العظيمة فهو أبلغ من النكر وأنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه مازاد على أن ذكره ماعاهده عليه فقال (ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبراً) وهذا عين ما ذكره فى المسألة الأولى إلا أنه زاد.ههنا لفظة لك لأن هذه اللفظة تؤكد التوبيخ فعند هذا قال موسى (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته وهذا كلام نادم شديد الندامة ثم قال (قد بلغت من لدنى عذرا) والمراد منه أنه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولا وثانياً ، مع قرب المدة وبقى مما يتعلق بالقراءة فى هذه الآية ثلاثة مواضع : (الأول) قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وأبو بكر عن عاصم نكرا بضم الكاف فى جميع القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان (الثانى) الكل قرأوا (لا تصاحبنى) بالألف إلا يعقوب فانه قرأ (لا تصحبنى) من صحب والمعنى واحد

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا «٧٧» قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا «٧٨»

(الثالث) فى (لدنى) قراءات (الأولى) قراءة نافع وأبى بكر فى بعض الروايات عن عاصم (من لدنى) بتخفيف النون وضم الدال (الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم (لدنّى) مشددة النون وضم الدال (الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم بالإشمام وغير إشباع (الرابعة) (لدنى) بضم اللام وسكون الدال فى بعض الروايات عن عاصم وهذه القراءات كلها لغات فى هذه اللفظة .

قوله تعالى ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لوشئت لاتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

اعلم أن تلك القرية هى أنطاكية وقيل هى الأيلة وههنا سؤالات : (الأول) إن الاستطعام ليس من عادة الكرام فكيف أقدم عليه موسى وذلك العالم لأن موسى كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألاترى أنه تعالى حكى عنه أنه قال فى قصة موسى عند ورود ماء مدين (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) (الجواب) أن إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد (السؤال الثانى) لم قال (حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها) وكان من الواجب أن يقال استطعما منهم ، والجواب أن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر :

ليت الغراب غداة ينعب دائماً   كان الغراب مقطع الأوداج

(السؤال الثالث) إن الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب وذلك أمر غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لأجله ترك العهد الذى التزمه مع ذلك العالم فى قوله (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) وأيضاً مثل هذا الغضب لأجل ترك الأكل فى ليلة واحدة لايليق بأدون الناس فضلا عن كليم الله (الجواب) أما قوله الضيافة من المندوبات قلنا قد تكون من المندوبات ، وقد تكون من الواجبات بأن كان الضيف قد بلغ فى الجوع إلى حيث لولم يأكل لهلك وإذا كان التقدير ماذكرناه لم يكن الغضب الشديد لأجل ترك الأكل يوماً فان قالوا مابلغ فى الجوع إلى حد الهلاك بدليل أنه قال (لوشئت لاتخذت عليه

أجراً) وكان يطلب على إصلاح ذلك الجدار أجرة ، ولو كان قد بلغ فى الجوع إلى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل فكيف يصح منه طلب الأجرة قلنا لعل ذلك الجوع كان شديداً إلا أنه ما بلغ حد الهلاك ، ثم قال تعالى (فأبوا أن يضيفوهما) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ يضيفوهما يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وحقيقته مال إليه من ضاف السهم عن الغرض . ونظيره : زاره من الإزورار ، وأضافه وضيفه أنزله ، وجعله ضيفه ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم كانو أهل قرية لئاماً .

﴿ البحث الثانى ﴾ رأيت فى كتب الحكايات أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يارسول الله نشترى بهذا الذهب أن تجعل الباء تاءاً حتى تصير القراءة هكذا : فأتوا أن يضيفوهما . أى أتوا لأن يضيفوهما ، أى كان إتيان أهل تلك القرية إليهما لأجل الضيافة ، وقالوا غرضنا منه أن يندفع عنا هذا اللؤم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إن تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله ، وذلك يوجب القدح فى الإلهية . فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ، ثم قال تعالى (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) أى فرأيا فى القرية حائطاً مائلا ، فان قيل كيف يجوز وصف الجدار بالإرادة مع أن الارادة من صفات الأحياء قلنا هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة ، وله نظائر فى الشعر قال :

يريد الرمح صدر أبى براء ويرغب عن دماء بنى عقيل

وأنشد الفراء :

إن دهراً يلف شملى بجمعل لزمان يهم بالإحسان

وقال الراعى :

فى مهمه فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

ونظيره من القرآن قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) وقوله (أن يقول له كن فيكون) وقوله (قالتا أتينا طائعين) وقوله (أن ينقض) يقال انقض إذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته . وقيل انقض فعل من النقض كاحمر من الحمرة ، وقرىء أن ينقض من النقض ، وأن ينقاص من انقاضت العين إذا انشقت طولا ، وأما قوله (فأقامه) قيل نقضه ثم بناه ، وقيل أقامه بيده ، وقيل مسحه بيده فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته ، واعلم أن ذلك العالم لما فعل ذلك . وكانت الحالة حالة اضطرار وافتقار إلى الطعام فلأجل تلك الضرورة نسى موسى ماقاله من قوله (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) فلا جرم قال (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) أى طلبت على عملك أجرة تصرفها فى تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات ، وقرىء (لتخذت عليه أجراً) والتاء فى تخذ أصل كما فى تبع ، واتخذ

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا «٧٩» وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا «٨٠» فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا «٨١» وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا «٨٢»

افتعل منه كقولنا اتبع من قولنا تبع ، واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذا الكلام قال العالم (هذا فراق بيني وبينك) وههنا سؤالات (السؤال الأول) قوله هذا إشارة إلى ماذا ؟ والجواب من وجهين (الأول) أن موسى عليه السلام قد شرط أنه إن سأله بعد ذلك سؤالا آخر يحصل الفراق حيث قال (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) فلما ذكر هذا السؤال فارقه ذلك العالم وقال (هذا فراق بيني وبينك) أي هذا الفراق الموعود (الثاني) أن يكون قوله هذا إشارة إلى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض هو سبب الفراق (السؤال الثاني) مامعنى قوله (هذا فراق بيني وبينك) ؟ (الجواب) معناه هذا فراق حصل بيني وبينك ، فأضيف المصدر إلى الظرف ، حكى القفال عن بعض أهل العربية أن البين هو الوصل لقوله تعالى (لقد تقطع بينكم) فكان المعنى هذا فراق بيننا ، أي اتصالنا ، كقول القائل : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، أي أحدنا هكذا قاله الزجاج ، ثم قال العالم لموسى عليه السلام (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً) أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة ، وأصل التأويل راجع إلى قولهم آل الأمر إلى كذا أي صار اليه ، فاذا قيل ما تأويله فالمعنى مامصيره .

قوله تعالى ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذه المسائل الثلاثة مشتركة فى شىء واحد وهو أن أحكام الأنبياء صلوات الله عليهم مبنية علي الظواهر كما قال عليه السلام « نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور بل كانت مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر وذلك لأن الظاهر أنه يحرم التصرف فى أموال الناس وفى أرواحهم فى المسألة الأولى وفى الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لأن تخريق السفينة تنقيص لملك الإنسان من غير سبب ظاهر ، وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر ، والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل فى المسألة الثالثة تحمل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر ، وفى هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم فيها مبنياً عن الأسباب الظاهرة المعلومة ، بل كان ذلك الحكم مبنياً على أسباب معتبرة فى نفس الأمر ، وهذا يدل على أن ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع بها على حقائق الأشياء فكانت مرتبة موسى عليه السلام فى معرفة الشرائع والأحكام بناء الأمر على الظواهر وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الأشياء وحقائق الأمور والاطلاع على أسرارها الكامنة ، فبهذا الطريق ظهر أن مرتبته فى العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام .إذا عرفت هذا فنقول : المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو أن عند تعارض الضررين يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ؛ فهذا هو الأصل المعتبر فى المسائل الثلاثة .

﴿ أما المسألة الأولى ﴾ فلأن ذلك العالم علم أنه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها ذلك الملك ، وفاتت منافعها عن ملاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها ، وبين أن لايخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها ، ولا شك أن الضرر الأول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثانى الذى هو أعظمهما .

﴿ وأما المسألة الثانية ﴾ فكذلك لأن بقاء ذلك الغلام حياً كان مفسدة للوالدين فى دينهم وفى دنياهم ، ولعله علم بالوحى أن المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام أقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك المفاسد للأبوين ، فلهذا السبب أقدم على قتله .

﴿ والمسألة الثالثة ﴾ أيضاً كذلك لأن المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام . وفيه ضرر شديد ، فالحاصل أن ذلك العالم كان مخصوصاً بالوقوف على بواطن الأشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هى عليها فى أنفسها ، وكان مخصوصاً ببناء الأحكام الحقيقية على تلك الأحوال الباطنة ، وأما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور فلا جرم ظهر التفاوت بينهما فى العلم ، فان قال قائل لحاصل الكلام أنه تعالى أطلعه على بواطن الأشياء وحقائقها فى نفسها ، وهذا النوع من العلم لايمكن تعلمه ، وموسى عليه السلام إنما ذهب اليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب

على ذلك العالم أن يظهر له علماً يمكن له تعلمه ، وهذه المسائل الثلاثة علوم لا يمكن تعلمها فما الفائدة فى ذكرها وإظهارها . والجواب أن العلم بطواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة ، وأما العلم ببواطن الأشياء فانما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ، ولهذا قال تعالى فى صفة علم ذلك العالم (وعلمناه من لدنا علما) ، ثم إن موسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله الى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام أن كمال الدرجة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر الى علوم الباطن المبنية على الإشراف على البواطن والتطلع على حقائق الأمور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن ذلك العالم أجاب عن المسألة الأولى بقوله (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) وفيه فوائد (الفائدة الأولى) أن تلك السفينة كانت لأقوام محتاجين متعيشين بها فى البحر والله تعالى سماهم مساكين ، واعلم أن الشافعى رحمه الله احتج بهذه الآية على أن حال الفقير فى الضر والحاجة أشد من حال المسكين لأنه تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة (الفائدة الثانية) أن مراد ذلك العالم من هذا الكلام أنه ما كان مقصودى من تخريق تلك السفينة تغريق أهلها بل مقصودى أن ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب فجعلت هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم فان ضرر هذا التخريق أسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب ، فان قيل وهل يجوز للأجنبى أن يتصرف فى ملك الغير لمثل هذا الغرض ، قلنا هذا مما يختلف أحواله بحسب اختلاف الشرائع فلعل هذا المعنى كان جائزا فى تلك الشريعة ، وأما فى شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد ، فانا إذا علمنا أن الذين يقطعون الطريق ويأخذون جميع ملك الإنسان ، فان دفعنا إلى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقى فحينئذ يحسن منا أن ندفع بعض مال ذلك الانسان إلى قاطع الطريق ليسلم الباقى وكان هذا منا يعد إحسانا إلى ذلك المالك (الفائدة الثالثة) أن ذلك التخريق وجب أن يكون واقعاً على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية إذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها أبلغ من الضرر الحاصل من تخريقها ، وحينئذ لم يكن تخريقها جائزاً (الفائدة الرابعة) لفظ الوراء على قوله (وكان وراءهم) فيه قولان (الأول) أن المراد منه وكان أمامهم ملك يأخذ ، هكذا قاله الفراء وتفسيره قوله تعالى (من ورائهم جهنم) أى أمامهم ، وكذلك قوله تعالى (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) وتحقيقه أن كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وأنت متوار عنه ، فكل ما غاب عنك فهو وراءك وأمام الشىء وقدامه إذا كان غائباً عنه متوارياً عنه فلم يبعد إطلاق لفظ وراء عليه (والقول الثانى) يحتمل أن يكون الملك كان من وراء الموضع الذى يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه .

﴿ وأما المسألة الثانية ﴾ وهى قتل الغلام فقد أجاب العالم عنها بقوله (وأما الغلام فكان

أبواه مؤمنين) قيل ، إن ذلك الغلام كان بالغاً وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة ، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات وكان يصير ذلك سبباً لوقوعهما فى الفسق . وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر ، وقيل إنه كان صبياً إلا أن الله تعالى علم منه أنه لو صار بالغاً لحصلت منه هذه المفاسد ، وقوله (فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً) الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه ، وقوله (أن يرهقهما طغيانا) فيه قولان (الأول) أن يكون المراد أن ذلك الغلام يحمل أبويه على الطغيان والكفر كقوله (ولا ترهقنى من أمرى عسراً) أى لا تحملنى على عسر وضيق وذلك لأن أبويه لأجل حب ذلك الولد يحتاجان إلى الذب عنه ، وربما احتاجا إلى موافقته فى تلك الأفعال المنكرة (والثانى) أن يكون المعنى أن ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار ، فان قيل هل يجوز الإقدام على قتل الإنسان لمثل هذا الظن ؟ قلنا إذا تأكد ذلك الظن بوحى الله جاز ثم قال تعالى (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) أى أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولداً خيراً من هذا الغلام زكاة أى ديناً وصلاحا ، وقيل إن ذكره الزكاة هنا على مقابلة قول موسى عليه السلام (أقتلت نفساً زاكية بغير نفس) فقال العالم أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين خيراً بدلا عن ابنهما هذا ولداً يكون خيراً منه كما ذكرته من الزكاة ، ويكون المراد من الزكاة الطهارة فكأن موسى عليه السلام قال أقتلت نفساً طاهرة لأنها ما وصلت إلى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة من المعاصى فقال العالم إن تلك النفس وإن كانت زاكية طاهرة فى الحال إلا أنه تعالى علم منها أنها إذا بلغت أقدمت على الطغيان والكفر فأردنا أن يجعل لهما ولداً أعظم زكاة وطهارة منه وهو الذى يعلم الله منه أنه عند البلوغ لا يقدم على شيء من هذه المحظورات ومن قال إن ذلك الغلام كان بالغاً قال المراد من صفة نفسه بكونها زاكية أنه لم يظهر عليه ما يوجب قتله ثم قال (وأقرب رحماً) أى يكون هذا البدل أقرب عطفاً ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما والرحم الرحمة والعطف . روى أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة عظيمة .

بقى من مباحث هذه الآية موضعان فى القراءة (الأول) قرأ نافع وأبو عمرو يبدلهما بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك فى التحريم (أن يبدله أزواجا) وفى القلم (عسى ربنا أن يبدلنا) والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال وهما لغتان أبدل يبدل وبدل يبدل (الثانى) قراءة ابن عامر فى إحدى الروايتين عن أبى عمرو رحماً بضم الحاء والباقون بسكونها وهما لغتان مثل نكر ونكر وشغل وشغل .

﴿ وأما المسألة الثالثة ﴾ وهى إقامة الجدار فقد أجاب العالم عنها بأن الداعى له إليها أنه كان تحت ذلك الجدار كنز وكان ذلك ليتيمين فى تلك المدينة وكان أبوهما صالحاً ولما كان ذلك الجدار مشرفا على السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين

رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح أبيهما فأمرني باقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح ، وفى الآية فوائد (الفائدة الأولى) أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال (إذا أتيا أهل قرية) وسماه أيضاً مدينة حيث قال (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) (الفائدة الثانية) اختلفوا فى هذا الكنز فقيل إنه كان مالا وهذا هو الصحيح لوجهين (الأول) أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال (والثانى) أن قوله (ويستخرجا كنزهما) يدل على أن ذلك الكنز هو المال وقيل إنه كان علماً بدليل أنه قال (وكان أبوهما صالحا) والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال إذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) وقيل كان لوحا من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . (الفائدة الثالثة) قوله (وكان أبوهما صالحاً) يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء وعن الحسن ابن على أنه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما : بم حفظ الله مال الغلامين ؟ قال بصلاح أبيهما قال فأبى وجدى خير منه ؟ قال قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون . وذكروا أيضاً أن ذلك الأب الصالح كان الناس يضعون الودائع اليه فيردها إليهم بالسلامة ، فان قيل اليتيمان هل عرف أحد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار أو ماعرف أحد منهما ؟ فان كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار . وإن كان الثانى فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به ؟ (الجواب) لعل اليتيمين كانا جاهلين به إلا أن وصيهما كان عالما به ثم [إن] ذلك الوصى غاب وأشرف ذلك الجدار فى غيبته على السقوط ولما قرر العالم هذه الجوابات قال (رحمة من ربك) يعنى إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما قررناه ثم قال (وما فعلته عن أمرى) يعنى ما فعلت مارأيت من هذه الأحوال عن أمرى واجتهادى ورأيى وإنما فعلته بأمر الله ووحيه لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لايجوز إلا بالوحى والنص القاطع بقى فى الآية سؤال ، وهو أنه قال (فأردت أن أعيبها) وقال (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) وقال (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) كيف اختلفت الإضافة فى هذه الإرادات الثلاث وهى كلها فى قصة واحدة وفعل واحد؟ (والجواب) أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه فقال أردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء فى علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية ، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى ، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً «٨٣» إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً «٨٤» فَأَتْبَعَ سَبَباً «٨٥»

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا فى أول هذه السورة أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذى القرنين وعن الروح فالمراد من قوله (ويسألونك عن ذى القرنين) هو ذلك السؤال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف الناس فى أن ذا القرنين من هو وذكروا فيه أقوالا : (الأول) أنه هو الاسكندر بن فيلبوس اليونانى قالوا والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) وأيضاً بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون فى أقصى الشمال ، وبدليل أن السد المذكور فى القرآن يقال فى كتب التواريخ إنه مبنى فى أقصى الشمال فهذا الانسان المسمى بذى القرنين فى القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض ، ومثل هذا الملك البسيط لاشك أنه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر وأن لا يبقى مخفياً مستتراً ، والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها . فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض بالكلية ، أو ما يقرب منها ، وثبت بعلم التواريخ أن الذى هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذى القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليونانى ثم ذكروا فى سبب تسميته بهذا الاسم وجوهاً : (الأول) أنه لقب بهذا اللقب لأجل بلوغه قرنى الشمس أى

مطلعها ومغربها كما لقب أردشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد (والثانى) أن الفرس قالوا إن دارا الأكبر كان قد تزوج بابنة فيلبوس فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على أبيها فيلبوس وكانت قد حملت منه بالإسكندر فولدت الإسكندر بعد عودها إلى أبيها فبقى الإسكندر عند فيلبوس وأظهر فيلبوس أنه ابنه وهو فى الحقيقة ابن دارا الأكبر قالوا والدليل عليه أن الإسكندر لما أدرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه فى حجره وقال لدارا : يا أبى أخبرنى عمن فعل هذا لأنتقم لك منه ! فهذا ما قاله الفرس قالوا وعلى هذا التقدير فالإسكندر أبوه دارا الأكبر وأمه بنت فيلبوس(١) فهو إنما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم وهذا الذى قاله الفرس إنما ذكروه لأنهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لا يكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم وهو فى الحقيقة كذب . وإنما قال الإسكندر لدارا يا أبى على سبيل التواضع وأكرم دارا بذلك الخطاب (والقول الثانى) قال أبو الريحان الهروى(٢) المنجم فى كتابه الذى سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية ، قيل إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميرى فانه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذى افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ... ملكا علا فى الأرض غير مفندى
بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب ملك من كريم سيد

ثم قال أبو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذى كذا كذى النادى(٣) وذى نواس وذى النون وغير ذلك (والقول الثالث) أنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة ، وإن كنا لا نعرف أنه من هو ثم ذكروا فى تسميته بذى القرنين وجوها : (الأول) سأل ابن الكوا علياً رضى الله عنه عن ذى القرنين وقال أملك هو أم نبى فقال لا ملك ولا نبى كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمى بذى القرنين وملك ملكه (الثانى) سمى بذى القرنين لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس (الثالث) قيل كان صفحتا رأسه من نحاس (الرابع) كان على رأسه ما يشبه القرنين (الخامس) [كان] لتاجه قرنان (السادس) عن النبى ﷺ سمى ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا يعنى شرقها وغربها (السابع) كان له قرنان أى ضفيرتان (الثامن) أن الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه (التاسع) يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا كأنه ينطح أقرانه (العاشر) رأى فى المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفى الشمس وقرنيها وجانبيها فسمى

---

(١) رسم فى الأصل فى كل مرة هكذا (فيلقوس) بالقاف بعدها واو . ورأيته فى أخبار الدول للقرمانى كذلك ، والصواب بالباء لان القاف لا توجد فى لغة اليونان والروم وإذا أعجمت كلمة فيها قاف أبدلتها (كافا) .

(٢) أبو الريحان الهروى هو المشهور بالبيرونى مؤرخ وفلكى ومنجم وجغرافى محقق

(٣) لعله ذو المنار

لهذا السبب بذى القرنين (الحادى عشر) سمى بذلك لأنه دخل النور والظلمة (والقول الرابع) أن ذا القرنين ملك من الملائكة عن عمر أنه سمع رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم اغفر(١) أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة ! فهذا جملة ما قيل فى هذا الباب ، والقول الأول أظهر لأجل الدليل الذى ذكرناه وهو أن مثل هذا الملك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا والذى هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر فوجب أن يكون المراد بذى القرنين هو هو إلا أن فيه إشكالا قوياً وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لاسبيل اليه والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى ذى القرنين هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال إنه كان نبياً واحتجوا عليه بوجوه : (الأول) قوله (إنا مكنا له فى الأرض) والأولى حمله على التمكين فى الدين والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة (والثانى) قوله (وآتيناه من كل شىء سبباً) ومن جملة الأشياء النبوة فمقتضى العموم فى قوله (وآتيناه من كل شىء سبباً) هو أنه تعالى آتاه فى النبوة سبباً (الثالث) قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) والذى يتكلم الله معه لابد وأن يكون نبياً ومنهم من قال إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبياً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى دخول السين فى قوله (سأتلوا) معناه إنى سأفعل هذا إن وفقنى الله تعالى عليه وأنزل فيه وحياً وأخبرنى عن كيفية تلك الحال ، وأما قوله تعالى (إنا مكنا له فى الأرض) فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث إنه ملك مشارق الأرض ومغاربها والأول أولى لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولى ثم قال (وآتيناه من كل شىء سبباً) قالوا السبب فى أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به الى المقصود وهو يتناول العلم والقدرة والآلة فقوله (وآتيناه من كل شىء سبباً) معناه أعطيناه من كل شىء من الأمور التى يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشىء ثم إن الذين قالوا إنه كان نبياً قالوا من جملة الأشياء النبوة فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذى به يتوصل إلى تحصيل النبوة ، والذين أنكروا كونه نبياً قالوا المراد به وآتيناه من كل شىء يحتاج اليه فى إصلاح ملكه سبباً ، إلا أن لقائل أن يقول إن تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار اليه إلا بدليل ، ثم قال (فأتبع سبباً) ومعناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شىء سببه فاذا أراد شيئاً أتبع سبباً يوصله اليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فاتبع بتشديد التاء ، وكذلك ثم اتبع أى سلك وسار والباقون فأتبع بقطع الألف وسكون التاء مخففة .

---

(١) الصواب اللهم غفرا ،

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا «٨٦» قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا «٨٧» قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا «٨٨» وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا «٨٩»

قوله تعالى ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾

إعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغه ، أما قوله (وجدها تغرب فى عين حمئة) ففيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى عين حامية بالألف من غير همزة أى حارة ، وعن أبى ذر ، قال كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل فرآى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أبا ذر أين تغرب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فانها تغرب فى عين حامية ; وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر ، والباقون حمئة ، وهى قراءة ابن عباس واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بألف فقال ابن عباس حمئة ، فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ؟ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة ، والحمئة ما فيه ماء ، وحمأة سوداء ، واعلم أنه لاتنافى بين الحمئة والحامية ، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها ، ولا شك أن الشمس فى الفلك ، وأيضاً قال (ووجد عندها قوما) ومعلوم أن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود ، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض ، إذا ثبت هذا فنقول : تأويل قوله (تغرب فى عين حمئة) من وجوه (الأول) أن ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب فى عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك فى الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب

فى البحر إذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر ، هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره (الثانى) أن للجانب الغربى من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب فى تلك البحار ، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية وهى أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله (تغرب فى عين حمئة) إشارة إلى أن الجانب الغربى من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة (الثالث) قال أهل الأخبار إن الشمس تغيب فى عين كثيرة الماء والحمأة وهذا فى غاية البعد ، وذلك لأنا إذا رصدنا كسوفا قمرياً فاذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا حصل هذا الكسوف فى أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا حصل فى أول النهار فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثانى عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذى هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر فى بلد ووقت الظهر فى بلد آخر ، ووقت الضحوة فى بلد ثالث . ووقت طلوع الشمس فى بلد رابع ، ونصف الليل فى بلد خامس ، وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار . وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة فى كل هذه الأوقات كان الذى يقال إنها تغيب فى الطين والحمأة كلاما على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل الذى ذكرناه ثم قال تعالى (ووجد عندها قوما) الضمير فى قوله عندها إلى ما ذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) أنه عائد إلى الشمس ويكون التأنيث للشمس لأن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس (والقول الثانى) أن يكون الضمير عائدا إلى العين الحامية ، وعلى هذا القول فالتأويل ماذكرناه ، ثم قال تعالى (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أن قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) يدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة ، وذلك يدل على أنه كان نبياً وحمل هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء فهو عدول عن الظاهر .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال أهل الأخبار فى صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة ، قال ابن جريج هناك مدينة لها إثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) يدل على أن سكان آخر المغرب كانوا كفاراً فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وهذا التخيير على معنى الإجتهاد فى أصلح الأمرين كما خير نبيه عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم ، وقال الأكثرون هذا التعذيب هو القتل ، وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء ، ثم قال ذو القرنين (أما من ظلم نفسه) أى ظلم نفسه بالإقامة على الكفر . والدليل على أن هذا هو المراد أنه ذكر فى مقابلته (وأما من آمن وعمل

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا «٨٩» حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا «٩٠» كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا «٩١»

صالحاً) ثم قال (فسوف نعذبه) أى بالقتل فى الدنيا (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً) أى منكرا فظيعاً (وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (جزاء الحسنى) بالنصب والتنوين والباقون بالرفع والإضافة ، فعلى القراءة الأولى يكون التقدير فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة ، وأما على القراءة الثانية ففى التفسير وجهان (الأول) فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هى الإيمان والعمل الصالح (والثانى) أن يكون التقدير فله جزاء المثوبة الحسنى ويكون المعنى فله ذا الجزاء الذى هو المثوبة الحسنى والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى وإضافة الموصوف إلى الصفة مشهورة كقوله (ولدار الآخرة)و(حق اليقين) ثم قال (وسنقول له من أمرنا يسراً) أى لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما وتقدير هذا يسر كقوله (قولا ميسوراً) وقرىء يسراً بضمتين .

قوله تعالى ﴿ ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من من دونها ستراً . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما بين أولا أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس فبين الله تعالى أنه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً وفيه قولان (الأول) أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم فلهذا السبب إذا طلعت الشمس دخلوا فى إسراب واغلة فى الأرض أو غاصوا فى الماء فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق (والقول الثانى) أن معناه أنه لاثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبداً ويقال فى كتب الهيئة إن حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك وذكر فى كتب التفسير أن بعضهم قال سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم ، فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه الواحدة ويلبس الأخرى ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرباً لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج ثم قال تعالى (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) وفيه وجوه (الأول) أى كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الأسباب حتى بلغ ما بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا «٩٢» حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا «٩٣» قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا «٩٤» قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا «٩٥»

الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به (والثانى) كذلك جعل الله أمر هؤلاء القوم على ما قد أعلم رسوله عليه السلام فى هذا الذكر (والثالث) كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب ، قضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك ، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين . (والرابع) أنه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى أنه تعالى قال أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده (وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى كنا عالمين بأن الأمر كذلك .

قوله تعالى ﴿ ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾

اعلم أن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب اتبع سبباً آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين ، وقد آتاه الله من العلم والقدرة مايقوم بهذه الأمور ، وههنا مباحث :

﴿ الأول ﴾ قرأ حمزة والكسائى السدين بضم السين وسداً بفتحها حيث كان ، وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما فى كل القرآن ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما فى كل القرآن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السدين وسداً ههنا بفتح السين فيهما وضمها فى يس فى الموضعين قال الكسائى هما لغتان ، وقيل ما كان من صنعة بنى آدم فهو السد بفتح السين ، وما كان من صنع الله فهو السد بضم السين والجمع سدد ، وهو قول أبى عبيدة وابن الأنبارى ، قال صاحب الكشاف السد بالضم فعل بمعنى مفعول أى هو مما فعله الله وخلقه ، والسد بالفتح مصدر حدث يحدثه الناس .

﴿ البحث الثانى ﴾ الأظهر أن موضع السدين فى ناحية الشمال ، وقيل جبلان بين أرمينية وبين أذربيجان ، وقيل هذا المكان فى مقطع أرض الترك ، وحكى محمد بن جرير الطبرى فى

تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا اليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع ، وذكر ابن خردا [ذبة] فى كتاب المسالك والممالك أن الواثق بالله رأى فى المنام كأنه فتح هذا الردم فبعث بعض الخدم اليه ليعاينوه فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ، ثم إن ذلك الإنسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند ، قال أبو الريحان مقتضى هذا أن موضعه فى الربع الشمالى الغربى من المعمورة ، والله أعلم بحقيقه الحال .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما أى من ورائهما مجاوزاً عنهما (قوما) أى أمة من الناس (لايكادون يفقهون قولا) قرأ حمزة والكسائى يفقهون بضم الياء وكسر القاف على معنى لايمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف ، والمعنى أنهم لايعرفون غير لغة أنفسهم وماكانوا يفهمون اللسان الذى يتكلم به ذو القرنين ، ثم قال تعالى ﴿ قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) فان قيل كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله بقوله (لايكادون يفقهون قولا) والجواب أن نقول كاد فيه قولان (الأول) أن إثباته نفى ، ونفيه إثبات ، فقوله (لايكادون يفقهون قولا) لايدل على أنهم لايفهمون شيئاً ، بل يدل على أنهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة (والقول الثانى) أن كاد معناه المقاربة ، وعلى هذا القول فقوله (لايكادون يفقهون قولا) أى لايعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا . وعلى هذا القول فلا بد من إضمار ، وهو أن يقال لايكادون يفهمونه إلا بعد تقريب ومشقة من إشارة ونحوها ، وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الأول فى فى تفسير كاد .

﴿ البحث الرابع ﴾ فى يأجوج ومأجوج قولان (الأول) أنهما إسمان أعجميان موضوعان بدليل منع الصرف (والقول الثانى) أنهما مشتقان ، وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز . وقرأ الباقون ياجوج وماجوج ، وقرىء فى رواية آجوج ومأجوج ، والقائلون بكون هذين الإسمين مشتقين ذكروا وجوها (الأول) قال الكسائى يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها فلسرعتهم فى الحركة سموا بذلك ومأجوج من موج البحر (الثانى) أن يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته فلشدتهم فى الحركة سموا بذلك (الثالث) قال القتيبى هو مأخوذ من قولهم أج الظليم فى مشيه يئج أجاً إذا هرول وسمعت حفيفه فى عدوه (الرابع) قال الخليل الأج حب كالعدس والمج مج الريق فيحتمل أن يكونا مأخوذين منهما واختلفوا فى أنهما من أى الأقوام فقيل إنهما من الترك وقيل (يأجوج) من الترك (ومأجوج) من الجيل والديلم ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول أحدهم شبراً ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخاليب فى

آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا «٩٦» فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا «٩٧» قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا «٩٨»

الأظفار وأضراساً كأضراس السباع واختلفوا فى كيفية إفسادهم فى الأرض فقيل كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئاً أخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام والله أعلم بمراده ، ثم إنه تعالى حكى عن أهل ما بين السدين أنهم قالوا لذى القرنين (فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً) قرأ حمزة والكسائى خراجاً والباقون خرجا قيل الخراج والخرج واحد ، وقيل هما أمران متغايران ، وعلى هذا القول اختلفوا قيل الخرج بغير ألف هو الجعل لأن الناس يخرج كل واحد منهم شيئاً منه فيخرج هذا أشياء وهذا أشياء ، والخراج هو الذى يجبيه السلطان كل سنة . وقال الفراء الخراج هو الإسم الأصلى والخرج كالمصدر وقال قطرب الخرج الجزية والخراج فى الأرض فقال ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى) أى ما جعلنى مكيناً من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخراج فلا حاجة بى إليه ، وهو كما قال سليمان عليه السلام (فما آتانى الله خير مما آتاكم) قرأ ابن كثير (ما مكننى) بنونين على الإظهار والباقون بنون واحدة مشددة على الادغام ، ثم قال ذو القرنين (فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) أى لا حاجة لى فى مالكم ولكن (أعينونى) برجال وآلة أبنى بها السد ، وقيل المعنى (أعينونى) بمال أصرفه الى هذا المهم ولا أطلب المال لآخذه لنفسى ، والردم هو السد يقال ردمت الباب أى سددته وردمت الثوب رقعته لأنه يسد الخرق بالرقعة والردم أكثر من السد من قولهم ثوب مردوم أى وضعت عليه رقاع .

قوله تعالى : ﴿ آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ، قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً ﴾ .

اعلم أن (زبر الحديد) قطعه قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة قراءة الجميع آتونى بمد الألف إلا حمزة فانه قرأ ائتونى من الإتيان ، وقد روى ذلك عن عاصم والتقدير ائتونى بزبر الحديد ثم حذف الباء كقوله شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له ، وقوله (حتى إذا ساوى

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا «٩٩» وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا «١٠٠» الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا «١٠١»

بين الصدفين) فيه إضمار أى فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلداً ، واعلم أن هذا معجز قاهر لأن هذه الزبر الكثيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان على القرب منها ، والنفخ عليها لا يمكن إلا مع القرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها قال صاحب الكشاف قيل بعد ما بين (السدين) مائة فرسخ (والصدفان) بفتحتين جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أى يتقابلان وقرىء (الصدفين) بضمتين (والصدفين) بضمة وسكون والقطر النحاس المذاب لأنه يقطر ، وقوله (قطرا) منصوب بقوله (أفرغ) وتقديره آتونى قطراً (أفرغ عليه قطراً) فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ثم قال (فما اسطاعوا) فحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء وقرىء (فما اصطاعوا) بقلب السين صادا (أن يظهروه) أن يعلوه أى ما قدروا على الصعود عليه لأجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لأجل صلابته وثخانته ، ثم قال ذوالقرنين (هذا رحمة من ربى) فقوله هذا إشارة الى السد أى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أوهذا الاقتدار والتمكين من تسويته (فاذا جاء وعدربى) يعنى فاذا دنا مجىء القيامة جعل السد دكا أى مدكوكا مسوى بالأرض . وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك وقرىء دكاء بالمد أى أرضاً مستوية (وكان وعد ربى حقاً) وههنا آخر حكاية ذى القرنين .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ .

اعلم أن الضمير فى قوله بعضهم عائد إلى (يأجوج ومأجوج) وقوله (يومئذ) فيه وجوه : (الأول) أن يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج (الثانى) أن عند الخروج يموج بعضهم فى بعض قيل إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين فى البلاد يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون . (والقول الثالث) أن المراد من قوله (يومئذ) يوم القيامة وكل ذلك محتمل إلا أن الأقرب أن

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا «١٠٢» قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا «١٠٣» ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا «١٠٤» أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْنًا «١٠٥» ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُوًا «١٠٦»

المراد الوقت الذى جعل الله ذلك السد دكا فعنده ماج بعضهم فى بعض وبعده نفخ فى الصور وصار ذلك من آيات القيامة ، والكلام فى الصور قد تقدم وسيجىء من بعد ، وأما عرض جهنم وإبرازه حتى يصير مكشوفاً بأهواله فذلك يجرى مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم ، وبين تعالى أنه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا ، أما العمى فهو المراد من قوله (كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى) والمرادمنه شدة انصرافهم عن قبول الحق ، وأما الصمم فهوالمراد من قوله (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) يعنى أن حالتهم أعظم من الصمم لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة واحتج الأصحاب بقوله (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) على أن الاستطاعة مع الفعل وذلك لأنهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا ، قال القاضى المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم إياه كقول الرجل لا أستطيع النظر إلى فلان .

قوله تعالى ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا . قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بين من حال الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ماجاء به الرسول أتبعه بقوله (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) والمراد أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله وهو استفهام على سبيل التوبيخ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ أبو بكر ولم يرفعه إلى عاصم (أفحسب الذين كفروا) بسكون السين ورفع الباء . وهي من الأحرف التى خالف فيها عاصما ، وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن

أبى طالب ، وعلى هذا التقدير فقوله حسب مبتدأ ، أن يتخذوا خبر ، والمعنى أفكافيهم وحسبهم أن يتخذوا كذا وكذا ، وأما الباقون فقرأوا أفحسب على لفظ الماضى ، وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى : أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادى أولياء نافعاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى العباد أقوال قيل أراد عيسى والملائكة ، وقيل هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم ، وقيل هى الأصنام سماهم عباداً كقوله (عباد أمثالكم) ، ثم قال تعالى (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) وفى النزل قولان (الأول) قال الزجاج إنه المأوى والمنزل (والثانى) أنه الذى يقام للنزيل وهو الضيف ، ونظيره قوله (فبشرهم بعذاب أليم) ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) قيل إنهم هم الرهبان كقوله تعالى (عاملة ناصبة) وعن مجاهد أهل الكتاب وعن على أن ابن الكواء سأله عنهم فقال هم أهل حروراء والأصل أن يقال هو الذى يأتى بالأعمال يظنها طاعات وهى فى أنفسها معاصى وإن كانت طاعات لكنها لا تقبل منهم لأجل كفرهم فأولئك إنما أتوا بتلك الأعمال لرجاء الثواب ، وإنما أتعبوا أنفسهم فيها لطلب الأجر والفوز يوم القيامة فاذا لم يفوزوا بمطالبهم بين أنهم كانوا ضالين ، ثم إنه تعالى بين صنعهم فقال (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقاء الله عبارة عن رؤيته بدليل أنه يقال لقيت فلاناً أى رأيته ، فان قيل اللقاء عبارة عن الوصول ، قال تعالى (فالتقى الماء على أمر قد قدر) وذلك فى حق الله تعالى محال ، فوجب حمله على لقاء ثواب الله ، والجواب أن لفظ اللقاء ، وإن كان فى الأصل عبارة عن الوصول والملاقاة إلا أن استعماله فى الرؤية مجاز ظاهر مشهور ، والذى يقولونه من أن المراد منه لقاء ثواب الله فهو لا يتم إلا بالإضمار ، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج معه إلى الإضمار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدلت المعتزلة بقوله تعالى (فحبطت أعمالهم) على أن القول بالإحباط والتكفير حق ، وهذه المسألة قد ذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة فلا نعيدها ، ثم قال تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) وفيه وجوه (الأول) أنا نزدرى بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار (الثانى) لا نقيم لهم ميزانا لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين لتمييز مقدار الطاعات ومقدار السيئات (الثالث) قال القاضى إن من غلبت معاصيه صار ما فى فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل فى الوزن شىء من طاعته . وهذا التفسير بناء على قوله بالإحباط والتكفير ، ثم قال تعالى (ذلك جزاؤهم جهنم) فقوله (ذلك) أى ذلك الذى ذكرناه وفصلناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة ، وقوله (جهنم) عطف بيان لقوله (جزاؤهم) ثم بين تعالى أن ذلك الجزاء جزاء على مجموع أمرين (أحدهما) كفرهم (الثانى) أنهم أضافوا الى

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا «١٠٧» خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا «١٠٨»

الكفر أن اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزواً ، فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزأوا بهم .

قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد ، ولما ذكر فى الكفار أن جهنم نزلهم ، أتبعه بذكر مايرغب فى الإيمان والعمل الصالح .فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردس نزلا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عطف عمل الصالحات على الإيمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وذلك يدل على أن الأعمال الصالحة مغايرة للايمان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ عن قتادة الفردوس وسط الجنة وأفضلها ، وعن كعب ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس ، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وعن مجاهد الفردوس هو البستان بالرومية ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الجنة مائة درجة مابين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ، ومنها الأنهار الأربعة والفردوس من فوقها ، فاذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فان فوقها عرش الرحمن ومنها تتفجر أنهار الجنة » .

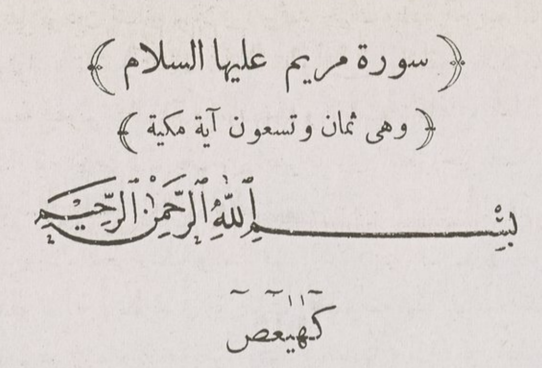
﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال بعضهم إنه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلا للمؤمنين والكريم إذا أعطى النزل أولا فلابد أن يتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها إلا رؤية الله ، فان قالوا أليس أنه تعالى جعل فى الآية الأولى جملة جهنم نزلا الكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر ، فكذلك ههنا جعل جملة الجنة نزلا للمؤمنين مع أنه ليس له شىء آخر بعد الجنة ، والجواب قلنا للكافر بعد حصول جهنم مرتبة أعلى منها وهو كونه محجوباً عن رؤية الله كما قال تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم) فجعل الصلاء بالنار متأخراً فى المرتبة عن كونه محجوبا عن الله ، ثم قال تعالى (لا يبغون عنها حولا) الحول التحول ، يقال حال من مكانه حولا كقوله عاد فى حبها عودا يعنى لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد أشياء غيرها ، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لأن الإنسان فى الدنيا إذا وصل إلى أى درجة كانت فى السعادات فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا «١٠٩» قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا «١١٠»

قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر فى هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح أقاصيص الأولين نبه على كمال حال القرآن فقال : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى) والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط ، والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وكان البحر مداداً لها والمراد بالبحر الجنس لنفد قبل أن تنفد الكلمات ، وتقرير الكلام أن البحار كيفما فرضت فى الاتساع والعظمة فهى متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى ، قرأ حمزة والكسائى ينفد بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات ، وروى أن حيى بن أخطب قال : فى كتابكم (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) ثم تقرأون (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فنزلت هذه الآية يعنى أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج المخالفون على الطعن فى قول أصحابنا أن كلام الله تعالى واحد بهذه الآية ، وقالوا إنها صريحة فى اثبات كلمات الله تعالى وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى ، قال الجبائى : وأيضا قوله (قبل أن تنفد كلمات ربى) يدل على أن كلمات الله تعالى قد تنفد فى الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه ، وأيضاقال : (ولو جئنا بمثله مدداً) وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يجىء بمثل كلامه والذى يجاء به يكون محدثا والذى يكون المحدث مثلا له فهو أيضاً محدث وجواب أصحابنا أن المراد منه الألفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الأزلية ، واعلم أنه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمدا ﷺ بأن يسلك طريقة التواضع فقال : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) أى لا امتياز بينى وبينكم فى شىء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إلى أنه لا إله الله الواحد الأحد الصمد ، والآية تدل على مطلوبين : (الأول) أن كلمة (إنما) تفيد الحصر



وهى قوله (أنما إلهكم إله واحد) . (والثانى) أن كون الإله تعالى (إلهاً واحداً) يمكن إثباته بالدلائل السمعية ، وقد قررنا هذين المطلوبين فى سائر السور بالوجوه القوية ، ثم قال : (فمن كان يرجو لقاء ربه) والرجاء هو ظن المنافع الواصلة اليه والخوف ظن المضار الواصلة اليه ، وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة قد تقدمت والعجب أنه تعالى أورد فى آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله فى ثلاث آيات : (أولها) قوله (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) . (وثانيها) قوله (كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (وثالثها) قوله (فمن كان يرجو لقاء ربه) ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال (فليعمل عملا صالحاً) أى من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح ، ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لاجرم اعتبر فيه قيدان : أن يؤتى به لله ، وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك ، فقال (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) . قيل نزلت هذه الآية فى جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ « إنى أعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه أحد سرنى » فقال عليه الصلاة والسلام « إن الله لا يقبل ماشورك فيه » وروى أيضاً أنه قال له « لك أجران أجر السر وأجر العلانية » فالرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة ، والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به ، والمقام الأول مقام المبتدئين ، والمقام الثانى مقام الكاملين والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

قال المصنف رضى الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة اثنتين وستمائة فى بلدة غزنين ؛ ونسأل الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، أن يخصنا بالمغفرة والفضل فى يوم الدين ، إنه ذو الفضل العظيم .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ كهيعص ﴾ قبل الخوض فى القراءات لابد من مقدمات ثلاثة (المقدمة الأولى)

أن حروف المعجم على نوعين ثنائى وثلاثى ، وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا با تا ثا وكذلك أمثالها ، وأن ينطقوا بالثلاثيات التى فى وسطها الألف مفتوحة مشبعة فيقولوا دال ذال صاد ضاد وكذلك أشكالها ، أما الزاى وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الأمران ، فان من أظهر ياءه فى النطق حتى يصير ثلاثياً لم يمله ، ومن لم يظهر ياءه فى النطق حتى يشبه الثنائى يمله (أما المقدمة الثانية) ينبغى أن يعلم أن إشباع الفتحة فى جميع المواضع أصل والإمالة فرع عليه ولهذا يجوز إشباع كل ممال ولا يجوز إمالة كل مشبع من الفتحات (المقدمة الثالثة) للقراء فى القراءات المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق (أحدها) أن يتمسكوا بالأصل وهو إشباع فتحة الهاء والياء (وثانيها) أن يميلوا الهاء والياء (وثالثها) أن يجمعوا بين الأصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا أحدهما أيهما كان ويكسروا الآخر ولهم فى السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان (الأول) أن الفتحة المشبعة أصل والإمالة فرع مشهور كثير الاستعمال فأشبع أحدهما وأميل الآخر ليكون جامعاً لمراعاة الأصل والفرع وهو أحسن من مراعاة أحدهما وتضييع الآخر (القول الثانى) أن الثنائية من حروف المعجم إذا كانت مقطوعة كانت بالإمالة ، وإذا كانت موصولة كانت بالإشباع وها ويا فى قوله تعالى (كهيعص) مقطوعان فى اللفظ موصولان فى الخط فأميل أحدهما وأشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيا جانب القطع اللفظى وجانب الوصل الخطى ، إذا عرفت هذا فنقول فيه قراءات (إحداها) وهى القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعا (وثانيها) كسر الهاء وفتح الياء وهى قراءة أبى عمرو وابن مبادر [١] والقطعى عن أيوب ، وإنما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقا بينه وبين الهاء الذى للتنبيه فانه لا يكسر قط (وثالثها) فتح الهاء وكسر الياء وهو قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم ، وإنما كسروا الياء دون الهاء ، لأن الياء أخت الكسرة وإعطاء الكسرة أختها أولى من إعطائها الى أجنبية مفتوحة للمناسبة (ورابعها) إمالتهما جميعاً وهو قراءة الكسائى والمفضل ويحي عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهرى وابن جرير وإنما أمالوهما للوجهين المذكورين فى إمالة الهاء وإمالة الياء (وخامسها) قراءة الحسن وهى ضم الهاء وفتح الياء ، وعنه أيضاً فتح الهاء وضم الياء ، وروى صاحب الكشاف عن الحسن بضمهما ، فقيل له لم تثبت هذه الرواية عن الحسن لأنه أورد ابن جنى فى كتاب المكتسب [٢] أن قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين ، وقال بعضهم إنما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لأنه تصور أن عين الفعل فى الهاء والياء ألف منقلب عن الواو كالدار والمال ، وذلك لأن هذه الألفات وإن كانت مجهولة لأنها لا اشتقاق لها فانها تحمل على ما هو مشابه لها فى اللفظ . والألف إذا وقع عيناً فالواجب أن يعتقد أنه منقلب عن الواو لأن الغالب

(١) هكذا فى الأصول (ابن مبادر) ولم نره فى القراء ولعله محرف عن ابن مناذر وهو مما سمت به العرب.
(٢) الكتاب المشهور لابن جنى اسمه (المحتسب) فلعل له كتاباً آخر اسمه المكتسب أو لعله تحريف لهم

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا «٢»

فى اللغة ذلك فلما تصور الحسن أن ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله فى حكم الواو وضم ما قبله لأن الواو أخت الضمة (وسادسها) ها يا باشمامهما شيئاً من الضمة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ أبو جعفر كهيعص يفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع إظهار نون العين وباقى القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القراءة المعروفة صاد ، ذكر بالادغام وعن عاصم ويعقوب بالإظهار

﴿ البحث الثانى ﴾ المذاهب المذكورة فى هذه الفواتح قد تقدمت لكن الذى يختص بهذا الموضع ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى كهيعص ثناء من الله على نفسه ، فمن الكاف وصفه بأنه كاف ومن الهاء هاد ومن العين عالم ومن الصاد صادق ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً أنه حمل الكاف على الكبير والكريم ، ويحكى أيضاً عنه أنه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى ، وعن الربيع بن أنس فى الياء أنه من مجير ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى العين أنه من عزيز ومن عدل . وهذه الأقوال ليست قوية لما بينا أنه لايجوز من الله تعالى أن يودع كتابه مالا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز لأنا إن جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطناً . واللغة لاتدل على ماذكروه فانه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم أو الملائكة أو الجنة أو النار فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لاتدل عليه اللغة أصلا .

قوله تعالى ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى لفظة ذكر أربع قراءات صيغة المصدر أو الماضى مخففة أو مشددة أو الأمر ، أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر رحمة ربك على الإضافة ثم فيها ثلاثة أوجه : (أحدها) نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور (وثانيها) برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هى عبده زكرياء عن ابن عامر (وثالثها) بنصب الأول وبرفع الثانى والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء . وأما صيغة الماضى بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة . وأما صيغة الماضى بالتخفيف ففيها وجهان (أحدهما) رفع الباء من ربك والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء (وثانيها) نصب الباء من ربك والرفع فى عبده زكرياء وذلك بتقديم المفعول على الفاعل وهاتان القراءتان للكلبى ، وأما صيغة الأمر فلا بد من نصب رحمة وهى قراءة ابن عباس . واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضى يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يحتمل أن يكون المراد من قوله رحمة ربك أعنى عبده زكرياء ثم فى كونه رحمة وجهان (أحدهما) أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات (والآخر) أن

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا «٣» قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا «٤» وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا «٥» يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا «٦»

يكون رحمة على نبينا محمد ﷺ وعلى أمة محمد لأن الله تعالى لما شرح لمحمد ﷺ طريقه فى الإخلاص والابتهال فى جميع الأمور إلى الله تعالى صار ذلك لفظاً داعياً له ولأمته إلى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة ، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى رحم بها عبده زكرياء .

قوله تعالى ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ راعى سنة الله فى إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد عن الرياء وأدخل فى الإخلاص (وثانيها) أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمان الشيخوخة (وثالثها) أسره من مواليه الذين خافهم (ورابعها) خفى صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات ، فان قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفياً ، والجواب من وجهين (الأول) أنه أتى بأقصى ماقدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظراً إلى قصده وخفياً نظراً إلى الواقع (الثانى) أنه دعا فى الصلاة لأن الله تعالى أجابه فى الصلاة لقوله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب إن الله يبشرك بيحيي) فكون الإجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فى الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفياً .

قوله تعالى ﴿ قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾ القراءة فيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (وهن) بالحركات الثلاث

﴿ المسألة الثانية ﴾ إدغام السين فى الشين [من الرأس شيباً] عن أبى عمرو

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (وإنى خفت الموالى) بفتح الياء وعن الزهرى باسكان الياء من الموالى وقرأ عثمان وعلى بن الحسين ومحمد بن على وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس خفت بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء وهذا يدل على معنيين (أحدهما) أن يكون ورائى بمعنى بعدي والمعنى

أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعده فسأل ربه تقويتهم بولى يرزقه (والثانى) أن يكون بمعنى قدامى والمعنى أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تقو واعتضاد.

﴿المسألة الرابعة﴾ القراءة المعروفة (من ورائى) بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وعن حميد ابن مقسم كذلك لكن بفتح الياء وقرأ ابن كثير (وراى) كعصاى.

﴿المسألة الخامسة﴾ فى يرثنى ويرث وجوه (أحدها) القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة (وثانيها) وهى قراءة أبى عمرو والكسائى والزهرى والأعمش وطلحة بالجزم فيهما جواباً للدعاء (وثالثها) عن على ابن أبى طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة (يرثنى) جزم وارث بوزن فاعل (ورابعها) عن ابن عباس (يرثنى) وارث من آل يعقوب (وخامسها) عن الجحدرى (ويرث) تصغير وارث على وزن أفيعل (اللغة) الوهن ضعف القوة قال فى الكشاف شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وانارته وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه كل مأخذ كاشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة، وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الإجابة كما أن مقابل الأمر الطاعة، وأما أصل التركيب فى (ولى[1]) فيدل على معنى القرب والدنو يقال وليته أليه ولياً أى دنوت وأوليته أدنيته منه وتباعد ما بعده وولى ومنه قول ساعدة [ابن جؤية]:

وعدت عواد دون وليك تشغب

وكل مما يليك وجلست مما يليه ومنه الولى وهو المطر الذى يلى الوسمى، والولية البرذعة لأنها تلى ظهر الدابة وولى اليتيم والقتيل وولى البلد لأن من تولى أمراً فقد قرب منه، وقوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) من قولهم ولاه بركنه أى جعله مما يليه، وأما ولى عنى إذا أدبر فهو من باب تثقيل الحشو للسلب وقولهم فلان أولى من فلان أى أحق أفعل التفضيل من الوالى أو الولى كالأدنى والأقرب من الدانى والقريب وفيه معنى القرب أيضاً لأن من كان أحق بالشىء كان أقرب اليه والمولى اسم لموضع الولى كالمرمى والمبنى اسم لموضع والمرمى والبناء، وأما العاقر فهى التى لا تلد والعقر فى اللغة الجرح ومنه أخذ العاقر لأنه نقص أصل الخلقة وعقرت الفرس بالسيف إذا ضربت قوائمه، وأما الآل فهم خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم اليه ثم قد يؤول أمرهم اليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى كآل فرعون وللموافقة فى الدين كآل النبى صلى الله عليه وسلم واعلم أن زكرياء عليه السلام قدم على السؤال أموراً ثلاثة: (أحدها) كونه ضعيفاً (والثانى) أن الله تعالى ما رد دعاءه البتة (والثالث) كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة فى الدين ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال (أما المقام الأول) وهو كونه ضعيفا فأثر الضعف،

---

(١) التثقيل هنا التشديد. والحشو هنا وسط الكلمة، والسلب هنا معناه الضد والمعنى أنه شدد اللام من ولى ليفهم الضد فان (ولى) مكسورة اللام مخففة معناها أقبل و (ولى) مفتوحة اللام مشددة معناها أدبر والادبار ضد الاقبال، وهذا معنى تثقيل الحشو للسلب: والله أعلم

إما أن يظهر فى الباطن أو فى الظاهر ، والضعف الذى يظهر فى الباطن يكون أقوى مما يظهر فى الظاهر فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذى فى الباطن وهو قوله (وهن العظم منى) وتقريره هو أن العظام أصلب الأعضاء التى فى البدن وجعلت كذلك لمنفعتين : (إحداهما) لأن تكون أساساً وعمداً يعتمد عليها سائر الأعضاء الأخر إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول (والثانية) أنه احتيج اليها فى بعض المواضع لأن تكون جنة يقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر ، وما كان كذلك فيجب أن يكون صلباً ليكون صبورا على ملاقاة الآفات بعيدا من القبول لها إذا ثبت هذا فنقول إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ماعداها مع رخاوتها أولى ، ولأن العظم إذا كان حاملا لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجباً لتطرقه إلى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء وأما أثر الضعف فى الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبرى عن الأسباب الظاهرة (المقام الثانى) أنه ماكان مردود الدعاء البتة ووجه التوسل به من وجهين (أحدهما) ماروى أن محتاجاً سأل واحداً من الأكابر وقال أنا الذى أحسنت إلى وقت كذا ، فقال مرحباً بمن توسل بنا إلينا ثم قضى حاجته . وذلك أنه إذا قبله أولا فلو أنه رده ثانيا لكان الرد محبطاً للأنعام الأول والمنعم لايسعى فى إحباط انعامه (والثانى) وهو أن مخالفة العادة شاقة على النفس فاذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار مردوداً بعد ذلك لكان فى غاية المشقة ولأن الجفاء ممن يتوقع منه الإنعام يكون أشق فقال زكرياء عليه السلام إنك مارددتنى فى أول الأمر مع أنى ماتعودت لطفك وكنت قوى البدن قوى القلب فلو رددتنى الآن بعد ماعودتنى القبول مع نهاية ضعفى لكان ذلك بالغاً إلى الغاية القصوى فى ألم القلب ، واعلم أن العرب تقول سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها وشقى بها إذا خاب ولم ينلها ومعنى بدعائك أى بدعائى إياك فان الفعل قد يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى (المقام الثالث) بيان كون المطلوب منتفعاً به فى الدين وهو قوله (وإنى خفت الموالى من ورائى) وفيه أبحاث (الأول) قال ابن عباس والحسن إنى خفت الموالى أى الورثة من بعدى وعن مجاهد العصبة وعن أبى صالح الكلالة وعن الأصم بنو العم وهم الذين يلونه فى النسب وعن أبى مسلم المولى يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من يقوم بميراثه مقام الولد ، والمختار أن المراد من الموالى الذين يخلفون بعده إما فى السياسة أو فى المال الذى كان له أو فى القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب فانه كان متعيناً فى الحياة (الثانى) اختلفوا فى خوفه من الموالى فقال بعضهم خافهم على إفساد الدين . وقال بعضهم بل خاف أن ينتهى أمره اليهم بعد موته فى مال وغيره مع أنه عرف من حالهم قصورهم فى

العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب ، وفيه قول ثالث وهو أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بنى إسرائيل نبى له أب إلا واحد فخاف أن يكون ذلك من بنى عمه إذ لم يكن له ولد فسأل الله تعالى أن يهب له ولداً يكون هو ذلك النبى ، وذلك يقتضى أن يكون خائفاً من أمر يهتم بمثله الأنبياء وإن لم يدل على تفصيل ذلك . ولا يمتنع أن زكرياء كان اليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالإمامة فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما . أما قوله (وإنى خفت) فهو وإن خرج على لفظ الماضى لكنه يفيد أنه فى المستقبل أيضاً ، كذلك يقول الرجل قد خفت أن يكون كذا وخشيت أن يكون كذا أى أنا خائف لا يريد أنه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله (وكانت امرأتى عاقراً) أى أنها عاقر فى الحال وذلك لأن العاقر لا تحول ولوداً فى العادة ففى الإخبار عنه بلفظ الماضى إعلام بتقادم العهد فى ذلك وغرض زكرياء من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان إيراده بلفظ الماضى أقوى وإلى هذا يرجع الأمر فى قوله وإنى خفت الموالى من ورائى لأنه إنما قصد به الإخبار وعن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسألة الوارث وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف فى الحال وأيضاً فقد يوضع الماضى مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) والله أعلم وأما قوله من ورائى ففيه قولان (الأول) قال أبو عبيدة أى قدامى وبين يدى وقال آخرون أى بعد موتى وكلاهما محتمل فان قيل كيف خافهم من بعده وكيف علم أنهم يبقون بعده فضلا من أن يخاف شرهم ؟ قلنا إن ذلك قد يعرف بالأمارات والظن وذلك كاف فى حصول الخوف فربما عرف ببعض الإمارات استمرارهم على عادتهم فى الفساد والشر واختلف فى تفسير قوله (فهب لى من لدنك ولياً) فالأكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره والأقرب هو الأول لثلاثة أوجه (الأول) قوله تعالى فى سورة آل عمران حكاية عنه (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) (والثانى) قوله فى هذه السورة (هب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب) (والثالث) قوله تعالى فى سورة الأنبياء (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً) وهذا يدل على أنه سأل الولد لأنه قد أخبر فى سورة مريم أن له موالى وأنه غير منفرد عن الورثة وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه لكن حمله على الولد أظهر واحتج أصحاب القول الثالث بأنه لما بشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال أنى يكون لى غلام ولو كان دعاؤه لأجل الولد لما استعظم ذلك (الجواب) أنه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد ؟ وهذا يحكى عن الحسن وقال غيره إن قول زكرياء عليه السلام فى الدعاء (وكانت امرأتى عاقراً) إنما هو على معنى مسألته ولداً من غيرها أو منها بأن يصلحها الله للولد فكأنه عليه السلام قال إنى أيست أن يكون لى منها ولد فهب لى من لدنك وليا كيف شئت إما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن

تهب لى من غيرها فلما بشر بالغلام سأل أيرزق منها أو من غيرها فأخبر بأنه يرزق منها واختلفوا فى المراد بالميراث على وجوه (أحدها) أن المراد بالميراث فى الموضعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك (وثانيها) أن المراد به فى الموضعين وراثة النبوة وهو قول أبى صالح (وثالثها) يرثنى المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدى ومجاهد والشعبى وروى أيضاً عن ابن عباس والحسن والضحاك (ورابعها) يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروى عن مجاهد واعلم أن هذه الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهى المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الإرث مستعمل فى كلها أما فى المال فلقوله تعالى (أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم) وأما فى العلم فلقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب) وقال عليه السلام « العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم » وقال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود) وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة وقد يقال أورثنى هذا غماً وحزناً ، وقد ثبت أن اللفظ محتمل لتلك الوجوه . واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول أما الخبر فقوله عليه السلام « رحم الله زكريا ما كان له من يرثه » وظاهره يدل على أن المراد إرث المال وأما المعقول فمن وجهين (الأول) أن العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل إلا بالاكتساب فوجب حمله على المال (الثانى) (أنه قال واجعله رب رضياً) ولو كان المراد من الإرث إرث النبوة لكان قد سأل جعل النبى ﷺ رضياً وهو غير جائز لأن النبى لا يكون إلا رضياً معصوما ، وأما قوله عليه السلام «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» فهذا لا يمنع أن يكون خاصا به واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين ، وقيل لعله أوتى من الدنيا ما كان عظيم النفع فى الدين فلهذا كان مهتما به أما قوله النبوة كيف تورث قلنا المال إنما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ما حصل لأبيه وإلا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث فكذلك إذا كان المعلوم فى الإبن أن يصير نبياً بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أما قوله عليه السلام « إنا معشر الأنبياء» فهذا وإن جاز حمله على الواحد كما فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) لكنه مجاز وحقيقته الجمع والعدول عن الحقيقة من غير موجب لا يجوز لاسيما وقد روى قوله «إنا معاشر الأنبياء لا نورث» والأولى أن يحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح فى الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع فى الدين والمال الصالح ، فان كل هذه الأمور مما يجوز توفر الدواعى على بقائها ليكون ذلك النفع دائما مستمراً (السابع) اتفق أكثر المفسرين على أن يعقوب ههنا هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام لأن زوجة زكرياء هى أخت مريم وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب وأما زكرياء

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا «٧»

عليه السلام فهو من ولد هرون أخي موسى عليه السلام وهرون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحق وكانت النبوة فى سبط يعقوب لأنه هو إسرائيل ﷺ وقال بعض المفسرين ليس المراد من يعقوب ههنا ولد إسحق بن ابراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكرياء وهذا قول الكلبى ومقاتل . وقال الكلبى كان بنو ماثان رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم وكان زكريا رأس الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم ، واعلم أنهم ذكروا فى تفسير الرضى وجوهاً (أحدها) أن المراد واجعله رضياً من الأنبياء وذلك لأن كلهم مرضيون فالرضى منهم مفضل على جملتهم فائق لهم فى كثير من أمورهم فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيداً وحصورا ونبياً من الصالحين لم يعص ولم يهم بمعصية ، وهذا غاية ما يكون به المرء رضياً (وثانيها) المراد بالرضى أن يكون رضياً فى أمته لايتلقى بالتكذيب ولا يواجه بالرد (وثالثها) المراد بالرضى أن لا يكون متهما فى شيء ولا يوجد فيه مطعن ولا ينسب اليه شيء من المعاصى (ورابعها) أن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قالا فى الدعاء (ربنا واجعلنا مسلمين لك) وكانا فى ذلك الوقت مسلمين ، وكأن المراد هناك ثبتنا على هذا أو المراد اجعلنا فاضلين من أنبيائك المسلمين فكذا ههنا واحتج أصحابنا فى مسألة خلق الأفعال بهذه الآية لأنه إنما يكون رضياً بفعله ، فلما سأل الله تعالى جعله رضيا دل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى . فان قيل المراد منه أن يلطف له بضروب الألطاف فيختار مايصير مرضيا فينسب ذلك الى الله تعالى ، والجواب من وجهين (الأول) أن جعله رضياً لو حملناه على جعل الألطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيا لكان ذلك مجازاً وهو خلاف الأصل (والثانى) أن جعل تلك الألطاف واجبة على الله تعالى لايجوز الإخلال به وما كان واجبا لايجوز طلبه بالدعاء والتضرع .

قوله تعالى ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى من المنادى بقوله يازكريا ، فالأكثرون على أنه هو الله تعالى وذلك لأن ماقبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله تعالى ويسأله وهو قوله (رب إنى وهن العظم منى) وقوله (ولم أكن بدعائك رب شقياً) وقوله (فهب لى) وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول (رب أنى يكون لى غلام) وإذا كان ماقبل هذه الآية وما بعدها خطابا مع الله تعالى وجب أن يكون النداء من الله تعالى وإلا لفسد النظم ، ومنهم من قال هذا نداء الملك واحتج عليه بوجهين (الأول) قوله تعالى فى سورة آل عمران (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى) ، (الثانى) أن زكريا

عليه السلام لما قال (أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ، قال كذلك قال ربك هو على هين) وهذا لايجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك (والجواب) عن الأول أنه يحتمل أن يقال حصل النداءان نداء الله ونداء الملائكة (وعن الثانى) أنا نبين إن شاء الله تعالى أن قوله (قال كذلك قال ربك هو على هين) يمكن أن يكون كلام الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فان قيل إن كان الدعاء باذن فما معنى البشارة ، وإن كان بغير إذن فلماذا أقدم عليه؟ والجواب هذا أمر يخصه فيجوز أن يسأل بغير إذن ، ويحتمل أنه أذن له فيه ولم يعلم وقته فبشر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف المفسرون فى قوله (لم نجعل له من قبل سمياً) على وجهين ؛ (أحدهما) وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الإسم (الثانى) أن المراد بالسمى النظير كما فى قوله (هل تعلم له سمياً) واختلفوا فى ذلك على وجوه (أحدها) أنه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية كأنه جواب لقوله (واجعله رب رضياً) فقيل له إنا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيها فى الدين ، ومن كان هكذا فهو فى غاية الرضا . وهذا الوجه ضعيف لأنه يقتضى تفضيله على الأنبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وذلك باطل بالاتفاق (وثانيها) أن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم فى الوجود ، وأما يحيى عليه السلام فان الله تعالى هو الذى سماه قبل دخوله فى الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه فى هذه الخاصية (وثالثها) أنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، واعلم أن الوجه الأول أولى وذلك لأن حمل السمى على النظير وإن كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وإنه لايجوز ، وأما قول الله تعالى (هل تعلم له سمياً) فهناك إنما عدلنا عن الظاهر لأنه قال (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً) ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الإسم لايقتضى وجوب عبادته ، فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر ، أما ههنا لاضرورة فى العدول عن الظاهر فوجب اجراؤه عليه ولأن فى تفرده بذلك الإسم ضرباً من التعظيم لأنانشاهد أن الملك إذاكان له لقب مشهور فان حاشيته لايتلقبون به بل يتركونه تعظيما له فكذلك ههنا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى أنه عليه السلام سمى بيحيى روى الثعلبى فيه وجوها (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى أحيا به عقر أمه (وثانيها) عن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة والله تعالى سمى المطيع حياً والعاصى ميتاً بقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) وقال (إذا دعاكم لما يحييكم) (وثالثها) إحياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا وقد عصى أو هم إلا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعملها » (ورابعها) عن أبى القاسم بن حبيب أنه استشهد وأن الشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى (بل أحياء عند ربهم) . (وخامسها) ماقاله

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا «٨»

عمرو بن عبد الله المقدسى : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قل ليسارة ، وكان اسمها كذلك ، بأنى مخرج منها عبداً لايهم بمعصية اسمه حي . فقال هبي له من اسمك حرفا فوهبته حرفا من اسمها فصار يحي وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة (وسادسها) أن يحي عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حياً بذلك الإيمان وذلك أن أم يحي كانت حاملا به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحي يامريم أحامل أنت ؟فقالت لماذا تقولين ؟فقالت إنى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك (وسابعها) أن الدين يحيا به لأنه إنما سأله زكريا لأجل الدين ، واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأن أسماء الألقاب لايطلب فيها وجه الإشتقاق ، ولهذا قال أهل التحقيق أسماء الألقاب قائمة مقام الاشارات وهى لاتفيد فى المسمى صفة البتة .

قوله تعالى ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى عتياً وصلياً وجثياً وبكياً بكسر العين والصاد والجيم والباء ، وقرأ حفص عن عاصم بكيا بالضم والباقى بالكسر والباقون جميعاً بالضم ، وقرأ ابن مسعود بفتح العين والصاد من عتياً وصلياً . وقرأ أبى بن كعب وابن عباس عسياً بالسين غير المعجمة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الألفاظ وهى ثلاثة (الأول) الغلام الانسان الذكر فى ابتداء شهوته للجماع ومنه اغتلم إذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل فى التلميذ يقال غلام ثعلب (الثانى) العتى والعسى واحد تقول عتا يعتو عتواً وعتياً فهو عات وعسا يعسو عسواً وعسياً فهو عاس والعاسى هو الذى غيره طول الزمان إلى حال البؤس وليل عات طويل وقيل شديد الظلمة (الثالث) لم يقل عاقرة لأن ماكان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فإنه لاتدخل فيه الهاء نحو امرأة عاقر وحائض قال الخليل هذه صفات مذكرة وصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا رجل ملحة وربعة وغلام نفعة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى هذه الآية سؤالان (الأول) أن زكريا عليه السلام لم تعجب بقوله (أنى يكون لى غلام) مع أنه هو الذى طلب الغلام ؟ (السؤال الثانى) أن قوله أنى يكون لى غلام لم يكن هذا مذكوراً بين أمته لأنه كان يخفى هذه الأمور عن أمته فدل على أنه ذكره فى نفسه ، وهذا التعجب يدل على كونه شاكا فى قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الأنبياء عليهم

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً «٩»

السلام (والجواب) عن السؤال الأول أما على قول من قال انه لم يطلب خصوص الولد فالسؤال زائل ،وأما على قول من قال إنه طلب الولد فالجواب عنه أن المقصود من قوله (أنى يكون لى غلام) هو التعجب من أنه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد أو يتركهما شيخين ويرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب ، والدليل عليه قوله تعالى (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) وما هذا الاصلاح إلا أنه أعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام ، وذكر السدى فى الجواب وجهاً آخر فقال : إنه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال إن هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك ، فلما شك زكريا قال (أنى يكون لى غلام) واعلم أن غرض السدى من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم أن المبشر بذلك هو الله تعالى لما جازله أن يقول ذلك فارتكب هذا ، وقال بعض المتكلمين هذا باطل قطعاً إذ لو جوز الأنبياء فى بعض مايرد عن الله تعالى أنه من الشيطان لجوزوا فى سائره ولزالت الثقة عنهم فى الوحى وعنا فيما يوردونه إلينا ويمكن أن يجاب عنه بأن هذا الاحتمال قائم فى أول الأمر وإنما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة فى هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ماعداها والله أعلم ، والجواب عن السؤال الثانى من وجوه (الأول) أن قوله (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) ليس نصاً فى كون ذلك الغلام ولداً له بل يحتمل ان زكريا عليه السلام راعى الأدب ولم يقل هذا الكلام هل يكون لى ولد أم لا ، بل ذكر أسباب تعذر حصول الولد فى العادة حتى أن تلك البشارة إن كانت بالولد فالله تعالى يزيل الابهام ويجعل الكلام صريحاً فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا أنه كان شاكا فى قدرة الله تعالى عليه (الثانى) أنه ماذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته وهذا كالرجل الذى يرى صاحبه قد وهب الكثير الخطير فيقول أنى سمحت نفسك باخراج مثل هذا من ملكك ! تعظيما وتعجباً (الثالث) أن من شأن من بشر بما يتمناه أن يتولد له فرط السرور به عند أول مايرد عليه استثبات ذلك الكلام إما لأن شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر وهذا كما أن امرأة ابراهيم عليه السلام بعد أن بشرت باسحق قالت (أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب) فأزيل تعجبها بقوله (أتعجبين من أمر الله) وإما طلباً للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى ، وإما مبالغة فى تأكيد التفسير .

قوله تعالى ﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ وفيه مسائل ﴿ المسألة الاولى ﴾ فى قوله (قال ربك هو هين) وجوه (أحدها) أن الكاف رفع أى الأمر كذلك تصديقاً له ثم ابتدأ قال ربك (وثانيها) نصب بقال وذلك إشارة إلى مبهم تفسيره

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا «١٠»

هو على هين وهو كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) (وثالثها) أن المراد لا تعجب فانه كذلك قال ربك لا خلف فى قوله ولا غلط ثم قال بعده هو على هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئاً (ورابعها) أنا ذكرنا أن قوله أنى يكون لى غلام معناه تعطينى الغلام بأن تجعلنى وزوجتى شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد ، وقوله (كذلك قال ربك) أى نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحاصلة فى الحال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن وهو على هين وهذا لا يخرج إلا على الوجه الأول أى الأمر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك على هين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إطلاق لفظ الهين فى حق الله تعالى مجاز لأن ذلك إنما يجوز فى حق من يجوز أن يصعب عليه شيء ولكن المراد أنه إذا أراد شيئاً كان .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى وجه الاستدلال بقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) فنقول إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفى المحض كان قادراً على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معاً أولى أن يكون قادراً على تبديل الصفات وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبته القوة التى عنها يتولد الماءان اللذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) فهذا وجه الاستدلال .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الجمهور على أن قوله قال كذلك قال ربك يقتضى أن القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله (يا زكريا إنا نبشرك) قول الله تعالى وقوله (هو على هين) قول الله تعالى وهذا بعيد لأنه إذا كان ما قبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح إدراج هذه الألفاظ فيما بين هذين القولين ، والأولى أن يقال قائل هذا القول أيضاً هو الله تعالى كما أن الملك العظيم إذا وعد عبده شيئاً عظيما فيقول العبد من أين يحصل لى هذا فيقول إن سلطانك ضمن لك ذلك كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطاناً مما يوجب عليه الوفاء بالوعد فكذا ههنا .

قوله تعالى ﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم طلب الآية لتحقيق البشارة وهذا بعيد لأن بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى فى ذلك من صريح القول وقال آخرون البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا «١١»

﴿ المسألة الثانية ﴾ اتفقوا على أن تلك الآية هى تعذر الكلام عليه فان مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة ثم اختلفوا على قولين : (أحدهما) أنه اعتقل لسانه أصلا (والثانى) أنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكناً من ذكر الله ومن قراءة التوراة وهذا القول عندى أصح لأن اعتقال اللسان مطلقاً قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتقال معجزاً إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات وهذا مما لا يعرف إلا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة إلى دلالة أخرى ، أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية ومعجزة ومما يقوى ذلك قوله تعالى (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً) خص ذلك بالتكلم مع الناس وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادراً على التكلم مع غير الناس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى معنى (سوياً) فقال بعضهم هو صفة لليالى الثلاث وقال أكثر المفسرين هو صفة لزكريا والمعنى : آيتك أن لا تكلم الناس فى هذه المدة مع كونك سوياً لم يحدث بك مرض .

قوله تعالى ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب) قيل كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعباد ثم ينتقل إلى قومه فعند ذلك أوحى اليهم ، وقيل كان موضعاً يصلى فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لايدخلونه للصلاة إلا باذنه وانهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للاذن فخرج اليهم وهو لايتكلم فأوحى اليهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لا يجوز أن يكون المراد من قوله أوحى اليهم الكلام لأن الكلام كان ممتنعاً عليه فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك إما بالاشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لأن كل ذلك يفهم منه المراد فعلموا أنه قدكان ما بشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم إكرام الله تعالى له بالاجابة ، واعلم أن الأشبه بالآية هو الاشارة لقوله تعالى فى سورة آل عمران (ثلاثة أيام إلا رمزاً) والرمز لايكون كناية للكلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق المفسرون على أنه أراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز فى اللغة يقال سبحة الضحى أى صلاة الضحى وعن عائشة رضى الله عنها فى صلاة الضحى «إنى لأسبحها» أى لأصليها إذا ثبت هذا فنقول روى عن أبى العالية أن البكرة صلاة الفجر والعشى صلاة العصر

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا «١٢» وَحَنَانًا مِن لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا «١٣» وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا «١٤» وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا «١٥»

ويحتمل أن يكون إنما كانوا يصلون معه فى محرابه هاتين الصلاتين فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه ، فلما اعتقل لسانه خرج اليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً ، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾

اعلم أنه تعالى وصف (يحيى) فى هذه الآية بصفات تسع : (الصفة الأولى) كونه مخاطباً من الله تعالى بقوله (يايحيى خذ الكتاب بقوة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن قوله (يايحيى خذ الكتاب) يدل على أن الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذى يجوز أن يخاطبه بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة التى هى نعمة الله على بنى إسرائيل لقوله تعالى (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) ويحتمل أن يكون كتاباً خص الله به يحيى كما خص الله تعالى الكثير من الأنبياء بذلك والأول أولى لأن حمل الكلام ههنا على المعهود السابق أولى ولا معهود ههنا إلا التوراة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (بقوة) ليس المراد منه القدرة على الأخذ لأن ذلك معلوم لكل أحد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة وحاصلها يرجع الى حصول ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهى عنه (الصفة الثانية) قوله تعالى (وآتيناه الحكم صبياً) اعلم أن فى الحكم أقوالا (الأول) أنه الحكمة ومنه قول الشاعر :

وأحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت ... إلى حمام سراع وارد الثمد

وهو الفهم فى التوراة والفقه فى الدين و (الثانى) وهو قول معمر أنه العقل روى أنه قال ماللعب خلقنا (والثالث) أنه النبوة فان الله تعالى أحكم عقله فى صباه وأوحى اليه وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمداً عليهما السلام ، وقد بلغا الأشد والأقرب حمله على النبوة لوجهين : (الاول) أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية صفات شرفه ومنقبته ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فذكرها فى معرض المدح أولى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة فى هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه

اللفظة فوجب حملها عليها (الثانى) أن الحكم هو مايصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الاطلاق وذلك لايكون إلا بالنبوة فان قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا ؟ قلنا هذا السائل ، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع منه ، فان منع منه فقد سد باب النبوات لأن بناء الأمر فيها على المعجزات ولا معنى لها إلا خرق العادات ، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فانه ليس استبعاد صيرورة الصبى عاقلا أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر (الصفة الثالثة) قوله تعالى (وحناناً من لدنا) اعلم أن الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق كما يقال حنين الناقة وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها ذكر الخليل ذلك وفى الحديث « أنه عليه السلام كان يصلى إلى جذع فى المسجد فلما اتخذ له المنبر وتحول اليه حنت تلك الخشبة حتى سمع حنينها» فهذا هو الاصل ثم قيل تحنن فلان على فلان إذا تعطف عليه ورحمه ، وقد اختلف الناس فى وصف الله بالحنان فأجازه بعضهم ، وجعله بمعنى الرؤوف الرحيم ، ومنهم من أباه لما يرجع اليه أصل الكلمة قالوا لم يصح الخبر بهذه اللفظة فى أسماء الله تعالى ، إذا عرفت هذا فنقول : الحنان هنا فيه وجهان (أحدهما) أن يجعل صفة لله (وثانيهما) أن يجعل صفة ليحيي أما إذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول : التقدير وآتيناه الحكم حناناً أى رحمة منا ، ثم ههنا احتمالات (الأول) أن يكون الحنان من الله ليحيى ، المعنى آتيناه الحكم صبياً ، ثم قال (وحناناً من لدنا) أى إنما آتيناه الحكم صبياً حناناً من لدنا عليه أى رحمة عليه وزكاة أى وتزكية له وتشريفاً له (الثانى) أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام فكأنه تعالى قال إنما استجبنا لزكريا دعوته بأن أعطيناه ولداً ثم آتيناه الحكم صبيا وحناناً من لدنا عليه أى على زكريا فعلنا ذلك (وزكاة) أى وتزكية له عن أن يصير مردود الدعاء (والثالث) أن يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيي عليه السلام كأنه تعالى قال (وآتيناه الحكم صبياً وحناناً) منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وإرشاده ، أما إذا جعلناه صفة ليحيي عليه السلام ففيه وجوه (الأول) آتيناه الحكم والحنان على عبادنا أى التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم كما وصف نبيه فقال (فبما رحمة من الله لنت لهم) وقال (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة ، ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له إلى الإخلال بالواجب لأن الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى الى قوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) وقال (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وقال (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) فالمعنى إنما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات ، ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصى فلم يعص ولم يهم بمعصية ، وفى الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن أبى رباح (وحناناً من لدنا) والمعنى آتيناه الحكم صبياً تعظيما إذ جعلناه نبياً وهو صبى ولا تعظيم أكثر من هذا والدليل عليه ماروى أنه مر ورقة ابن

نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء ، ويقول : أحد أحد فقال والذى نفسى بيده لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً أى معظما . (الصفة الرابعة) قوله (وزكاة) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد وآتيناه زكاة أى عملا صالحاً زكياً ، عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج و(ثانيها) زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء عن الحسن (وثالثها) زكيناه بحسن الثناء كما تزكى الشهود الإنسان (ورابعها) صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبى (وخامسها) بركة ونماء وهو الذى قال عيسى عليه الصلاة والسلام (وجعلنى مباركا أينما كنت) واعلم أن هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى لأنه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الألطاف بعيد لأنه عدول عن الظاهر (الصفة الخامسة) قوله (وكان تقياً) وقد عرفت معناه وبالجملة فانه يتضمن غاية المدائح لأنه هو الذى يتقى نهى الله فيجتنبه ويتقى أمره فلا يهمله ، وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك ، فان قيل مامعنى (وكان تقياً) وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا إنما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه (الصفة السادسة) قوله (وبرأ بوالديه) وذلك لأنه لاعبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ، ولهذا السبب قال (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) . (الصفة السابعة) قوله (ولم يكن جباراً) والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال تعالى (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر ، ولذلك فان إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعداً عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذى لايرى لأحد على نفسه حقاً وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد ، وقال سفيان فى قوله (جباراً عصياً) إنه الذى يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض) وقيل كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) . (الصفة الثامنة) قوله (عصياً) وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم (الصفة التاسعة) قوله (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) وفيه أقوال (أحدها) قال محمد بن جرير الطبرى (وسلام عليه) أى أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم (ويوم يموت) أى وأمان عليه من عذاب القبر (ويوم يبعث حياً) أى ومن عذاب القيامة (وثانيها) قال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما ماشاهدهم قط ، ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه فى هذه المواطن الثلاثة (وثالثها) قال عبد الله بن نفطويه (وسلام عليه يوم ولد) أى أول مايرى الدنيا (ويوم

يموت) أى أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة (ويوم يبعث حياً) أى أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة ، وإنما قال (حياً) تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون) (فروع) الأول هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لاتختلف لأن الملائكة لايسلمون إلا عن أمر الله تعالى (الثانى) ليحيي مزية فى هذا السلام على ما لسائر الأنبياء عليهم السلام كقوله (سلام على نوح فى العالمين ، سلام على إبراهيم) لأنه قال (ويوم ولد) وليس ذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام (الثالث) روى أن عيسى عليه السلام قال ليحيي عليه السلام : أنت أفضل منى لأن الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت على نفسى ، وهذا ليس يقوى لأن سلام عيسى على نفسه يجرى مجرى سلام الله على يحيي لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمره الله به (الرابع) السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلا من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له ، وأما السلام عليه يوم يموت ويوم يبعث فى المحشر ، فقد يجوز أن يكون ثواباً كالمدح والتعظيم والله تعالى اعلم . القول فى فوائد هذه القصة (الفائدة الاولى) تعليم آداب الدعاء وهى من جهات (أحدها) قوله (نداء خفياً) وهو يدل على أن أفضل الدعاء ماهذا حاله ويؤكده قوله تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الانكسار والتبرى عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه (وثانيها) أن المستحب أن يذكر فى مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما فى قوله تعالى عنه (وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً) ثم يذكر كثرة نعم الله على مافى قوله (ولم أكن بدعائك رب شقيا) (وثالثها) أن يكون الدعاء لأجل شىء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال (وإنى خفت الموالى من ورائى) (ورابعها) أن يكون الدعاء بلفظ يارب على مافى هذا الموضع (الفائدة الثانية) ظهور درجات زكريا ويحيي عليهما السلام أما زكريا فأمور (أحدها) نهاية تضرعه فى نفسه وانقطاعه إلى الله تعالى بالكلية (وثانيها) إجابة الله تعالى دعاءه (وثالثها) أن الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الأمران معاً (ورابعها) اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح (وخامسها) انه يجوز للأنبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله رب اجعل لى آية (الفائدة الثالثة) كونه تعالى قادراً على خلق الولد وإن كان الأبوان فى نهاية الشيخوخة رداً على أهل الطبائع (الفائدة الرابعة) صحة الاستدلال فى الدين لقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) (الفائدة الخامسة) أن المعدوم ليس بشىء والآية نص فى ذلك فان قيل المراد ولم تك شيئاً مذكوراً كما فى قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) قلنا الإضمار خلاف الأصل وللخصم أن يقول الآية تدل على أن الإنسان لم يكن شيئاً ونحن نقول به لأن الإنسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها أعراض مخصوصة والجواهر المتألفة الموصوفة بالأعراض المخصوصة

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا «١٦» فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا «١٧»

غير ثابتة فى العدم إنما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهى ليست بانسان فظهر أن الآية لا دلالة فيها على المطلوب (الفائدة السادسة) أن الله تعالى ذكر هذه القصة فى سورة آل عمران وذكرها فى هذا الموضع فلنعتبر حالها فى الموضعين فنقول (الأول) أنه تعالى بين فى هذه السورة أنه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه فى آل عمران بقوله (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) والمعنى أن زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة فى حق مريم عليها السلام طمع فيه فى حق نفسه فدعا (الثانى) وهو أن الله تعالى صرح فى آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) وفى هذه السورة الأظهر أن المنادى بقوله (يازكريا إنا نبشرك) هو الله تعالى وقد بينا أنه لامنافاة بين الأمرين (الثالث) أنه قال فى آل عمران (أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) فذكر أولا كبر نفسه ثم عقر المرأة وهو فى هذه السورة قال (أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً) وجوابه أن الواو لاتقتضى الترتيب (الرابع) قال فى آل عمران (وقد بلغنى الكبر) وقال ههنا وقد بلغت من الكبر وجوابه أن ما بلغك فقد بلغته (الخامس) قال فى آل عمران (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) وقال ههنا (ثلاث ليال سوياً) وجوابه دلت الآيتان على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن والله أعلم (القصة الثانية) قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام اعلم أنه تعالى إنما قدم قصة يحي على قصة عيسى عليهما السلام لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الأب البتة وأحسن الطرق فى التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقياً إلى الأصعب فالأصعب .

قوله تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الاولى ﴾ إذ بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على مافيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ النبذ أصله الطرح والإلقاء والإنتباذ افتعال منه ومنه (فنبذوه وراء ظهورهم) وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أى ناحية وهذا إذا جلس قريباً منك حتى لو نبذت إليه شيئاً وصل إليه ونبذت الشيء رميته ومنه النبيذ لأنه يطرح فى الإناء

وأصله منبوذ فصرف إلى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لأنه يرمى به ومنه النهى عن المنابذة فى البيع وهو أن يقول إذا نبذت إليك هذا الثوب أو الحصاة فقد وجب البيع إذ عرفت هذا فنقول قوله تعالى (إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقياً) معناه تباعدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلى ناحية الشرق ثم بين تعالى أنها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجاباً مستوراً وظاهر ذلك أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع بل جعلت بينها و بينهم حائلا من حائط أو غيره ويحتمل أنها جعلت بين نفسها و بينهم ستراً وهذا الوجه الثانى أظهر من الاول ثم لابد فى احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكوراً واختلف المفسرون فيه على وجوه (الأول) أنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكى تنتظر الطهر فتغتسل و تعرد فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام (والثانى) أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة (والثالث) قعدت فى مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشىء يسترها (والرابع) أنها كان لها فى منزل زوج أختها زكرياء محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت [على] الله [أن] تجد خلوة فى الجبل لتفلى رأسها فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست فى المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك (وخامسها) عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقى واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس فى اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المكان الشرقى هو الذى يلى شرقى بيت المقدس أو شرقى دارها وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إنى لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى (مكاناً شرقياً) . فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنها لما جلست فى ذلك المكان أرسل الله اليها الروح واختلف المفسرون فى هذا الروح فقال الأكثرون إنه جبريل عليه السلام وقال أبو مسلم إنه الروح الذى تصور فى بطنها بشرا والأول أقرب لأن جبريل عليه السلام يسمى روحا قال الله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وسمى روحا لأنه روحانى وقيل خلق من الروح وقيل لأن الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له و تقريبا كما تقول لحبيبك روحى وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد و إصابة الروح عند الله الذى هو عدة المتقين فى قوله (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أى مقربنا وذا روحنا وإذا ثبت أنه يسمى روحا فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لأنه قال (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا) ولا يليق ذلك إلا بجبريل عليه السلام واختلفوا فى أنه كيف ظهر لها (فالأول) أنه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوى الخلق (والثانى) أنه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة فى اللفظ على التعيين ثم قال وإنما تمثل لها فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها

قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا «١٨»

فى صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا اشكالات (أحدهما) وهو أنه لو جاز أن يظهر الملك فى صورة إنسان معين فحينئذ لايمكننا القطع بأن هذا الشخص الذى أراه فى الحال هو زيد الذى رأيته بالأمس لاحتمال أن الملك أو الجنى تمثل فى صورته وفتح هذا الباب يؤدى إلى السفسطة لا يقال هذا إنما يجوز فى زمان جواز البعثة فأما فى زماننا هذا فلا يجوز لأنا نقول هذا الفرق إنما يعلم بالدليل ، فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذى أراه الآن هو الشخص الذى رأيته بالأمس (وثانيها) أنه جاء فى الأخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جداً فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه فى مقدار جثة الانسان أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك يوجب تداخل الأجزاء وهو محال (وثالثها) وهو أنا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام فى صورة الآدمى فلم لا يجوز تمثله فى صورة جسم أصغر من الآدمى حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم أن كل مذهب جر إلى ذلك فهو باطل (ورابعها) أن تجويزه يفضى إلى القدح فى خبر التواتر فلعل الشخص الذى حارب يوم بدر لم يكن محمداً بل كان شخصاً آخر تشبه به وكذا القول فى الكل (والجواب) عن الأول أن ذلك التجويز لازم على الكل لأن من اعترف بافتقار العالم إلى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادراً على أن يخلق شخصاً آخر مثل زيد فى خلقته وتخطيطه وإذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك فى أن زيداً المشاهد الآن هو الذى شاهدناه بالأمس أم لا ، ومن أنكر الصانع المختار وأسند الحوادث إلى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب فى الأفلاك يقتضى حدوث شخص مثل زيد فى كل الأمور وحينئذ يعود التجويز المذكور (وعن الثانى) أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والأجزاء الأصلية قليلة جداً فحينئذ يكون متمكناً من التشبه بصورة الإنسان ، هذا إذا جعلناه جسمانياً أما إذا جعلناه روحانياً فأى استبعاد فى أن يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير (وعن الثالث) أن أصل التجويز قائم فى العقل وإنما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع والله أعلم .

قوله تعالى ﴿قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ وفيه وجوه (أحدها) أرادت إن كان يرجى منك أن تتقى الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فانى عائذة به منك وهذا فى نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا فى التقى وهو كقوله (وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) أى أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال (وثانيها) أن معناه

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا «١٩»

ما كنت تقياً حيث استحللت النظر إلى وخلوت بى (وثالثها) أنه كان فى ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى والأول هو الوجه .

قوله تعالى ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما علم جبريل خوفها قال (إنما أنا رسول ربك) ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لايزول بمجرد هذا القول بل لابد من دلالة تدل على أنه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها (إنما أنا رسول ربك) أظهر لها من باطن جسده ماعرفت أنه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضى عبد الجبار فى تفسيره نفسه فقال إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم ان الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالا فكيف يصح ذلك وأجاب أن ذلك إنما وقع فى زمان زكريا عليه السلام وكان رسولا وكل ذلك كان عالما به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولا للنبى فأقل مافيه أن يكون عليه السلام عالماً به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزاً له بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصا لعيسى عليه السلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام أى ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة بعدها أما قوله لأهب لك ففى مجازه وجهان (الأول) أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذى نفخ فى جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذى وهب لها وإضافة الفعل إلى ماهو سبب له مستعمل قال تعالى فى الأصنام (إنهن أضللن كثيراً من الناس) (الثانى) أن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فان قال قائل ماالدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذى يقال فيه إن جبريل عليه السلام جسم والجسم لايقدر على هذه الأشياء أما أنه جسم فلأنه محدث وكل محدث إما متحيز أو قائم بالمتحيز وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الأشياء فلأنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لأن الأجسام متماثلة وهوضعيف لأن للخصم أن يقول لانسلم أن كل محدث إما متحيز أو قائم به ، بل ههنا موجودات قائمة بأنفسها لامتحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالا لذات الله تعالى لأن الاشتراك فى الصفات الثبوتية لايقتضى التماثل فكيف فى الصفات السلبية سلمنا كونه جسما فلم قلت الجسم لا يقدر عليه قوله الأجسام متماثلة قلنا نعنى به أنها متماثلة فى كونها حاصلة فى الأحياز ذاهبة فى الجهات أو نعنى به

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا «٢٠» قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا «٢١»

أنها متماثلة فى تمام ماهياتها والأول مسلم لكن حصولها فى الأحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك فى الصفات لا يوجب الاشتراك فى ماهيات الموصوفات سلمنا أن الأجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال إن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق أن المعتمد فى دفع هذا الاحتمال اجماع الأمة فقط والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الزكى يفيد أموراً ثلاثة : (الأول) أنه الطاهر من الذنوب (والثانى) أنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له زكى ، وفى الزرع النامى زكى (والثالث) النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يبعث نبياً وقال بعض المتكلمين الأولى أن يحمل على الكل وهو ضعيف لما عرفت فى أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين سواء كان حقيقة فيهما أو فى أحدهما مجازاً وفى الآخر حقيقة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ سماه زكياً مع أنه لم يكن له شىء من الدنيا وأنت إذا نظرت فى سوقك فمن لم يملك شيئاً فهو شقى عندك . وإنما الزكى من يملك المال والله يقول كان زكيا ، لأن سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وأنت فانما تسمى بالزكى من كانت سيرته الجهل وطريقته المال .

قوله تعالى ﴿ قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنها إنما تعجبت بما بشرها جبريل عليه السلام ، لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة فى الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول قولها (ولم يمسسنى بشر) يدخل تحته قولها (ولم أك بغيا) فلماذا أعادتها ومما يؤكد هذا السؤال أن فى سورة آل عمران قالت (رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء) فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه : (أحدها) أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله (من قبل أن تمسوهن) والزنا ليس كذلك إنما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات (وثانيها) أن اعادتها لتعظيم حالها كقوله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وقوله (وملائكته ورسله وجبريل وميكال)

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا «٢٢» فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا «٢٣»

فكذا ههنا إن من لم تعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله فى الكلام الأول لأنه أعظم ما فى بابه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف البغى الفاجرة التى تبغى الرجال وهو فعول عند المبرد بغوى فأدغمت الواو فى الياء ، وقال ابن جنى فى كتاب التمام هو فعيل ولو كان فعولا لقيل بغوا كما قيل نهوا عن المنكر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أن جبريل عليه السلام أجابها بقوله (قال كذلك قال ربك هو على هين) وهو كقوله فى آل عمران (كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) لا يمتنع عليه فعل مايريد خلقه ولا يحتاج فى إنشائه إلى الآلات والمواد .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكناية فى (هو على هين) وفى قوله (ولنجعله آية للناس) تحتمل وجهين : (الأول) أن تكون راجعة الى الخلق أى أن خلقه على هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا باظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب (الثانى) أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة أعلمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الأمر الغريب ، فأما قوله تعالى (ورحمة منا) فيحتمل أن يكون معطوفاً على (ولنجعله آية للناس) أى فعلنا ذلك (ورحمة منا) فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفا على الآية أى (ولنجعله آية ورحمة) فعلنا ذلك .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (وكان أمراً مقضياً) المراد منه أنه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وأيضا فلأن جميع الممكنات منتهية فى سلسلة القضاء والقدر الى واجب الوجود والمنتهى الى الواجب انتهاء واجباً يكون واجب الوجود واذا كان واجب الوجود فلا فائدة فى الحزن والأسف وهذا هو سر قوله عليه السلام « من عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب »

قوله تعالى ﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الله تعالى أمر النفخ فى آيات فقال (فنفخنا فيه من روحنا) أى فى عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام (ونفخت فيه من روحى) وقال فنفخنا فيها لأن عيسى

عليه السلام كان فى بطنها واختلفوا فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله (فنفخنا فيه من روحنا) وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) فكذا ههنا وقال آخرون النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام (لأهب لك) أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلا بد من إحالة النفخ اليه، ثم اختلفوا فى كيفية ذلك النفخ على قولين (الأول) قول وهب إنه نفخ جبريل فى جيبها حتى وصلت الى الرحم (الثانى) فى ذيلها فوصلت إلى الفرج (الثالث) قول السدى أخذ بكمها فنفخ فى جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها، فقالت امرأة زكريا إنى وجدت مافى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى (مصدقا بكلمة من الله). (الرابع) أن النفخة كانت فى فيها فوصلت الى بطنها فحملت فى الحال، إذا عرفت هذا ظهر أن فى الكلام حذفا وهو، وكان أمراً مقضياً، فنفخ فيها فحملته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قيل حملته وهى بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وليس فى القرآن مايدل على شىء من هذه الأحوال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فانتبذت به) أى اعتزلت وهو فى بطنها كقوله (تنبت بالدهن) أى تنبت والدهن فيها، واختلفوا فى علة الإنتباذ على وجوه (أحدها) مارواه الثعلبى فى العرائس عن وهب قال إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذى عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم فى أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً ولا عبادة منهما، وأول من عرف حمل مريم يوسف فتحير فى أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذى ظهر بها من الحمل فأول ما تكلم أن قال إنه وقع فى نفسى من أمرك شىء وقد حرصت على كتمانه فغلبنى ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى، فقالت قل قولا جميلا قال أخبرينى يامريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت نعم: ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذى أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ماخلق كل واحد منهما على حدة، أو تقول إن الله تعالى لايقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها، فقال يوسف لاأقول هذا ولكنى أقول إن الله قادر على مايشاء فيقول له كن فيكون، فقالت له مريم أو لم

تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟ فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها فى خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب ، فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجى من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها الى أصل نخلة ، وذلك فى زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها (وثانيها) أنها استحيت من زكريا فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا . (وثالثها) أنها كانت مشهورة فى بنى إسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الأنبياء فى تربيتها وتكفل زكريا بها ، ولأن الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى ، فلما كانت فى نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة فذهبت الى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا (ورابعها) أنها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم . واعلم أن هذه الوجوه محتملة ، وليس فى القرآن ما يدل على شيء منها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا فى مدة حملها على وجوه : (الأول) قول ابن عباس رضى الله عنهما إنها كانت تسعة أشهر كما فى سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها فى هذا الموضع فلو كانت عادتها فى مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر (الثانى) أنها كانت ثمانية أشهر ، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى ابن مريم عليه السلام (الثالث) وهو قول عطاء وأبى العالية والضحاك سبعة أشهر (الرابع) أنها كانت ستة أشهر (الخامس) ثلاث ساعات حملته فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة (السادس) وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً كانت مدة الحمل ساعة واحدة ويمكن الاستدلال عليه من وجهين (الأول) قوله تعالى (فحملته فانتبذت به ، فأجاءها المخاض ، فناداها من تحتها) والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لا يقال انتباذها مكاناً قصياً كيف يحصل فى ساعة واحدة لأنا نقول : السدى فسره بأنها ذهبت الى أقصى موضع فى جانب محرابها (الثانى) أن الله تعالى قال فى وصفه (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له (كن فيكون) وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل ، وإنما تعقل تلك المدة فى حق من يتولد من النطفة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (قصياً) أى بعيداً من أهلها ، يقال مكان قاص ، وقصى بمعنى واحد مثل عاص وعصى ، ثم اختلفوا فقيل أقصى الدار ، وقيل وراء الجبل ، وقيل سافرت مع ابن عمها يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال صاحب الكشاف (أجاء) منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء فانك لا تقول جئت المكان ، وأجاءنيه زيد كما تقول بلغنيه وأبلغته ، والمعنى أن طلقها ألجأها إلى جذع النخلة ثم يحتمل أنها إنما ذهبت إلى النخلة طلباً لسهولة الولادة

للتشبث بها . ويحتمل للتقوية والاستناد إليها ، ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه القالة إذا رآها ، ولذلك حكى الله عنها أنها تمنت الموت .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال فى الكشاف قرأ ابن كثير فى رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو تمخض الولد فى بطنها .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قال فى الكشاف كان جذع نخلة يابسة فى الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس ، فاذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره وإما أن يكون تعريف الجنس أى إلى جذع هذه الشجرة خاصة كان الله أرشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب الذى هو أشد الأشياء موافقة للنفساء ، ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد ولا تثمر إلا عند اللقاح ، وإذا قطعت رأسها لم تثمر ، فكأنه تعالى قال كما أن الانثى لا تلد الا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح ، ثم إنى أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ لم قالت (ياليتنى مت قبل هذا) مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين ، والجواب من وجهين (الأول) قال وهب أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس [من] بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام (الثانى) أن عادة الصالحين إذا وقعوا فى بلاء أن يقولوا ذلك وروى عن أبى بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال طوبى لك ياطائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر ! وددت أنى ثمرة ينقرها الطائر ! وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض وقال ليتنى هذه التبنة ياليتنى لم أك شيئاً ! وقال على يوم الجمل ياليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وعن بلال ليت بلال لم تلده أمه . فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم (الثالث) لعلها قالت ذلك لكى لا تقع المعصية ممن يتكلم فيها ، وإلا فهى راضية بما بشرت به .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ قال صاحب الكشاف النسى ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطمث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح كقوله (وفديناه بذبح عظيم) تمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى فى العادة وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة نسياً بالفتح والباقون نسياً بالكسر قال الفراء هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر ، وقرأ محمد بن كعب القرظى نسيئاً بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسأه أهله لقلته وقرأ الأعمش منسياً بالكسر على الإتباع كالمغير والمنخر والله أعلم .

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا «٢٤» وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا «٢٥» فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا «٢٦»

قوله تعالى ﴿ فناداها من تحتها أن لاتحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فناداها من تحتها القراءة المشهورة فناداها وقرأ زر وعلقمة فخاطبها وفى الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائى وحفص وفى المنادى ثلاثة أوجه : (الأول) أنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير (والثانى) أنه جبريل عليه السلام وأنه كان كالقابلة للولد (والثالث) أن المنادى على القراءة بالكسر هو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم والأول أقرب لوجوه (الاول) أن قوله (فناداها من تحتها) بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحداً والذى علم كونه حاصلا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه ، وأما القراءة بكسر الميم فهى لاتقتضى كون المنادى جبريل عليه السلام ، فقد صح قولنا (الثانى) أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة وذلك لا يليق بالملائكة (الثالث) أن قوله فناداها فعل ولابد وأن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى (فحملته فانتبذت به) والضمير ههنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أولى (والرابع) وهو دليل الحسن بن على عليه السلام أن عيسى عليه السلام لولم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادى هو عيسى عليه السلام فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد فى أول الأمر مابشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادى جبريل عليه السلام قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها فى أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بماتقدم من أصناف البشارات وأما قوله (من تحتها) فان حملناه على الولد فلاسؤال وإن حملناه على الملك ففيه وجهان : (الأول) أن يكونا معا فى مكان مستو ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان أقرب منها كان فوق وكل من كان أبعد منها كان تحت وفسر الكلبى قوله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم

إنه ناداها من أقصى الوادى (والثانى) أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل وعلى هذا الوجه روى عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه (وجه ثالث) يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته وأنها مارأته وليس فى اللفظ مايدل على شىء من ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لأن الماء يسرى فيه وأما الحسن وابن زيد فجعلا السرى عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أى من أشرافهم وروى أن الحسن رجع عنه وروى عن قتادة وغيره أن الحسن تلاهذه الآية وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميرى (قد جعل ربك تحتك سرياً)فقال إن كان لسرياً وإن كان لكريماً ، فقال له حميد يا أبا سعيد إنما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك ، واحتج من حمله على النهر بوجهين (أحدهما) أنه سأل النبى ﷺ عن السرى فقال هو الجدول (والثانى) أن قوله (فكلى واشربى) يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من حمله [على] عيسى بوجهين (الأول) أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجرى بأمرها ويقف بأمرها كما فى قوله (وهذه الأنهار تجرى من تحتى) لأن هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز (الثانى) أنه موافق لقوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) والجواب عنه ماتقدم أن المكان المستوى إذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت فرعان :(الأول) إن حملنا السرى على النهر ففيه وجهان (أحدهما) أن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب (والثانى) أنه كان هناك ماء جار (والأول) أقرب لأن قوله (قد جعل ربك تحتك سرياً) مشعر بالحدوث فى ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وذلك لا يثبت إلا على الوجه الذى قلناه (الثانى) اختلفوا فى أن السرى هو النهر مطلقاً وهو قول أبى عبيدة والفراء أو النهر الصغير على ماهو قول الأخفش .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القفال الجذع من النخلة هو الأسفل ومادون الرأس الذى عليه الثمرة وقال قطرب كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع وأما الباء فى قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزى إليك أى حركى جذع النخلة ، قال الفراء العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة ، وقال الأخفش يجوز أن يكون على معنى هزى إليك رطباً بجذع النخلة أى على جذعها ، إذا عرفت هذا فنقول قد تقدم أن الوقت كان شتاء وأن النخلة كانت يابسة ، واختلفوا فى أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير ، وهل أثمر مع الرطب غيره ؟ والظاهر

يقتضى أنه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وأنه ما أثمر إلا الرطب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال صاحب الكشاف تساقط فيه تسع قراءات تساقط بادغام التاء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية ويساقط بالياء وإدغام التاء وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ رطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة الجنى المأخوذ طرياً وعن طلحة ابن سليمان جنياً بكسر الجيم للاتباع والمعنى جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين (إحداهما) الأكل والشرب (والثانية) سلوة الصدر بكونهما معجزتين فان قال قائل فتلك الأفعال الخارقة للعادات لمن ؟ قلنا قالت المعتزلة إنها كانت معجزة لزكريا وغيره من الأنبياء وهذا باطل لأن زكرياء عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات ، بل الحق أنها كانت كرامات لمريم أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فكلى واشربى وقرى عيناً قرئ بكسر القاف لغة نجد ونقول قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ماسال منها من الدماء ، ثم قال وقرى عيناً ، وههنا سؤال ، وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران (أحدهما) أن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن (والثانى) ماروى أنه أجيعت شاة ثم قدم العلف اليها وربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفا من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن فدلت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن . إذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى فى الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف ، والجواب أن هذا الخوف كان قليلا لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال صاحب الكشاف قرأ ترئن بالهمز ابن الرومى عن أبى عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين فى الإبدال (صوماً) صمتاً وفى مصحف عبد الله صمتاً وعن أنس بن مالك مثله وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزاً فى شرعهم ، وهل يجوز مثل هذا النذر فى شرعنا قال القفال لعله يجوز لأن الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة ، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام فى الشمس ، وروى أنه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر إن الإسلام هدم هذا فتكلمى والله أعلم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها فى الكلام

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا «٢٧» يَا أُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا «٢٨» فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا «٢٩»

لمعنيين (أحدهما) أن كلام عيسى عليه السلام أقوى فى إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى (والثانى) كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ اختلفوا فى أنها هل قالت معهم (إنى نذرت للرحمن صوماً) فقال قوم إنها ماتكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأن تأتى بهذا النذر عند رؤيتهم فاذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت فى المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها ، وقال آخرون إنها مانذرت فى الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم (إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) وهذه الصيغة وان كانت عامة إلا أنها صارت بالقرينة مخصوصة فى حق هذا الكلام

قوله تعالى ﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى أنها كيف أتت بالولد على أقوال (الأول) ماروى عن وهب قال أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به إلى قومها (الثانى) ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى فى الطريق ، فقال ياأماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه . وهذان الوجهان محتملان وليس فى القرآن مايدل على التعيين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفرىء ، البديع وهو من فرى الجلد يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها (لقد جئت شيئا فريا) فيحتمل أن يكون المراد شيئاً عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيئاً عظيما منكراً فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده (ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) لأن هذا القول ظاهره التوبيخ وأما هرون ففيه أربعة أقوال : (الأول) أنه رجل صالح من بنى اسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح ، والمراد أنك كنت فى الزهد كهرون فكيف صرت هكذا ، وهو قول

قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون هرون تبركا به وباسمه (الثانى) أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبى ﷺ إنما عنوا هرون النبى وكانت من أعقابه وإنما قيل أخت هرون كما يقال ياأخا همدان أى ياواحداً منهم (والثالث) كان رجلا معلناً بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة (الرابع) كان لها أخ يسمى هرون من صلحاء بنى اسرائيل فعيرت به[١] وهذا هو الأقرب لوجهين (الأول) أن الأصل فى الكلام الحقيقة وإنما يكون ظاهر الآية محمولا على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهرون (الثانى) أنها أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القراءة المشهورة (ما كان أبوك امرأ سوء) وقرأ عمرو بن رجاء التميمى (ماكان أباك امرؤ سوء) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنهم لما بالغوا فى توبيخها سكتت وأشارت اليه أى إلى عيسى عليه السلام أى هو الذى يجيبكم إذا ناطقتموه وعن السدى لما أشارت اليه غضبوا غضباً شديداً وقالوا لسخريتها بنا أشد من زناها ، روى أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته ، وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان . وقيل إن زكرياء عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها ، فقال لعيسى عليه السلام انطق بحجتك إن كنت أمرت بها فقال عيسى عليه السلام عند ذلك (إنى عبد الله) فان قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم ؟ قلنا إن جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ناداها من تحتها أن لا تحزنى وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت ، فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحى إلى زكرياء أو لعلها عرفت بالوحى اليها على سبيل الكرامة ، بقى ههنا بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (كيف نكلم من كان فى المهد صبياً) أى حصل فى (المهد) فكان ههنا بمعنى حصل ووجد وهذا هو الأقرب فى تأويل هذا اللفظ ، وإن كان الناس قد ذكروا وجوها أخر .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى المهد فقيل هو حجرها لما روى أنها أخذته فى خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ماقالوا فأشارت اليه وهو فى حجرها ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد أو المعنى (كيف نكلم صبياً) سبيله أن ينام فى المهد .

---

(١) الأولى أن يقال « فذكرت به » لأن هذا مقام التذكير وقد يجاب بأن الأمل فى كل هذا هو التعبير فلم يعدل عنه .

قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا «٣٠» وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا «٣١» وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا «٣٢» وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا «٣٣»

قوله تعالى ﴿ قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلوة والزكوة مادمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ .

اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع : (الصفة الأولى) قوله (إنى عبد الله) وفيه فوائد : (الفائدة الأولى) أن الكلام منه فى ذلك الوقت كان سبباً للوهم الذى ذهبت اليه النصارى ، فلا جرم أول ماتكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال (إنى عبد الله) وكان ذلك الكلام وإن كان موهماً من حيث إنه صدر عنه فى تلك الحالة ، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية (الفائدة الثانية) أنه لما أقر بالعبودية فان كان صادقاً فى مقاله فقد حصل الغرض وإن كان كاذباً لم تكن القوة قوة إلهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهاً (الفائدة الثالثة) أن الذى اشتدت الحاجة اليه فى ذلك الوقت إنما هو نفى تهمة الزنا عن مريم عليها السلام ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم ، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها (الفائدة الرابعة) وهى أن التكلم بازالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله سبحانه لايخص الفاجرة بولد فى هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة . وأما التكلم بازالة التهمة عن الأم لايفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما فى هذا اللفظ من الفوائد ، واعلم أن مذهب النصارى متخبط جداً ، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز ، ومع ذلك فانا نذكر تقسيما حاصرا يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول : إما أن يعتقدوا كونه متحيزا أو لا ، فان اعتقدوا كونه متحيزاً أبطلنا قولهم باقامة الدلالة على حدوث الأجسام ، وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه . وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لأن ذلك لا يعقل إلا فى الأجسام فاذا لم يكن جسما استحال ذلك ثم نقول للناس قولان فى الانسان منهم من قال إنه هوهذه البنية أو جسم موجود فى داخلها ومنهم من يقول إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول فى الأجسام فنقول هؤلاء النصارى ، إما أن يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته اتحد ببدن

المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل فى بدن المسيح أو فى نفسه ، أو يقولوا لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهاً ، أو لا يقولوا بشىء من ذلك ولكن قالوا إنه على سبيل التشريف اتخذه ابناً كما اتخذ ابراهيم على سبيل التشريف خليلاً فهذه هى الوجوه المعقولة فى هذا الباب ، والكل باطل ، أما القول الأول بالاتحاد فهو باطل قطعاً ، لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد ، إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً ، فان كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل ، وان عدما وحصل ثالث فهو أيضاً لا يكون اتحاداً بل يكون قولا بعدم ذينك الشيئين ، وحصول شىء ثالث ، وإن بقى أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالوجود لأنه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال . وأما الحلول فلنا فيه مقامان : (الأول) أن التصديق مسبوق بالتصور فلابد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة : (أحدها) كون الشىء فى غيره ككون ماء الورد فى الورد والدهن فى السمسم والنار فى الفحم ، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسما وهم وافقونا على أنه ليس بجسم (وثانيها) حصوله فى الشىء على مثال حصول اللون فى الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون فى ذلك الحيز تبعاً لحصول محله فيه ، وهذا أيضاً إنما يعقل فى حق الأجسام لا فى حق الله تعالى (وثالثها) حصوله فى الشىء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات فنقول هذا أيضاً باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله الله تعالى فى شىء بهذا المعنى لكان محتاجا فكان ممكناً فكان مفتقراً إلى المؤثر ، وذلك محال ، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته فى حق الله تعالى امتنع إثباته . (المقام الثانى) احتج الأصحاب على نفى الحلول مطلقاً بأن قالوا لو حل لحل ، إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان ، فالقول بالحلول باطل ، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لأن ذلك يقتضى إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان ، لأنا دللنا على أن الله قديم . وعلى أن الجسم محدث ، ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجا الى المحل والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته لا يكون واجباً لذاته ، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل لأنه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله فى المحل أمر جائز ، والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون حلوله فى المحل أمراً زائداً على ذاته وذلك محال لوجهين (أحدهما) أن حلوله فى المحل لو كان زائداً على ذاته لكان حلول ذلك الزائد فى محله زائداً على ذاته أولزم التسلسل وهو محال (والثانى) أن حلوله فى ذلك لما كان زائداً على ذاته فاذا حل فى محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة ، وذلك محال لأنه لو كان قابلا للحوادث

لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته ، وكانت حاصلة أزلا ، وذلك محال لأن وجود الحوادث فى الأزل محال ، فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول فان قيل لم لايجوز أن يحل مع وجوب أن يحل. لأنه يلزم ، إما حدوث الحال أو قدم المحل قلنا لانسلم وجوب أحد الأمرين ، ولم لايجوز أن يقال إن ذاته تقتضى الحلول بشرط وجود المحل ففى الأزل ما وجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلاجرم لم يجب الحلول ، وفيما لايزال حصل هذا الشرط فلاجرم وجب سلمنا أنه يلزم ، إما حدوث الحال أو قدم المحل فلم لايجوز . قوله إنا دللنا على حدوث الأجسام ، قلنا لم لايجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلا أو نفساً أو هيولى على ما يثبته بعضهم ، ودليلكم على حدوث الأجسام لا يقبل حدوث هذه الأشياء ، قوله ثانياً لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجا إلى المحل ، قلنا لانسلم وجوب أحد الأمرين بل ههنا احتمالان آخران (أحدهما) أن العلة وإن امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة إلى المعلول فلم لايجوز أن يقال إن ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها فى ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها فى ذلك المحل من معلولات ذاته ، وقد ثبت أن العلة وإن استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لايقتضى احتياجها إلى المعلول (الثانى) أن يقال إنه فى ذاته يكون غنياً عن المحل وعن الحلول ، إلا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول ، فالمفتقر إلى المحل صفة من صفاته وهى حلوله فى ذلك المحل فأما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الإضافية الى الغير افتقار ذاته إلى الغير وذلك لأن جميع الصفات الاضافية الحاصلة له مثل كونه أولا وآخراً ومقارناً ومؤثراً ومعلوماً ومذكوراً مما لا يتحقق إلا عند حصول التحيز ، وكيف لا والإضافات لابد فى تحققها من أمرين ، سلمنا ذلك ، فلم لايجوز أن يحل مع جواز أن يحل . قوله يلزم أن يكون حلوله فيه زائداً عليه ، ويلزم التسلسل ، قلنا حلوله فى المحل لما كان جائزاً كان حلوله فى المحل زائداً عليه ، أما كون ذلك الحلول حالا فى المحل أمر واجب فلا يلزم أن يكون حلول الحلول زائداً عليه فلا يلزم التسلسل . قوله ثانياً يلزم أن يصير محل الحوادث ، قلنا لم لا يجوز ذلك قوله يلزم أن يكون قابلا للحوادث فى الأزل ، قلنا لاشك أن تمكنه من الايجاد ثابت له إما لذاته أو لأمر ينتهى إلى ذاته ، وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثراً فى الأزل فكل ما ذكرتموه فى المؤثرية فنحن نذكره فى القابلية ، والجواب أنا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الأسئلة ، فنقول ذاته ، إما أن تكون كافية اقتضاء هذا الحلول أو لاتكون كافية فى ذلك فان كان الأول استحال توقف ذلك الإقتضاء على حصول شرط فيعود ماقلنا إنه يلزم إما قدم المحل أو حدوث الحال . وإن كان الثانى كان كونه مقتضياً لذلك الحلول أمراً زائداً على ذاته حادثا فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله فى محل حدوث شىء فيه لكن يستحيل أن يكون قابلا للحوادث ، وإلا لزم أن يكون فى الأزل قابلا لها وهو محال على مابيناه ، وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد فى الأزل فهو قادر على الإيجاد فيما لايزال فههنا أيضاً لو كانت ذاته قابلة

للحوادث لكانت فى الأزل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور . هذا تمام القول فى هذه الأدلة ولنا فى إبطال قول النصارى وجوه أخر (أحدها) أنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل فى ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه ، والمراد من الكلمة العلم . فنقول : العلم لما حل فى عيسى ففى تلك الحالة إما أن يقال إنه بقى فى ذات الله تعالى أو مابقى فيها فان كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة فى محلين . وذلك غير معقول ولأنه لو جاز أن يقال العلم الحاصل فى ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل فى ذات الله تعالى بعينه ، فلم لايجوز فى حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى ، وإن كان الثانى لزم أن يقال إن الله تعالى لم يبق عالماً بعد حلول علمه فى عيسى عليه السلام وذلك مما لايقوله عاقل (وثانيها) مناظرة جرت بينى وبين بعض النصارى ، فقلت له هل تسلم أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا ؟ فان أنكرت لزمك أن لايكون الله تعالى قديما لأن دليل وجوده هو العالم فاذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم فى الأزل عدم الصانع فى الأزل ، وإن سلمت أنه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول ، فنقول إذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أن كلمة الله تعالى مادخلت فى زيد وعمرو بل كيف أنها ماحلت فى هذه الهرة وفى هذا الكلب ، فقال لى إن هذا السؤال لايليق بك لأنا إنما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ماظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فاذا لم نجد شيئاً من ذلك ظهر على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول ، فقلت له إنى عرفت من هذا الكلام أنك ماعرفت أول الكلام لأنك سلمت لى أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فاذا كان هذا الحلول غير ممتنع فى الجملة فأكثر مافى الباب أنه وجد مايدل على حصوله فى حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل فى حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول ، فثبت أنك مهما جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول فى حق كل واحد بل فى حق كل حيوان ونبات ولا شك أن المذهب الذى يسوق قائله إلى مثل هذا القول الركيك يكون باطلا قطعاً ، ثم قلت له وكيف دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ماقلت ؟ أليس أن انقلاب العصا ثعباناً أبعد من انقلاب الميت حياً فاذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على إلهيته فبأن لايدل هذا على آلهية عيسى أولى (وثالثها) أنا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لأنه كان مجتهداً فى العبادة والعبادة لاتليق إلا بالعبيد فانه كان فى نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى إن اليهود قتلوه ومن كان فى الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية (ورابعها) المسيح إما أن يكون قديماً أو محدثاً والقول بقدمه باطل لأنا نعلم

بالضرورة أنه ولد وكان طفلا ثم صار شاباً وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر ، وإن كان محدثاً كان مخلوقا ولا معنى للعبودية إلا ذلك ، فان قيل المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الآلهية فيه ، قلنا هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح [إلا] عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية (وخامسها) أن الولد لابد وأن يكون من جنس الوالد فان كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه فاذن قد اشتركا من بعض الوجوه ، فان لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر، وإن حصل الإمتياز فما به الإمتياز غير مابه الاشتراك ، فيلزم وقوع التركيب فى ذات الله وكل مركب ممكن ، فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الإتحاد والحلول (أما الاحتمال الثالث) وهو أن يقال معنى كونه إلهاً أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف فى هذا العالم فهذا أيضاً باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه ولو كان قادراً على خلق الاجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكراً يذبون عنه (وأما الاحتمال الرابع) وهو أنه اتخذه ابناً لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية وليس فيه كثير خطأ إلا فى اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال إنى عبد الله (الصفة الثانية) قوله تعالى (آتانى الكتاب) وفيه مسائل:

《المسألة الاولى》 اختلف الناس فيه فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره وقال أبو القاسم البلخى إنه إنما قال ذلك حين كان كالمراهق الذى يفهم وإن لم يبلغ حد التكليف أما الأولون فلهم قولان (أحدهما) أنه كان فى ذلك الصغر نبياً (الثانى) روى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال المراد بأن حكم وقضى بأنه سيبعثنى من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد إلى حال الصغر ، ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبياً ، واحتج من نص على فساد القول الأول بأمور (أحدها) أن النبى لايكون إلا كاملا والصغير ناقص الخلقة بحيث يعد هذا التحدى من الصغير منفراً بل هو فى التنفير أعظم من أن يكون امرأة (وثانيها) أنه لو كان نبياً فى هذا الصغر لكان كمال عقله مقدماً على ادعائه للنبوة إذ النبى لابد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله فى ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدماً على التحدى وإنه غير جائز (وثالثها) أنه لو كان نبياً فى ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان الأحكام ، وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ماكان نبياً فى ذلك الوقت . أجاب الأولون عن الكلام الأول بأن كون الصبى ناقصاً ليس لذاته بل الأمر يرجع إلى صغر جسمه ونقصان فهمه ، فاذا أزال الله تعالى هذه الأشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة إلى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل . وعن الكلام الثانى لم لايجوز أن يقال إكمال عقله وإن حصل مقدما على دعواه إلا أنه معجزة لزكريا عليه السلام ، أو يقال إنه إرهاص لنبوته أو كرامة لمريم

عليها السلام وعندنا الإرهاص والكرامات جائزة ، وعن الكلام الثالث لم لايجوز أن يقال مجرد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع والأحكام جائز ثم بعد البلوغ أخذ فى شرح تلك الأحكام ، فثبت بهذا أنه لا امتناع فى كونه نبياً فى ذلك الوقت وقوله (آتانى الكتاب) يدل على كونه نبياً فى ذلك الوقت فوجب إجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة ، أما قول أبى القاسم البلخى فبعيد وذلك لأن الحاجة إلى كلام عيسى عليه السلام إنما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لأن الألف واللام فى الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة ، وقال أبو مسلم المراد هو الإنجيل لأن الألف واللام ههنا للجنس أى آتانى من هذا الجنس ، وقال قوم المراد هو التوراة والإنجيل لأن الألف واللام تفيد الاستغراق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أنه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبياً لأن قوله (آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل إما ملاصقاً لذلك الكلام أو متقدماً عليه بأزمان ، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبياً وأمره بالصلاة والزكاة وأن يدعو الى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة فقيل هذا الوحى نزل عليه وهو فى بطن أمه وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها فلهذا أشارت إليه بالكلام (الصفة الثالثة) قوله (وجعلنى نبياً) قال بعضهم أخبر أنه نبى ولكنه ما كان رسولا لأنه فى ذلك الوقت ما جاء بالشريعة ومعنى كونه نبياً أنه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف لأن النبى فى عرف الشرع هو الذى خصه الله بالنبوة و بالرسالة خصوصاً إذا قرن إليه ذكر الشرع وهو قوله وأوصانى بالصلاة والزكاة (الصفة الرابعة) قوله (وجعلنى مباركا أينما كنت) فلقائل أن يقول كيف جعله مباركا والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهوداً وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق إلا القليل ، والجواب ذكروا فى تفسير المبارك وجوهاً (أحدها) أن البركة فى اللغة هى الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلنى ثابتاً على دين الله مستقراً عليه (وثانيها) أنه إنما كان مباركا لأنه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبى ﷺ قال أسلمت أم عيسى عليها السلام عيسى إلى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على أن لا تضربه فقال له المعلم أكتب فقال أى شيء أكتب ، فقال أكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدرى ما أبجد ؟ فعلاه بالدرة ليضربه فقال يامؤدب لا تضربنى إن كنت لا تدرى فاسألنى فأنا أعلمك الألف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من أداء الحق إلى الله (وثالثها) البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلنى فى جميع الأحوال غالباً مفلحا منجحا لأنى مادمت أبقى فى الدنيا

أكون على الغير مستعلياً بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم يكرمنى الله تعالى بالرفع إلى السماء (ورابعها) مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، عن قتادة أنه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدى أرضعت به ، فقال عيسى عليه السلام مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً . أما قوله (أينما كنت) فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف (الصفة الخامسة) قوله (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً) فان قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلا صغيراً والقلم مرفوع عنه على ما قاله ﷺ « رفع القلم عن ثلاث عن الصبى حتى يبلغ » الحديث وجوابه من وجهين (الأول) أن قوله (وأوصانى بالصلاة والزكاة) لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما فى الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد أنه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما فى الوقت المعين له وهو وقت البلوغ (الثانى) لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغاً عاقلا تام الأعضاء والخلقة وتحقيقه قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) فكما أنه تعالى خلق آدم تاماً كاملا دفعة فكذا القول فى عيسى عليه السلام ، وهذا القول الثانى أقرب إلى الظاهر لقوله (ما دمت حياً) فانه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه فى جميع زمان حياته ولكن لقائل أن يقول لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصاً كامل الأعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجباً فكان ينبغى أن لا يعجبوا فلعل الأولى أن يقال إنه تعالى جعله مع صغر جثته قوى التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان فى الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى (الصفة السادسة) قوله تعالى (وبراً بوالدتى) أى جعلنى براً بوالدتى وهذا يدل على قولنا إن فعل العبد مخلوق لله تعالى لأن الآية تدل على أن كونه براً إنما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على الألطاف عدول عن الظاهر ثم قوله (وبراً بوالدتى) إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها قال صاحب الكشاف جعل ذاته براً لفرط بره ونصبه بفعل فى معنى أوصانى وهو كلفنى لأن أوصانى بالصلاة وكلفنى بها واحد (الصفة السابعة) قوله (ولم يجعلنى جباراً شقياً) وهذا أيضاً يدل على قولنا لأنه لما بين أنه جعله براً وما جعله جباراً فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جباراً وغير بار بأمه ، فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك فى معرض التخصيص وقوله (ولم يجعلنى جباراً) أى ما جعلنى متكبراً بل أنا خاضع لأنى متواضع لها ولو كنت جباراً لكنت عاصياً شقياً . وروى أن عيسى عليه السلام قال قلبى لين وأنا صغير فى نفسى وعن بعض العلماء لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا (وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً) ولا تجد سيء الملكة إلا مختالا فخوراً وقرأ (وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً) (الصفة

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ «٣٤» مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٣٥»

الثامنة) هي قوله (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم لام التعريف فى السلام منصرف إلى ما تقدم فى قصتى يحيى عليه السلام من قوله (وسلام عليه) أى السلام الموجه اليه فى المواطن الثلاثة موجه إلى أيضاً وقال صاحب الكشاف الصحيح أن يكون هذا التعريف تعويضاً باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه أن اللام للاستغراق فاذا قال (والسلام على) فكأنه قال وكل السلام على وعلى أتباعى فلم يبق للأعداء إلا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام (والسلام على من اتبع الهدى) بمعنى أن العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى أنت خير منى سلم الله عليك وسلمت على نفسى وأجاب الحسن فقال إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضى السلام عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة فى النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى ، ولا بد فى الأنبياء من أن يكونوا مستجابى الدعوة وأعظم أحوال الإنسان احتياجا إلى السلامة هى هذه الأحوال الثلاثة وهى يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث فجميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات فى كل الأحوال ، واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى زمان الطفولية واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التى تتوافر الدواعى على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس بحثاً عن أحواله وأشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلهاً ولا شك أن الكلام فى الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلم فى زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شىء من ذلك علمنا أنه ما تكلم ، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فانه لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها ففى تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم فى المهد وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثانى لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله .

قوله تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وابن عامر (قول الحق) بالنصب وعن ابن مسعود (قال الحق) و(قال الله) وعن الحسن (قول الحق) بضم القاف وكذلك فى الأنعام قوله (الحق) والقول والقال والقول فى معنى واحد كالرهب والرهب والرهب ، أما ارتفاعه فعلى أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله أو على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عند الله الحق لا الباطل والله اعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لاشبهة أن المراد بقوله (ذلك عيسى ابن مريم) الاشارة إلى ما تقدم وهو قوله (إنى عبد الله آتانى الكتاب) أى ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم وفى قوله (عيسى ابن مريم) إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله ، فأما (قوله الحق) ففيه وجوه : (أحدها) وهو أن نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لأن الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول عيسى كلمة الله وبين أن نقول عيسى قول الحق (وثانيها) أن يكون المراد (ذلك عيسى ابن مريم القول الحق) إلا أنك أضفت الموصوف إلى الصفة فهو كقوله (إن هذا لهو حق اليقين) وفائدة قولك (القول الحق) تأكيد ما ذكرت أولا من كون عيسى عليه السلام ابناً لمريم (وثالثها) أن يكون قول الحق خبراً لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووصفنا له هو قول الحق فكأنه تعالى وصفه أولا ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى ابن مريم ثم ذكر أن هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى أنه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل مايقع منهم من المرية ويكون فى معنى إن هذا (لهو الحق اليقين) . فأما امتراؤهم فى عيسى عليه السلام فالمذاهب التى حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة آل عمران ، روى أن عيسى عليه السلام لما رفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للأول ماتقول فى عيسى؟ فقال هو إله والله إله وأمه إله ، فتابعه على ذلك ناس وهم الاسرائيلية ، وقيل للرابع ماتقول؟ فقال هو عبد الله ورسوله وهو المؤمن المسلم ، وقال أما تعلمون أن عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك؟ فخصمهم . أما قوله (ماكان لله أن يتخذ من ولد) فهو يحتمل أمرين : (أحدهما) أن ثبوت الولد له محال فقولنا (ما كان لله أن يتخذ من ولد) كقوله ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدى لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله فقوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) كقولنا ما كان لله أن يظلم أى لا يليق ذلك بحكمته وكمال إلهيته ، واحتج الجبائى بالآية بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شىء لأنه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الايجاد أى ليس له هذا الاختيار وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى فلا جرم قال (ماكان لله أن يتخذ من ولد) أما قوله (سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما قال سبحانه ثم قال عقيبه (إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) كان كالحجة على تنزيهه عن الولد وبيان ذلك أن الذى يجعل ولداً لله ، إما أن يكون

قديماً أزلياً أو يكون محدثاً فان كان أزلياً فهو محال لأنه لو كان واجباً لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد . هذا خلف . وإن كان ممكنا لذاته كان مفتقرا فى وجوده الى الواجب لذاته غنياً لذاته فيكون الممكن محتاجا لذاته فيكون عبدا له لأنه لامعنى للعبودية إلا ذلك ، وأما إن كان الذى يجعل ولداً يكون محدثا فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وايجاده وهو المراد من قوله (إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) فيكون عبداً له لا ولداً له فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بقوله (إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) على قدم كلام الله تعالى قالوا لأن الآية تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شىء قال له كن فيكون فلو كان قوله كن محدثاً لافتقر حدوثه الى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال ، فثبت أن قول الله قديم لامحدث ، واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه : (أحدها) أنه تعالى أدخل عليه كلمة إذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب أن لايحصل القول إلا فى الاستقبال (وثانيها) أن حرف الفاء للتعقيب والفاء فى قوله (فانما يقول له) يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء والمتأخر عن غيره محدث (وثالثها) الفاء فى قوله (فيكون) يدل على حصول ذلك الشىء عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدما على حدوث الحادث تقدما بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدماً بلا فصل يكون محدثاً ، فقول الله محدث . واعلم أن استدلال الفريقين ضعيف ، أما استدلال الأصحاب فلأنه يقتضى أن يكون قوله (كن) قديماً وذلك باطل بالاتفاق ، وأما استدلال المعتزلة فلأنه يقتضى أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والأصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه إنما المدعى قدم شىء آخر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم أنه تعالى إذا أحدث شيئاً قال له كن وهذا ضعيف لأنه ، إما أن يقول له كن قبل حدوثه أو حال حدوثه . فان كان الأول كان ذلك خطاباً مع المعدوم وهو عبث وإن كان الثانى فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والإرادة فأى تأثير لقوله كن فيه ، ومن الناس من زعم أن المراد من قوله (كن) هو التخليق والتكوين وذلك لأن القدرة على الشىء غير وتكوين الشىء غير فان الله سبحانه قادر فى الأزل وغير مكون فى الأزل ، ولأنه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها ، والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون لأنا نقول المكون إنما حدث لأن الله تعالى كونه فأوجده ، فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا المكون إنما وجد بتكوين الله تعالى نازلا منزلة قولنا المكون إنما وجد بنفسه وذلك محال ، فثبت أن التكوين غير المكون فقوله (كن) إشارة الى الصفة المسماة بالتكوين ، وقال آخرون قوله (كن) عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته فى الممكنات . فان وقوعها بتلك القدرة والإرادة من غير امتناع واندفاع

وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٣٦» فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٣٧» أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ «٣٨» وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٣٩» إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ «٤٠»

يجرى مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لأوامر مولاه ، فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة .

قوله تعالى ﴿ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾

اعلم أن قوله (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن ، ومعناه ولأنه ربى وربكم فاعبدوه ، وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء ، وفى حرف أبى (إن الله) بالكسر من غير واو أى بسبب ذلك فاعبدوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه لا يصح أن يقول الله (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى ، وفيه قولان (الأول) التقدير فقل يا محمد إن الله ربى وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة فى أن عيسى هو عبد الله (الثانى) قال أبو مسلم الأصفهانى : الواو فى وإن الله عطف على قول عيسى عليه السلام (إنى عبد الله آتانى الكتاب) كأنه قال إنى عبد الله وإنه ربى وربكم فاعبدوه ، وقال وهب بن منبه عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته أن الله ربى وربكم أى كلنا عبيد الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وإن الله ربى وربكم) يدل على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى على خلاف قول المنجمين إن مدبر الناس ومصلح أمورهم فى السعادة والشقاوة هى الكواكب ويدل أيضاً على أن الإله واحد لأن لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال (إن الله ربى وربكم)

أى لا رب للمخلوقات سوى الله وتعالى وذلك يدل على التوحيد ، أما قوله (فاعبدوه) فقد ثبت فى أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فهنا الأمر بالعبادة وقع مرتباً على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه رباً لنا ، وذلك يدل على أنه تعالى إنما تجب عبادته لكونه منعما على الخلائق بأصول النعم وفروعها ، ولذلك فان إبراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الأوثان قال (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) يعنى أنها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها ، وبهذه الآية ثبت أن الله تعالى لما كان رباً ومربياً لعباده وجبت عبادته ، فقد ثبت طرداً وعكسا تعلق العبادة بكون المعبود منعماً ، أما قوله (هذا صراط مستقيم) يعنى القول بالتوحيد ونفى الولد والصاحبة صراط مستقيم وأنه سمى هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهاً بالطريق لأنه المؤدى إلى الجنة ، أما قوله تعالى : (فاختلف الأحزاب من بينهم) ففى الأحزاب أقوال (الأول) المراد فرق النصارى على ما بينا أقسامهم (الثانى) المراد النصارى واليهود فجعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا (الثالث) المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا فى زمن محمد ﷺ وإذا قلنا المراد بقوله (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) أى قل يامحمد إن الله ربى وربكم ، فهذا القول أظهر لأنه لاتخصيص فيه ، وكذا قوله (فويل للذين كفروا) مؤكد لهذا الإحتمال ، وأما قوله (من مشهد يوم عظيم) فالمشهد إما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به أو الشهادة وما يتعلق بها (أما الأول) فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب ، والجزاء فى القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف ، أو وقت الشهود ، وأما الشهادة فيحتمل أن يكون المراد شهادة الملائكة والأنبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال ، وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها ، وقيل هو ماقالوه وشهدوا به فى عيسى وأمه ، وإنما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لأنه لاشىء أعظم مما يشاهد فى ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة ، ولا شىء من المنافع أعظم مما هنالك من الثوب ولا بد من المضار أعظم مما هنالك من العقاب ، أما قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالوا التعجب هو استعظام الشىء مع الجهل بسبب عظمه ، ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول ، قال الفراء قال سفيان قرأت عند شريح (بل عجبت ويسخرون) فقال إن الله لايعجب من شىء إنما يعجب من لايعلم فذكرت ذلك لإبراهيم النخعى فقال إن شريحاً شاعر يعجبه علمه ، وعبد الله أعلم بذلك منه قرأها (بل عجبت ويسخرون) ومعناه أنه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب فى قلوبهم . وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء الى الله تعالى ، وإذا عرفت هذا فنقول : للتعجب صفتان (إحداهما) ماأفعله

(والثانية) أفعل به كقوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) والنحويون ذكروا له تأويلات (الأول) قالوا أكرم بزيد أصله أكرم زيد أى صار ذا كرم كأغد البعير أى صار ذا غدة إلا أنه خرج على لفظ الأمر ومعناه الخبر كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الأمر كقوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ، والوالدات يرضعن أولادهن ، قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) أى يمد له الرحمن مدا ، وكذا قولهم رحمه الله خبر وإن كان معناه الدعاء والباء زائدة (الثانى) أن يقال إنه أمر لكل أحد بأن يجعل زيداً كريماً أى بأن يصفه بالكرم ، والباء زائدة مثل قوله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ولقد سمعت لبعض الأدباء فيه تأويلا (ثالثا) وهو أن قولك أكرم بزيد يفيد أن زيداً بلغ فى الكرم إلى حيث كأنه فى ذاته صار كرما حتى لو أردت جعل غيره كريما فهو الذى يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك ، كما أن من قال أكتب بالقلم فمعناه أن القلم هو الذى يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو المشهور الأقوى أن معناه ما أسمعهم وما أبصرهم والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صماً وعمياً فى الدنيا ، وقيل معناه التهديد بما سيسمعون وسيبصرون بما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم (وثانيها) قال القاضى ويحتمل أن يكون المراد أسمع هؤلاء وأبصرهم أى عرفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا (وثالثها) قال الجبائى ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الإتيان بمثل فعلهم أما قوله (لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) ففيه قولان (الأول) لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وفى الآخرة يعرفون الحق (والثانى) (لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) وهم فى الآخرة فى ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين ، وأما قوله تعالى (وأنذرهم) فلا شبهة فى أنه أمر لمحمد ﷺ بأن ينذر من فى زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على أن قوله فاختلف الأحزاب أراد به اختلاف جميعهم فى زمن الرسول ﷺ وأما الإنذار فهو التخويف من العذاب لكى يحذروا من ترك عبادة الله تعالى وأما يوم الحسرة فلا شبهة فى أنه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من أهل النار وقيل يتحسر أيضا فى الجنة إذا لم يكن من السابقين الواصلين إلى الدرجات العالية والأول هو الصحيح لأن الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب ، أما قوله تعالى (إذ قضى الأمر) ففيه وجوه (أحدها) إذ قضى الأمر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب (وثانيها) إذ قضى الأمر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف والأول أقرب لقوله (وهم لا يؤمنون) فكأنه تعالى بين أنه ظهرت الحجج والبينات وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون (وثالثها) روى أنه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله قضى الأمر « فقال حين يجاء بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرح وأهل النار غماً على غم » واعلم أن الموت عرض فلا يجوز أن يصير

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا «٤١» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا «٤٢» يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا «٤٣» يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا «٤٤» يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا «٤٥»

جسما حيوانيا بل المراد أنه لاموت البتة بعد ذلك وأما قوله (وهم فى غفلة) أى عن ذلك اليوم وعن كيفية حسرته وهم لايؤمنون أى بذلك اليوم ثم قال بعده (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) أى هذه الأمور تؤول إلى أن لا يملك الضر والنفع إلا الله تعالى (وإلينا يرجعون) أى إلى محل حكمنا وقضائنا لأنه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع اليه وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة .

(القصة الثالثة) قصة ابراهيم عليه السلام

قوله تعالى ﴿واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً . ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾

اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبوداً سوى الله تعالى ، وهؤلاء فريقان منهم من أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلا فاهما وهم النصارى ، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً ليس بحى ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان والفريقان وإن اشتركا فى الضلال إلا أن ضلال الفريق الثانى أعظم فلما بين تعالى ضلال الفريق الأول تكلم فى ضلال الفريق الثانى وهم عبدة الأوثان فقال (واذكر فى الكتاب) والواو فى قوله واذكر عطف على قوله (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال ابراهيم وإنما أمر بذكره لأنه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب فاذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخباراً عن الغيب ومعجزاً قاهراً دالا على نبوته . وإنما شرع فى قصة إبراهيم عليه السلام لوجوه (أحدها) أن ابراهيم عليه السلام كان أب العرب وكانوا مقرين

بعلو شأنه وطهارة دينه على ماقال تعالى (ملة أبيكم ابراهيم) وقال تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه) فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدراً هو إبراهيم عليه السلام فقلدوه فى ترك عبادة الأوثان وإن كنتم من المستدلين فانظروا فى هذه الدلائل التى ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم إما تقليداً وإما استدلالا (وثانيها) أن كثيراً من الكفار فى زمن الرسول ﷺ كانوا يقولون كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وبين أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الأب على جانب الدليل رد على الأب الأشرف الأكبر الذى هو إبرهيم عليه السلام (وثالثها) أن كثيراً من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قال الله تعالى (قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) و(قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيهاً لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة ثم قال تعالى فى وصف إبراهيم عليه السلام (إنه كان صديقاً نبياً) وفى الصديق قولان (أحدهما) أنه مبالغة فى كونه صادقاً وهو الذى يكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبىء عن ذلك يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال (والثانى) أنه الذى يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهوراً به والأول أولى وذلك لأن المصدق بالشىء لا يوصف بكونه صديقا إلا إذا كان صادقا فى ذلك التصديق فيعود الأمر إلى الأول فان قيل أليس قد قال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء) قلنا المؤمنون بالله ورسله صادقون فى ذلك التصديق واعلم أن النبى يجب أن يكون صادقاً فى كل ما أخبر عنه لأن الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق وإلا لزم الكذب فى كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقا فى كل مايقول ، ولأن الرسل شهداء الله على الناس على ماقال الله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) والشهيد إنما يقبل قوله إذا لم يكن كاذباً . فان قيل فما قولكم فى إبراهيم عليه السلام فى قوله (بل فعله كبيرهم) و(إنى سقيم) قلنا قد شرحنا فى تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة أن شيئا من ذلك ليس بكذب فلما ثبت أن كل نبى يجب أن يكون صديقاً ولا يجب فى كل صديق أن يكون نبياً ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبى فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقاً إلى ذكر كونه نبياً ، وأما النبى فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس وأى رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده . وقوله (كان صديقاً) قيل إنه صار وقيل إن معناه وجد صديقاً نبياً أى كان من أول وجوده إلى انتهائه موصوفاً بالصدق والصيانة قال صاحب الكشاف هذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبدله أعنى ابراهيم وإذ قال ونظيره قولك رأيت زيداً ونعم الرجل أخاك ويجوز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقاً نبياً أى كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات

أما قوله (يا أبت) فالتاء عوض من ياء الاضافةولا يقال ياأبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه وقد يقال يا أبتا لكون الألف بدلا من الياء واعلم أنه تعالى حكى أن ابراهيم عليه السلام تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام (النوع الأول) قوله (لم تعبد مالا يسمع ويبصر ولا يغنى عنك شيئاً) ووصف الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة فى الإلهية وبيان ذلك من وجوه (أحدها) أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من له غاية الانعام وهو الإله الذى منه أصول النعم وفروعها على ماقررناه فى تفسير قوله (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) وقال (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) الآية وكما يعلم بالضرورة أنه لايجوز الاشتغال بشكرها مالم تكن منعمة وجب أن لايجوز الاشتغال بعبادتها (وثانيها) أنها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميزمن يطيعها عمن يعصيها فأى فائدة فى عبادتها ، وهذا ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات حتى يكون العبد آمناً من وقوع الغلط للمعبود (وثالثها) أن الدعاء مخ العباد فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعى فأى منفعة فى عبادته وإذا كانت لاتبصر بتقرب من يتقرب إليها فأى منفعة فى ذلك التقرب (ورابعها) أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عارياً عن كل ذلك ، والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس (وخامسها) إذاكانت لاتنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأى فائدة فى عبادتها (وسادسها) إذا كانت لاتحفظ أنفسها عن الكسر والإفساد على ماحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه كسرها وجعلها جذاذاً فأى رجاء للغير فيها واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثه أوجه (أحدها) لايسمع (وثانيها) لايبصر (وثالثها) لايغنى عنك شيئاً كأنه قال له بل الإلهية ليست إلا لربى فانه يسمع ويجيب دعوة الداعى ويبصر ، كما قال (إننى معكما أسمع وأرى) ويقضى الحوائج (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) واعلم أن قوله ههنا (لم تعبد) محمول على نفس العبادة وأما قوله فى المقام الثالث (لاتعبد الشيطان) لايقال ذلك بل المراد الطاعة لأنهم ماكانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة ولأنا نقول ليس إذا تركنا الظاهر ههنا لدليل وجب ترك الظاهر فى المقام الأول بغير دليل فان قيل : إما أن يقال إن أبا ابراهيم كان يعتقد فى تلك الأوثان أنها آلهة بمعنى أنها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات أو يقال إنه ماكان يعتقد ذلك بل كان يعتقد أنها تماثيل الكواكب والكواكب هى الآلهة المدبرة لهذا العالم ، فتعظيم تماثيل الكواكب يوجب تعظيم الكواكب أو كان يعتقد أن هذه الأوثان تماثيل أشخاص معظمة عند الله تعالى من البشر فتعظيمها يقتضى كون أولئك الأشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى أو كان يعتقد أن تلك الأوثان طلسمات ركبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها . وأنها مشفع بها ، أوغير ذلك من الأعذار المنقولة عن عبدة الأوثان ، فان كان أبو ابراهيم من القسم الأول كان فى نهاية الجنون لأن العلم بأن هذا الخشب المنحوت فى هذه الساعة ليس خالقاً للسموات والأرض من

أجلى العلوم الضرورية ، فالشاك فيه يكون فاقداً لأجلى العلوم الضرورية فكان مجنونا والمجنون لايجوز إيراد الحجة عليه والمناظرة معه ، وإن كان من القسم الثانى فهذه الدلائل لا تقدح فى شىء من ذلك لأن ذلك المذهب إنما يبطل باقامة الدلالة على أن الكواكب ليست أحياء ولا قادرة على خلق الأجسام وخالق الحياة ومعلوم أن الدليل المذكور ههنا لايفيد ذلك المطلوب فعلمنا أن هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات ، قلنا لانزاع أنه لا يخفى على العاقل أن الخشبة المنحوتة لاتصلح لخلق العالم وإنما مذهبهم هذا على الوجه الثانى ، وإنما أورد إبراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لأنهم كانوا يعتقدون أن عبادتها تفيد نفعاً إما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر ، فبين إبراهيم عليه السلام أنه لامنفعة فى طاعتها ولا مضرة فى الإعراض عنها فوجب أن لاتحسن عبادتها (النوع الثانى) قوله (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً) ومعناه ظاهر وطمع فى التمسك به أهل التعليم وأهل التقليد — أما أهل التعليم فقالوا إنه أمره بالإتباع فى الدين وما أمره بالتمسك بدليل لايستفاد إلا من الإتباع ، وأما أهل التقليد فقد تمسكوا به أيضاً من هذا الوجه ، ومن الناس من طعن أنه أمره بالإتباع لتحصل الهداية ، فاذن لاتحصل الهداية إلا باتباعه ، ولا تبعية إلا إذا اهتدى لقولنا إنه لابد من اتباعه فيقع الدور وإنه باطل (والجواب) عن الأول أن المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وإيضاحه ، فعند هذا عاد السائل فقال أنا لا أنكر أنه لابد من الدلالة ، ولكنى أقول الوقوف على تلك الدلالة لايستفاد إلا ممن له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطأ ، وهى نفس النبى المعصوم أو الإمام المعصوم فاذا سلمت أنه لابد من النبى فى هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض ، أجاب المجيب وقال أنا ماسلمت أنه لابد فى الوقوف على الدلائل من هداية النبى ، ولكنى أقول هذا الطريق أسهل وإن إبراهيم عليه السلام دعاه إلى الأسهل والجواب عن سؤال الدور أن قوله (فاتبعنى) ليس أمر إيجاب بل أمر إرشاد (والنوع الثالث) قوله (يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً) أى لا تطعه لأنه عاص لله فنفره بهذه الصفة عن القبول منه ، لأنه أعظم الخصال المنفرة ، واعلم أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان إلا كونه عاصياً لله ولم يذكر معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر فى عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه ، وأيضاً فان معصية الله تعالى لاتصدر إلا عن ضعيف الرأى ، ومن كان كذلك كان حقيقاً أن لا يلتفت إلى رأيه ولا يجعل لقوله وزن فان قيل إن هذا القول يتوقف على إثبات أمور : (أحدها) إثبات الصانع (وثانيها) إثبات الشيطان (وثالثها) إثبات أن الشيطان عاص لله (ورابعها) أنه لما كان عاصياً لم تجز طاعته فى شىء من الأشياء (وخامسها) أن الإعتقاد الذى كان عليه ذلك الإنسان كان مستفاداً من طاعة الشيطان ، ومن شأن الدلالة التى تورد على الخصم أن تكون مركبة من مقدمات معلومة مسلمة ، ولعل أبا ابراهيم كان منازعاً فى كل هذه المقدمات ،

وكيف والمحكى عنه أنه ماكان يثبت إلهاً سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الإله الرحمن وإذا لم يسلم وجوده ، فكيف يمكنه تسليم أن الشيطان كان عاصياً للرحمن ، ثم إن على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام أن مذهبه مقتبس من الشيطان ، بل لعله يقلب ذلك على خصمه ، قلنا الحجة المعول عليها فى إبطال مذهب آزر هو الذى ذكره أولا من قوله (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) فأما هذا الكلام فيجرى مجرى التخويف والتحذير الذى يحمله على النظر فى تلك الدلالة ، وعلى هذا التقدير يسقط السؤال (النوع الرابع) قوله (ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) قال الفراء معنى أخاف أعلم . والأكثرون على أنه محمول على ظاهره ، والقول الأول إنما يصح لو كان إبراهيم عليه السلام عالماً بأن أباه سيموت على ذلك الكفر وذلك لم يثبت فوجب إجراؤه على ظاهره فانه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يصر فيموت على الكفر ، فيكون من أهل العقاب ، ومن كان كذلك كان خائفاً لا قاطعاً ، واعلم أن من يظن وصول الضرر إلى غيره فانه لايسمى خائفاً إلا إذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر إليه تألم قلبه كما يقال أنا خائف على ولدى أما قوله (فتكون للشيطان ولياً) فذكروا فى الولى وجوها (أحدها) أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان فى النار والولاية سبب للمعية وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وإن لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً)وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) واعلم أن هذا الإشكال إنما يتوجه إذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة ، أما إذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالإشكال ساقط (وثانيها) أن يحمل العذاب على الخذلان أى إنى أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير موالياً للشيطان ويبرأ الله منك على ما قال تعالى (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) (وثالثها) ولياً أى تالياً للشيطان ، تليه كما يسمى المطر الذى يأتى تالياً ولياً فان قيل قوله (أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) يقتضى أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالا من العذاب نفسه وأعظم ، فما السبب لذلك (والجواب) أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) فوجب أن تكون ولاية الشيطان التى هى فى مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن لأنه نبه أولا على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان ثم أمره باتباعه فى النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على مالا ينبغى ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقروناً باللطف والرفق فان قوله فى مقدمة كل كلام (يا أبت) دليل على شدة الحب والرغبة فى صونه عن العقاب وإرشاده الى الصواب ، وختم الكلام بقوله

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا «٤٦» قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا «٤٧» وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا «٤٨»

(إنى أخاف) وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه وإنما فعل ذلك لوجوه : (أحدها) قضاء لحق الأبوة على ما قال تعالى (وبالوالدين إحسانا) والإرشاد إلى الدين من أعظم أنواع الإحسان ، فاذا انضاف إليه رعاية الأدب والرفق كان ذلك نوراً على نور (وثانيها) أن الهادى إلى الحق لابد وأن يكون رفيقاً لطيفاً يورد الكلام لا على سبيل العنف لأن إيراده على سبيل العنف يصير كالسبب فى إعراض المستمع فيكون ذلك فى الحقيقة سعياً فى الإغواء (وثالثها) ماروى أبوهريرة أنه قال عليه السلام « أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أنك خليلى فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فان كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشى وأن أسكنه حظيرة قدسى وأدنيه من جوارى » والله أعلم .

قوله تعالى ﴿قال أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد ، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان ، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ ، وأورد كل ذلك مقروناً باللطف والرفق ، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك ، فقابل حجته بالتقليد ، فانه لم يذكر فى مقابلة حجته إلا قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) فأصر على ادعاء إلهيتها جهلا وتقليداً وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم ، وقابل رفقه فى قوله (يا أبت) بالعنف حيث لم يقل له يابنى بل قال (ياإبراهيم) وإنما حكى الله تعالى ذلك لمحمد ﷺ ليخفف على قلبه ما كان يصل اليه من أذى المشركين فيعلم أن الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة ، أما قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) فان كان ذلك على وجه الإستفهام فهو خذلان لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول ، وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأى تعجب فى الإعراض عن حجة لافائدة فيها ، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها فان الدليل الذى ذكره ابراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها فكان أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبنى على الدليل بتعجب

فاسد غير مبنى على دليل وشبهة ، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه ، أما قوله (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الرجم ههنا قولان (الأول) أنه الرجم باللسان ، وهو الشتم والذم ، ومنه قوله (والذين يرمون المحصنات) أى بالشتم ، ومنه الرجيم ، أى المرمى باللعن ، قال مجاهد : الرجم فى القرآن كله بمعنى الشتم (والثانى) أنه الرجم باليد ، وعلى هذا التقدير ذكروا وجوها : (أحدها) لأرجمنك باظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك (وثانيها) لأرجمنك بالحجارة لتتباعد عنى (وثالثها) عن المؤرج لأقتلنك بلغة قريش (ورابعها) قال أبو مسلم لأرجمنك المراد منه الرجم بالحجارة إلا أنه قد يقال ذلك فى معنى الطرد والإبعاد اتساعا ، ويدل على أنه أراد الطرد قوله تعالى (واهجرنى مليا) واعلم أن أصل الرجم هو الرمى بالرجام فحمله عليه أولى ، فان قيل : أفما يدل قوله تعالى (واهجرنى مليا) على أن المراد به الرجم بالشتم ؟ قلنا لا ، وذلك لأنه هدده بالرجم إن بقى على قربه منه وأمره أن يبعد هربا من ذلك فهو فى معنى قوله (واهجرنى مليا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله تعالى (واهجرنى مليا) قولان (أحدهما) المراد واهجرنى بالقول (والثانى) بالمفارقة فى الدار والبلد وهى هجرة الرسول والمؤمنين أى تباعد عنى لكى لا أراك وهذا الثانى أقرب إلى الظاهر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (مليا) قولان (الأول) مليا أى مدة بعيدة مأخوذ من قولهم أتى على فلان ملاوة من الدهر أى زمان بعيد (والثانى) مليا بالذهاب عنى والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لاتقدر أن تبرح يقال فلان ملى بكذا إذا كان مطيقا له مضطلعا به .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ عطف اهجرنى على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك ، أى فاحذرنى واهجرنى لئلا أرجمنك ، ثم إن إبراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك أجاب عن أمرين (أحدهما) أنه وعده التباعد منه ، وذلك لأن أباه لما أمره بالتباعد أظهر الإنقياد لذلك الأمر وقوله (سلام عليك) توادع ومتاركة كقوله تعالى (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لانبتغى الجاهلين ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج ، وعلى أنه تحسن مقابلة الإساءة بالإحسان ، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له ، ألا ترى أنه وعده بالاستغفار ، ثم إنه لما ودع [أباه] بقوله (سلام عليك) ضم الى ذلك مادل به على أنه وإن بعد عنه فاشفاقه باق عليه كما كان وهو قوله (سأستغفر لك ربى) واحتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الأنبياء ، وتقريره أن إبراهيم عليه السلام فعل مالايجوز لأنه استغفر لأبيه وهو كافر والاستغفار للكافر لايجوز ، فثبت بمجموع هذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لايجوز ، إنما قلنا إنه استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن ابراهيم (سلام عليك سأستغفر لك ربى) وقوله (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) وأما أن أباه كان كافراً فذاك بنص القرآن

وبالاجماع ، وأما أن الاستغفار للكافر لايجوز فلوجهين (الأول) قوله تعالى (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) . (الثانى) قوله فى سورة الممتحنة (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم - الى قوله - لأستغفرن لك) وأمر الناس إلا فى هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه ، (والجواب) لا نزاع إلا فى قولكم الاستغفار للكافر لايجوز فان الكلام عليه من وجوه (أحدها) أن القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف إلا بالسمع ، فلعل ابراهيم عليه السلام لم يجد فى شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لأبيه (وثانيها) أن الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة ، كما فى قوله (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله) والمعنى سأسأل ربى أن لايجزيك بكفرك ما كنت حياً بعذاب الدنيا المعجل (وثالثها) أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الايمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار ولعل فى شرعه جواز الاستغفار للكافر الذى يرجى منه الايمان ، والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) فبين أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم) ثم قال بعد ذلك (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن ، فلما لم يؤمن لم يستغفرله بل تبرأ منه ، فان قيل فاذا كان الأمر كذلك فلم منعنا من التأسى به فى قوله (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) قلنا الآية تدل على أنه لايجوز لنا التأسى به فى ذلك لكن المنع من التأسى به فى ذلك لايدل على أن ذلك كان معصية ،فان كثيراً من الأشياء هى من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لنا التأسى به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام (ورابعها) لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الأولى وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، أما قوله (إنه كان بى حفياً) أى لطيفاً رفيقاً يقال أحفى فلان فى المسألة بفلان إذا لطف به وبالغ فى الرفق ، ومنه قوله تعالى (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا) أى وإن لطفت المسألة والمراد أنه سبحانه للطفه بى وإنعامه على عودنى الإجابة فاذا أنا استغفرت لك حصل المراد فكأنه جعله بذلك على يقين إن هو تاب أن يحصل له الغفران (الجواب الثانى) من الجوابين قوله (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) الاعتزال للشىء هو التباعد عنه والمراد أنى أفارقكم فى المكان وأفارقكم فى طريقتكم أيضاً وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربى الذى ينفع ويضر والذى خلقنى وأنعم على فانكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك ، فواجب على مجانبتكم ومعنى قوله (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً) أرجو أن لا أكون كذلك ، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) وأما قوله (شقياً مع مافيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم فى دعاء آلهتهم على ماقرره أولا فى

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا «٤٩» وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا «٥٠»

قوله (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) .

قوله تعالى ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾

اعلم أنه ماخسر على الله أحد فان إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم فى دينهم وفى بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره لم يضره ذلك ديناً ودنيا ،بل نفعه فعوضه أولاداً أنبياء ولا حالة فى الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولا إلى خلقه ويلزم الخلق طاعته والإنقياد له مع مايحصل فيه من عظيم المنزلة فى الآخرة فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم فى الدنيا والآخرة ، ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أى وهب لهم مع النبوة ماوهب ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال (وجعلنا لهم لسان صدق علياً) ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان ، كما عبر باليد عما يعطى باليد وهو العطية ، واستجاب الله دعوته فى قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم وقال عز وجل (ملة أبيكم إبراهيم ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) قال بعضهم إن الخليل اعتزل عن الخلق على ما قال (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) فلا جرم بارك الله فى أولاده فقال (ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) (وثانيها) أنه تبرأ من أبيه فى الله تعالى على ما قال (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) لاجرم أن الله سماه أباً للمسلمين فقال (ملة أبيكم ابراهيم) (وثالثها) تل ولده للجبين ليذبحه على ماقال (فلما أسلما وتله للجبين) لا جرم فداه الله تعالى على ما قال (وفديناه بذبح عظيم) (ورابعها) أسلم نفسه فقال (أسلمت لرب العالمين) فجعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فقال (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم) (وخامسها) أشفق على هذه الأمة فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) لاجرم أشركه الله تعالى فى الصلوات الخمس ،كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم (وسادسها) فى حق سارة فى قوله (وإبراهيم الذى وفى) لاجرم جعل موطىء قدميه مباركا (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ،(وسابعها) عادى كل الخلق فى الله فقال (فانهم عدو لى إلا رب العالمين) لاجرم اتخذه الله خليلا على ما قال (واتخذ الله إبراهيم خليلا) ليعلم صحة قولنا أنه ماخسر على الله أحد .

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا «٥١» وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا «٥٢» وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا «٥٣» وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا

(القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ﴾ .

إعلم أنه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور (أحدها) أنه كان مخلصاً فاذا قرئ بفتح اللام فهو من الإصطفاء والإجتباء كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه وإذا قرئ بالكسر فمعناه أخلص لله فى التوحيد فى العبادة والإخلاص هو القصد فى العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده ، ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به ، فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الأمرين (وثانيها) كونه رسولا نبيا ولا شك أنهما وصفان مختلفان لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبى وكل نبى رسول ومن الناس من أنكر ذلك وقد بينا الكلام فيه فى سورة الحج فى قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) (وثالثها) قوله تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن) من اليمين أى من ناحية اليمين والأيمن صفة الطور أو الجانب (ورابعها) قوله (وقربناه نجياً) ولما ذكر كونه رسولا قال (وقربناه نجياً) وفى قوله (قربناه) قولان (أحدهما) المراد قرب المكان عن أبى العالية قربه حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة فى الألواح (والثانى) قرب المنزلة أى رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة ، قال القاضى وهذا أقرب لأن استعمال القرب فى الله قد صار بالتعارف لايراد به إلا المنزلة وعلى هذا الوجه يقال فى العبادة تقرب ، ويقال فى الملائكة عليهم السلام إنهم مقربون وأما (نجياً) فقيل فيه أنجيناه من أعدائه وقيل هو من المناجاة فى المخاطبة وهو أولى (وخامسها) قوله (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان هرون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام ، وإنما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته وذلك إجابة لدعائه فى قوله (واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى أشدد به أزرى) فأجابه الله تعالى إليه بقوله (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وقوله (سنشد عضدك بأخيك)

(القصة الخامسة قصة إسمعيل عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً . وكان يأمر

نَبِيًّا «٥٤» وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا «٥٥»

أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾

إعلم أن إسمعيل هذا هو إسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ،واعلم أن الله تعالى وصف إسمعيل عليه السلام بأشياء (أولها) قوله (إنه كان صادق الوعد) وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس (أما الأول) فهو أن يكون المراد أنه كان لايخالف شيئاً مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضى القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة (وأما الثانى) فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشىء أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه وعد صاحباً له أن ينتظره فى مكان فانتظره سنة، وأيضاً وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ويروى أن عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرنى حتى آتيك فقال عيسى عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسى الميعاد فجاء لحاجة الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه واعد رجلا ونسى ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى قريب من غروب الشمس » وسئل الشعبى عن الرجل يعد ميعاداً الى أى وقت ينتظره فقال إن واعده نهاراً فكل النهار وإن واعده ليلا فكل الليل ، وسئل إبراهيم بن زيد عن ذلك فقال إذا واعدته فى وقت الصلاة فانتظره إلى وقت صلاة أخرى (وثانيها) قوله (وكان رسولا نبيا) وقد مر تفسيره (وثالثها) قوله (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) والأقرب فى الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدى إليه الشرع فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه فى جميعهم ما يلزم المرء فى أهله خاصة ، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة فان حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله أى من كان فى داره فى ذلك الوقت بذلك وكان نظره لهم فى الدين يغلب على شفقته عليهم فى الدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس ، وقيل كان يبدأ بأهله فى الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وأيضاً فهم أحق أن يتصدق عليهم فوجب أن يكونوا بالاحسان الدينى أولى ، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها طاعة الله تعالى والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة ان يراد بها الصدقات الواجبة وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء (ورابعها) قوله (وكان عند ربه مرضياً) وهو فى نهاية المدح لأن المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعاته بأعلى الدرجات .

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا «٥٦» وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا «٥٧» أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا «٥٨»

(القصة السادسة قصة إدريس عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً ﴾

اعلم أن إدريس عليه السلام هو جد أبى نوح عليه السلام وهو نوح بن لمك بن متوشلخ ابن أخنوخ قيل سمى إدريس لكثرة دراسته واسمه أخنوخ ووصفه الله تعالى بأمور: (أحدها) أنه كان صديقاً (وثانيها) أنه كان نبياً وقد تقدم القول فيهما (وثالثها) قوله (ورفعناه مكاناً علياً) وفيه قولان (أحدهما) أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد ﷺ (ورفعنا لك ذكرك) فان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود (الثانى) أن المراد به الرفعة فى المكان إلى موضع عال وهذا أولى، لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة فى المكان لا فى الدرجة ثم اختلفوا فقال بعضهم إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حى لم يمت، وقال آخرون بل رفع إلى السماء وقبض روحه سأل ابن عباس رضى الله عنهما كعباً عن قوله (ورفعناه مكانا علياً) قال جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به إلى السماء فلما كان فى السماء الرابعة فاذا ملك الموت يقول بعثت وقيل لى اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة، وأنا أقول كيف ذلك وهو فى الأرض فالتفت إدريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك. واعلم أن الله تعالى انما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة أن لا يرفع اليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة. ولذلك قال فى حق الملائكة (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) وههنا آخر القصص.

قوله تعالى ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾

اعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخراً فقال (أولئك الذين أنعم الله عليهم) أى بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه وأولئك إشارة إلى المذكورين

فى السورة من لدن زكريا إلى إدريس ، ثم جمعهم فى كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح . والذى يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام ،فقد كان سابقاً على نوح على ماثبت فى الأخبار والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو إبراهيم عليه السلام لأنه من ولد سام بن نوح وإسماعيل وإسحق ويعقوب من ذرية إبراهيم ثم خص بعضهم بأنهم من ولد إسرائيل أى يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الأم فرتب الله سبحانه وتعالى أحوال الأنبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبهاً بذلك على أنهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم مزيد فى الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء ، ثم بين أنهم ممن هدينا واجتبينا منبهاً بذلك على أنهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم ، ولأنه اختارهم للرسالة ثم قال (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) تتلى عليهم أى على هؤلاء الأنبياء فبين تعالى أنهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذى عند تلاوة آيات الله يخرون سجداً وبكياً خضوعاً وخشوعاً وحذراً وخوفاً ، والمراد بآيات الله ماخصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم . وقال أبو مسلم المراد بالآيات التى فيها ذكر العذاب المنزل بالكفار وهو بعيد لأن سائر الآيات التى فيها ذكر الجنة والنار إلى غير ذلك أولى أن يسجدوا عنده ويبكوا فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، لأن كل ذلك إذا فكر فيه المتفكر صح أن يسجد عنده وأن يبكى ، واختلفوا فقال بعضهم فى السجود إنه الصلاة وقال بعضهم المراد سجود التلاوة على حسب ما تعبدنا به وقيل المراد الخضوع والخشوع والظاهر يقتضى سجوداً مخصوصاً عند التلاوة ثم يحتمل أن يكون المراد سجود التلاوة للقرآن ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لا لأجل ذكر السجود فى الآية ، قال الزجاج فى بكياً جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود ثم قال الإنسان فى حال خروره لايكون ساجداً فالمراد خروا مقدرين للسجود ومن قال فى بكياً إنه مصدر فقد أخطأ لأن سجداً جمع ساجد وبكياً معطوف عليه وعن رسول الله ﷺ «اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا» وعن صالح المرى قال : قرأت القرآن عن رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى ياصالح هذه القراءة فأين البكاء ؟. وعن ابن عباس رضى الله عنهما إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . وعن رسول الله ﷺ «القرآن نزل بحزن فاقرأوه بحزن» وعن رسول الله ﷺ «ماغرورقت عين به بماء إلا حرم الله على النار جسدها » وعن أبى هريرة رضى الله عنه « لايلج النار من بكى من خشية الله » وقال العلماء يدعو فى سجود التلاوة بما يليق بها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك وإن قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك وإن قرأ هذه السجدة قال اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آيات كتابك .

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا «٥٩» إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا «٦٠»

قوله تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾

إعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الأنبياء بصفات المدح ترغيباً لنا فى التأسى بطريقتهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال فخلف من بعدهم خلف ، وظاهر الكلام أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم يقال خلفه إذا أعقبه ثم قيل فى عقب الخير خلف بفتح اللام وفى عقب الشر خلف بالسكون ، كما قالوا وعد فى ضمان الخير ووعيد فى ضمان الشر وفى الحديث « فى الله خلف من كل هالك » وفى الشعر للبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم وصفهم باضاعة الصلاة واتباع الشهوات فاضاعة الصلاة فى مقابلة قوله (خروا سجداً) واتباع الشهوات فى مقابلة قوله (وبكياً) لأن بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم وظاهر قوله (أضاعوا الصلاة) تركوها لكن تركها قد يكون بأن لا تفعل أصلا وقد يكون بأن لا تفعل فى وقتها وإن كان الأظهر هو الأول وأما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب واحتج بعضهم بقوله (إلا من تاب وآمن) على أن تارك الصلاة كافر ، واحتج أصحابنا بها فى أن الإيمان غير العمل لأنه تعالى قال (وآمن وعمل صالحاً) فعطف العمل على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه ، أجاب الكعبى عنه بأنه تعالى فرق بين التوبة والإيمان والتوبة من الإيمان فكذلك العمل الصالح يكون من الإيمان وإن فرق بينهما ، وهذا الجواب ضعيف لأن عطف الايمان على التوبة يقتضى وقوع المغايرة بينهما لأن التوبة عزم على الترك والإيمان إقرار بالله تعالى وهما متغايران ، فكذا فى هذه الصورة . ثم بين تعالى أن من هذه صفته (يلقون غياً) وذكروا فى الغى وجوهاً (أحدها) أن كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد ، قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

(وثانيها) قال الزجاج (يلقون غياً) أى يلقون جزاء الغى ، كقوله تعالى (يلق أثاماً) أى مجازاة الآثام (وثالثها) غياً عن طريق الجنة (ورابعها) الغي واد فى جهنم يستعيذ منه أوديتها

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا «٦١» لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا «٦٢» تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا «٦٣»

والوجهان الأولان أقرب فان كان فى جهنم موضع يسمى بذلك جاز ولا يخرج من أن يكون المراد ماقدمنا لأنه المعقول فى اللغة ، ثم بين سبحانه أن هذا الوعيد فيمن لم يتب ، وأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم ، وههنا سؤالان (الأول) الاستثناء دل على أنه لابد من التوبة والإيمان والعمل الصالح وليس الأمر كذلك ، لأن من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة ، أوكانت المرأة حائضاً فانه لايجب عليها الصلاة والزكاة أيضاً غير واجبة ، وكذا الصوم فههنا لو مات فى ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع أنه لم يصدر عنه عمل فلم يجز توقف الأجر على العمل الصالح ، (والجواب) أن هذه الصورة نادرة ، والمرادمنه الغالب (السؤال الثانى) قوله (ولا يظلمون شيئاً) هذا إنما يصح لو كان الثواب مستحقاً على العمل ، لأنه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم لكن من مذهبكم أنه لا استحقاق للعبد بعمله إلا بالوعد (الجواب) أنه لما أشبهه أجرى على حكمه .

قوله تعالى ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً . لايسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً . تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾

إعلم أنه تعالى لما ذكر فى التائب أنه يدخل الجنة وصف الجنة بأمور (أحدها) قوله (جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب) والعدن الإقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان فى الدنيا التى لاتدوم ولذلك فان حالها لايتغير فى مناظرها فليست كجنان الدنيا التى حالها يختلف فى خضرة الورق وظهور النور والثمر وبين تعالى أنها (وعد الرحمن لعباده) وأما قوله (بالغيب) ففيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى وعد[هم إيا]ها وهى غائبة عنهم غير حاضرة أوهم غائبون عنها لايشاهدونها (والثانى) أن المراد وعد الرحمن للذين يكونون عباداً بالغيب أى الذين يعبدونه فى السر بخلاف المنافقين فانهم يعبدونه فى الظاهر ولا يعبدونه فى السر وهو قول أبى مسلم (والوجه الأول) أقوى لأنه تعالى بين أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل ، فلذلك قال بعده (إنه كان وعده مأتياً) أما قوله (مأتياً) فقيل إنه مفعول بمعنى فاعل والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها ، قال الزجاج كل ماوصل إليك فقدوصلت إليه وما أتاك فقد أتيته والمقصود من قوله (إنه كان وعده مأتياً) بيان أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد وحاصل

والمراد تقرير ذلك فى القلوب (وثانيها) قوله (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) واللغو من الكلام ما سبيله أن يلغى ويطرح وهو المنكر من القول ونظيره قوله (لا تسمع فيها لاغية) وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التى لا تكليف فيها وما أحسن قوله (وإذا مروا باللغو مروا كراماً)، (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) أما قوله (إلا سلاماً) ففيه بحثان:

﴿البحث الأول﴾ أن فيه إشكالا وهو أن السلام ليس من جنس اللغو فكيف استثنى السلام من اللغو والجواب عنه من وجوه (أحدها) أن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة وأهل الجنة لا حاجة بهم إلى هذا الدعاء فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا مافيه من فائدة الإكرام (وثانيها) أن يحمل ذلك على الاستثناء المنقطع (وثالثها) أن يكون هذا من جنس قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

﴿البحث الثانى﴾ أن ذلك السلام يحتمل أن يكون من سلام بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم الله تعالى على ما قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقوله (سلام قولا من رب رحيم) (ورابعها) قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وفيه سؤالان (السؤال الأول) أن المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق إليهم بكرة وعشياً ليس من الأمور المستعظمة (والجواب) من وجهين (الأول) قال الحسن أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه فى الدنيا ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التى كانت عادة العجم والأرائك التى هى الحجال المضروبة على الأسرة وكانت من عادة أشراف العرب فى اليمن ولا شىء كان أحب إلى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك (الثانى) أن المراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشياً تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين (السؤال الثانى) قال تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) وقال عليه السلام «لا صباح عند ربك ولا مساء» والبكرة والعشى لا يوجدان إلا عند وجود الصباح والمساء (والجواب) المراد أنهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشى إلا أنه ليس فى الجنة غدوة وعشى إذ لا ليل فيها ويحتمل ما قيل إنه تعالى جعل لقدر اليوم علامة يعرفون بها مقادير الغداة والعشى ويحتمل أن يكون المراد لهم رزقهم متى شاؤا كما جرت العادة فى الغداة والعشى (وخامسها) قوله (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً) وفيه أبحاث: (الأول) قوله (تلك الجنة) هذه الإشارة إنما صحت لأن الجنة غائبة (وثانيها) ذكروا فى نورث وجوهاً (الأول) نورث استعارة أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث (الثانى) أن المراد أنا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل هذا النقل إرثاً قاله الحسن (الثالث) أن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمراتها باقية وهى الجنة فإذا أدخلهم

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا «٦٤» رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا «٦٥»

الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى (ورابعها) معنى من كان تقياً من تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات ، قال القاضى فيه دلالة على أن الجنة يختص بدخولها من كان متقياً والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك (والجواب) الآية تدل على أن المتقى يدخلها وليس فيها دلالة على أن غير المتقى لا يدخلها وأيضاً فصاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه أنه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق لأن المتقى جزء من مفهوم قولنا المتقى عن الكفر وإذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل تحته فالآية بأن تدل على أن صاحب الكبيرة يدخل الجنة أولى من أن تدل على أنه لا يدخلها .

قوله تعالى ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً . رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾

إعلم أن فى الآية إشكالا وهو أن قوله (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً) كلام الله وقوله (وما نتنزل إلا بأمر ربك) كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل (والجواب) أنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كما أن قوله سبحانه (إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) هو كلام الله وقوله (وإن الله ربى وربكم) كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر ، واعلم أن ظاهر قوله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك) خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل فى سببه ماروى أن قريشاً بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد ﷺ وهل يجدونه فى كتابهم فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده فى كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسألوه عنهن فان أخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه ، فاسألوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح قال فجاءوا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم بعد ذلك ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحى عنه أربعين يوماً وقيل خمسة عشر يوماً فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ، فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبى ﷺ أبطأت عنى حتى ساء ظنى واشتقت إليك قال إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست فأنزل الله تعالى هذه الآية وأنزل قوله (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً

إلا أن يشاء الله) وسورة الضحى ثم أكدوا ذلك بقولهم (له ما بين أيدينا وما خلفنا) أى هو المدبر لنا فى كل الأوقات الماضى والمستقبل وما بينهما أو الدنيا والآخرة وما بينهما فانه يعلم إصلاح التدبير مستقبلا وماضياً وما بينهما والغرض أن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته وحكمته لا اعتراض لأحد عليه فيه وقال أبو مسلم قوله (وما نتنزل إلا بأمر ربك) يجوز أن يكون قول أهل الجنة والمراد وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا أى فى الجنة مستقبلا وما خلفنا مما كان فى الدنيا وما بين ذلك أى ما بين الوقتين وما كان ربك نسياً لشىء مما خلق فيترك إعادته لأنه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله (وما كان ربك نسياً) ابتداء كلام منه تعالى فى مخاطبة الرسول ﷺ ويتصل به (رب السموات والأرض) أى بل هو (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده) قال القاضى وهذا مخالف للظاهر من وجوه : (أحدها) أن ظاهر التنزل نزول الملائكة الى الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله بأمر ربك وظاهر الأمر بحال التكليف أليق وثانيها أنه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض فى الجنة (وثالثها) أن ما فى سياقه من قوله (وما كان ربك نسياً ، رب السموات والأرض وما بينهما) لا يليق إلا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول ﷺ فكأنهم قالوا للرسول وما كان ربك يا محمد نسياً يجوز عليه السهو حتى يضرك إبطاؤنا بالتنزل عليك إلى مثل ذلك ثم ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال صاحب الكشاف التنزل على معنيين : (أحدهما) النزول على مهل (والثانى) بمعنى النزول على الإطلاق والدليل عليه أنه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا فى الأحايين وقتاً بعد وقت ليس إلا بأمر الله تعالى .

﴿ البحث الثانى ﴾ ذكروا فى قوله (ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) وجوها : (أحدها) له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان إلا بأمره ومشيئته فليس لنا أن ننقلب من السماء إلى الأرض إلا بأمره (وثانيها) له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك وما بين النفختين وهو أربعون سنة (وثالثها) ما مضى من أعمارنا وما غبر من ذلك والحال التى نحن فيها (ورابعها) ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا (وخامسها) الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض وعلى كل التقديرات فالمقصود أنه المحيط بكل شىء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل إلا بأمره وحكمه .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (وما كان ربك نسياً) أى تاركا لك كقوله (ما ودعك ربك وما قلى) أى ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك ، أما قوله (رب السموات والأرض وما بينهما) فالمراد أن من يكون رباً لها أجمع لا يجوز عليه النسيان إذ لا بد من أن يمسكها حالا بعد حال وإلا بطل الأمر فيهما وفيمن يتصرف فيهما ، واحتج

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا «٦٦» أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا «٦٧» فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا «٦٨» ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا «٦٩» ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا «٧٠»

أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، لأن فعل العبد حاصل بين السماء والأرض . والآية دالة على أنه رب لكل شىء حصل بينهما ، قال صاحب الكشاف رب السموات والأرض بدل من ربك ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أى هو رب السموات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته فهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف فى الأداء والإبلاغ وفيما يخصه من العبادة فان قيل لم لم يقل واصطبر على عبادته بل قال واصطبر لعبادته قلنا لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن فى قولك للمحارب اصطبر لقرنك أى اثبت له فيما يورد عليك من شداته (والمعنى) أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك من إلقاء أهل الكتاب اليك الأغاليط عن احتباس الوحى عنك مدة وشماتة المشركين بك ، أما قوله تعالى (هل تعلم له سمياً) فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الأمر بالعبادة والأمر بالمصابرة عليها أنه لاسمى له ، والأقرب هو كونه منعما بأصول النعم وفروعها وهى خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لايقدر على ذلك أحد سواه سبحانه ، فاذا كان هو قد أنعم عليك بغاية الإنعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة ، ومن الناس من قال المراد أنه سبحانه ليس له شريك فى اسمه وبينوا ذلك من وجهين : (الأول) أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شىء سواه وعن ابن عباس رضى الله عنهما لايسمى بالرحمن غيره (الثانى) هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل ؟ لأن التسمية على الباطل فى كونها غير معتد بها كلا تسمية ، والقول الأول هو الصواب والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ، أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ، فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أمر بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادات لامنفعة فيها فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فقد أنكرها قوم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى

يظهر أن الاشتغال بالعبادة مفيد فلهذا حكى الله تعالى قول منكرى الحشر فقال (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً) وإنما قالوا ذلك على وجه الانكار والاستبعاد ، وذكروا فى الإنسان وجهين : (أحدهما) أن يكون المراد الجنس بأسره فان قيل كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول ؟ قلنا الجواب من وجهين : (الأول) أن هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح إسنادها إلى جميعهم ، كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وإنما القاتل رجل منهم (والثانى) أن هذا الاستبعاد موجود ابتداء فى طبع كل أحد إلا أن بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبنى على محض الطبع بالدلالة القاطعة التى قامت على صحه القول به (الثانى) أن المراد بالانسان شخص معين فقيل هو أبو جهل، وقيل هو أبى بن خلف، وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ،ثم إن الله تعالى أقام الدلالة على صحة البعث بقوله (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) والقراء كلهم على يذكر بالتشديد إلا نافعاً وابن عامر وعاصماً قد خففوا ،أى أو لا يتذكر الانسان أنا خلقناه من قبل وإذا قرىء أو لا يذكر فهو أقرب الى المراد إذ الغرض التفكر والنظر فى أنه إذا خلق من قبل لامن شىء فجائز أن يعاد ثانياً، قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة فى البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها إذ لاشك أن الاعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولا،ونظيره قوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وقوله (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن المعدوم ليس بشىء وهو ضعيف لأن الإنسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت بها أعراض وهذا المجموع ماكان شيئاً ، ولكن لم قلت إن كل واحد من تلك الأجزاء ماكان شيئاً قبل كونه موجوداً؟فان قيل كيف أمر تعالى الإنسان بالذكر مع أن الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخللهما سهو؟ قلنا المراد أو لا يتفكر فيعلم خصوصا إذا قرىء أو لا يذكر الإنسان بالتشديد أما إذا قرىء أو لا يذكر بالتخفيف فالمراد أو لا يعلم ذلك من حال نفسه لأن كل أحد يعلم أنه لم يكن حياً فى الدنيا ثم صار حياً،ثم إنه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه (أحدها) قوله (فوربك لنحشرنهم والشياطين) وفائدة القسم أمران (أحدهما) أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين (والثانى) أن فى إقسام الله تعالى باسمه مضافا إلى اسم رسوله ﷺ تفخيم لشأنه ﷺ ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض فى قوله (فورب السماء والأرض إنه لحق) والواو فى(الشياطين)ويجوز أن تكون للعطف وأن تكون بمعنى مع وهى بمعنى مع أوقع،والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة (وثانيها) قوله (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) وهذا الاحضار يكون قبل إدخالهم جهنم ثم إنه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى (جثياً) لأن البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز، فان قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى (وترى كل أمة جاثية) والسبب فيه جريان العادة أن الناس فى مواقف المطالبات من

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً «٧١» ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً «٧٢»

الملوك يتجاثون على ركبهم لما فى ذلك من الاستنظار والقلق،أو لما يدهمهم من شدة الأمر الذى لا يطيقون معه القيام على أرجلهم ، وإذا كان هذا عاماً للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار ؟ قلنا لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور فى الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل فى حقهم (وثالثها) قوله (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) والمراد بالشيعة وهى فعلة كفرقة وفئة الطائفة التى شاعت أى تبعت غاوياً من الغواة قال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) والمراد أنه تعالى يحضرهم أولا حول جهنم جثياً ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمرداً فى كفره خص بعذاب أعظم لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعاً لغيره ،وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه فى الباطل كعذاب من يقتدى به مع الغفلة قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) وقال (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) فبين تعالى أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتواً وأشد تمرداً ليعلم أن عذابه أشد، ففائدة هذه التمييزالتخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب.فلذلك قال فى جميعهم (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً) ولا يقال أولى إلا مع اشتراك القوم فى العذاب ، واختلفوا فى إعراب أيهم فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وسيبويه على أنه مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلة حتى لو جىء به لأعرب وقيل أيهم هو أشد .

قوله تعالى﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾

واعلم أنه تعالى لما قال من قبل (فوربك لنحشرنهم والشياطين) ثم قال (ثم لنحضرنهم حول جهنم) أردفه بقوله (وإن منكم إلا واردها) يعنى جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة،قالوا إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها (والثانى) قوله (لا يسمعون حسيسها) ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها (وثالثها) قوله (وهم من فزع يومئذ آمنون) وقال الأكثرون إنه عام فى كل مؤمن وكافر لقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) فلم يخص . وهذا الخطاب مبتدأ

مخالف للخطاب الاول ، ويدل عليه قوله (ثم ننجى الذين اتقوا) أى من الواردين من اتقى ولا يجوز أن يقال (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) إلا والكل واردون والأخبار المروية دالة على هذا القول ، ثم هؤلاء اختلفوا فى تفسير الورود فقال بعضهم الورود الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهوموضع المحاسبة ، واحتجوا على أن الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى (فأرسلوا واردهم) ومعلوم أن ذلك الوارد مادخل الماء وقال تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وأراد به القرب ويقال وردت القافلة البلدة وإن لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية أن الجن والأنس يحضرون حول جهنم (كان على ربك حتما مقضيا) أى واجباً مفروغا منه بحكم الوعيد ثم ننجى أى نبعد الذين اتقوا عن جهنم وهو المراد من قوله تعالى (أولئك عنها مبعدون) ومما يؤكد هذا القول ماروى أنه ﷺ قال «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية فقالت حفصة أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) فقال عليه السلام فمه ثم ننجى الذين اتقوا» ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازماً (القول الثانى) أن الورود هو الدخول ويدل عليه الآية والخبر أما الآية فقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وقال (فأوردهم النار وبئس الورد المورود) ويدل عليه قوله تعالى (أولئك عنها مبعدون) والمبعد هو الذى لولا التبعيد لكان قريباً فهذا إنما يحصل لو كانوا فى النار، ثم إنه تعالى يبعدهم عنها ويدل عليه قوله تعالى (ونذر الظالمين فيها جثياً) وهذا يدل على أنهم يبقون فى ذلك الموضع الذى وردوه وهم إنما يبقون فى النار فلا بد وأن يكونوا قد دخلوا النار ، وأما الخبر فهو أن عبد الله بن رواحة قال «أخبر الله عن الورود ولم يخبر بالصدور، فقال عليه السلام يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين اتقوا» وذلك يدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبى ﷺ ما أنكر عليه فى ذلك وعن جابر «أنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتى أن للناس ضجيجاً من بردها» والقائلون بهذا القول يقولون المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر البتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم (لا يحزنهم الفزع الأكبر) ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز فى دار التكليف، ولأنه صحت الرواية عن رسول الله ﷺ «أن الملائكة تبشر فى القبر من كان من أهل الثواب بالجنة حتى يرى مكانه فى الجنة ويعلمه» وكذلك القول فى حال المعاينة فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكون فى أمرهم، وإنما تؤثر هذه الأحوال فى أهل النار لأنهم لا يعلمون كونهم من أهل النار والعقاب، ثم اختلفوا فى أنه كيف يندفع عنهم ضرر النار، فقال بعضهم البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون فى خلالها ما لا نار فيه ويكون من المواضع التى يسلك فيها إلى دركات جهنم، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل فى جهنم فالمؤمنون يكونون فى تلك المواضع الخالية عن النار ، والكفار يكونون فى وسط

النار (وثانيها) أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما «يردونها كأنها إهالة» وعن جابر بن عبد الله «أنه سأل رسول الله ﷺ فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة» (وثالثها) أن حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله برداً وسلاماً عليهم ، كما فى حق إبراهيم عليه السلام . وكما أن الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فكان يصير دماً ويشربه الإسرائيلى فكان يصير ماء عذبا (١) واعلم أنه لابد من أحد هذه الوجوه فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين ، فان قيل إذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم النار فما الفائدة فى ذلك الدخول؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أن ذلك مما يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه (وثانيها) أن فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها (وثالثها) أن فيه مزيد غم على أهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين بل وعند الأولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون اليه (ورابعها) أن المؤمنين إذا كانوا معهم فى النار يبكتونهم فزاد ذلك غماً للكفار وسروراً للمؤمنين (وخامسها) أن المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل فما كانوا يقبلون تلك الدلائل ، فاذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم أنهم كانوا صادقين فيما قالوا ، وأن المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين (وسادسها) أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر : وبضدها تتبين الأشياء

فأما الذين تمسكوا بقوله تعالى (أولئك عنها مبعدون) فقد بينا أنه أحد ما يدل على الدخول فى جهنم وأيضاً فالمراد عن عذابها وكذا قوله (لايسمعون حسيسها) فان قيل هل ثبت بالأخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها إلى الجنة ؟ قلنا ثبت بالأخبار أن المحاسبة تكون فى الأرض أو حيث كانت الأرض ويدل عليه أيضاً قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وجهنم قريبة من الأرض والجنة فى السماء ففى موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع إلى جهنم ثم يرفع الله أهل الجنة وينجيهم ويدفع أهل النار فيها . أما قوله (كان على ربك حتما مقضياً) فالحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى المحتوم بالحتم كقولهم خلق الله وضرب الأسير ، واحتج من أوجب العقاب عقلا فقال إن قوله (كان على ربك حتما مقضياً) يدل على وجوب ما جاء من جهة الوعيد والاخبار لأن كلمة على للوجوب والذى ثبت بمجرد الاخبار لايسمى واجباً (والجواب) أن وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف إليه جرى مجرى الواجب أما قوله (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين) قرئ ننجى وننجى وينجى على مالم يسم فاعله ، قال القاضى الآية دالة على قولنا فى الوعيد لأن الله تعالى بين أن الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق

(١) هذه إحدى الآيات التسع التى كانت عذابا لفرعون وأهله فى مصر وأكرم الله بها نبيه موسى والتى عد منها فى قوله (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) . والمراد بالقبط هنا أتباع فرعون وهم سكان مصر قديماً ،

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا «٧٣»

لا يكون متقياً ، ثم بين تعالى أن من عدا المتقين يذرهم فيها جثياً فثبت أن الفاسق يبقى فى النار أبداً قال ابن عباس المتقى هو الذى اتقى الشرك بقول لا إله إلا الله، واعلم أن الذى قاله ابن عباس هو الحق الذى يشهد الدليل بصحته، وذلك لأن من آمن بالله وبرسله صح أن يقال إنه متق عن الشرك ومن صدق عليه أنه متق عن الشرك صدق عليه أنه متق لأن المتقى جزء من المتقى عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد ، فثبت أن صاحب الكبيرة متق وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم قوله (ثم ننجى الذين اتقوا) فصارت هذه الآية التى توهموها دليلا من أقوى الدلائل على فساد قولهم قال القاضى وتدل الآية أيضاً ، على فساد قول من يقول إن من المكلفين من لا يكون فى الجنة ولا فى النار قلنا هذا ضعيف لأن الآية تدل على أنه تعالى ينجى الذين اتقوا وليس فيها ما يدل على أنه ينجيهم إلى الجنة ، ثم هب أنها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على أن المتقين يكونون فى الجنة والظالمين يبقون فى النار فيبقى ههنا قسم ثالث خارج عن عن القسمين وهو الذى استوت طاعته ومعصيته فتسقط كل واحدة منهما بالأخرى فيبقى لا مطيعاً ولا عاصياً ، فهذا القسم إن بطل فانما يبطل بشىء سوى هذه الآية فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذى ادعاه ومن المعتزلة من تمسك فى الوعيد بقوله (ونذر الظالمين فيها جثياً) ولفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مراراً كثيرة فى هذا الكتاب أما قوله (جثياً) قال صاحب الكشاف قوله (ونذر الظالمين فيها جثياً) دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد نجاتهم وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين .

قوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم أنهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين فى العذاب والذل وأعداءه المعروضين عن خدمته فى العز والراحة ؛ ولما كان الأمر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء ، والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والذل دل على أن الحق ليس مع المؤمنين ، هذا حاصل شبهتهم فى هذا الباب ونظيره قوله تعالى (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا «٧٤»

بالزينة الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم . بقى بحثان :

﴿ الأول ﴾ قوله (آياتنا بينات) يحتمل وجوهاً (أحدها) أنها مرتلات الألفاظ مبينات المعانى إما محكمات أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات أو بتبيين الرسول قولا أو فعلا (وثانيها) أنها ظاهرات الإعجاز تحدى بها فما قدروا على معارضتها (وثالثها) المراد بكونها آيات بينات أى دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض مثل قوله تعالى فى إثبات صحة الحشر (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً)

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ ابن كثير (مقاماً) بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل ، والباقون بالفتح وهو موضع القيام ، والمراد والندى المجلس يقال : ندى وناد ، والجمع الأندية ، ومنه قوله (وتأتون فى ناديكم المنكر) وقال (فليدع ناديه) ويقال ندوت القوم أندوهم إذا جمعتهم فى المجلس ، ومنه دار الندوة بمكة وكانت مجتمع القوم . ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾

وتقرير هذا الجواب أن يقال إن من كان أعظم نعمة منكم فى الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم ، فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيباً لله تعالى لوجب فى حبيب الله أن لا يوصل اليه غماً فى الدنيا ووجب عليه أن لا يهلك أحداً من المنعمين فى دار الدنيا وحيث أهلكهم دل إما على فساد المقدمة الأولى وهى أن من وجد الدنيا كان حبيباً لله تعالى ، أو على فساد المقدمة الثانية وهى أن حبيب الله لا يوصل الله إليه غما ، وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة ، بقى البحث عن تفسير الألفاظ فنقول : أهل كل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم وهم أحسن فى محل النصب صفة لكم ، ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية ، والأثاث متاع البيت .أما رئياً فقرىء على خمسة أوجه لأنها إما أن تقرأ بالراء التى ليس فوقها نقطة ، أو بالزاى التى فوقها نقطة فأما الأول ، فإما أن يجمع بين الهمزة والياء أو يكتفى بالياء ، أما إذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان : (أحدهما) بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت رئياً (والثانى) ريئاً على القلب كقولهم راء فى رأى ، أما إن اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على قلب الهمزة ياء ، والإدغام ، أو من الرى الذى هو النعمة والترفه ، من قولهم ريان من النعيم ، (والثانى) بالياء على حذف الهمزة رأساً ووجهه أن يخفف المقلوب وهو ريئاً بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها ، وأما بالزاى المنقطة من فوق زياً فاشتقاقه من الزى وهو الجمع ،لأن الزى محاسن مجموعة ، والمعنى أحسن من هؤلاء ، والله أعلم .

قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا «٧٥» وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا «٧٦»

قوله تعالى ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا مايوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً . ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً ﴾

إعلم أن هذا الجواب الثانى عن تلك الشبهة وتقريره لنفرض أن هذا الضال المتنعم فى الدنيا قد مد الله فى أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم الى النعمة العظيمة المدة الطويلة ، فلا بد وأن ينتهى الى عذاب فى الدنيا أو عذاب فى الآخرة بعد ذلك سيعلمون أن نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك العذاب فقوله (فسيعلمون من هو شر مكاناً)مذكور فى مقابلة قولهم (خير مقاماً) (وأضعف جنداً) فى مقابلة قولهم (أحسن ندياً) فبين تعالى أنهم وإن ظنوا فى الحال أن منزلتهم أفضل من حيث فضلهم الله تعالى بالمقام والندى فسيعلمون من بعد أن الأمر بالضد من ذلك وأنهم شر مكانا فانه لامكان شر من النار والمناقشة فى الحساب (وأضعف جنداً) فقد كانوا يظنون وهم فى الدنيا أن إجتماعهم ينفع فاذا رأوا أن لاناصر لهم فى الآخرة عرفوا عند ذلك أنهم كانوا فى الدنيا مبطلين فيما ادعوه . بقى البحث عن الألفاظ وهو من وجوه (أحدها) مد له الرحمن أى أمهله وأملى له فى العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك وأنه مفعول لامحالة كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) وكقولهم (إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً) . (وثانيها) أن قوله (إما العذاب وإما الساعة) يدل على أن المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لأن قوله (وإما الساعة) المراد منه يوم القيامة ثم العذاب الذى يحصل قبل يوم القيامة يمكن أن يكون هو عذاب القبر ويمكن أن يكون هو العذاب الذى سيكون عند المعاينة لأنهم عند ذلك يعلمون مايستحقون ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد تغير أحوالهم فى الدنيا من العز إلى الذل ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض ، ومن الأمن إلى الخوف ، ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر ، وكل هذه الوجوه مذكورة ، واعلم أنه تعالى بين بعد ذلك أنه كما يعامل الكفار بما

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا «٧٧» أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا «٧٨»

ذكره فكذلك يزيد المؤمنين المهتدين هدى ، واعلم أنا نبين إمكان ذلك بحسب العقل، فنقول إنه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطاً بالبعض فان حاصل الاهتداء يرجع الى العلم ولا امتناع فى كون بعض العلم مشروطاً بالبعض ، فمن اهتدى بالهداية التى هى الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطى الهداية التى هى المشروط ، فصح قوله (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) مثاله الإيمان هدى والإخلاص فى الإيمان زيادة هدى ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان فمن اهتدى بالايمان زاده الله الهداية بالاخلاص ، هذا إذا أجرينا لفظ الهداية على ظاهره ومن الناس من حمل الزيادة فى الهدى على الثواب أى ويزيد الله الذين اهتدوا ثواباً على ذلك الاهتداء ومنهم من فسر هذه الزيادة بالعبادات المترتبة على الايمان ، قال صاحب الكشاف يزيد معطوف على موضع فليمدد لأنه واقع موقع الخبر وتقديره من كان فى الضلالة يمد له الرحمن مداً ويزيد أى يزيد فى ضلال الضلال بخذلانه بذلك المد ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه، ثم إنه تعالى بين أن ماعليه المهتدون هو الذى ينفع فى العاقبة فقال (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً) وذلك لأن ما عليه المهتدون ضرر قليل متناه يعقبه نفع عظيم غير متناه ، والذى عليه الضالون نفع قليل متناه يعقبه ضرر عظيم غير متناه، وكل أحد يعلم بالضرورة أن الأول أولى ، وبهذا الطريق تسقط الشبهة التى عولوا عليها واختلفوا فى المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون إنها الإيمان والأعمال الصالحة سماها باقية لأن نفعها يدوم ولا يبطل ومنهم من قال المراد بها بعض العبادات ولعلهم ذكروا ما هو أعظم ثواباً فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح وروى عن أبى الدرداء قال : « جلس رسول الله ﷺ ذات يوم وأخذ عودا يابساً فأزال الورق عنه ثم قال : إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا حطاً كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة ، وكان أبو الدرداء يقول لأعلمن ذلك ولأكثرن منه حتى إذا رآنى جاهل حسب أنى مجنون » والقول الأولى أولى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقطع فبعض العبادات وإن كان أنقص ثواباً من البعض فهى مشتركة فى الدوام فهى بأسرها باقية صالحة نظراً إلى آثارها التى هى الثواب ثم إنه تعالى أخبر أنها (خير عند ربك ثواباً وخير مرداً) ولا يجوز أن يقال هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره فالمراد إذن أنها خير مما ظنه الكفار بقولهم (خير مقاماً وأحسن ندياً)

قوله تعالى ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ، أطلع الغيب أم اتخذ عند

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا «٧٩» وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا «٨٠»

الرحمن عهداً ،كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مداً ، ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً) .

إعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين . وأجاب عنها أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعناً فى القول بالحشر فقال (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً) قرأ حمزة والكسائى ولداً وهو جمع ولد كأسد فى أسد أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب ،وعن يحي بن يعمر ولداً بالكسر ، وعن الحسن نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة والمشهور أنها فى العاص بن وائل ، قال خباب بن الأرت كان لى عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد قلت لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ لاحياً ولا ميتاً ولاحين تبعث فقال فانى إذا مت بعثت ؟ قلت نعم قال إنى إذا بعثت وجئتنى فسيكون لى ثم مال وولد فأعطيك ، وقيل صاغ خباب له حلياً فاقتضاه فطلب الأجرة فقال إنكم تزعمون أنكم تبعثون ، وأن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً فأنا أقضيك ثم ، فانى أوتى مالا وولدا حينئذ ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) قال صاحب الكشاف أطلع الغيب من قولهم أطلع الجبل أى ارتقى الى أعلاه ويقال مر مطلعاً لذلك الأمر أى غالباً له مالكا له والاختيار فى هذه الكلمة أن تقول أو قد بلغ من عظم شأنه أنه ارتقى الى علم الغيب الذى توحد به الواحد القهار ، والمعنى أن الذى ادعى أنه يكون حاصلا له لايتوصل اليه إلا بأحد هذين الأمرين ، إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب فبأيهما توصل اليه ؟ وقيل فى العهد كلمة الشهادة عن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول ؟ ثم إنه سبحانه بين من حاله ضد ماادعاه ، فقال (كلا) وهى كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أى هو مخطىء فيما يقوله ويتمناه فان قيل لم قال (سنكتب ما يقول) بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تأخير قال تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قلنا فيه وجهان : (أحدهما) سيظهر له ويعلم أنا كتبنا (الثانى) أن المتوعد يقول للجانى سوف أنتقم منك وإن كان فى الحال فى الانتقام ويكون غرضه من هذا الكلام محض التهديد فكذا ههنا ، أما قوله تعالى (ونمد له من العذاب مداً) أى نطول له من العذاب مايستأهله ونزيده من العذاب ونضاعف له من المدد ويقال مده وأمده بمعنى ويدل عليه قراءة على بن أبى طالب عليه السلام ونمد له بالضم . أما قوله ونرثه ما يقول أى يزول عنه ما وعده من مال وولد فلا يعود كما لا يعود الإرث الى من خلفه وإذا سلب ذلك فى الآخرة يبقى فرداً فلذلك قال (ويأتينا فرداً) فلا يصح أن ينفرد فى الآخرة بمال وولد (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) والله أعلم .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا «٨٢» كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا «٨٣» أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا «٨٤» فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا «٨٥» يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا «٨٦» وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا «٨٧» لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا «٨٨»

قوله تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ، يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ، لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تكلم فى مسألة الحشر والنشر ، تكلم الآن فى الرد على عباد الأصنام فحكى عنهم أنهم إنما اتخذوا آلهة لأنفسهم ليكونوا لهم عزاً ، حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ، ينقذونهم من الهلاك . ثم أجاب الله تعالى بقوله (كلا) وهو ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة ، وقرأ ابن نهيك (كلا سيكفرون بعبادتهم) أى كلهم سيكفرون بعبادة هذه الأوثان وفى محتسب ابن جنى كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه كل هـذا الاعتقاد والرأى كلا ، قال صاحب الكشاف إن صحت هـذه الرواية فهى كلا التى هى للردع قلب الواقف عليها ألفها نوناً كما فى قواريرا واختلفوا فى أن الضمير فى قوله (سيكفرون) يعود إلى المعبود أو إلى العابد فمنهم من قال إنه يعود إلى المعبود ، ثم قال بعضهم أراد بذلك الملائكة لأنهم فى الآخرة يكفرون بعبادتهم ويتبرءون منهم ويخاصمونهم وهو المراد من قوله (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وقال آخرون إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ومن الناس من قال الضمير يرجع إلى العباد أى أن هؤلاء المشركين يوم القيامة ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ثم قال تعالى (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) أما قوله (ويكونون عليهم ضداً) فذكر ذلك فى مقابلة قوله (لهم عزاً) والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أى يكونون عليهم ضداً لما قصدوه وأرادوه كأنه قيل ويكونون عليهم ذلا لهم لا عزاً أو يكونون عليهم عوناً والضد العون ، يقال من أضدادكم أى من أعوانكم وكأن العون يسمى ضداً

لأنه يضاد عدوك وينافيه باعانته لك عليه، فان قيل ولم وحد؟ قلنا وحد توحيد قوله عليه السلام «وهم يد على من سواهم» لاتفاق كلمتهم فانهم كشيء واحد لفرط انتظامهم وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها واعلم أنه تعالى لما ذكر حال هؤلاء الكفار مع الأصنام فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا فانهم يسألونهم وينقادون لهم فقال (إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية على أن الله تعالى مريد لجميع الكائنات فقالوا قول القائل أرسلت فلانا على فلان موضوع فى اللغة لإفادة أنه سلطه عليه لإرادة أن يستولى عليه قال عليه السلام سم الله وأرسل كلبك عليه إذا ثبت هذا فقوله (أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) يفيد أنه تعالى سلطهم عليهم لارادة أن يستولوا عليهم وذلك يفيد المقصود ثم يتأكد هذا بقوله (تؤزهم أزاً) فان معناه إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين لتؤزهم أزاً ويتأكد بقوله (واستفزز من استطعت منهم) قال القاضى حقيقة اللفظ توجب أنه تعالى أرسل الشياطين إلى الكفار كما أرسل الأنبياء بأن حملهم رسالة يؤدونها إليهم فلا يجوز فى تلك الرسالة إلا ما أرسل عليه الشياطين من الاغواء فكان يجب فى الكفار أن يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين وذلك كفر من قائله، ولأن من العجب تعلق المجبرة بذلك لأن عندهم أن ضلال الكفار من قبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر الكفر فلا تأثير لما يكون من الشيطان وإذا بطل حمل اللفظ فى ظاهره فلا بد من التأويل فنحمله على أنه تعالى خلى بين الشياطين وبين الكفار وما منعهم من إغوائهم وهذه التخلية تسمى إرسالا فى سعة اللغة . كما إذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال أرسل كلبه عليه وإن لم يرد أذى الناس، وهذه التخلية وإن كان فيها تشديد للمحنة عليهم فهم متمكنون من أن لا يقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول أعظم والدليل عليه قوله تعالى (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) هذا تمام كلامه ونقول لا نسلم أنه لا يمكن حمله على ظاهره فان قوله ([أرسلنا] الشياطين) لو أرسلهم الله إلى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين، قلنا الله تعالى ما أرسل الشياطين إلى الكفار بل أرسلها عليهم والارسال عليهم هو التسليط لارادة أن يصير مستولياً عليه ، فأين هذا من الإرسال إليهم. قوله ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأى تأثير للشيطان فيه ؟ قلنا لم لا يجوز أن يقال إن إسماع الشيطان إياه تلك الوسوسة يوجب فى قلبه ذلك الضلال بشرط سلامة فهم السامع لأن كلام الشيطان من خلق الله تعالى فيكون ذلك الضلال الحاصل فى قلب الكافر منتسباً إلى الشيطان وإلى الله تعالى من هذين الوجهين ، قوله لم لا يجوز أن يكون المراد بالإرسال التخلية قلنا كما خلى بين الشيطان والكفرة فقد خلى بينهم وبين الأنبياء، ثم إنه تعالى خص الكافر بأنه أرسل الشيطان عليه فلابد من فائدة زائدة ههنا ولأن قوله (تؤزهم أزاً) أى تحركهم تحريكا شديداً كالغرض من ذلك الارسال فوجب أن يكون الأز مراداً

لله تعالى ويحصل المقصود منه فهذا مافى هذا الموضع والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ابن عباس (تؤزهم أزاً) أى تزعجهم فى المعاصى إزعاجاً نزلت فى المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط قال صاحب الكشاف الأز والهز والاستفزاز أخوات فى معنى التهييج وشدة الازعاج أى تغريهم على المعاصى وتحثهم وتهيجهم لها بالوساس والتسويلات أما قوله تعالى (فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً) يقال عجلت عليه بكذا إذا استعجلته به أى لاتعجل عليهم بأن يهلكوا أو يبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم فليس بينك وبين ماتطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، ونظيره قوله تعالى (ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) عن ابن عباس أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد دخول قبرك ، آخر العدد فراق أهلك . وعن ابن السماك رحمه الله أنه كان عند المأمون فقرأها فقال إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ماتنفد . وذكروا فى قوله (نعد لهم عداً) وجهين آخرين (الأول) نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها (والثانى) نعد الأوقات إلى وقت الأجل المعين لكل أحد الذى لايتطرق إليه الزيادة والنقصان، ثم بين سبحانه ماسيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين وبين المجرمين فى كيفية الحشر فقال (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً)قال صاحب الكشاف نصب يوم بمضمر أى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين مالايحيط به الوصف أواذكر يوم نحشر ويجوز أن ينتصب بلا يملكون عن على عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده إن المتقين إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال الذهب » ثم تلا هذه الآية . وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال القاضى هذه الآية أحد مايدل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين لأن المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال ؟ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشبهة احتجوا بالآية وقالوا قوله (إلى الرحمن) يفيد أن انتهاء حركتهم يكون عند الرحمن وأهل التوحيد يقولون المعنى يوم نحشر المتقين إلى محل كرامة الرحمن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ طعن الملحد فيه فقال قوله (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) هذا إنما يستقيم أن لو كان الحاشر غير الرحمن أما إذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم ، أجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين إلى كرامة الرحمن أما قوله (ونسوق المجرمين إلى جهنم) ورداً فقوله (نسوق) يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء ، والورد اسم للعطاش، لأن من يرد الماء لايرده إلا للعطش. وحقيقة الورود السير إلى الماء. فسمي به الواردون أما قوله (لا يملكون الشفاعة) أي فليس لهم والظاهر أن المراد شفاعتهم لغيرهم

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا «٨٩» تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا «٩٠» أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا «٩١» إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا «٩٢» لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا «٩٣» وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا «٩٤»

أو شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا ، وقال بعضهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون وقال بعضهم بل المراد لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم وهذا الثانى أولى لأن حمل الآية على الأول يجرى مجرى إيضاح الواضحات وإذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر لأنه قال عقيبه (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) والتقدير أن هؤلاء لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم إلا إذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهداً التوحيد والنبوة فوجب أن يكون داخلا تحته ومما يؤكد قولنا ماروى ابن مسعود أنه عليه السلام قال لأصحابه ذات يوم «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً؟ قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك فانك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتبعدنى من الخير وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة» فظهر بهذا الحديث أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه دلالة الآية على أن الشفاعة لأهل الكبائر وقال القاضى الآية دالة على مذهبه وقد ظهر أن الآية قوية فى الدلالة على قولنا والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولداً (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) وقالت العرب الملائكة بنات الله والكل داخلون فى هذه الآية ومنهم من خصها بالعرب الذين أثبتوا أن الملائكة بنات الله قالوا لأن الرد على النصارى تقدم فى أول السورة أما الآن فانه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الأوثان تكلم فى إفساد

قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله أما قوله (لقد جئتم شيئاً إداً) فقرىء إداً بالكسر والفتح قال ابن خالويه الإد والأد العجب وقيل المنكر العظيم والأدة الشدة وأدنى الأمر وآدنى أثقلنى. قرىء يتفطرن بالتاء بعد الياء أعنى المعجمة من تحتها واختلفوا فى يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق، والانفطار من فطره إذا شقه والتفطر من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله (وتخر الجبال هداً) أى تهد هداً أو مهدودة أو مفعول له أى لأنها تهد والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تساقط البعض على البعض، فان قيل من أين يؤثر القول باثبات الولد لله تعالى فى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أن الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً منى على من تفوه بها لولا حلمى وأنى لا أعجل بالعقوبة كما قال (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً) (وثانيها) أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويراً لأثرها فى الدين وهدمها لأركانه وقواعده (وثالثها) أن السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول وهذا تأويل أبى مسلم (ورابعها) أن السموات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها أما قوله (أن دعوا للرحمن ولداً) ففيه مسائل:

(المسألة الأولى) فى إعرابه ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مجروراً بدلا من الهاء فى منه أو منصوباً بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل أى هذا لأن دعوا أو مرفوعا بأنه فاعل (هداً) أى هدها دعاء الولد للرحمن، والحاصل أنه تعالى بين أن سبب تلك الأمور العظيمة هذا القول.

(المسألة الثانية) إنما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيهاً على أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل أن أصول النعم وفروعها ليست إلا منه.

(المسألة الثالثة) قوله (دعوا للرحمن) هو من دعا بمعنى سمى المتعدى إلى مفعولين فاقتصر على أحدهما الذى هو الثانى طلباً للعموم والإحاطة بكل من ادعى له ولداً أو من دعا بمعنى نسب الذى هو مطاوعه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم «من ادعى إلى غير مواليه». قال الشاعر:

إنا بنى نهشل لا ندعى لأب

أى لا ننتسب إليه، ثم قال تعالى (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً) أى هو محال، أما الولادة المعروفة فلا مقال فى امتناعها، وأما التبنى فلأن الولد لابد وأن يكون شبيهاً بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح فى الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، ثم قال (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) والمراد أنه ما من معبود لهم فى السموات والأرض من الملائكة والناس إلا وهو يأتى

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا «٩٦» فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا «٩٧» وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا «٩٨»

الرحمن أى يأوى اليه ويلتجىء إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد ، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والأول أولى لأنه لاتخصيص فيه وقوله (لقد أحصاهم وعدهم عداً) أى كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم ، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لايفوته شىء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم .

قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً . فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المؤمنين وتنذر به قوماً لداً . وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما رد على أصناف الكفرة وبالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) وللمفسرين فى قوله (وداً) قولان (الأول) وهو قول الجمهور أنه تعالى سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التى يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصاً لأوليائه بهذه الكرامة كما قذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالا لمكانهم ، والسين فى سيجعل إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا جاء الإسلام ، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم ،عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل قد أحببت فلانا فأحبوه فينادى جبريل عليه السلام بذلك فى السماء والأرض وإذا أبغض عبداً فمثل ذلك » وعن كعب قال : مكتوب فى التوراة والإنجيل لامحبة لأحد فى الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ، ثم على أهل الأرض وتصديق ذلك فى القرآن قوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) . (القول الثانى) وهو اختيار أبى مسلم معنى (سيجعل لهم الرحمن وداً) أى يهب لهم مايحبون والود والمحبة سواء يقال آتيت فلاناً محبته ، وجعل لهم مايحبون ، وجعلت له وده ، ومن كلامهم يود لو كان كذا . ووددت أن

لو كان كذا أى أحببت ، ومعناه سيعطيهم الرحمن وِدهم أى محبوبهم فى الجنة (والقول الأول) أولى لأن حمل المحبة على المحبوب مجاز ، ولأنا ذكرنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكان ذلك أولى، وقال أبو مسلم بل القول الثانى أولى لوجوه (أحدها) كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين ، (وثانيها) أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين (وثالثها) أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم لا أن الله تعالى فعله فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى (والجواب) عن الأول أن المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والأنبياء ، وروى عنه عليه السلام أنه حكى عن ربه عز وجل أنه قال « إذا ذكرنى عبدى المؤمن فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ أطيب منهم وأفضل » وهذا هو (الجواب) عن الكلام الثانى لأن الكافر والفاسق ليس كذلك (والجواب) عن الثالث أنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامه فى قلوبهم ، أما قوله تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين) فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين فبين تعالى أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم، فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وإنذار من خرج منهم فبين ، لكنه تعالى لما ذكر أنه يبشر به المتقين ذكر فى مقابلته من هو فى مخالفة التقوى أبلغ وأبلغهم الألد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويتشدد وهو معنى لداً ، ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضاً سوء العاقبة فى الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصى أقرب ، ثم أكد تعالى فى ذلك فقال (هل تحس منهم من أحد) لأن الرسول عليه السلام إذا لم يحس منهم أحداً برؤية أو إدراك أو وجدان (ولا يسمع لهم ركزاً) وهو الصوت الخفى ، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض والركاز المال المدفون دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية ، والأقرب فى قوله (أهلكنا) أن المراد به الانقراض بالموت وإن كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل فى الدنيا ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(راجع هذا الجزء على أصله فى النسخة الأميرية وصححه وعلق عليه الاستاذ محمد اسماعيل الصاوى الشهير بعبدالله مدرس اللغة العربية بالمدارس المصرية تداركه الله بلطفه وعامله بجميل كرمه)

﴿ تم الجزء الحادى والعشرون ويليه الجزء الثانى والعشرون ، وأوله سورة طه ﴾

فهرست

الجزء الحادى والعشرون من التفسير الكبير للامام الفخر الرازى

التفسير الكبير

للإمام

الفخر الرازي

الجزء الثاني والعشرون

﴿ سورة طه ﴾

﴿ وهى مائة وثلاثون وخمس آيات ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

طه «١» ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى «٢» إلا تذكرة لمن يخشى «٣» تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى «٤» الرحمن على العرش استوى «٥» له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى «٦» وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى «٧» الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى «٨»

﴿ سورة طه ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ .

اعلم أن قوله (طه) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرىء طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلأن ما قبل الألف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لأن الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة إلى الكسرة :

﴿ المسألة الثانية ﴾ للمفسرين فيه قولان : (أحدهما) أنه من حروف التهجى والآخر أنه كلمة مفيدة ، أما على القول الأول فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زادوه ههنا أمور :

(أحدها) قال الثعلبى طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق عليه السلام الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للأمة وياهادى الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هوافتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل ياطاهراً من الذنوب وياهادياً الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم فى قلوب الكفار قال الله تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الأقوال لايجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال إنها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين : أحدهما معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم :

إن السفاهة طه فى خلائقكم لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين : (الأول) أنه بمعنى يا رجل فى اللغة حمل عليه لكنه لايجوز إن ثبت على هذا المعنى إلا فى لغة العرب إذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التى حكيناها ، فأما على غير هذا الوجه فلايحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف إن كان طه فى لغة عك بمعنى يارجل فلعلهم تصرفوا فى يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقالوا لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طا ها (وثانيهما) أنه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً وكان الأصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك فى إياك وهرقت فى أرقت ويجوز أن يكون الأصل من وطىء على ترك الهمزة فيكون أصله طأ يارجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ، أما قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف إن جعلت طه تعديداً لأسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وإن جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) خبراً عنها وهى فى موضع المبتدأ والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (مانزل عليك القرآن لتشقى) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى سبب نزول الآية وجوهاً : (أحدها) قال مقاتل إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله ﷺ إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام « بل بعثت رحمة للعالمين » قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى

هذه الآية رداً عليهم وتعريفاً لمحمد ﷺ بأن دين الاسلام هو السلام وهـذا القرآن هو السلام إلى نيل كل فوز والسبب فى إدراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام «أبق على نفسك فان لها عليك حقاً» أى ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وروى أيضاً أنه عليه السلام «كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام» وقال بعضهم كان يقوم على رجل واحدة ، وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله (لتشقى) ذلك ، قال القاضى هذا بعيد لأنه عليه السلام إن فعل شيئاً من ذلك فلابد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى ، وإذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء فانا إنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به ، فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك إلا البلاغ وهو كقوله تعالى (لعلك باخع نفسك) الآية (ولا يحزنك قولهم) (ورابعها) أنك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى (لست عليهم بمسيطر ، وما أنت عليهم بوكيل) أى ليس عليك كفرهم إذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) أن هـذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفى ذلك الوقت كان عليه السلام مقهوراً تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة أبداً بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقياً فيما بينهم بل تصير معظماً مكرماً . وأما قوله تعالى (إلا تذكرة لمن يخشى) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى كلمة إلا ههنا قولان (أحدهما) أنه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثانى) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة كما يقال ما شافهناك بهذا الكلام لتتأذى إلا ليعتبر بك غيرك .

﴿المسألة الثانية﴾ إنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم المنتفعون بها وإن كان ذلك عاما فى الجميع وهو كقوله (هدى للمتقين) وقال سبحانه وتعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقال (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وقال (وتنذر به قوماً لداً) وقال (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) .

﴿المسألة الثالثة﴾ وجه كون القرآن تذكرة أنه عليه السلام كان يعظهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول ﷺ لأنه فى الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل . وأما قوله تعالى (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا فى نصب تنزيلا وجوهاً (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الأرض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلنا لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة أنزلناه

تذكرة (وثالثها) أن ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينصب بيخشى مفعولا به أى أنزله الله تعالى (تذكرة لمن يخشى) تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور (أحدها) أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة (وثانيها) أنه قال أولا أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه إلى أنه تنزيل ممن خلق الأرض وخلق السموات على علوها وإنما قال ذلك لأن تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وإنما عظم القرآن ترغيباً فى تدبره والتأمل فى معانيه وحقائقه وذلك معتاد فى الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل إليه أقرب إلى الامتثال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها أما قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ الرحمن مجروراً صفة لمن خلق والرفع أحسن لأنه إما أن يكون رفعاً على المدح والتقدير هو الرحمن وإما أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق فان قيل الجملة التى هى على العرش استوى ما محلها إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح ؟ قلنا إذا جررت فهو خبر مبتدأ محذوف لاغير وإن رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشبهة تعلقت بهذه الآية فى أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنياً عنه فهو بالصفة التى لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) أن الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفاً مركباً وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكناً من الإنتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فان كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثاً لا محالة وإن كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن إذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو أن معبودهم إما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لايقوله عاقل ، وإن حصل فى مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه

بذلك المكان فيكون محتاجاً وهو على الله محال (وخامسها) أن قوله (ليس كمثله شيء) يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شيء إلا فى الجلوس وإلا فى المقدار وإلا فى اللون وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الأمور تحته ، فلو كان جالساً لحصل من يماثله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لأن الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) أنه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان إلهاً فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليس بإله لأن طريقنا إلى نفى إلهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثاً ولم يكن إلهاً فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى إلهية الشمس والقمر (وثامنها) أن العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة إلينا هى تحت بالنسبة إلى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس ، فلو كان المعبود مختصاً بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين ، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء (وتاسعها) أجمعت الأمة على أن قوله (قل هو الله أحد) من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصاً بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ما على يمينه غير الجانب الذى منه يلى ما على يساره فيكون مركباً منقسما فلا يكون أحداً فى الحقيقة فيبطل قوله (قل هو الله أحد) (وعاشرها) أن الخليل عليه السلام قال (لا أحب الآفلين) ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبداً غائباً أبداً فكان يندرج تحت قوله (لا أحب الآفلين) فثبت بهذه الدلائل أن الإستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الأول) أنا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالى عن بعض أصحاب الإمام أحمد بن حنبل أنه أول ثلاثة من الأخبار : قوله عليه السلام « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » وقوله عليه السلام « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وقوله عليه السلام « إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » واعلم أن هذا القول ضعيف لوجهين (الأول) أنه إن قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الإستواء الجلوس وهذا هو التأويل ، وإن لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقى شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى ، اللهم إلا أن يقول أنا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى مايشعر به ظاهره بل مراده به شيء آخر ولكنى لا أعين ذلك المراد خوفاً من الخطأ فهذا يكون قريباً ، وهو أيضاً ضعيف لأنه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ إلا موضوعه فى لسان العرب وإذا كان لا معنى للاستواء فى اللغة إلا الإستقرار والإستيلاء وقد تعذر حمله على الإستقرار فوجب حمله على الإستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وإنه غير جائز (والثانى) وهو دلالة قاطعة على أنه لابد من المصير إلى التأويل وهو أن

الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار ، فإما أن نعمل بكل واحد من الدليلين ، وإما أن نتركهما معا ، وإما أن نرجح النقل على العقل ، وإما أن نرجح العقل ونؤول النقل . والأول باطل وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد منزهاً عن المكان وحاصلا فى المكان وهو محال (والثانى) أيضاً محال لأنه يلزم رفع النقيضين معاً وهو باطل (والثالث) باطل لأن العقل أصل النقل فانه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح فى العقل يقتضى القدح فى العقل والنقل معاً ، فلم يبق إلا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع فى المقصود إذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الإستواء الإستيلاء قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

فان قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) أن الإستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك فى حق الله تعالى محال (وثانيها) أنه إنما يقال فلان استولى على كذا إذا كان له منازع ينازعه ، وكان المستولى عليه موجوداً قبل ذلك ، وهذا فى حق الله تعالى محال ، لأن العرش إنما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة (والجواب) أنا إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية ، قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش ، وهو سرير الملك لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد وبخيل لافرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لأنه لافرق عندهم بينه وبين قوله جواد ، ومنه قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) أى هو بخيل (بل يداه مبسوطتان) أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة والتمحل بالتسمية من ضيق العطن . وأقول : إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله (فاخلع نعليك) الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل ، وقوله (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) المراد منه تخليص إبراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة ، وكذا القول فى كل ما ورد فى كتاب الله تعالى ، بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه ، وليت من لم يعرف شيئاً لم يخض فيه ، فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ، ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق . أما قوله تعالى (له مافى السموات ومافى الأرض وما

بينهما وما تحت الثرى) فاعلم أنه سبحانه لما شرح ملكه بقوله (الرحمن على العرش استوى) والملك لا ينتظم إلا بالقدرة والعلم ، لاجرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم . أما القدرة فهى هذه الآية والمراد أنه سبحانه مالك لهذه الأقسام الأربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ، ومالك لما فى الأرض من المعادن والفلزات (١) ومالك لما بينهما من الهواء ، ومالك لما تحت الثرى ، فان قيل الثرى هو السطح الأخير من العالم فلا يكون تحته شيء فكيف يكون الله مالكا له ، قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شيء وهو إما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات ، أما العلم فقوله تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وفيه قولان (أحدهما) أن قوله (وأخفى) بناء المبالغة ، وعلى هذا القول نقول إنه تعالى قسم الأشياء إلى ثلاثة أقسام : الجهر ، والسر . والأخفى . فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به ، وقد يسر فى النفس وإن ظهر البعض ، وقد يسر ولا يظهر على ماقال بعضهم . ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى ماليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذى لايسمع وما هو أخفى منه فكيف لايعلم الجهر ، والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة ، والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلى هذا الوجه ينبغى أن يحمل السر والأخفى على مافيه ثواب أو عقاب ، والسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الأمور التى عزم عليها ، والأخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ، ويحتمل مالم يقع فى سره بعد فيكون أخفى من السر ، ويحتمل أيضاً ماسيكون من قبل الله تعالى من الأمور التى لم تظهر ، وإن كان الأقرب ماقدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) أن أخفى فعل يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه) فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط ؟ قلنا معناه إن تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره ، فاعلم أنه غنى عن جهرك ، وإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله (واذكر ربك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) وإما تعليما للعباد أن الجهر ليس لاستماع الله تعالى ، وإنما هو لغرض آخر ، واعلم أن الله تعالى لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات فى كل الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير ، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفا بالحدوث أو الإمكان والعبد لايشارك الرب إلا فى السدس الأول (٢) وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان لخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ، ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة

---

(١) فى الأصل الأميرى : والفلوات جمع فلاة وهى الخلاء والفضاء فى الأرض كالصحاري لانبات بها . وهى محرفة عن الفلزات ؛ وهى جواهر الأرض وعناصرها المكونة منها .

(٢) بنى الفخر الرازي هذه القسمة السداسية من تقسيمه السابق للأشياء إلى ثلاثة أقسام الجهر والسر والأخفى .

العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الأنبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم فى علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات فى إدراكاتها وشعوراتها والاهتداء إلى مصالحها فى أغذيتها ومضارها ومنافعها ، والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ، ثم إنك بتلك الذرة عرفت أسرار إلهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة ، فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الأسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف ، أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك ؟ فهذا تحقيق قوله (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) بل الحق أن الدينار بتمامه له ، لأن الذى علمته فانما علمته بتعليمه على ماقال (أنزله بعلمه) وقال (ألا يعلم من خلق) ولهذا مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئاً ، ولا ينتقص البتة من ضوئها شيء ، فكذا ههنا فكيف لايكون عالما بالسر والأخفى ، فان من تدبيراته فى خلق الأشجار وأنواع النبات أنها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة فى الأرض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء إلى الأغصان ومنها إلى العروق ومنها إلى الأوراق ، ثم إنه تعالى جعل عروقها كالأطناب التى بها يمكن ضرب الخيام . وكما أنه لابد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة ، كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ، ثم لو نظرت إلى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها إلى كل جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعاً ، وهى شبه العروق المخلوقة فى بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ، ثم انظر إلى الأشجار فإن أحسنها فى المنظر الدلب والخلاف ، ولا حاصل لهما ، وأقبحها شجرة التين والعنب ، و [لكن] انظر إلى منفعتهما ، فهذه الأشياء وأشباهها تظهر أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

أما قوله تعالى (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) فالكلام فيه على قسمين (الأول) فى التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتى إن شاء الله فى تفسير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإنما ذكره ههنا ليبين أن الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذى تقدم واحد لاشريك له ، وهو الذى يستحق العبادة دون غيره ، ولنذكر ههنا نكتاً متعلقة بهذا الباب وهى أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أن مراتب التوحيد أربع (أحدها) الإقرار باللسان (والثانى) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغموراً فى بحر التوحيد بحيث لايدور فى خاطره شيء غير عرفان الأحد الصمد (أما الإقرار باللسان) فان وجد خالياً عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق (وأما الاعتقاد) بالقلب إذا وجد خالياً عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الأولى) أن من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل أن يمضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم إنه لا يتم إيمانه والحق أنه يتم لأنه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطباً ، ورأيت فى [بعض] الكتب أن ملك الموت

مكتوب على جبهته لا إله إلا الله لكى إذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) أن من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه ، قال الشيخ الغزالى يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود فى القلب كان امتناعه من التلفظ جارياً مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار ، وقد قال عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان ؟ وقال آخرون : الإيمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم أن الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف فى صحة إيمانه مشهور (أما المقام الثالث) وهو إثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا فى تفسير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أنه يمكن إثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك (أما المقام الرابع) وهو الفناء فى بحر التوحيد فقال المحققون : العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن فى جميع صفات هى من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه الى الواحد القهار ، ثم وقوف هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السائرين إلى الله تعالى .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى الأخبار الواردة فى التهليل (أولها) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أفضل الذكر لاإله إلا الله ، وأفضل الدعاء : أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . (وثانيها) قال عليه السلام « إن الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل أن خلق السموات والأرض وهو يقول أشهد أن لاإله إلا الله ماداً بها صوته لايقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها ، فاذا أتمها أمر إسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل » (وثالثها) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال عليه السلام « مازلت أشفع إلى ربى ويشفعنى وأشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا إله إلا الله قال يامحمد هذه ليست لك ولا لأحد وعزتى وجلالى لا أدع أحداً فى النار قال لا إله إلا الله » . (وثانيها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته ، يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله (وخامسها) أن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قام فى السوق فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب له الله ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتاً فى الجنة » .

﴿ البحث الثالث ﴾ فى النكت (أحدها) ينبغى لأهل لا إله إلا الله أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله : التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية ، فمن ليس له التصديق فهو

منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) إنه لا إله إلا الله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) لا إله إلا الله (وتواصوا بالحق) لا إله إلا الله (قل إنما أعظكم بواحدة) لا إله إلا الله (وقفوهم إنهم مسئولون) عن قول لا إله إلا الله (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) هو لا إله إلا الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) هو لا إله إلا الله (ويضل الله الظالمين) عن قول لا إله إلا الله (وثالثها) أن موسى بن عمران عليه السلام قال « يارب علمنى شيئاً أذكرك به قال قل لا إله إلا الله قال كل عبادك يقولون لا إله إلا الله ! فقال قل لا إله إلا الله قال إنما أردت شيئاً تخصنى به ! قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله » .

﴿ البحث الرابع ﴾ فى إعرابه قالوا كلمة لا ههنا دخلت على الماهية ، فانتفت الماهية ، وإذا انتفت الماهية انتفت كل أفراد الماهية . وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة إذ لو كان اسم معنى لكان كلها محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد ، فقالوا لا استحقت عمل أن لمشابهتها لها من وجهين (أحدهما) ملازمة الأسماء ، والآخر تناقضهما فان أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفى ، ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر فى الحكم ، إذا ثبت هذا فنقول لما قالوا إن زيداً ذاهب كان يجب أن يقولوا لا رجلا ذاهب إلا أنهم بنوا لا مع ما دخل عليه من الاسم المفرد على الفتح ، أما البناء فلشدة اتصال حرف النفى بما دخل عليه كأنهما صارا اسماً واحداً ، وأما الفتح فلأنهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقاً بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثانى) خبره محذوف . والأصل لا إله فى الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على أن الوجود زائد على الماهية .

﴿ البحث الخامس ﴾ قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب ما لم يضف إلى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت (وجوابه) أنه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لاجرم قدم عليه (القسم الثانى) من الكلام فى الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال عليه السلام « إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس أنا جعلت لكم نسباً وأنتم جعلتم لأنفسكم نسباً ، أنا جعلت أكرمكم عندى أتقاكم وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبى وأضع نسبكم ، أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! » واعلم أن الأشياء فى قسمة العقول على ثلاثة أقسام : كامل لا يحتمل النقصان ، وناقص لا يحتمل الكمال ، وثالث يقبل الأمرين ، أما الكامل الذى لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك فى حقه بالوجوب الذاتى وبعده الملائكة فان من كمالهم أنهم (لا يعصون الله ما أمرهم) ومن صفاتهم (أنهم عباد مكرمون) ومن

صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وأما الناقص الذى لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم ، وأما الذى يقبل الأمرين جميعاً فهو الانسان تارة يكون فى الترقى بحيث يخبر عنه بأنه (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وتارة فى التسفل بحيث يقال (ثم رددناه أسفل سافلين) وإذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته ، وما لا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفاً بالكمال إلى أن يصير منتسباً إلى الكامل لذاته . لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لايكون يعرض للزوال . أما الذى يكون يعرض للزوال ، فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال ، وأما الذى لايكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الإلهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لاتقبل الزوال ، والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لايقبل الخروج عن صفة الكمال . ثم إذا كنت من بلد أو منتسباً إلى قبيلة فانك لاتزال نبالغ فى مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضى فلأن تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتى كان أولى فلهذا قال (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى تقسيم أسماء الله تعالى . اعلم أن اسم كل شىء ، إما أن يكون واقعاً عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الأمور الخارجة عن ذاته (أما القسم الأول) فقد اختلفوا فى أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسألة مبنية على أن حقيقة الله تعالى هل هى معلومة للبشر أم لا ؟ فمن قال إنها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم ، لأن المقصود من الاسم أن يشار به إلى المسمى وإذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت الاشارة العقلية اليها ، فامتنع وضع الاسم لها ، وقد تكلمنا فى تحقيق ذلك فى تفسير اسم الله ، وأما الإسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لأنه ليس لذاته شىء من الأجزاء لأن كل مركب ممكن وواجب الوجود لا يكون ممكناً فلا يكون مركباً ، وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته ، فالصفات إما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية إضافية أو سلبية أو ثبوتية مع إضافية أو ثبوتية مع سلبية أو إضافية مع سلبية أو ثبوتية وإضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية ، وكذا السلوب غير متناهية ، أمكن أن يكون للبارى تعالى أسماء متباينة لامترادفة غير متناهية . فهذا هو التنبيه على المأخذ .

﴿ البحث الثالث ﴾ يقال إن لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لايعلمها إلا الله تعالى وألف لايعلمها إلا الله والملائكة وألف لايعلمها الا الله والملائكة والأنبياء ، وأما الألف الرابع فان المؤمنين يعلمونها فثلثمائة منها فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة .

﴿ البحث الرابع ﴾ الأسماء الواردة فى القرآن منها ماليس بانفراده ثناء ومدحاً ، كقوله جاعل

وفالق وخالق فاذا قيل (فالق الأصباح وجاعل الليل سكناً) صار مدحا ، وأما الاسم الذى يكون مدحا فمنه ما إذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم أو الحى الذى لايموت كان أبلغ وأيضاً قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والأرض ازداد المدح.ومن هذا الباب ماكان اسم مدح ولكن لا يجوز إفراده كقولك : دليل . وكاشف فاذا قيل يا دليل المتحيرين ، ويا كاشف الضر والبلوى جاز ، ومنه ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً كقولنا الرحمن الرحيم .

﴿ البحث الخامس ﴾ من الأسماء ما يكون مقارنتها أحسن كقولك الأول الآخر المبدىء المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى فى حكاية قول المسيح (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) وبقية الأبحاث قد تقدمت فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿ البحث السادس ﴾ فى النكت [أولها] رأى بشر الحافى كاغداً مكتوبا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى فى النوم قائلا يقول : يابشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك فى الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى) وليس حسن الأسماء لذواتها لأنها ألفاظ وأصوات بل حسنها لحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسناً يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم إنما كانت حسناء لأنها دالة على معنى الإحسان ، وروى أن حكيما ذهب اليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن أنت حسن والحسن لايليق به الفعل القبيح ، وقال للآخر أنت قبيح والقبيح إذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه .فنقول إلهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلاتظهر لنا من تلك الأسماء الحسنة والصفات الحسنة إلا الاحسان،إلهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا نضم إليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام « اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » إلهنا حسن الوجه عرضى أما حسن الصفات والأسماء فذاتى فلا تردنا عن إحسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر أن صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها الماء وقالت إنها ماوقعت فى الشبكة إلا لغفلتها، إلهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى فى البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها وألقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الأسماء خمسة فى الفاتحة ،وهى الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الإلهية وهى إشارة إلى القهارية والعظمة فعلم أن الأرواح لاتطيق ذلك القهر والعلو فذكر بعده أربعة أسماء تدل على اللطف،الرب وهو يدل على التربية والمعتاد أن من ربى أحداً فانه لايهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية فى اللطف والرأفة ثم ختم الأمر بالملك والملك العظيم لاينتقم من الضعيف العاجز ولأن عائشة قالت لعلى عليه السلام «ملكت فأسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء» (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظى قال موسى عليه السلام «إلهى أى خلقك أكرم عليك؟ قال

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى «٩» إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى «١٠» فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى «١١» إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى «١٢»

الذى لايزال لسانه رطباً من ذكرى ، قال فأى خلقك أعلم ؟ قال الذى يلتمس إلى علمه علم غيره ، قال فأى خلقك أعدل ؟ قال الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس ، قال فأى خلقك أعظم جرما ؟ قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لايرضى بما قضيته له » إلهنا إنا لانتهمك فإنا نعلم أن كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن إذا كان يوم القيامة نادى منادسيعلم الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟فيقومون فيتخطون رقاب الناس، ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ ثم ينادى مناد أين الحامدون الله على كل حال ؟ ثم تكون التبعة والحساب على من بقى إلهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك . ومن أراد الاستقصاء فى الأسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات فى الأسماء والصفات وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿ وهل أتاك حديث موسى ، اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه اتبع ذلك بما يقوى قلب رسول ﷺ من ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام تقويه لقلبه فى الابلاغ كقوله (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك) وبدأ بموسى عليه السلام لأن المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلى قلب الرسول ﷺ بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال (وهل أتاك حديث موسى) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وهل أتاك) يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام فقال (وهل أتاك) أى لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له ، وهذا قول الكلبى . ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك فى الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك ، وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وهل أتاك) وإن كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله

تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه ، وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا ؟ فيتطلع السامع الى معرفة مايرمى إليه ، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبى عليه السلام لا من قبل الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إذ رأى ناراً) أى هل أتاك حديثه حين رأى ناراً قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيباً فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيئاً ، فبينا هو مزاولة ذلك إذ نظر ناراً من بعيد عن يسار الطريق . قال السدى ظن أنها نار من نيران الرعاة وقال آخرون إنه عليه السلام رآها فى شجرة وليس فى لفظ القرآن مايدل على ذلك ، واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن ناراً بل تخيله ناراً والصحيح أنه رأى ناراً ليكون صادقا فى خبره إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء قيل النار أربعة أقسام : نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ، ونار تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر لقوله تعالى (جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ، ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضاً النار على أربعة أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام . (وثانيها) حرقة بلا نور وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لا حرقة ولا نور وهى نار الأشجار . فلما أبصر النار توجه نحوها (فقال لأهله امكثوا) فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الأهل فان الأهل يقع على الجمع ، وأيضاً فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما أى أقيموا فى مكانكم (إنى آنست ناراً) أى أبصرت . والايناس الابصار البين الذى لا شبهة فيه ومنه إنسان العين فانه يبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو أيضا مايؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان منتفياً حقيقة لهم أتى بكلمة إنى لتوطين أنفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلى آتيكم) ولم يقطع فيقول إنى آتيكم لئلا يعد مالم يتيقن الوفاء به . والنكتة فيه أن قوماً قالوا كذب إبراهيم للمصلحة وهو محال لأن موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول إنى آتيكم لئلا يعد مالم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة فى رأس عود أو فتيلة أو غيرهما (أو أجد على النار هدى) والهدى مايهتدى به وهو إسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدى به من دليل أو علامة ، ومعنى الإستعلاء على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها (فلما أتاها) أى أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة

تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيما ، قال وهب فظن موسى عليه السلام أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره إلى فرعها فاذا خضرته ساطعة فى السماء وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكل عنه الأبصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودى ياموسى قال القاضى الذى يروى من أن الزند ماكان يورى فهذا جائز وأما الذى يروى من أن النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك وإلا فهو ممتنع إلا أن يكون معجزة لغيره من الأنبياء عليهم السلام وفى قوله (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) دلالة على أن فى هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبياً ، وعلى هذا الوجه يبعد ماذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى (فلما أتاها نودى يا موسى) وإن كانت تتأخر عنه حالا بعد حال لما صح ذلك ولما بقى لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضى إنما بنى هذا الاعتراض على مذهبه فى أن الإرهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لأن تخلل الزمان القليل فيما بين المجىء والنداء لايقدح فى فاء التعقيب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير (أنى) بالفتح أى نودى بأنى أنا ربك والباقون بالكسر أى نودى فقيل ياموسى أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الأشعرى إن الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت ، وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا إنه سبحانه خلق ذلك النداء فى جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها لأن النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله ، وأما أهل السنة من أهل ماوراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم زعموا أن الذى سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى فى الشجرة واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث قالوا إنه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلفوا فى أن موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادى هو الله تعالى فقال أصحابنا يجوز أن يخلق الله تعالى له علماً ضرورياً بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضرورى فغير جائز لأنه لو حصل العلم الضرورى بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضرورى بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوماً له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفاً لأن حصول العلم الضرورى ينافى التكليف ، وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا فى ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال نعلم قطعاً أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولاحاجة بنا إلى أن نعرف ذلك المعجز ماهو (وثانيها) يروى أن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة إلى السماء وسمع تسبيح الملائكة

وضع يديه على عينيه فنودى ياموسى ؟ فقال لبيك إنى أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت ؟ قال أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك منك. ثم إن إبليس أخطر بباله هذا الشك وقال مايدريك أنك تسمع كلام الله ؟ فقال لأنى أسمعه من فوقى ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى كما أسمعه من قدامى ، فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين . ومعنى إطلاقه هذه الجهات أنى أسمعه بجميع أجزائى وأبعاضى حتى كأن كل جارحة منى صارت أذناً (وثالثها) لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزاً (ورابعها) أنه رأى النار فى الشجرة الخضراء بحيث أن تلك الخضرة ماكانت تطفىء تلك النار وتلك النار ماكانت تضر تلك الخضرة ، وهذا لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه .

﴿المسألة السابعة﴾ قالوا إن تكرير الضمير فى (إنى أنا ربك) كان لتوكيد الدلالة وإزالة الشبهة.

﴿المسألة الثامنة﴾ ذكروا فى قوله (فاخلع نعليك) وجوها (أحدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس ولذلك قال عقيبه (إنك بالوادى المقدس طوى) وهذا قول على عليه السلام وقول مقاتل والكلبى والضحاك وقتادة والسدى (والثانى) إنما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادى وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها إلا حافياً ليكون معظماً لها وخاضعاً عند سماع كلام ربه ، والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه (إنك بالوادى المقدس طوى) وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى : اخلع نعليك لأنك بالوادى المقدس طوى . وأما أهل الإشارة فقد ذكروا فيها وجوهاً (أحدها) أن النعل فى النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله (اخلع نعليك) إشارة الى أن لا يلتفت خاطره الى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة كأنه أمره بأن يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره إلى ماسوى الله تعالى والمراد من الوادى المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعنى أنك لما وصلت إلى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) أن الإنسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل إليه إلا بمقدمتين مثل أن يقول العالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان تشبهان النعلين لأن بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر فى الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول إلى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتاً إلى تينك المقدمتين لأن بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروماً عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت إلى الوادى المقدس الذى هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته .

﴿المسألة التاسعة﴾ استدلت المعتزلة بقوله (اخلع نعليك) على أن كلام الله تعالى ليس بقديم إذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود موسى اخلع نعليك ياموسى ومعلوم أن ذلك سفه فان

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى «١٣» إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي «١٤»

الرجل فى الدار الخالية إذا قال يازيد افعل وياعمرو لا تفعل مع أن زيداً وعمراً لا يكونان حاضرين يعد ذلك جنوناً وسفهاً فكيف يليق ذلك بالإله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين : (الأول) أن كلامه تعالى وإن كان قديماً إلا أنه فى الأزل لم يكن أمراً ولا نهياً (والثانى) أنه كان أمراً بمعنى أنه وجد فى الأزل شىء لما استمر الى ما لايزال صار الشخص به مأموراً من غير وقوع التغير فى ذلك الشىء كما أن القدرة تقتضى صحة الفعل ثم إنها كانت موجودة فى الأزل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى ما لايزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ليس فى الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف فى النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لأنا إن عللنا الأمر بخلع النعلين بتعظيم الوادى وتعظيم كلام الله كان الأمر مقصوراً على تلك الصورة ، وإن عللناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز أن يكون قد كان محظوراً لبس جلد الحمار الميت وإن كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام « أيما إهاب دبغ فقد طهر » وقد صلى النبى ﷺ فى نعليه ثم خلعهما فى الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال : « ما لكم خلعتم نعالكم » قالوا : خلعت فخلعنا قال : « فان جبريل أخبرنى أن فيهما قذراً » فلم يكره النبى ﷺ الصلاة فى النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه إنما خلعهما لما فيهما من القذر .

﴿ المسألة الحادية عشر ﴾ قرىء طوى بالضم والكسر منصرفاً وغير منصرف فمن نونه فهو إسم الوادى ومن لم ينونه ترك صرفه لأنه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة .

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾ فى طوى وجوه : (الأول) أنه إسم للوادى وهو قول عكرمة وابن زيد (والثانى) معناه مرتين نحو مثنى أى قدس الوادى مرتين أو نودى موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى أى مثنى (والثالث) طوى أى طياً قال ابن عباس رضى الله عنهما إنه مر بذلك الوادى ليلا فطواه فكان المعنى بالوادى المقدس الذى طويته طياً أى قطعته حتى ارتفعت إلى أعلاه ومن ذهب إلى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدى هدى والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة

لذكرى ﴾ قرأ حمزة (وإنا اخترناك) وقرأ أبي بن كعب (وإنى اخترتك) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على أن النبوة لاتحصل بالاستحقاق لأن قوله (وأنا اخترتك) يدل على أن ذلك المنصب العلى إنما حصل لأن الله تعالى اختاره له ابتداء لا أنه استحقه على الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فاستمع لما يوحى) فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه فقوله (وأنا اخترتك) يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله (فاستمع) يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) يدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع لأن التوحيد من علم الأصول والعبادة من علم الفروع وأيضاً الفاء فى قوله (فاعبدنى) تدل على أن عبادته إنما لزمت لإلهيته وهذا هو تحقيق العلماء أن الله هو المستحق للعبادة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد (أولا) ثم بالعبادة (ثانياً) أمره بالصلاة (ثالثاً) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين : (الأول) أنه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت أنه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثانى) أنه قال (وأقم الصلاة لذكرى) ولم يبين كيفية الصلاة قال : القاضى لا يمتنع أن موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التى تعبد الله تعالى بها شعيباً عليه السلام وغيره من الأنبياء فصار الخطاب متوجهاً إلى ذلك ويحتمل أنه تعالى بين له فى الحال وأن كان المنقول فى القرآن لم يذكر فيه إلا هذا القدر (والجواب) أما العذر الأول فانه لايتوجه فى قوله تعالى (فاعبدنى) وأيضاً فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لأن موسى عليه السلام ما كان يشك فى وجوب الصلاة التى جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله (وأقم الصلاة) على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة ، أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة ، قوله لعل الله تعالى بينه فى ذلك الموضع وإن لم يحكه فى القرآن قلنا لاشك أن البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكوراً لكان أولى بالحكاية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (لذكرى) وجوه : (أحدها) لذكرى يعنى لتذكرنى فان ذكرى أن أعبد ويصلى لى (وثانيها) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد (وثالثها) لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها (ورابعها) لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى (وسادسها) لإخلاص ذكرى وطلب وجهى لاترائى بها ولا تقصد بها غرضاً آخر (وسابعها) لتكون لى ذاكراً غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

(وثامنها) لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) (وتاسعها) (أقم الصلاة) حين تذكرها أى أنك إذا نسيت صلاة فاقضها إذا ذكرتها ، روى قتادة عن أنس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك » ثم قرأ (وأقم الصلاة لذكرى) قال الخطابى يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) أنه لا يكفرها غير قضائها والآخر أنه لا يلزم فى نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة فى ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم إذا ترك شيئاً من نسكه فدية من إطعام أو دم . وانما يصلى ما ترك فقط فان قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام « فليصلها إذا ذكرها » قلنا قوله (لذكرى) معناه للذكر الحاصل بخلقى أو بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الأداء فلو ترك الترتيب فى قضائها جاز عند الشافعى رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر إن كان فى الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وإن ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع فى صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب فى قضاء الفوائت مالم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر فى خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضى الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت إلا أن يكون الوقت ضيقاً فلا تبطل حجة أبى حنيفة رحمه الله الآية والخبر والأثر والقياس أما الآية فقوله تعالى (أقم الصلاة لذكرى) أى لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضى رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها » والفاء للتعقيب وأيضاً روى جابر ابن عبد الله قال « جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنهما إلى النبى ﷺ يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يارسول الله ماصليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبى ﷺ وأنا والله ماصليتها بعد قال فنزل إلى البطحاء وصلى العصر بعد ماغابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور فى الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (أحدهما) أنه عليه الصلاة والسلام قال « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثانى) إن فعل النبى ﷺ إذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بياناً لمجمل قوله تعالى (أقيموا الصلاة) ولهذا قلنا إن الفوائت إذا كانت فى حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها وإذا دخلت فى حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الأثر فما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال « من فاتته صلاة فلم يذكرها إلا فى صلاة الإمام فليمض فى صلاته فاذا قضى صلاته مع الإمام

إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى «١٥» فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى «١٦»

يصلى مافاته ثم ليعد التى صلاها مع الإمام» وقد يروى هذا مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما القياس فهو أنهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد فى اليوم والليلة فأشبهتا صلاتى عرفة والمزدلفة فلما لم يجب إسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعى رحمه الله أنه روى فى حديث أبى قتادة «أنهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها» ولو كان وقت التذكر معيناً للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع إذا ثبت هذا فنقول إيجاب قضاء الفوائت وإيجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجرى مجرى التخيير بين الواجبين فوجب أن يكون المكلف مخيراً فى تقديم أيهما شاء ولأنه لو كان الترتيب فى الفوائت شرطاً لما سقط بالنسيان ألا ترى أنه إذا صلى الظهر والعصر بعرفة فى يوم غيم ثم تبين أنه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعاً ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطاً فيهما فههنا أيضاً لو كان شرطاً فيهما لما كان يسقط بالنسيان .

قوله تعالى ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله (فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) أتبعه بقوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله (لذكرى) أى لأذكرك بالأمانة والكرامة فقال عقيب ذلك (إن الساعة آتية) لأنها وقت الإثابة ووقت المجازاة ثم قال (أكاد أخفيها) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ هو أن كاد نفيه إثبات وإثباته نفى بدليل قوله (وما كادوا يفعلون) أى وفعلوا ذلك فقوله (أكاد أخفيها) يقتضى أنه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله (إن الله عنده علم الساعة) (والثانى) أن قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار (والجواب) من وجوه (أحدها) أن كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفى والإثبات فقوله (أكاد أخفيها) معناه قرب الأمر فيه من الإخفاء وأما أنه هل حصل ذلك الإخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) فان ذلك إنما يليق بالاخفاء لا بالإظهار (وثانيها) أن كاد من الله واجب فمعنى قوله (أكاد أخفيها) أى أنا أخفيها

عن الخلق كقوله (عسى أن يكون قريباً) أى هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم (أكاد) بمعنى أريد وهو كقوله (كذلك كدنا ليوسف) ومن أمثالهم المتداولة لاأفعل ذلك ولا أكاد أى ولا أريد أن أفعله (ورابعها) معناه (أكاد أخفيها) من نفسى وقيل إنها كذلك فى مصحف أبى وفى حرف ابن مسعود (أكاد أخفيها) من نفسى فكيف أعلنها لكم قال القاضى هذا بعيد لأن الإخفاء إنما يصح فيمن يصلح له الإظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لأن كل معلوم معلوم له فالإظهار والإسرار منه مستحيل ، ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعنى لو صح منى إخفاؤه على نفسى لأخفيته عنى والإخفاء وإن كان محالا فى نفسه إلا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة فى عدم إطلاع الغير عليه ، قال قطرب هذا على عادة العرب فى مخاطبة بعضهم بعضاً يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشيء كتمته حتى من نفسى فالله تعالى بالغ فى إخفاء الساعة فذكره بأبلغ ماتعرفه العرب فى مثله (وخامسها) (أكاد) صلة فى الكلام والمعنى (إن الساعة آتية أخفيها) ، قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه فما إن يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما إن يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح الموصلى (أكاد أخفيها) تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذا اللفظ أكاد أزيل عنها إخفاءها لأن أفعل قد يأتى بمعنى السلب والنفى كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أى أزلت عجمته وإشكاله وأشكيته أى أزلت شكواه (وسابعها) قرىء أخفيها بفتح الألف أى أكاد أظهرها من خفاه إذا أظهره أى قرب إظهارها كقوله (اقتربت الساعة) قال امرؤ القيس :

فان تدفنوا الداء لا نخفه وإن تمنعوا الحرب لا نقعد

أى لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لأن معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية أكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الأول إلى أن الأولى الإخفاء (لتجزى كل نفس بما تسعى) وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثانى) ما الحكمة فى إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت؟ (الجواب) لأن الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وإنه لايجوز . أما قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما حكم بمجىء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصى والمحسن عن المسىء وذلك غير جائز وهو الذى عناه الله تعالى بقوله (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار).

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل لأن الباء للالصاق فقوله (بما تسعى) يدل على أن المؤثر فى ذلك الجزاء هو ذلك السعى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتجوا بها على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لأن الآية صريحة في إثبات سعى العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعى البتة أما قوله (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) فالصد المنع وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها أى بالساعة فالضمير الأول عائد إلى الصلاة والثانى إلى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع إلى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الإيمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان إلى يوم القيامة قال القاضى وهذا أولى لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين وههنا الأقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فانما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخطاب فى قوله (فلا يصدنك) يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وأن يكون مع محمد ﷺ والأقرب أنه مع موسى لأن الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج إنه ليس بمراد وإنما أريد به غيره وذلك لأنه ظن أن النبى ﷺ لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الإيمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطباً بذلك وليس الأمر كما ظن ، لأنه إذا كان مكلفاً بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادراً على ذلك جاز أن يخاطب به ويكون المراد هو وغيره ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بقوله (فلا يصدنك عنها) النهى له عن الميل إليهم ومقاربتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المقصود نهى موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضى نهى من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثانى) أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا أرينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخواً بل كن فى الدين شديداً صلباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية تدل على أن تعلم علم الأصول واجب لأن قوله (فلا يصدنك) يرجع معناه إلى صلابته فى الدين وتلك الصلابة إن كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلابد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قوياً فى تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من إزالته عن الدين بل هو يكون متمكناً من إزالة المبطل عن بطلانه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال القاضى قوله (فلا يصدنك) يدل على أن العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لأفعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر (والجواب) المعارضة بمسألة العلم والداعى والله أعلم ، أما قوله تعالى (واتبع هواه) فالمعنى أن منكر

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى «١٧» قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى «١٨» قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى «١٩» فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى «٢٠» قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى «٢١»

البعث إنما أنكره اتباعا للهوى لا لدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لأن المقلد متبع للهوى لا الحجة أما قوله (فتردى) فهو بمعنى ولا يصدنك فتردى وإن صدوك وقبلت فليس إلا الهلاك بالنار . واعلم أن المتوغلين فى أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والأول مقدم على الثانى لأن من أراد أن يكتب شيئاً فى لوح مشغول بكتابة أخرى فلا سبيل له إليه إلا بإزالة الكتابة الأولى ثم بعد ذلك يمكن إثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن فى هذا الباب لأنه قال لموسى عليه السلام أولا (فاخلع نعليك) وهو إشارة إلى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل مايجب تحصيله وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله (إننى أنا الله لا إله إلا أنا) وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الأمر الذى يجب أن يشتغل الإنسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله (فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) ثم فى هذا أيضاً تعثر لأن قوله (فاعبدنى) إشارة إلى الأعمال الجسمانية وقوله(لذكرى)إشارة إلى الأعمال الروحانية والعبودية أولها الأعمال الجسمانية وآخرها الأعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) ثم إنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله (إنى أنا ربك) واختتمها بمحض القهر وهو قوله (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه وإشارة إلى أن العبد لابد له فى العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف ، وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف أن هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وأن ذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

قوله تعالى ﴿وما تلك بيمينك ياموسى ، قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾

إعلم أن قوله (وما تلك بيمينك) لفظتان ، فقوله (وما تلك) إشارة إلى العصا ، وقوله (بيمينك) إشارة إلى اليد، وفى هذا نكت (إحداها) أنه سبحانه لما أشار إليهما جعل كل واحدة منهما معجزاً قاهراً وبرهاناً باهراً ، ونقله من حد الجمادية إلى مقام الكرامة ، فاذا صار

الجماد بالنظر الواحد حيواناً ، وصار الجسم الكثيف نورانياً لطيفاً ، ثم إنه تعالى ينظر كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد ، فأى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان إلى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيها) أن بالنظر الواحد صار الجماد ثعباناً يبتلع سحر السحرة ، فأى عجب لو صار القلب بمدد النظر الإلهى بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء (وثالثها) كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعباناً وبرهاناً ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة ، فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب إصبعى الرحمن من ظلمة المعصية إلى نور العبودية ، ثم ههنا سؤالات (الأول) قوله (وما تلك بيمينك ياموسى) سؤال والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه (والجواب) فيه فوائد (إحداها) أن من أراد أن يظهر من الشىء الحقير شيئاً شريفاً فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم هذا ماهو ؟ فيقولون هذا هو الشىء الفلانى . ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذا منه كذا وكذا . فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية ، وكضربه البحر حتى انفلق ، وفى الحجر حتى انفجر منه الماء . عرضه أولا على موسى فكأنه قال له ياموسى هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وأنه خشبة لاتضر ولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً . فيكون بهذا الطريق قد انبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله (وما تلك بيمينك ياموسى) . (وثانيها) أنه سبحانه لما أطلعه على تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ، ثم إنه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله (وأنا اخترتك) ثم قهره بإيراد التكاليف الشاقة عليه وإلزامه علم المبدأ والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم ، تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له (وما تلك بيمينك يا موسى) ليعرف موسى عليه السلام أن يمينه هى التى فيها العصا ، أو لأنه لما تكلم معه أولا بكلام الإلهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة ، والنكتة فيه أنه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة أراد رب العزة إزالتها فسأله عن العصا وهو لا يقع الغلط فيه . كذلك المؤمن إذا مات ووصل إلى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الأمر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) أنه تعالى لما عرف موسى كمال الإلهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية ، فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى أن فيها منافع أعظم مما ذكر ؛ تنبيهاً على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات النبى الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول إلى معرفة أجل الأشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده أنه خشبة حتى إذا قلبها ثعباناً لا يخافها (السؤال الثانى) قوله (وما تلك بيمينك

يا موسى) خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ، ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد (الجواب) من وجهين (الأول) أنه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمداً عليه السلام فى قوله (فأوحى إلى عبده ما أوحى) إلا أن الفرق بينهما أن الذى ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الله إلى الخلق ، والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سراً لم يستأهل له أحد من الخلق (والثانى) إن كان موسى تكلم معه وهو [تكلم] مع موسى فأمة محمد ﷺ يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال ﷺ « المصلى يناجى ربه » والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد ﷺ يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم فى قوله (سلام قولا من رب رحيم) .

(السؤال الثالث) ما إعراب قوله (وما تلك بيمينك يا موسى) الجواب ، قال صاحب الكشاف (تلك بيمينك) كقوله (وهذا بعلى شيخاً) فى انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته (بيمينك) قال الزجاج معناه وما التى بيمينك ، قال الفراء : معناه ما هذه التى فى يمينك ، واعلم أنه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء ، ثلاثة على التفصيل وواحد على الإجمال (الأول) قوله (هى عصاى) قرأ ابن أبى إسحق (هى عصى) ومثلها (يا بشرى) وقرأ الحسن (هى عصاى) بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (إحداها) أنه قال (هى عصاى) فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت إلى شىء (ما زاغ البصر وما طغى) ولما قيل له امدحنا ، قال : « لا أحصى ثناء عليك » ثم نسى نفسه ونسى ثناءه ، فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » (وثانيها) لما قال (عصاى) قال الله سبحانه وتعالى (ألقها ، فلما ألقاها فاذا هى حية تسعى) ليعرف أن كل ما سوى الله فالالتفات إليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك . ولهذا قال الخليل عليه السلام (فانهم عدو لى إلا رب العالمين) وفى الحديث « يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذى لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع » الحديث بتمامه .

(وثالثها) أنه قال هى عصاى فقد تم الجواب ، إلا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الأخر لأنه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثانى) قوله (أتوكأ عليها) والتوكى ، والإتكاء واحد كالتوقى ، والإتقاء معناه أعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئاً على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم «اتكىء على رحمتى» بقوله تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقال (والله يعصمك من الناس) فان قيل أليس قوله (ومن اتبعك من المؤمنين) يقتضى كون محمد يتوكأ على المؤمنين؟ قلنا قوله (ومن اتبعك من المؤمنين) معطوف على الكاف فى قوله (حسبك الله) والمعنى الله حسبك ، وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله (وأهش بها على غنمى) أى أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمى فتأكله . وقال أهل

اللغة : هش على غنمه ، يهش بضم الهاء فى المستقبل ، وهشش الرجل أهش بفتح الهاء فى المستقبل، وهش الرغيف يهش بكسر الهاء . قاله ثعلب ، وقرأ عكرمة (وأهس) بالسين غير المنقوطة ، والهش زجر الغنم ، واعلم أن غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه فى قوله (أتوكأ عليها) ثم بمصالح رعيته فى قوله (وأهش بها على غنمى) فكذلك فى القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا إلا بإصلاح أمر الأمة (وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم) « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضاً بأمته فيقول : «أمتى أمتى» (والرابع) قوله (ولى فيها مآرب أخرى) أى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها ، وحكى ابن الأعرابى وقطرب بكسر الراء أيضا ، والأرب بفتح الراء ، والإربة بكسر الألف وسكون الراء الحاجة ، وإنما قال أخرى لأن المآرب فى معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت أخر لكان صواباً كما قال (فعدة من أيام أخر) ثم ههنا نكت (إحداها) أنه لما سمع قول الله تعالى (وما تلك بيمينك) عرف أن لله فيه أسراراً عظيمة فذكر ماعرف وعبر عن البواقى التى ماعرفها إجمالا لا تفصيلا بقوله (ولى فيها مآرب أخرى) . (وثانيها) أن موسى عليه السلام أحس بأنه تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة . فقال موسى : إلهى ماهذه العصا إلا كغيرها ، لكنك لما سألت عنها عرفت أن لى فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتنى بسببها فوجدت هذا الأمر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) أن موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) أنه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ، ثم قال وهب : كانت ذات شعبتين كالمحجن ، فاذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا حاول كسره لواه بالشعبتين ، [و] إذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب، وإذا كان فى البرية ركزها وألقى كساء عليها فكانت ظلا . وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً ويصيران شمعتين فى الليالى ، وإذا ظهر عدو حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت . وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام . واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال (ألقها ياموسى) وفيه نكت (إحداها) أنه عليه السلام لما قال (ولى فيها مآرب أخرى) أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال (ألقها يا موسى : فألقاها فاذا هى حية تسعى) (وثانيتها) كان فى رجله شىء وهو النعل وفى يده شىء وهو العصا ، والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا (اخلع نعليك) إشارة إلى ترك الهرب . ثم قال ألقها ياموسى وهو إشارة إلى ترك الطلب ، كأنه سبحانه قال إنك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك

وطالباً لحظك فلا تكون خالصاً لمعرفتي فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصاً لى (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته ، وكمال منقبته لما وصل إلى الحضرة ولم يكن معه إلا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة فأنت مع ألف وقر من المعاصى كيف يمكنك الوصول إلى جنابه (ورابعتها) أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل مازاغ البصر فلا جرم وجد الكل ، لعمرك أما موسى لما بقي معه تلك العصا لاجرم أمره بالقاء العصا . واعلم أن الكعبى تمسك به فى أن الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على إلقاء العصا ، إما أن توجد والعصا فى يده أو خارجة من يده فان أتته القدرة وهى فى يده فذاك قولنا (وأن الله ليس بظلام للعبيد) واذا أتته وليست فى يده وإنما استطاع أن يلقى من يده ماليس فى يده فذلك محال ، أما قوله (فألقاها فاذا هى حية تسعى) ففيه أسئلة : (السؤال الأول) ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت ؟ (الجواب) فيه وجوه : (أحدها) أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء ، والنداء وإن كان مخالفاً للعادات إلا أنه لم يكن معجزاً لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهراً والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) أن النداء كان إكراما له فقلب العصا حية مزيداً فى الكرامة ليكون توالى الخلع والكرامات سبباً لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فاذا شاهده عند فرعون لايخافه (ورابعها) أنه كان راعياً فقيراً ثم إنه نصب للمنصب العظيم فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيهاً على انى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد منى نصرة مثلك فى إظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال (هى عصاى أتوكأ عليها) إلى قوله (ولى فيها مآرب أخرى) فقيل له (ألقها فلما ألقاها) وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها ، تنبيهاً على سر قوله (ففروا إلى الله) وقوله (قل الله ثم ذرهم) (السؤال الثانى) قال ههنا حية وفى موضع آخر ثعبان وجان ، أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير ، وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان : (أحدهما) أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها (والثانى) أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان ، والدليل عليه قوله تعالى (فلما رآها تهتز كأنها جان) . (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية (الجواب) كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا ، وابتلعت كل مامرت به من الصخور والأشجار حتى سمع موسى صرير الحجر فى فمها وجوفها ، أما قوله تعالى (قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى) ففيه سؤالات (السؤال الأول) لما نودى موسى ،

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى «٢٢» لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى «٢٣» إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى «٢٤»

وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عندالله تعالى إلى الخلق فلم خاف (والجواب) من وجوه : (أحدها) أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك ذلك قط ، وأيضاً فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول . وعند الفزع الشديد قديذهل الإنسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الأنصارى رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه فى النبوة لأن الساحر يعلم أن الذى أتى به تمويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لأنه عليه السلام عرف ما لقى آدم منها (وثالثها) أن مجرد قوله (لاتخف) لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى (ولا تطع الكافرين) لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً) يدل عليه ، ولكن ذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان ، وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار (السؤال الثانى) متى أخذها ، بعد انقلابها عصا أوقبل ذلك (والجواب) روى أنه أدخل يده بين أسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضاً بقوله (سنعيدهاسيرتها الأولى) وذلك يقع فى الاستقبال ، وأيضاً فهذا أقرب للكرامة لأنه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك إدخال يده فى فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشباً معجز آخر فيكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة (السؤال الثالث) كيف أخذه ، أمع الخوف أوبدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعيد ، لأن بعد توالى الدلائل يبعد ذلك . وإذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عند الأخذ سيعيدها سيرتها الأولى فكيف يستمر خوفه ، وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه (لاتخف) بلغ من ذلك ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه إلى أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها (السؤال الرابع) ما معنى سيرتها الأولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سارفلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة (السؤال الخامس) علام انتصب سيرتها (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) بنزع الخافض يعنى إلى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى تسير سيرتها الأولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التى عرفتها .

قوله تعالى ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، لنريك من آياتنا الكبرى ،إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ .

اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنه يجنحهما عند الطيران ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما إلى جناحك إلى صدرك والأول أولى لأن يدى الإنسان يشبهان جناحى الطائر لأنه قال (تخرج بيضاء) ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله (تخرج) معنى واعلم أن معنى ضم اليد إلى الجناح ما قال فى آية أخرى (وأدخل يدك فى جيبك) لأنه إذا أدخل يده فى جيبه كان قد ضم يده إلى جناحه والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السوء الرداءة والقبح فى كل شىء فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شىء إلى العرب فكان جديراً بأن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى فى جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ بيضاء وآية حالان معاً ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام ، وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أى خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك ، فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم لم يقل الكبر ؟ قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله (مآرب أخرى ، والأسماء الحسنى) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحسن اليد أعظم فى الإعجاز من العصا لأنه تعالى (ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لأنه ليس فى اليد إلا تغير اللون ، وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ، ثم عاد عصا بعد ذلك . فقد وقع التغير مرة أخرى فى كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم ، وأما قوله (لنريك من آياتنا الكبرى) فقد بينا أنه عائد إلى الكل وأنه غير مختص باليد .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية عقبها بأن أمره بالذهاب إلى فرعون وبين العلة فى ذلك وهى أنه طغى ، وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى . قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام «اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وإن معك يدى وبصرى وإنى ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى أبعثك إلى خلق ضعيف من خلق بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى . وإنى أقسم بعزتى لولا الحجة والعذر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي «٢٥» وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي «٢٦» وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي «٢٧» يَفْقَهُوا قَوْلِي «٢٨» وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي «٢٩» هَرُونَ أَخِي «٣٠» اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي «٣١» وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي «٣٢» كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا «٣٣» وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا «٣٤» إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا «٣٥»

من عينى فبلغه عنى رسالتى وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى (وقل له قولا ليناً) لا يغترن بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى ، لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمى ، فى كلام طويل ، قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده » .

قوله تعالى ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً ﴾

إعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وكان ذلك تكليفاً شاقاً فلا جرم سأل ربه أموراً ثمانية ، ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الأشياء .

﴿ المطلوب الأول ﴾ قوله (رب اشرح لى صدرى) واعلم أنه يقال شرحت الكلام أى بينته وشرحت صدره أى وسعته والأول يقرب منه لأن شرح الكلام لا يحصل إلا ببسطه ، والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع آخر وهو قوله (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة ، وقال (رب اشرح لى صدرى) فأفهم عنك ما أنزلت على من الوحى ، وقيل شجعنى لأجترىء به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بأمور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ما السبب فى أن الانسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى إلا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أو لم يكن منشرحا ، فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال ، وإن لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الأول) أنه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالأديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل ، ثم إنه سبحانه تلطف له بقوله (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله (وما تلك بيمينك ياموسى) ثم أظهر له المعجزات

العظيمة والكرامات الجسيمة ، ثم أعطاه منصب الرسالة بعد أن كان فقيراً وكل مايتعلق به الإعزاز والإكرام فقد حصل ، ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لأدون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لايصير منشرح الصدر (والثانى) أنه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الأشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة إليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لايصلح للقضاء على ماقال عليه السلام « لايقضى القاضى وهو غضبان » فكيف يصلح للنبوة التى أقل مراتبها القضاء ؟ فهذا مجموع الأمور التى لابد من البحث عنها فى هذه الآية .

﴿ أما البحث الأول ﴾ وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول اعلم أن للكمال مراتب ودرجات وأعلاها أن يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره ، أما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته ، وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الأزل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا فى الأزل لأن التكميل عبارة عن جعل الشىء كاملا وذلك لايتحقق إلا عند عدم الكمال ، فانه لوكان حاصلا فى الأزل لاستحال التأثير فيه ، فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم أنه سبحانه ، وإن كان كاملا فى الأزل إلا أنه يصير مكملا فيما لايزال ، فان قيل إذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا فى الأزل فقد كان عارياً عن صفات الكمال فيكون ناقصاً وهو محال ، قلنا النقصان إنما يلزم لو كان ذلك ممكناً فى الأزل لكنا بينا أن الفعل الأزلى محال فالتكميل الأزلى محال فعدمه لايكون نقصاناً ، كما أن قولنا إنه لايقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصاناً لأنه غير ممكن الوجود فى نفسه ، وكقولنا أنه لايعلم عدداً مفصلا لحركات أهل الجنة لأن كل ماله عدد مفصل فهو متناه ، وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل ، فامتنع ذلك لا لقصور فى العلم ، بل لكونه فى نفسه ممتنع الحصول . إذا ثبت هذا فنقول إنه سبحانه وتعالى لما قصد إلى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لأن الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فأجلس على المائدة بعض المعدومات دون البعض لأسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لانهاية له فى الوجود (وثانيها) أنه لو أوجد الكل لما بقى بعد ذلك قادراً على الإيجاد لأن إيجاد الموجود محال ، فكان ذلك وإن كان كمالا للناقص لكنه يقتضى نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة إلى العجز (وثالثها) أنه لو دخل الكل فى الوجود لما بقى فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والإيجاب بالطبع نقصان ، فلهذه الأسباب أخرج بعض الممكنات إلى الوجود فان قيل عليه سؤالان (أحدهما) أن الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهى

إلى غير المتناهى ، فتكون أيضاً الضيافة ضيافة للأقل ، وأما الحرمان فانه عدد لما لا نهاية له ، وهذا لايكون وجودا (الثانى) أن البعض الذى خصه بهذه الضيافة إن كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل ؟ وإن كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثاً وهو محال كما قيل :

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرماً

وإنه لا يليق بأكرم الأكرمين (والجواب) عن الكل أن هذه الشبهات إنما تدور فى العقول والخيالات لأن الإنسان يحاول قياس فعله على فعلنا ، وذلك باطل لأنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون . إذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله (ورحمتى وسعت كل شىء) ثم إن الموجودات انقسمت إلى الجمادات وإلى الحيوانات ، ولا شك أن الجماد بالنسبة إلى الحيوان كالعدم بالنسبة إلى الوجود لأن الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود ، وأما الحيوان فهو الذى يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولأن الجماد بالنسبة إلى الحيوان آلة لأن الحيوانات تستعمل الجمادات فى أغراض أنفسها ومصالحها وهى كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولى . فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن إحسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض ، فلاجرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض . والحياة بالنسبة إلى الجماديه كالنور بالنسبة إلى الظلمة والبصر بالنسبة إلى العمى والوجود بالنسبة إلى العدم ، فعند ذلك صار بعض الموجودات حياً مدركا للمنافى والملائم واللذة والألم والخير والشر ، فمن ثم قالت الأحياء عند ذلك يارب الأرباب إنا وإن وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك ، لكن ازدادت الحاجة لأنا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج إلى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافى والمؤذى ، ولما حصل الوجود والحياة احتجنا إلى طلب الملائم ودفع المنافى فإن لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التى بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى ، فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود . فقال القادرون عند ذلك إلهنا الجواد الكريم إن الحياة والقدرة بلا عقل لاتكون إلا لأحد القسمين إما للمجانين المقيدين بالسلاسل والأغلال ، وإما للبهائم المستعملة فى حمل الأثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان إلى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذى هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذى شرفته بقولك « بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب » حتى تفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبعث فى أرواحهم نور

البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الأربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل . فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل ألا ترى أن رسولنا ﷺ لما كان خاتم النبيين كان أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والإنسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذى الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ، ثم نظر العقل فى نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوأة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوأة من الكواكب الزاهرة وهى العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائه العقول وصرائح الأذهان ، وكما أن الكواكب المركوزة فى السموات علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فكذلك الجواهر المركوزة فى سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون فى ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها . فلما نظر العقل إلى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الأرقام على راقم ، وبتلك النقوش على ناقش . وعند ذلك عرف أن النقاش بخلاف النقش والبانى بخلاف البناء ، فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن إلى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الأزلية والجلال وكان العقل إنما نظر إلى أضواء عالم الأزلية من ظلمات عالم الحدوث والإمكان فغلبته دهشة أنوار الأزلية فعميت عيناه فبقى متحيراً فالتجأ بطبعه إلى مفيض الأنوار ، فقال (رب اشرح لى صدرى) فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة ، وفى الطريق قطاع من الأعداء الداخلة والخارجة وشياطين الإنس والجن كثيرة فإن لم تشرح لى صدرى ولم تكن لى عونا فى كل الأمور انقطعت ، وصارت هذه الخلع سبباً لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات . فهذا هو المراد من قوله (رب اشرح لى صدرى) ثم قال (ويسر لى أمرى) وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريداً له استحال أن يصير فاعلا له ، فهذه الإرادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل وفاعلها إن كان هو العبد افتقر فى تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ، ولزم التسلسل بل لابد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم فيكون فى الحقيقة هو الميسر للأمور وهو المتمم لجميع الأشياء وتمام التحقيق أن حدوث الصفة لابد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله (رب اشرح لى صدرى) وعبر عن حصول الفاعل بقوله (ويسر لى أمرى) وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته ، ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون : يامبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها . ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على أن جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته . ويمكن أن يقال أيضاً كأن موسى عليه السلام قال إلهى لا أكتفى بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الأمر وتحصيل الغرض فلهذا قال (ويسر لى أمرى) أو يقال إنه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الأربع وهى الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الأربع فلابد فى

مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة ، فقال موسى عليه السلام ماتلك الخدمات ؟ فقال وأقم الصلاة لذكرى فإن فيها أنواعاً أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فإذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة .ثم إنه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهى خلعة الرسالة قال (رب اشرح لى صدرى) حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يارب إن هذا لايتأتى منى مع عجزى وضعفى وقلة آلاتى وقوة خصمى فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى (الفصل الثانى) فى قوله (رب اشرح لى صدرى) إعلم أن الدعاء سبب القرب من الله تعالى وإنما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلباً للقرب فنفتقر إلى بيان أمرين إلى بيان أن الدعاء سبب القرب ثم إلى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء. أما بيان أن الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه (الأول) أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية أما الأصولية فأولها فى البقرة (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) (وثانيها) فى بنى إسرائيل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (وثالثها) (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً) (ورابعها) (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) وأما الفروعية فستة منها فى البقرة على التوالى (أحدها) (يسألونك ماذا ينفقون قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين) (وثانيها) (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) (وثالثها) (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) (ورابعها) (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (وخامسها) (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) (وسادسها) (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) (وسابعها) (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) (وثامنها) (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) (وتاسعها) (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق) (وعاشرها)(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) . (والحادية عشر) (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) إذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة ، فالأغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفى صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفى صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) وفى صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) ولا بد لهذه الأشياء من الفائدة فنقول أما الأجوبة الواردة بلفظ قل فلا إشكال فيها لأن قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد فى ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد فى كونه مخاطباً من الله تعالى بأداء الوحى والتبليغ . وأما الصورة الثانية وهى قوله (فقل ينسفها ربى نسفاً) فالسبب أن قولهم (ويسألونك عن الجبال) سؤال إما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يجيب بلفظ

الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال فى الحال ولا تقتصر فإن الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الأمر لئلا يقعوا فى الشك والشبهة ، ثم كيفية الجواب أنه قال (فقل ينسفها ربى نسفاً) ولا شك أن النسف ممكن لأنه ممكن فى حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً فى حق كل الجبل وذلك يدل على أنه ليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف ، فإن قيل إنهم قالوا أخبرنا عن إلهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال (قل هو الله أحد) ولم يقل فقل هو الله أحد مع أن هذه المسألة من المهمات قلنا إنه تعالى لم يحك فى هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (وأما الصورة الثالثة) فإنه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) فالحكمة فيه أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على أن من الأسئلة مالا يجاب عنها (وأما الصورة الرابعة) وهى قوله (فانى قريب) ولم يذكر فى جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) أن ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وأنه من أعظم العبادات فكأنه سبحانه قال ياعبدى أنت إنما تحتاج إلى الواسطة فى غير الدعاء أما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق). (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه فانسلخ منها) . (واذكر فى الكتاب موسى) . (واذكر فى الكتاب إسمعيل) . (واذكر فى الكتاب إدريس) . (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) ، ثم قال فى قصة يوسف (نحن نقص عليك أحسن القصص) وفى أصحاب الكهف (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) . وما ذاك إلا لما فى هاتين القصتين من العجائب والغرائب ، والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال يا محمد إذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب ، وإذا سئلت عنى فاسكت أنت حتى أكون أنا القائل (وثانيها) أن قوله (وإذا سألك عبادى عنى) يدل على أن العبد له [أن يسأل] وقوله (فإنى قريب) يدل على أن الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد منى قريب ، بل قال أنا منه قريب ، وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو ، هو فى مركز العدم وحضيض الفناء ، فكيف يكون قريباً ، بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فإنه بفضله وإحسانه جعله موجوداً وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال (فإنى قريب) . (ورابعها) أن الداعى ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعياً لله تعالى فإذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الأحد الحق امتنع أن يبقى فى مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال (فقل إنى قريب) بل قال (فإنى قريب) فثبت بما تقرر فضل الدعاء وأنه من أعظم القربات ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا فلا

جرم أول ماأراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال (رب اشرح لى صدرى) . (والوجه الثانى) فى بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام «الدعاء مخ العبادة » ثم إن أول شىء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام (العبادة) لأن قوله (إننى أنا الله) إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله (فاعبدنى) فلما كان أول ماأورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة لاجرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال (رب اشرح لى صدرى) . (والوجه الثالث) وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما أنه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب) . (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) . (وادعوه خوفاً وطمعاً). (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) . (هو الحى لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) . (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) . (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة) وقال ﷺ « ادعوا بياذا الجلال والإكرام » فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه (أحدها) أنه علام الغيوب يعلم ما فى الانفس وما تخفى الصدور ، فأى حاجة بنا إلى الدعاء (وثانيها) أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء يشبه الأمر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوء أدب (ورابعها) المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لايهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى ، وقد ندب إليه والدعاء ينافى ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال عليه السلام رواية عن الله تعالى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» فدل على أن الأولى ترك الدعاء والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء (وسابعها) أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله «حسبى من سؤالى علمه بحالى» استحق المدح العظيم فدل على أن الأولى ترك الدعاء (والجواب ، عن الأول) أنه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات (وعن الثانى) أنه يجرى مجرى أن نقول للجائع والعطشان إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وعن الثالث) أن الصيغة وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) أنه إذا دعا إظهاراً للتضرع ثم رضى بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات ، ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمراً ورد مجملا لاجرم شرع فى أجل العبادات وهو الدعاء (الوجه الرابع) فى فضل الدعاء أنه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الأمر به بل بين فى آية أخرى أنه يغضب إذا لم يسأل فقال (فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم

وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقال عليه السلام « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت » ولكن يجزم فيقول : اللهم اغفر لى فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لى صدرى (الوجه الخامس) فى فضل الدعاء قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) وفيه كرامة عظيمة لأمتنا لأن بنى اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم (وأنى فضلتكم على العالمين) وقال أيضاً : (وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين) ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام (أدع لنا ربك يبين لنا ما هى) وأن الحواريين مع جلالتهم فى قولهم (نحن أنصار الله) سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم إنه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى أمتنا فقال مخاطباً لهم من غير واسطة (ادعونى أستجب لكم) وقال (واسألوا الله من فضله) فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الأمة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لا جرم فقال « اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ » فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال (رب اشرح لى صدرى) واعلم أنه تعالى قال (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب) ثم إنه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام (أحدها) عبد العصمة (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد العصمة (واصطنعتك لنفسى) فلا جرم طلب زوائد العصمة فقال (رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة (وسلام على عباده الذين اصطفى) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد الصفوة (ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) فلا جرم أراد مزيد الصفوة فقال (رب اشرح لى صدرى) (وثالثها) عبد البشارة (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) فأراد مزيد البشارة فقال (رب اشرح لى صدرى) (ورابعها) عبد الكرامة (ياعباد لاخوف عليكم) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك (لاتخافا إننى معكما) فأراد الزيادة عليها فقال (رب اشرح لى صدرى) (وخامسها) عبد المغفرة (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) ، وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك (رب اغفر لى) فغفر له فأراد الزيادة فقال (رب اشرح لى صدرى) (وسادسها) عبد الخدمة (اعبدوا ربكم) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك (واصطنعتك لنفسى) فطلب الزيادة فيها فقال (اشرح لى صدرى) (وسابعها) عبد القربة (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بالقرب (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) فأراد كمال القرب فقال (رب اشرح لى صدرى) .

﴿ الفصل الثالث ﴾ فى قوله (رب اشرح لى صدرى) وفيه وجوه : (أحدها) أنه تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة [التى] (أحدها) معرفة التوحيد (إننى أنا الله لا إله إلا أنا) ، (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة (فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) ، (وثالثها) معرفة الآخرة (إن الساعة آتية)

(ورابعها) حكمة أفعاله فى الدنيا (وما تلك بيمينك ياموسى) ، (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه (لنريك من آياتنا الكبرى) ، (وسادسها) إرساله الى أعظم الناس كفراً وعتواً فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه أن كل من سأله قرب منه فقال (رب اشرح لى صدرى) فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال (رب اشرح لى صدرى) أو يقال خاف شياطين الإنس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء إلى مقام القرب فيصير مأموناً من غوائل شياطين الجن والإنس (وثانيها) أن المراد أنه أراد الذهاب إلى فرعون وقومه فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف أن من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الأطماع بالكلية فقال (رب اشرح لى صدرى) (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شىء هالك إلا وجهه فالكل كأنهم فى ظلمات العدم وإظلال عالم الأجسام والإمكان فقال (رب اشرح لى صدرى) حتى يجلس قلبى فى بهى ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر والجالس فى الضوء لايرى من كان جالساً فى الظلمة فحين جلس فى ضوء شرح الصدر لا يرى أحداً فى الوجود فلهذا عقبه بقوله (ويسر لى أمرى) فإن العبد فى مقام الاستغراق لا يتفرغ لشىء من المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العين ضعيفة فأطلع ياإلهى شمس التوفيق حتى أرى كل شىء كما هو ، وهذا فى معنى قول محمد ﷺ «أرنا الأشياء كما هى» واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلا فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى فاستمع لما يوحى فلا جرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الأخرى فقال (رب اشرح لى صدرى) ولما آل الأمر إلى محمد ﷺ قيل له (وقل رب زدنى علما) والعلم هو المقصود ، فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد ﷺ لاجرم أعطى المقدمة ، ولما كان محمد كالمقصود لاجرم أعطى المقصود فسبحانه ماأدق حكمته فى كل شىء (وسادسها) الداعى له صفتان (إحداهما) أن يكون عبداً للرب (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب) ، (وثانيتهما) أن يكون الرب له (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أضاف نفسه إلينا وما أضافنا إلى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فأراد موسى عليه السلام أن يرتع فى هذا البستان فقال (رب اشرح لى صدرى) (وسابعها) أن موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله (وقربناه نجياً) فكأن موسى عليه السلام قال إلهى لما قلت (وقربناه نجياً) صرت قريباً منك ولكن أريد قربك منى فقال ياموسى أما سمعت قولى (وإذا سألك عبادي عنى فانى قريب) فأشتغل بالدعاء حتى أصير قريباً منك فعند ذلك (قال رب اشرح لى صدرى) . (وثامنها) قال موسى عليه السلام (رب اشرح لى صدرى) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (ألم نشرح لك صدرك) ثم إنه تعالى ماتركه على هذه الحالة بل قال (وسراجاً منيراً) فانظر إلى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر

قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت، بين الآخذ والمعطى ثم نقول إلهنا إن ديننا وهى كلمة لا إله إلا الله نور، والوضوء نور، والصلاة نور، والقبر نور، والجنة نور، فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك وإحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع) فى قوله (رب اشرح لى صدرى) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب، فقيل: وما أمارته فقال التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول، ويدل على أن شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور (الله نور السموات والأرض). (وثانيها) الرسول (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (وثالثها) القرآن (واتبعوا النور الذى أنزل معه). (ورابعها) الإيمان (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم). (وخامسها) عدل الله (وأشرقت الأرض بنور ربها). (وسادسها) ضياء القمر (وجعل القمر فيهن نوراً)، (وسابعها) النهار (وجعل الظلمات والنور). (وثامنها) البينات (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور). (وتاسعها) الأنبياء (نور على نور). (وعاشرها) المعرفة (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) إذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال (رب اشرح لى صدرى) بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى، بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى، باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى، بنور الإيمان والايقان بإلهيتك (وخامسها) رب اشرح صدرى بالاطلاع على أسرار عدلك فى قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لى صدرى، بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس إلى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى أن أكون خلف صور الأنبياء المتقدمين ومتشبهاً بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى بأن تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح، واعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار، ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء: زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن. فالعبد إذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر إلى هذه السبعة (فأولها) لابد من زند المجاهدة (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا). (وثانيها) حجر التضرع (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) (وثالثها) حراق منع الهوى (ونهى النفس عن الهوى) (ورابعها) كبريت الإنابة (وأنيبوا إلى ربكم) ملطخاً رءوس تلك

الخشبات بكبريت توبوا إلى الله (وخامسها) مسرجة الصبر (واستعينوا بالصبر والصلاة)(وسادسها) فتيلة الشكر (لئن شكرتم لأزيدنكم) . (وسابعها) دهن الرضا (واصبر لحكم ربك) أى ارض بقضاء ربك فاذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغى أن لا تطلب المقصود إلا من حضرته (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) ثم اطلبها بالخشوع والخضوع (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول (رب اشرح لى صدرى) فهنالك تسمع (قد أوتيت سؤلك ياموسى) ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع (إليه يصعد الكلم الطيب) (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهاراً قال ابراهيم عليه السلام (لاأحب الآفلين) أما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا (إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً ، والمستغفرين بالأسحار) بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) (وثالثها) الشمس تفنى (إذا الشمس كورت) وشمس المعرفة لا تفنى (سلام قولا من رب رحيم) (ورابعها) الشمس إذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهى معرفة أشهد أن لا إله إلا الله ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمداً رسول الله لم يصل نوره إلى عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجى من الحرق ، جزيا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبى (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد (إليه يصعد الكلم الطيب) . (وثامنها) الشمس منفعتها فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى العقبى (والباقيات الصالحات خير) . (وتاسعها) الشمس فى السماء زينة لأهل الأرض والمعرفة فى الأرض زينة لأهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر ، والمعارف الإلهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى ، وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادى عشرها) الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب إلى الخالق (وثانى عشرها) الشمس تقع على الولى والعدو والمعرفة لا تحصل إلا للولى فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لاجرم قال موسى (رب اشرح لى صدرى) وأما النكت (فإحداها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء (كل من عليها فان) والمعرفة استوقدها للبقاء فالذى خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق (شهاباً رصداً) والمعرفة التى خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان (رب اشرح لى صدرى) . (وثانيتها) استوقد الله الشمس فى السماء وإنها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك ، وأوقد شمس المعرفة فى قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجاً فإنه لا يزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) أفلا يمده وهو معنى قوله (رب اشرح لى صدرى) . (ورابعتها) اللص إذا رأى السراج يوقد فى البيت لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة فى

قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال (رب اشرح لى صدرى) .(وخامستها) المجوس أوقدوا نارآً فلا يريدون إطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الإيمان فى قلبك فكيف يرضى بإطفائه .
واعلم أنه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة (أو من كان ميتاً فأحييناه) فلما رغب موسى عليه السلام فى الحياة الروحانية قال (رب اشرح لى صدرى) ثم النكتة أنه عليه السلام قال من أحيا أرضاً ميتة فهى له فالعبد لما أحيا أرضاً فهى له فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الإيمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب (قل الله ثم ذرهم) وكما أن الإيمان حياة القلب فالكفر موته (أموات غير أحياء وما يشعرون) (وثانيها) الشفاء (ويشف صدور قوم مؤمنين) فلما رغب موسى فى الشفاء رفع الأيدى قال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أنه تعالى لما جعل الشفاء فى العسل بقى شفاء أبداً فهها لما وضع الشفاء فى الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبداً (وثالثها) الطهارة (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) فلما رغب موسى عليه السلام فى تحصيل طهارة التقوى قال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن الصائغ إذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لايدخله فى النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانياً ولكن الله يدخل فى النار قلب الكافر (ليميز الله الخبيث من الطيب) (ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء) وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لاتحصل (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فإنها لاتزول لأن الهادى لايزول (ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) . (وخامسها) الكتابة (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال (رب اشرح لى صدرى) وفيه نكت (الأولى) أن الكاغدة ليس لها خطر عظيم وإذا كتب فيها القرآن لم يجز إحراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم إحراقه (الثانية) بشر الحافى أكرم كاغداً فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فإكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره حتى أنه لايجوز للجنب والحائض أن يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له أن يمس جلد المصحف ، وقال الله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون) فالقلب الذى فيه أكرم المخلوقات (ولقد كرمنا بنى آدم) كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم (وسادسها) السكينة (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن أبا بكر رضى الله عنه كان مع رسول الله ﷺ وكان خائفاً فلما نزلت السكينة عليه قال لا تحزن فلما نزلت سكينة

الإيمان فرجوا أن يسمعوا خطاب (أن لاتخافوا ولا تحزنوا) وأيضاً لما نزلت السكينة صار من الخلفاء (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) أى أن يصيروا خلفاء الله فى أرضه (وسابعها) المحبة والزينة (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) والنكتة أن من ألقى حبة فى أرض فإنه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) (وألف بين قلوبكم) والنكتة أن محمداً صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم إنه ماتركهم إلى غيبة ولا حضور «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وموسى طلب الطمأنينة فقال (رب اشرح لى صدرى) والنكتة أن حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الأجسام فإنه لا يكفيه لأن حاجته غير متناهية والأجسام متناهية والمتناهى لا يصير مقابلا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم (وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم . إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ماتشاء قدير (الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ، ذكر العلماء فيه وجهين (الأول) أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم ، وأما الرهبة فهى أن يكون خائفاً من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل مايتعلق بالدنيا فى عين همته ، فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها ، فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى ، فإن القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فأما إذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفوراً عنها فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) أن موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها إصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفاً بتدبير العالمين والإلتفات إلى أحدهما يمنع من الإشتغال بالآخر ، ألا ترى أن المشتغل بالإبصار يصير

ممنوعاً عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعاً عن الابصار والخيال ، فهذه القوى متجاذبة متنازعة وأن موسى عليه السلام كان محتاجاً إلى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الأول) اعلم أن البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم إلى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبداً والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم إن الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى يدعو إلى الشيطان ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة . فالفطنة توقفك على معايب الدنيا والشهوة تحركك إلى لذات الدنيا ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعائب على ماقال عليه السلام « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » فأخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسناً والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فأخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام « ما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ولا الخرق فى شىء إلا شانه » ولهذا خلق السموات والأرض فى ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هى الخصومة الواقعة بين الصنفين . وقلبك وصدرك هو القلعة ، ثم إن لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى فإن كان الخندق عظيماً والسور قوياً عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فينحصر الملك فى القصر ويضيق الأمر عليه فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله (رب اشرح لى صدرى) (المثال الثانى) اعلم أن معدن النور هو القلب واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس والخوف من الأعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا شك فى أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه) فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى إلى أن يشاهد أنهم عدم محض فعند ذلك يزول

الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر .

﴿الفصل السادس﴾ فى الصدر اعلم أنه يجىء والمراد منه القلب (أفمن شرح الله صدره للاسلام ، رب اشرح لى صدرى ، وحصل ما فى الصدور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقد يجىء والمراد الفضاء الذى فيه الصدر (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) واختلف الناس فى أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على أنه القلب ، وقد شرحنا هذه المسألة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال بعضهم المواد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الإسلام (أفمن شرح الله صدره للاسلام) والقلب مقر الإيمان (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) والفؤاد مقر المعرفة (ما كذب الفؤاد ما رأى)، (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) واللب مقر التوحيد (إنما يتذكر أولو الألباب) واعلم أن القلب أول ما بعث إلى هذا العالم بعث خالياً عن النقوش كاللوح الساذج وهو فى عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها فى بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى ، فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات . وربما توغلت السفينة فى جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة فى ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك (رب اشرح لى صدرى) واعلم أن العقل إذا أخذ فى الترقى من سفل الإمكان إلى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات ، ومعلوم أن كل ماهية فهى إما هى معه أو هى له ، فان كانت هى معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الإلهية فلا يبقى هناك مستطلعاً لمطالعة سائر الأنوار فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة ، وإن وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة ، وهى أنه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع إلى موضع معين فذلك الموضع الذى اليه تنعكس الشعاعات يحترق فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافى الموضوع فى مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال ، فاذا وقع للقلب التفات اليها حصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الإلهية عن كل واحد منها إلى القلب فيحترق القلب ، ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر ، كان الإحتراق أتم فقال (رب اشرح لى صدرى) حتى أقوى على إدراك درجات الممكنات فأصل إلى

مقام الاحتراق بأنوار الجلال ، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام «أرنا الأشياء كما هى» فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال « لا أحصى ثناء عليك » .

﴿ الفصل السابع ﴾ فى بقية الأبحاث إنما قال (رب اشرح لى صدرى) ولم يقل رب اشرح صدرى ليظهر أن منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا إلى الله ، وأما كيفية شرح صدر رسول ﷺ والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره إن شاء الله فى تفسير قوله (ألم نشرح لك صدرك) والله أعلم بالصواب .

﴿ المطلوب الثانى ﴾ قوله (ويسر لى أمرى) والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعى والبواعث بفعل الألطاف المسهلة ، فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأى فائدة فى هذا السؤال ، قلنا يحتمل أن يكون هناك من الألطاف ما لا يحسن فعلها إلا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الألطاف .

﴿ المطلوب الثالث ﴾ قوله (واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى (خلق الإنسان علمه البيان) ولم يقل وعلمه البيان لأنه لو عطفه عليه لكان مغايراً له ، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله (علمه البيان) كالتفسير لقوله (خلق الإنسان) كأنه إنما يكون خالقاً للانسان إذا علمه البيان ، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هى الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان ، قال زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال على : ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . والمعنى أنا لو أزلنا الادراك الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الانسان إلا القدر الحاصل فى البهائم ، وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وقال صلى الله عليه وسلم « المرء مخبوء تحت لسانه » (وثالثها) أن فى مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض) ، (ورابعها) أن الانسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبداً صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الأجسام وواسطته فى تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الافادة هى النطق اللسانى فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » فكذلك الواسطة فى الافادة يجب أن تكون أشرف الأعضاء فقوله (رب اشرح لى صدرى) إشارة إلى طلب النور الواقع فى الروح ، وقوله (ويسر لى أمرى) إشارة إلى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل ، وعند ذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البيانى وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون

إلا باللسان . فلهذا قال (واحلل عقدة من لسانى) . (وخامسها) وهو أن العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت والجود والاعطاء أفضل الطاعات . وليس فى الأعضاء أفضل من اليد ، فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل « اليد العليا خير من اليد السفلى » فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة إعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الأعضاء . ولا شك أن اللسان هو الآلة فى إعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الأعضاء . ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (أحدها) قوله عليه السلام « الصمت حكمة وقليل فاعله » ويروى أن الانسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فانك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا . (وثانيها) أن الكلام على أربعة أقسام منه ماضرره خالص أو راجح ، ومنه ما يستوى الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه راجح ومنه ما هو خالص النفع ، أما الذى ضرره خالص أو راجح فواجب الترك ، والذى يستوى الأمران فيه فهو عيب ، فبقى القسمان الأخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر ، فالأولى ترك الكلام (وثالثها) أن ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فان كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل ، وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الأعضاء ، فان العين لا تصل إلى غير الألوان ، والصور والآذان لاتصل إلا إلى الأصوات والحروف ، واليد لاتصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد فله فى الخير مجال رحب وله فى الشر بحر سحب ، وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصى فانه يحتاج فيها إلى مؤن كثيرة لايتيسر تحصيلها فى الأكثر فلذلك كان الأولى ترك الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والإنصات والاصاخة فأما الصمت فهو أعمها لأنه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لايقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لايقال له إنصات قال تعالى (فاستمعوا له وأنصتوا) والاصاخة استماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد . واعلم أن الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته ولولاه لما سأل كليم الله ذلك فى قوله تعالى (واحلل عقدة من لسانى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين (الأول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى إزالته (الثانى) السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذى يزول ملكى على يده فقالت آسية إنه صبى لايعقل وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لأن اليد آلة أخذ العصا وهى الحجة

واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق هنا ؟ ومنهم من قال احترقت اليددون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لأن الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا معاً لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أنه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع فى أداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لأن العقدة فى اللسان قد تفضى إلى الإستخفاف بقائلها وعدم الإلتفات إليه (وثالثها) إظهاراً للمعجزة فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزاً فى حقه فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه (ورابعها) طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسر جداً فاذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية ، فسأل ربه إزالة تلك العقـــدة تخفيفاً وتسهيلا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحسن رحمه الله إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وهو ضعيف لأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال (واحلل عقدة من لسانى) فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله ، والحق أنه انحل أكثر العقد وبقى منها شىء قليل لقوله (حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى يقارب أن لا يبين وفى ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لا يأتى ببيان ولا حجة (والثانى) أن كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لأنه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل إنما قال ذلك تمويهاً ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة إنما قال (واحلل عقدة من لسانى) لأن حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) فلما كان ذلك حقا ليتيم أبى طالب لا جرم ما دار حوله والله أعلم .

﴿ المطلوب الرابع ﴾ قوله (واجعل لى وزيراً من أهلى) واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة فى أمر الدعاء إلى الله ولذلك قال عيسى ابن مريم (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقال عليه السلام « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ، فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الأرض أبو بكر وعمر » وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوزير من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر

وهو الجبل الذى يتحصن به لأن الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض إليه أموره أومن الموازرة وهى المعاونة ، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب قاله الأصمعى وكان القياس أزيراً فقبلت الهمزة إلى الواو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال عليه السلام « إذا أراد الله بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً إن نسى ذكره وإن نوى خيراً أعانه وإن أراد شراً كفه » وكان أنو شروان يقول : لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل الإستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى إلى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير ؟ وأيضاً فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له فى النبوة فقال (وأشركه فى أمرى) فكيف يكون وزيراً . والجواب : عن الأول أن التعاون على الأمر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء إلى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقاً بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه مايمكن من الثقل فى الإبلاغ .

﴿ المطلوب الخامس ﴾ أن يكون ذلك الوزير من أهله أى من أقاربه .

﴿ المطلوب السادس ﴾ أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هرون وإنما سأل ذلك لوجهين (أحدهما) أن التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله ، أو لأن كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له ، وقوله هرون فى انتصابه وجهان (احدهما) أنه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخى وزيراً لى (والثانى) على البدل من وزيراً وأخى نعت لهرون أوبدل . واعلم أن هرون عليه السلام كان مخصوصاً بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى (وأخى هرون هو أفصح منى لساناً) ومنها أنه كان فيه رفق قال (يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) ومنها أنه كان أكبر سناً منه .

﴿ المطلوب السابع ﴾ قوله (أشدد به أزرى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القراءة العامة (أشدد به . وأشركه) على الدعاء ، وقرأ ابن عامر وحده (أشدد ، وأشركه) على الجزاء والجواب ، حكاية عن موسى عليه السلام أى أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل (أخى) مرفوعا على الابتداء (وأشدد به) خبره ويوقف على هرون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأزر القوة وآزره قواه قال تعالى (فآزره) أى أعانه قال أبو عبيدة (أزرى) أى ظهرى وفى كتاب الخليل (الأزر) الظهر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيراً له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصراً له لأنه لا اعتماد على القرابة .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى «٣٦» وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى «٣٧»
إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى «٣٨» أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ
الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى
عَيْنِي «٣٩» إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى
أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى «٤٠» وَاصْطَنَعْتُكَ
لِنَفْسِي «٤١» إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي «٤٢» إِذْهَبَا إِلَى

﴿ المطلوب الثامن ﴾ قوله (وأشركه فى أمرى) والأمر ههنا النبوة ، وإنما قال ذلك لأنه عليه السلام علم أنه يشد به عضده وهو أكبر منه سناً وأفصح منه لساناً ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً) والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وأن يكون بالاعتقاد ، وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به ، وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك أن النفى مقدم على الإثبات ، أما قوله تعالى (إنك كنت بنا بصيراً) ففيه وجوه : (أحدها) إنك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحداً سواك (وثانيها) (كنت بنا بصيراً) لأن هذه الاستعانة بهذه الأشياء لأجل حاجتى فى النبوة اليها (وثالثها) إنك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا ، وإنما قيد الدعاء بهذا إجلالا لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضاً للأمر بالكلية إليه .

قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واصطنعتك لنفسى ، إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ،

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى «٤٣» فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى «٤٤»

إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾.

إعلم أن السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول، واعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الأمور الثمانية ، وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل إلا باجابته اليها ، لاجرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أقدر على الابلاغ على الحد الذى كلف به فقال (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال (ولقد مننا عليك مرة أخرى) فنبه بذلك على أمور : (أحدها) كأنه تعالى قال إنى راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) إنى كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك رداً بعد القبول وإساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى (وثالثها) إنا لما أعطيناك فى الأزمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة إلى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف ؟ (والجواب) إنما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصلت اليه ما كان مستحقاً لشىء منها بل إنما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والإحسان .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة ؟ (والجواب) لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لأن ذلك قد يقال فى القليل والكثير . واعلم أن المنن المذكورة ههنا ثمانية : (المنة الأولى) قوله (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له) أما قوله (إذ أوحينا) فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليه السلام ما كانت من الأنبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحى هو الوحى الواصل إلى الأنبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعى رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم) وهذا صريح فى الباب ، وأيضاً فالوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) وقال : (وإذ أوحيت إلى الحواريين) ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه : (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) أن المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع إليه ظهر له الرأى الذى هو أقرب إلى الخلاص ويقال لذلك الخاطر إنه وحى (وثالثها) المراد منه الالهام لكننا

متى خشنا عن الإلهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه الثانى وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لأجل الصيانة عن الثانى (والجواب) لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان إفضاء الإلقاء فى البحر إلى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون (ورابعها) لعله أوحى إلى بعض الأنبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم إن ذلك النبى عرفها ، إما مشافهة أو مراسلة ، واعترض عليه بان الأمر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها (والجواب) أن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مراراً (وخامسها) لعل الأنبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر إلى تلك المرأة (وسادسها) لعل الله تعالى بعث إليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم فى قوله (فتمثل لها بشراً سوياً) وأما قوله (مايوحى) فمعناه وأوحينا إلى أمك مايجب أن يوحى وإنما وجب ذلك الوحى لأن الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل إلى معرفة المصلحة فيها إلا بالوحى فكان الوحى واجباً أما قوله تعالى (أن اقذفيه) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن هى المفسرة لأن الوحى بمعنى القول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القذف مستعمل فى معنى الإلقاء والوضع ومنه قوله تعالى (وقذف فى قلوبهم الرعب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أنها اتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ بتابوت يجىء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبى من أصبح الناس وجهاً فلما رآه فرعون أحبه وسيأتى تمام القصة فى سورة القصص ، قال مقاتل إن الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون ،

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع واليم إسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لأن الماء يسحله أى يقذفه إلى أعلاه .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يؤدى إلى تنافر النظم فإن قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل قلنا لابأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام

فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر .

﴿ المسألة السابعة ﴾ لما كان تقدير الله تعالى أن يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت إلى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله (يأخذه عدو لى وعدو له) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (يأخذه) جواب الأمر أى اقذفيه يأخذه .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى كيفية الأخذ قولان (أحدهما) أن امرأة فرعون كانت بحيث تستسقى الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه إياه (الثانى) أن البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر إلى بركة فرعون فلما رآه أخذه .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (يأخذه عدو لى وعدو له) فيه إشكال وهو أن موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى (وجوابه) أما كونه عدواً لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدواً لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث إنه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل أنه من حيث يؤول أمره إلى ما آل إليه من العداوة (المنة الثانية) قوله (وألقيت عليك محبة منى) وفيه قولان : (الأول) وألقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى (منى) لايخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب ، وإما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثانى ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أى وألقيت عليك محبة حاصلة منى واقعة بخلقى فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت (قرة عين لى ولك لاتقتلوه) يروى أنه كانت على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لايكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى (سيجعل لهم الرحمن وداً) قال القاضى هذا الوجه أقرب لأنه فى حال صغره لايكاد يوصف بمحبة الله تعالى التى ظاهرها من جهة الدين لأن ذلك إنما يستعمل فى المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد أن ما ذكرنا من كيفيته فى الخلقة يستحلى ويغتبط فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما فى التربية مالا مزيد عليه ويمكن أن يقال بل الاحتمال الأول أرجح لأن الاحتمال الثانى يحوج إلى الإضمار وهو أن يقال وألقيت عليك محبة حاصلة منى وواقعة بتخليقى وعلى التقدير الأول لا حاجة إلى هذا الإضمار بقى قوله إنه حال صباه لايحصل له محبة الله تعالى قلنا لانسلم فإن محبة الله تعالى يرجع معناها إلى إيصال النفع إلى عباده وهذا المعنى كان حاصلا فى حقه فى حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر إلى آخر عمره فلا جرم أطلق عليه لفظ المحبة (المنة الثالثة) قوله (ولتصنع على عينى) قال القفال لتربى على عينى أى على وفق إرادتى ، ومجاز هذا أن من صنع لإنسان شيئاً وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه أن يفعل مايخالف غرضه فكذا ههنا وفى كيفية المجاز قولان (الأول) المراد من العين العلم أى ترى على علم منى ولما كان العالم بالشيء يحرسه عن الآفات

كما أن الناظر إليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثانى) المراد من العين الحراسة وذلك لأن الناظر إلى الشىء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً وهو كقوله تعالى (إننى معكما أسمع وأرى) ويقال عين الله عليك إذا دعا لك بالحفظ والحياطة ، قال القاضى ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله (ولتصنع على عينى الحفظ والحياطة) كقوله تعالى (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له ، بقى ههنا بحثان :

﴿ الأول ﴾ الواو فى قوله (ولتصنع على عينى) فيه ثلاثة أوجه (أحدها) كأنه قيل (ولتصنع على عينى) ألقيت عليك محبة منى ثم يكون قوله (إذ تمشى أختك) متعلقاً بأول الكلام وهو قوله (ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك مايوحى) وإذ تمشى أختك (وثانيها) يجوز أن يكون قوله (ولتصنع على عينى) متعلقاً بما بعده وهو قوله (إذ تمشى) وذكرنا مثل هذين الوجهين فى قوله (وليكون من الموقنين) . (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أى وألقيت عليك محبة منى لتصنع وهذا ضعيف .

﴿ الثانى ﴾ قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر وقرىء ولتصنع بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك وتصرفك على علم منى (المنة الرابعة) قوله (إذ تمشى أختك) واعلم أن العامل فى إذ تمشى ألقيت أو تصنع . يروى أنه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاماً فى النيل وكان لا يرتضع من ثدى كل امرأة يؤتى بها لأن الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا إلى تتبع النساء فلما رأت ذلك أخت موسى جاءت إليهم متنكرة فقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) ثم جاءت بالأم فقبل ثديها فرجع إلى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى (فرجعناك إلى أمك) أى رددناك ، وقال فى موضع آخر (فرددناه إلى أمه) وهو كقوله (قال رب ارجعون) أى ردونى إلى الدنيا . أما قوله (كى تقر عينها ولا تحزن) فالمراد أن المقصود من ردك إليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها . فإن قيل لو قال كى لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيداً لأنه لا يلزم من نفى الحزن حصول السرور لها . وأما لما قال أولا كى تقر عينها كان قوله بعد ذلك (ولا تحزن) فضلا لأنه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة ، قلنا المراد أنه تقر عينها بسبب وصولك إليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك (والمنة الخامسة) قوله (وقتلت نفساً فنجيناك من الغم) فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفساً وهو الرجل الذى قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلى عليه وكان قبطياً فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه ما حكى الله تعالى عنه (فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب) والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين ، أما من فرعون فحين وفق له المهاجرة إلى مدين

وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله (وفتناك فتوناً) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ فى قوله (فتوناً) وجهان (أحدهما) أنه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقاً وذلك على مذهبهم فى تأكيد الأخبار بالمصادر كقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) ، (والثانى) أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور فى حجزة وبدرة أى فتناك ضروباً من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الأول) أن الله تعالى عدد أنواع مننه على موسى عليه السلام فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله (وفتناك فتوناً) (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى (فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) وقال تعالى (آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فالزلزلة المذكورة فى الآية ومس البأساء والضراء هى الفتنة والفتون ، ولما كان التشديد فى المحنة مما يوجب كثرة الثواب لاجرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) (فتناك فتونا) أى خلصناك تخليصاً من قولهم : فتنت الذهب من الفضة إذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف له نهاراً يا ابن جبير . ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الوارة فى شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بنى اسرائيل ثم قصة إلقاء موسى عليه السلام فى اليم والتقاط آل فرعون إياه وامتناعه من الارتضاع من الأجانب ، ثم قصة أن موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة فى فيه . ثم قصة قتل القبطى ؛ ثم هربه الى مدين وصيرورته أجيراً لشعيب عليه السلام، ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق فى الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله (وفتناك فتونا) والجواب لا لأنه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالاينبغى (المنة السابعة) قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى) واعلم أن التقدير (وفتناك فتونا) فخرجت خائفاً الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم . أما مدة اللبث فقال أبو مسلم إنها مشروحة فى قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين ـ الى قوله ـ فلما قضى موسى الأجل) وهى إما عشرة وإما ثمان لقوله تعالى (على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشراً فمن عندك) وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانياً وعشرين سنة منها عشر سنين

مهر امرأته ، والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ماينفى الزيادة على العشر ، واعلم أن قوله (فلبثت سنين فى أهل مدين) بعد قوله (وفتناك فتونا) كالدلالة على أن لبثه فى مدين من الفتون وكذلك كان ، فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محناً كثيرة ، واحتاج إلى أن آجر نفسه ، أما قوله تعالى (ثم جئت على قدر ياموسى) فلا بد من حذف فى الكلام لأنه على قدر أمر من الأمور ، وذكروا فى ذلك المحذوف وجوها (أحدها) أنه سبق فى قضائى وقدرى أن أجعلك رسولا لى فى وقت معين عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر لا قبله ولا بعده ، ومنه قوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) ، (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) أن القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ، ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد ، فان قيل كيف ذكر الله تعالى مجىء موسى عليه السلام فى ذلك الوقت من جملة مننه عليه ، قلنا لأنه لولا توفيقه له لما تهيأ شىء من ذلك (المنة الثامنة) قوله تعالى (واصطنعتك لنفسى) والاصطناع اتخاذ الصنعة ، وهى افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أى اتخذه صنيعة ، فان قيل إنه تعالى غنى عن الكل فما معنى قوله لنفسى (والجواب) عنه من وجوه (الأول) أن هذا تمثيل لأنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلا لأن يكون أقرب الناس منزلة إليه وأشدهم قرباً منه (وثانيها) قالت المعتزلة إنه سبحانه وتعالى إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الألطاف مالا يعلم إلا سمعاً فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقى فى عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه فى أداء ماوجب على الله تعالى ، فصح أن يقول واصطنعتك لنفسى ، قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسى أى لأصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو إقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك ، واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية فى مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمراً ونهياً ، أما الأمر فهو أنه سبحانه وتعالى أعاد الأمر بالأول فقال (اذهب أنت وأخوك بآياتى) واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال (واصطنعتك لنفسى) عقبه بذكر ماله اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الباء ههنا بمعنى مع وذلك لأنهما لو ذهبا إليه بدون آية معهما لم يلزمه الإيمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) أنها اليد والعصا لأنهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع وفى سائر المواضع التى اقتص الله تعالى فيها

حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر فى شىء منها أنه عليه السلام قد أوتى قبل مجيئه إلى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه (قال فأت بآية إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) وقال (فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) فاذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الأول) أن العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فإن انقلاب العصا حيوانا آية ثم إنها فى أول الأمر كانت صغيرة لقوله تعالى (تهتز كأنها جان) ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ، ثم كانت تصير ثعباناً وهذه آية أخرى . ثم إن موسى عليه السلام كان يدخل يده فى فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى ، وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح أنهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان (الثانى) هب أن العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لأن انقلابها حية يدل على وجود إله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيواناً فهذه آيات كثيرة ولذلك قال (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا إلى قوله (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) فاذا وصف الشىء الواحد بأن فيه آيات فالشيئان أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع إثنان على ما عرفت فى أصول الفقه (القول الثانى) أن قوله (اذهبا بآياتى) معناه أنى أمدكما بآياتى وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتى معكما كما يقال اذهب فان جندى معك أى أنى أمدك بهم متى احتجت (القول الثالث) أن الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضاً معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الأمر أما النهى فهو قوله تعالى (ولا تنيا فى ذكرى) الونى الفتور والتقصير وقرىء ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع ثم قيل فيه أقوال (أحدها) المعنى لا تنيا بل اتخذا ذكرى آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى والحكمة فيه أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحداً ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف فى المقصود ، ولأن ذاكر الله تعالى لابد وأن يكون ذاكراً لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر فى أداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله (ولا تنيا فى ذكرى) عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) أن يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع إحسانه إليه ثم قال بعد ذلك (إذهبا إلى فرعون إنه طغى) وفيه سؤالان (الأول) ما الفائدة فى ذلك بعد قوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) قال القفال فيه وجهان (أحدهما) أن قوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) يحتمل أن يكون كل واحد منهما

مأموراً بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعاً لا أن ينفرد به هرون دون موسى (والثانى) أن قوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أمر بالذهاب إلى كل الناس من بنى إسرائيل وقوم فرعون، ثم إن قوله (إذهبا إلى فرعون) أمر بالذهاب إلى فرعون وحده.

﴿السؤال الثانى﴾ قوله (إذهبا إلى فرعون) خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لأن هرون عليه السلام لم يكن حاضراً هناك وكذلك فى قوله تعالى (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطاباً مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب فى تلك الحالة وإن كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه تعالى أضافه إليهما كما فى قوله (وإذ قتلتم نفساً) وقوله (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) وحكى أن القائل هو عبد الله بن أبى وحده (وثانيها) يحتمل أن الله تعالى لما قال (قد أوتيت سؤلك ياموسى) سكت حتى لقى أخاه، ثم إن الله تعالى خاطبهما بقوله (اذهبا إلى فرعون) (وثالثها) أنه حكى أنه فى مصحف ابن مسعود وحفصة (قال ربنا إننا نخاف) أى قال موسى أنا وأخى نخاف فرعون أما قوله تعالى (فقولا له قولا ليناً) ففيه سؤالان:

﴿السؤال الأول﴾ لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد (الجواب) لوجهين (الأول) أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين (الثانى) أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم فى الوعظ أن يزدادوا عتواً وتكبراً، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق.

﴿السؤال الثانى﴾ كيف كان ذلك الكلام اللين (الجواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال (هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى) وذكر أيضاً فى هذه السورة بعض ذلك فقال (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) إلى قوله (والسلام على من اتبع الهدى). (وثانيها) أن تعداه شباباً لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغنى أن فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام إن أطعتنى عمرت مثل ما عمرت فإذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة (أما الأول) فقيل لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة فى هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف (وأما الثانى) فلأن خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله (فقولا له قولا ليناً)

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى «٤٥» قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى «٤٦» فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى «٤٧» إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى «٤٨»

بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد (وأما الثالث) فالاعتراض عليه كما فى الأول أما قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) فاعلم أنه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا فى ذلك لأن ذلك محال عليه تعالى وإنما المراد: فقولا له قولا ليناً ، على أن تكونا راجيين لأن يتذكر هو أو يخشى. واعلم أن أحوال القلب ثلاثة (أحدها) الإصرار على الحق (وثانيها) الإصرار على الباطل (وثالثها) التوقف فى الأمرين ، وأن فرعون كان مصراً على الباطل وهذا القسم أردأ الأقسام فقال تعالى (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) فيرجع من إنكاره إلى الإقرار بالحق وإن لم ينتقل من الإنكار إلى الإقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الإنكار وإن كان لا ينتقل إلى الإقرار فان هذا خير من الإصرار على الإنكار واعلم أن هذا التكليف لا يعلم سره إلا الله تعالى لأنه تعالى لما علم أنه لا يؤمن قط كان إيمانه ضداً لذلك العلم الذى يمتنع زواله فيكون سبحانه عالما بامتناع ذلك الإيمان وإذا كان عالماً بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ فى ذلك الأمر بتلطيف دعوته إلى الله تعالى مع علمه استحالة حصول ذلك منه ؟ ثم هب أن المعتزلة ينازعون فى هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة فى هذا السؤال ولكنهم سلموا أنه كان عالماً بأنه لا يحصل ذلك الإيمان وسلموا أن فرعون لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام إلا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكيناً إلى من علم قطعاً أنه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول إنى ما أردت بدفع السكين إليه إلا الإحسان إليه ؟ يا أخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الأسرار ولا سبيل فيها إلا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان ، ويروى عن كعب أنه قال والذى يحلف به كعب إنه لمكتوب فى التوراة : فقولا له قولا ليناً وسأقسى قلبه فلا يؤمن .

قوله تعالى ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

إعلم أن قوله (قالا ربنا إننا نخاف) فيه أسئلة :

﴿السؤال الأول﴾ قوله (قالا ربنا) يدل على أن المتكلم بذلك موسى وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضراً هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن موسى عليه السلام قال (رب اشرح لى صدرى) فأجابه الله تعالى بقوله (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وهذا يدل على أنه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده (إننا نخاف) فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (والجواب) أن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الأوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليه السهو والتحريف وذلك شىء آخر غير زوال الخوف .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة أنه تعالى يؤمنهما من القتل الذى هو مقطعة عن الأداء (الجواب) قد أمنا ذلك وإن جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الأداء أو بعده وأيضاً فانهما استظهرا بأن سألا ربهما مايزيد فى ثبات قلبهما على دعائه وذلك بأن ينضاف الدليل النقلى إلى العقلى زيادة فى الطمأنينة كما قال (ولكن ليطمئن قلبى) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لما تكرر الأمر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الأمر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وإزالة الغم ولكن ليس الأمر على الفور نزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الآمر لا يقتضى الفور إذا ضممت إليه مايدل على أن المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى (أن يفرط علينا أو أن يطغى) فاعلم أن فى (أن يفرط) وجوهاً (أحدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذى يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) أنه مأخوذ من أفرط غيره إذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو إما الشيطان أو إدعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم (قال الملأ من قومه) (وثالثها) يفرط من الإفراط فى الأذية أما قوله (أو أن يطغى) فالمعنى يطغى بالتخطى إلى أن يقول فيك مالا ينبغى لجراءته عليك واعلم أن من أمر بشىء فحاول دفعه بأعذار يذكرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الأقوى وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) فكذا ههنا بدأ موسى بقوله (أن يفرط علينا) وختم بقوله (أو أن يطغى) لما أن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من إفراطه فى حق موسى وهرون عليهما السلام أما قوله (قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) فالمراد لا تخافا مما عرض فى قلبكما من الإفراط والطغيان لأن ذلك هو المفهوم من الكلام يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله (إننى معكما) فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله (أسمع وأرى) فان من يكون مع الغير وناصراً له وحافظاً

يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وإنما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم فى جميع ما ينالهما وذلك هو النهاية فى إزالة الخوف قال القفال قوله (أسمع وأرى) يحتمل أن يكون مقابلا لقوله (أن يفرط علينا أو أن يطغى) والمعنى (يفرط علينا) بأن لا يسمع منا (أو أن يطغى) بأن يقتلنا فقال الله تعالى (إننى معكما) أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعاً وبصيراً صفتان زائدتان على العلم لأن قوله (إننى معكما) دل على العلم فقوله (أسمع وأرى) لو دل على العلم لكان ذلك تكريراً وهو خلاف الأصل ثم إنه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لأنه سبحانه وتعالى قال فى المرة الأولى (لنريك من آياتنا الكبرى إذهب إلى فرعون) وفى الثانية (إذهب أنت وأخوك) وفى الثالثة (قال إذهبا إلى فرعون) وفى الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل إنه تعالى أمرهما فى المرة الثانية بأن يقولا له (قولا ليناً) وفى هذه المرة الرابعة أمرهما (أن يقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل) وفيه تغليظ من وجوه : (أحدها) أن قوله (إنا رسولا ربك) فيه إبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (فأرسل معنا بنى اسرائيل) فيه إدخال النقص على ملكه لأنه كان محتاجاً اليهم فيما يريده من الأعمال من بناء أو غيره .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (ولا تعذبهم) .

﴿ البحث الرابع ﴾ قوله (قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة فى التليين أولا والتغليظ ثانياً ؟ قلنا لأن الإنسان إذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا إنا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم . لأن ذكر المعجز مقرونا بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه ؟ قلنا بل هذا أولى من تأخيره عنه لأنهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة . أما قوله (قد جئناك بآية من ربك) ففيه سؤال وهو أنه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال (إذهب أنت وأخوك بآياتى) وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا (جئناك بآية) وهذا يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع ؟ أجاب القفال بأن معنى الآية الإشارة إلى جنس الآيات كأنه قال (قد جئناك ببيان من عند الله) ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججاً كثيرة ، وأما قوله (والسلام على من اتبع الهدى) فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال : فقولا إنا رسولا ربك ، وقولا له : والسلام على من اتبع الهدى ، وقال آخرون بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله (قد جئناك بآية من ربك) فقوله بعد ذلك (والسلام على من اتبع الهدى) وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة ، والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى «٤٩» قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى «٥٠» قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى «٥١» قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى «٥٢» الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى «٥٣» كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَى «٥٤» مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى «٥٥»

(لهم اللعنة ولهم سوء الدار) على معنى عليهم وقال تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وفى موضع آخر (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) . أما قوله (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لأن الألف واللام فى قوله (العذاب) تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية وعلى التقديرين يقتضى انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب فى غير المكذب المتولى أن لا يحصل هذا الجنس أصلا ، وظاهر هذه الآية يقتضى القطع بأنه لا يعاقب أحداً من المؤمنين بترك العمل به فى بعض الأوقات فوجب أن يبقى على أصله فى نفى الدوام لأن العقاب المتناهى إذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال إنه لا عقاب ، وأيضا فقوله (والسلام على من اتبع الهدى) ، وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضى حصول السلامة لكل من اتبع الهدى ، والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة .

قوله تعالى ﴿ قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

إعلم أنهما عليهما السلام لما قالا : إنا رسولا ربك قال لهما : فمن ربكما ياموسى ، فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم إن موسى عليه

السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الاسلام والعلم ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الإله من قول الرسول لأن موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تدل الآية على أنه يجوز حكاية كلام المبطل لأنه تعالى حكى كلام فرعون فى إنكاره الإله وحكى شبهات منكرى النبوة وشبهات منكرى الحشر ، إلا أنه يجب أنك متى أوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى فى هذه المواضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله فى قوله (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى أن فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل إنه كان عارفاً إلا أنه كان يظهر الإنكار تكبراً وتجبراً وزوراً وبهتاناً ، واحتجوا عليه بستة أوجه (أحدها) قوله (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض) فمتى نصبت التاء فى علمت كان ذلك خطاباً من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على أن فرعون كان عالماً بذلك وكذا قوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) (وثانيها) أنه كان عاقلا وإلا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا قد علم بالضرورة أنه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر إلى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام ههنا (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وكلمة الذى تقتضى وصف المعرفة بجملة معلومة فلابد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله فى سورة القصص فى صفة فرعون وقومه وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بالمبدأ إلا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) أن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام إلى مدين قال له شعيب (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) فمع هذا كيف يعتقد أنه إله العالم ؟ (وسادسها) أنه لما قال (ومارب العالمين) قال موسى عليه السلام (رب السموات والأرض وما بينهما) قال (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) يعنى أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف

فهو لم ينازع موسى فى الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه بأصل الوجود . ومن الناس من قال إنه كان جاهلا بربه واتفقوا على أن العاقل لايجوز أن يعتقد فى نفسه أنه خالق هذه السموات والأرضين والشمس والقمر وأنه خالق نفسه لأنه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة أنها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضرورى بأنه ليس موجداً لها ولا خالقاً لها ، واختلفوا فى كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل أنه كان دهرياً نافياً للمؤثر أصلا ، ويحتمل أنه كان فلسفياً قائلا بالعلة الموجبة ، ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب ، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة . وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب عليهم طاعته والإنقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه سبحانه حكى عنه فى هذه السورة أنه قال (فمن ربكما يا موسى) وقال فى سورة الشعراء (وما رب العالمين) فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفى سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والأقرب أن يقال سؤال من كان مقدماً على سؤال ما لأنه كان يقول إنى أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لايمكنه أن يقاومه فى هذا المقام لظهوره وجلائه عدل إلى المقام الثانى وهو طلب الماهية وهذا أيضاً مما ينبه على أنه كان عالماً بالله لأنه ترك المنازعة فى هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع فى المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر

﴿ المسألة السادسة ﴾ إنما قال (فمن ربكما) ولم يقل فمن إلهكما لأنه أثبت نفسه رباً فى قوله (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين) فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له أنا ربك فلم تدعى رباً آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال (ربى الذى يحيي ويميت) قال نمروذ له (أنا أحيي وأميت) ولم يكن الإحياء والإماتة التى ذكرهما إبراهيم عليه السلام هما الذى عارضه بهما نمروذ إلا فى اللفظ فكذا ههنا لما أدعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده أنى أنا الرب لأنى ربيتك ومعلوم أن الربوبية التى ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية فى المعنى وأنه لا مشاركة بينهما إلا فى اللفظ .

﴿ المسألة السابعة ﴾ اعلم أن موسى عليه السلام استدل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد ﷺ فى قوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) وقال إبراهيم عليه السلام (فانهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين) وإن موسى عليه السلام فى أكثر الأمور يعول على دلائل إبراهيم عليه السلام وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الشعراء إن شاء الله تعالى واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان والهداية عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة فى تلك الأجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدماً على الهداية ولذلك قال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) فالتسوية راجعة إلى القالب ونفخ الروح إشارة

إلى إبداع القوى وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى أن قال (ثم أنشأناه خلقاً آخر) فظهر أن الخلق مقدم على الهداية ، والشروع فى بيان عجائب حكمة الله تعالى فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له . ولنذكر منه أمثلة قريبة إلى الأفهام (أحدها) أن الطبيعى يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الأشياء ثقلا الأرض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والأرض أسفلها ، ثم إنه سبحانه قلب هذا الترتيب فى خلقة الإنسان فجعل أعلى الأشياء منه العظم والشعر وهما أيبس مافى البدن وهما بمنزلة الأرض ثم جعل تحته الدماغ الذى هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذى هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التى فى القلب التى هى بمنزلة النار فجعل مكان الأرض من البدن الأعلى وجعل مكان النار من البدن الأسفل ليعرف أن ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك إذا نظرت إلى عجائب النحل فى تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض فى اهتدائها إلى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لايمكن إلا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) أنه تعالى هو الذى أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار ويركبون الأدوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الأشياء المختلفة فيستخرجون لذات الأطعمة فثبت أنه سبحانه هو الذى خلق كل الأشياء ثم أعطاهم العقول التى بها يتوصلون إلى كيفية الانتفاع بها ، وهذا غير مختص بالإنسان بل عام فى جميع الحيوانات فأعطى الإنسان إنسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الأولاد لثدى الأمهات ، بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل فى أعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الأخذ وخلق الرجل على تركيب خاص وأودع فيها قوة المشى وكذا العين والأذن ، وجميع الأعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد ، وهو الإنسان . وإنما دلت هذه الأشياء على وجود الصانع سبحانه لأن اتصاف كل جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة أعنى التركيب والقوة والهداية ، إما أن يكون واجباً أو جائزاً والأول باطل لأنا نشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على أن ذلك جائز ، والجائز لابد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الإنسان ولا أبواه لأن فعل ذلك يستدعى قدرة عليه وعلماً بما فيه من المصالح والمفاسد ،والأمران نائيان عن الإنسان لأنه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة ، وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لايعرف من منافع الأعضاء ومصالحها إلا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لأن الأجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لابد وأن يكون جائزاً وإن كان جائزاً افتقر إلى سبب آخر والدور والتسلسل محالان .فلا بد من الانتهاء فى سلسلة الحاجة

إلى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسمانى ، ثم تأثير ذلك المؤثر إما أن يكون بالذات أو بالاختيار ، والأول محال لأن الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الأجسام متساوية فى الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية ؟ فثبت أن المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الأفعال العجيبة إلا إذا كان عالما ، ثم إن هذا المدبر الذى ليس بجسم ولا جسمانى لابد وأن يكون واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته وإلا لافتقر إلى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال ، وإذا كان واجب الوجود فى قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب [أن] يكون عالما بكل ماصح أن يكون معلوما وقادراً على كل ماصح أن يكون مقدوراً فظهر بهذه الدلالة التى تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم إلى مدبر ليس بجسم ولا جسمانى وهو واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ أن فرعون خاطب الاثنين بقوله (فمن ربكما) ثم وجه النداء إلى أحدهما وهو موسى عليه السلام لأنه الأصل فى النبوة وهرون وزيره وتابعه . وإما لأن فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التى فى لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التى فى لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ فى قوله (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شىء الشكل الذى يطابق منفعته ومصلحته ، وقرىء خلقه صفة للمضاف أو المضاف اليه ، والمعنى أن كل شىء خلقه الله لم يخله من إعطائه وإنعامه ، وأما قوله تعالى (قال فما بال القرون الأولى) فاعلم أن فى ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) أن موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدأ والمعاد قال فرعون إن كان إثبات المبدأ فى هذا الحد من الظهور (فما بال القرون الأولى) ماأثبتوه وتركوه ؟ فكان موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على إثبات الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله إن كان الأمر فى قوة هذه الدلالة على ماذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) أن موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا فى قوله (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) فقال فرعون (فما بال القرون الأولى) فانها كذبت ثم إنهم ماعذبوا ؟ (وثالثها) وهو الأظهر أن فرعون لما قال (فمن ربكما ياموسى) فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهراً وبرهاناً باهراً على هذا المطلوب

فقال (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) فخاف فرعون أن يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال (فما بال القرون الأولى) فلم يلتفت موسى عليه السلام إلى ذلك الحديث بل قال (علمها عند ربى فى كتاب) ولا يتعلق غرضى بأحوالهم فلا أشتغل بها ، ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول وإيراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال (الذى خلق لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا) وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى قوله (علمها عند ربى فى كتاب) فان العلم الذى يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب ؟ وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشىء قائمة به ، فأما أن تكون صفة الشىء حاصلة فى كتاب فذاك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الأول) معناه أنه سبحانه أثبت تلك الأحكام فى كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ، ولقائل أن يقول قوله (فى كتاب) يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم إلى ذلك الكتاب وهذا وإن كان غير واجب لامحالة ولكنه لاأقل من أنه يوهمه فى أول الأمر لاسيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة ؟ (الوجه الثانى) أن تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لايزول شىء منها عن علمه ، وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك (لا يضل ربى ولا ينسى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى قوله (لا يضل ربى ولا ينسى) فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أى لايذهب عليه شىء ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والأكثرون على الفرق بينهما ، ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الأحسن ما قاله القفال لايضل عن الأشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الأول إشارة الى كونه عالماً بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو إشارة إلى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لايخطىء ذلك الكتاب ربى ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطىء وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لايغيب عن شىء ولا يغيب عنه شىء (وخامسها) قال ابن جرير لايخطىء فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صواباً وإذا عرفه لاينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الأول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه لما سأله عن الإله وقال (فمن ربكما ياموسى) وكان ذلك مما سبيله الإستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى . ولما سأله عن شأن القرون الأولى وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب . واعلم أن موسى عليه السلام

لما ذكر الدلالة الأولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (أولها) قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض مهداً) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ أهل الكوفة ههنا وفى الزخرف (مهداً) والباقون قرؤا مهاداً فيهما قال أبو عبيدة الذى أختاره مهاداً وهو إسم والمهد إسم الفعل ، وقال غيره المهد الإسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش أجاب ، أبو عبيدة بأن الفراش إسم والفرش فعل ، وقال المفضل هما مصدران لمهد إذا وطأ له فراشاً يقال مهد مهداً ومهاداً وفرش فرشاً وفراشاً .

﴿البحث الثانى﴾ قال صاحب الكشاف (الذى جعل) مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو لأنه صفة لربى أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه . واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبراً لمبتدأ محذوف إذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

﴿البحث الثالث﴾ المراد من كون الأرض مهداً أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء) (وثانيها) قوله تعالى (وسلك لكم فيها سبلا) قال صاحب الكشاف سلك من قوله (ماسلككم فى سقر كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين) أى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى (وثالثها) قوله (وأنزل من السماء ماء) والكلام فيه قد مر فى سورة البقرة أما قوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (فأخرجنا) فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) أن عند قوله (وأنزل من السماء ماء) تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الأول بقوله (فأخرجنا به) ثم يدل على هذا الاحتمال قوله (كلوا وارعوا أنعامكم) . (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها . أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) واعلم أن قوله (فأخرجنا) إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والأول باطل لأن قوله بعد ذلك (كلوا وارعوا أنعامكم إن فى

ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم) لا يليق بموسى عليه السلام وأيضاً فقوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) لا يليق بموسى لأن أكثر مافى قدرة موسى عليه السلام صرف المياه إلى سقى الأراضى وأما إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت أن هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) لأن الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ماقبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله (لايضل ربى ولا ينسى) ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله (الذى جعل لكم الأرض مهداً) ويكون التقدير هو الذى (جعل لكم الأرض مهداً) فيكون الذى خبر مبتدأ محذوف ويكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب إلتفاتاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه إنما يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء فيكون للماء فيه أثر وهذا بتقدير ثبوته لايقدح فى شىء من أصول الإسلام لأنه سبحانه وتعالى هو الذى أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لاتأثير له فيه البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (أزواجاً) أى أصنافاً سميت بذلك لأنها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض (شتى) صفة للأزواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمى به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله (كلوا وارعوا أنعامكم) فهو حال من الضمير فى أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها . وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) وقوله (كلوا) أمر إباحة (إن فى ذلك) أى فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أى لدلالات لذوى النهى أى العقول والنهية العقل قال أبو على الفارسى النهى يجوز أن يكون مصدراً كالهدى ويجوز أن يكون جمعاً أما قوله (منها خلقناكم) فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الأرض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل إلى منافع الآخرة فقال (منها خلقناكم) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ مامعنى قوله (منها خلقناكم) مع أنه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على مابين ذلك فى سائر الآيات (والجواب) من وجهين (الأول) أنه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ماقال (كمثل آدم خلقه من تراب) لاجرم أطلق ذلك علينا (الثانى) أن تولد الانسان إنما هو من النطفة ودم الطمث وهما يتولدان من الأغذية، والغذاء إما حيوانى أو نباتى والحيوانى ينتهى إلى النبات والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح أنه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافى كوننا مخلوقين

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى «٥٦» قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى «٥٧» فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى «٥٨»

من النطفة (والثالث) ذكرنا فى قوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الأرحام) خبر ابن مسعود أن الله يأمر ملك الأرحام أن يكتب الأجل والرزق والأرض التى يدفن فيها وأنه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ظاهر الآية يدل على أن الشىء قد يكون مخلوقاً من الشىء وظاهر قول المتكلمين يأباه (والجواب) إن كان المراد من خلق الشىء من الشىء إزالة صفة الشىء الأول عن الذات واحداث صفة الشىء الثانى فيه فذلك جائز لأنه لا منافاة فيه ، أما قوله تعالى (وفيها نعيدكم) فلا شبهة فى أن المراد الاعادة إلى القبور حتى تكون الأرض مكاناً وظرفاً لكل من مات إلا من رفعه الله إلى السماء ، ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضاً بعد ذلك ، أما قوله تعالى (ومنها نخرجكم تارة أخرى) ففيه وجوه : (أحدها) وهو الأقرب (ومنها نخرجكم) يوم الحشر والبعث (وثانيها) ومنها نخرجكم تراباً وطيناً ثم نحييكم بعد الاخراج وهذا مذكور فى بعض الأخبار (وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وأنه ترد روحه فى جسده ويرد إلى الأرض وأنه تعالى يقول عند إعادتهم إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» واعلم أن الله تعالى عدد فى هذه الآيات منافع الأرض وهى أنه تعالى جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلف دوابهم وهى أصلهم الذى منه يتفرعون ثم هى كفاتهم إذا ماتوا ، ومن ثم قال عليه السلام «بروا بالأرض فانها بكم برة» .

قوله تعالى ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لانخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين أنه أرى فرعون الآيات كلها ثم إنه لم يقبلها واختلفوا فى المراد بالآيات ، فقال بعضهم أراد كل الأدلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة ، أما التوحيد فما ذكر فى هذه السورة من قوله (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم الأرض مهداً)

الآية ، وما ذكر فى سورة الشعراء (قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض) الآيات ، وأما النبوة فهى الآيات التسع التى خص الله بها موسى عليه السلام وهى العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ، ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهى هذه المعجزات ، وإنما أضاف الآيات إلى نفسه سبحانه وتعالى مع أن المظهر لها موسى عليه السلام لأنه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح إلى نفسه فقال (فنفخنا فيها من روحنا) مع أن النفخ كان من جبريل عليه السلام ، فان قيل قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لأن من جملة الآيات ما أظهرها على الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وإن كان للعموم لكن قد يستعمل فى الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شىء أو يقال إن موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الأنبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه أنه كذب وأبى قال القاضى الإباء الامتناع وإنه لا يوصف به إلا من يتمكن من الفعل والترك ولأن الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى ولو لم يقدر على ماهو فيه لم يصح ، واعلم أن هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله (إلا إبليس أبى واستكبر) والجواب مذكور هناك ، ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهى قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لأنه ألقى فى مسامعهم مايصيرون به مبغضين له جداً وهو قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان فى النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساوياً للقتل فى قوله (أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم) ثم لما صاروا فى نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى أن ما جئتنا به سحر لامعجز ، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال (فلنأتينك بسحر مثله) أما قوله تعالى (فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت) فاعلم أن الموعد يجوز أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون اسما لمكان الوعد كقوله (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) وأن يكون اسما لزمان الوعد كقوله (إن موعدهم الصبح) والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر أى اجعل بيننا وبينك وعداً لانخلفه لأن الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف ، أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ، ومما يؤكد ذلك أن الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان ، وإنما نصب مكانا لأنه هو المفعول الثانى للجعل والتقدير أجعل مكان موعد لانخلفه مكاناً سوى أما قوله (سوى) فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر (سوى) بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى ، وقرىء أيضاً منونا وغير منون . وذكروا فى معناه وجوها :

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى «٥٩» فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى «٦٠» قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى «٦١» فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى «٦٢»

(أحدها) قال أبو على مكانا تستوى مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفاً بيننا (وثانيها) قال ابن زيد (سوى) أى مستوياً لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الأول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعاً مستوياً لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجرى (وثالثها) مكانا يستوى حالنا فى الرضاء به (ورابعها) قال الكلبى مكاناً سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن .

قوله تعالى ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾ إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن قوله تعالى (قال موعدكم) أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام ، قال القاضى والأول أظهر لأنه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام ، وعندى الأظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) أنه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعداً (وثانيها) وهو أن تعيين يوم الزينة يقتضى إطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه إنما يليق بالمحق الذى يعرف أن اليد له لا المبطل الذى يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس (وثالثها) أن قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون إلى موسى وهرون لزم إما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على أن أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه استقام الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج إذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله (وأن يحشر الناس ضحى) معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع أن يكون رفعاً ويجوز فيه الخفض عطفاً على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل ألستم قلتم فى تفسير قوله (اجعل بيننا وبينك موعداً) أن التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكاناً سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان ؟ قلنا هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً

لأنهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان معين مشهود باجتماع الناس فى ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر المفسرون فى يوم الزينة وجوهاً (أحدها) أنه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء ، وإنما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم ، وقرىء وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يافرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة ، إما على العادة التى تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله (موعدكم) وجعل ضمير يحشر لفرعون وإنما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد فى المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الأمر العجيب فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر ، قال القاضى إنه عين اليوم بقوله (يوم الزينة) ثم عين من اليوم وقتاً معيناً بقوله (وأن يحشر الناس ضحى) أما قوله (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) فاعلم أن التولى قد يكون إعراضاً وقد يكون إنصرافاً والظاهر ههنا أنه بمعنى الإنصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذى تواعدوا للاجتماع فيه ، قال مقاتل فتولى أى أعرض وثبت على إعراضه عن الحق ودخل تحت قوله (فجمع كيده) السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة (ثم أتى) دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر إليهم وكان طول القبة سبعين ذراعاً ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شىء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً) بأن تزعموا بأن الذى جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتى ، قال الزجاج يجوز فى انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا إن افتروا على الله كذباً ويجوز على النداء كقوله (يا ويلتا أألد وأنا عجوز) . (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) وقوله (فيسحتكم بعذاب) أى يعذبكم عذاباً مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم والكسائى برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد وبنى تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال (من افترى على الله كذبا) حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال فى الدنيا أو العذاب الشديد فى الآخرة وهو المراد من قوله (فيسحتكم بعذاب) (والثانى) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله (وقد خاب من افترى) ثم بين سبحانه وتعالى أنه لما قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله (وتنازعوا أمرهم بينهم) وفى تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شىء واحد (والثانى) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل فى التنازع فرعون

قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ «٦٣» فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ «٦٤»

وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس فى الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا فى قوله (وأسروا النجوى) وجوهاً (أحدها) أنهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما إن نجواهم قالوا إن غلبنا موسى اتبعناه (والثانى) قال قتادة إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر (الثالث) قال وهب لما قال (ويلكم) الآية قالوا ماهذا بقول ساحر (القول الثانى) أنهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) وهو قول السدى (الوجه الثالث) أنهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضاً وكان نجواهم أنهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى وعلى أى وجه يجب إظهارها فيكون أوقع فى فى القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك .

قوله تعالى ﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القراءة المشهورة (إن هذان لساحران) ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوهاً أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر (إن هذين لساحران) قالوا هى قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضى الله تعالى عنه واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سئلت عن قوله (إن هذان لساحران) وعن قوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) فى المائدة ، وعن قوله (لكن الراسخون فى العلم منهم - إلى قوله - والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) فقالت ياابن أخى هذا خطأ من الكاتب ، وروى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها ، وعن أبى عمرو أنه قال إنى لأستحى أن أقرأ (إن هذان لساحران) ، (وثانيها) قرأ ابن كثير (إن هذان) بتخفيف إن وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم إن هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود (وأسروا النجوى ، أن هذان ساحران) بفتح الألف وجزم نونه [و] ساحران بغير لام (وخامسها) عن الأخفش (إن هذان لساحران) خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها

ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن أبى بن كعب (ما هذان إلا ساحران) وروى عنه أيضاً (إن هذان لساحران) وعن الخليل مثل ذلك ، وعن أبى أيضاً (إن ذان لساحران) فهذه هى القراءات الشاذة المذكورة فى هذه الآية ، واعلم أن المحققين قالوا هذه القراءات لايجوز تصحيحها لأنها منقولة بطريق الآحاد ، والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر إذ لو جوزنا إثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لأنه لما جاز فى هذه القراءآت أنها مع كونها من القرآن مانقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك ،فثبت أن تجويز كون هذه القراءآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير إلى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه ، وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه : (أحدها) أنه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى إلى القدح فى التواتر وإلى القدح فى كل القرآن وأنه باطل ، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضاً بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لايجوز أن يكون لحناً وغلطاً فثبت فساد مانقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما أن فيه لحناً وغلطاً (وثالثها) قال ابن الأنبارى إن الصحابة هم الأئمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحناً لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الإبتداع وترغيبهم فى الاتباع ، حتى قال بعضهم : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم . فثبت أنه لابد من تصحيح القراءة المشهورة ، واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها : (الوجه الأول) وهو الأقوى أن هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب ، والزجاج نسبها إلى كنانة وقطرب نسبها إلى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ، ونسبها ابن جنى إلى بعض بنى ربيعة أيضاً وأنشد الفراء على هذه اللغة :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وأنشد غيره :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابى التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بنى أسد أنه قال هذا خط يدا أخى أعرفه ، وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بنى ضبة جاهلى :

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء .

وقال آخر :

طاروا علاهن فطر علاها واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر :

كأن صريف ناباه إذا ما أمرهما صرير الأخطبان

قال بعضهم : الأخطبان ذكر الصردان ، فصيرهما واحداً فبقى الاستدلال بقوله صريف ناباه ، قال وأنشدنى يونس لبعض بنى الحرث :

كأن يمينا سحبل ومصيفه مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضاً :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب :

هناك أن تبكى بشعشعان رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وإن كان قليلا أقيس لأن ما قبل حرف التثنية مفتوح ، فينبغى أن يكون ما بعده ألفاً ولو كان ما بعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفاً لانفتاح ما قبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فراراً إلى الألف التى هى أخف حروف المد هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضاً الألف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لأن ما بالذات لا يزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن لا يجوز أن يقال (إن هذين) فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال إن هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال إن ههنا بمعنى نعم قال الشاعر :

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

أى فقلت نعم فالهاء فى إنه هاء السكت كما فى قوله تعالى (هلك عنى سلطانيه) وقال أبو ذؤيب :

شاب المفارق إن إن من البلى شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم إن من البلى فصار إن كأنه قال نعم هذان لساحران . واعترضوا عليه فقالوا اللام لا تدخل فى الخبر على الاستحسان إلا إذا كانت إن داخلة فى المبتدأ ، فأما إذا لم تدخل أن على المبتدأ فمحل اللام المبتدأ إذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو ، وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الأول) لانسلم أن اللام لا يحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله :

أم الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر :

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

وأنشد قطرب :

ألم تكن حلفت بالله العلى أن مطاياك لمن خير المطى

وإن رويت إن بالكسر لم يبق الاستدلال إلا أن قطرباً قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضاً فقد

أدخلت اللام فى خبر أمسى ، قال ابن جنى أنشدنا أبو على :

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم   فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول : أراك المسالمى وإنى رأيته لشيخاً وزيد والله لواثق بك وقال كثير :

وما زلت من ليلى لدن أن عرفتها   لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر :   ولكننى من حبها لعميد

وقال المعترض هذه الأشعار من الشواذ وإنما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى عن الضرورة وإنما تقرر هذا الكلام إذا بينا أن المبتدأ إذا لم يدخل عليه إن وجب إدخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه أن اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدأ لأن العلة الموجبة لحكم فى محل لابد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما إذا دخلت إن على المبتدأ فإن ههنا يجب إدخال اللام على الخبر مع أن ماذكرتموه حاصل فيه لأنا نقول ذلك لأجل الضرورة وذلك لأن كلمة إن للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا إن لزيداً قائم لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر إدخالها على المبتدأ لا جرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة ،وأما إذا لم يدخل حرف إن على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة فوجب إدخال اللام على المبتدأ لا يقال إذا جاز إدخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله :

ما إن رأيت ولا سمعت به   كاليوم طالبى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لا يجوز إدخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الإثبات لأنا نقول الفرق بين البابين أن قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت إن زيداً قائم فكلمة إن تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكداً آخر مع كلمة إن صار عبثاً أما لو قلت رأيت فلاناً فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ولا يفيد التأكيد لأنه مستقل بإفادة الأصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت إليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكداً للأول فلا يكون عبثاً فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف ، لأن الكل اتفقوا على أنه إذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ، ولأن هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (الوجه الثانى) فى الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر إلا إذا دخلت كلمة إن على المبتدأ كما ذكره الزجاج فقال إن وقعت موقع نعم واللام فى موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخ . قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى إسمعيل بن إسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ماسمعناه فى هذا . قال ابن جنى هذا القول غير صحيح لوجوه (الوجه

الأول) أن الأصل أن المبتدأ إنما يجوز حذفه لو كان أمراً معلوماً جلياً ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب وإذا كان معروفاً فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لأن التأكيد إنما يحتاج إليه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثانى) أن الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الإطناب فالجمع بينهما غير جائز ولأن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس (الوجه الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ فى نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيداً للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت أى ضربته لأن الحذف لا يكون إلا بعد التحقيق والعلم به وإذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) أن جميع النحويين حملوا قول الشاعر : أم الحليس لعجوز شهربه . على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ماذهب إليه الزجاج جائزاً لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار إذا وجدوا له وجهاً ظاهراً ، ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه إنما حسن حذف المبتدأ لأن فى اللفظ مايدل عليه وهو قوله هذان أما لو حذف التأكيد فليس فى اللفظ مايدل عليه فلا جرم كان حذف المبتدأ أولى من حذف التأكيد ، وأما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم زيد ضربت نفسه فذاك إنما كان لأن إسناد الفعل إلى المظهر أولى من إسناده إلى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسه كان قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تأكيداً للضمير فتأكيد المحذوف إنما امتنع ههنا لهذه العلة لا لأن تأكيد المحذوف مطلقاً ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر: أم الحليس لعجوز شهربه . على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون فهذا اعتراض فى نهاية السقوط لأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لايقتضى كونه باطلا فما أكثر ماذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام فى شرح هذا (الوجه الثالث) فى الجواب أن كلمة إن ضعيفة فى العمل لأنها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل وإذا ضعفت جاز بقاء المبتدأ على إعرابه الأصلى وهو الرفع .

﴿ المقدمة الأولى ﴾ أنها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأنها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الأسماء كالأفعال ، وأما المعنى فلأنها تفيد حصول معنى فى الإسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما أنك إذا قلت قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى فى الإسم .

﴿ المقدمة الثانية ﴾ أنها لما أشبهت الأفعال وجب أن تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران .

﴿ المقدمة الثالثة ﴾ أنها لم تنصب الإسم وترفع الخبر فتقريره أن يقال إنها لما صارت عاملة فإما أن ترفع المبتدأ والخبر معاً أو تنصبهما معاً أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر أو بالعكس والأول

باطل لأن المبتدأ والخبر كانا قبل دخول إن عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له أثر البتة ولأنها أعطيت عمل الفعل ، والفعل لايرفع الإسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثانى) أيضاً باطل لأن هذا أيضاً مخالف لعمل الفعل لأن الفعل لاينصب شيئاً مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضاً باطل لأنه يؤدى إلى التسوية بين الأصل والفرع فان الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع وفى المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع ، ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين (القسم الرابع) وهو أنها تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف دخيلة فى العمل لا أصلية لأن تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الأصل فذلك يدل على أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الأصالة بل بطريق عارض .

﴿المقدمة الرابعة﴾ لما ثبت أن تأثيرها فى نصب الإسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضاً وذلك لأن كون الاسم مبتدأ يقتضى الرفع ودخول إن على المبتدأ لايزيل عنه وصف كونه مبتدأ لأنه يفيد تأكيد ماكان لازوال ماكان إذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدأ يقتضى الرفع وحرف إن يقتضى النصب ولكن المقتضى الأول أولى بالاقتضاء من وجهين (أحدهما) أن وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدأ ودخول إن عليه صفة عرضية والأصل راجح على العارض (والثانى) أن اقتضاء وصف المبتدأ للرفع أصلى واقتضاء حرف إن للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الأول أولى فثبت بمجموع ماقررنا أن الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الأولوية فلاأقل من أصل الجواز ولهذا السبب إذا جئت بخبر إن ثم عطفت على الاسم إسماً آخر جاز فيه الرفع والنصب معاً (الوجه الرابع) فى الجواب قال الفراء : هذا أصله ذا زيدت الهاء لأن ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت ألفاً للتثنية فصارت هذا إن فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج إلى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الأصل لأن أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لأن النون يدل عليه فلا جرم لم تعمل إن لأن عملها فى ألف التثنية ، وقال آخرون : الألف الباقى إما ألف الأصل أو ألف التثنية . فان كان الباقى ألف الأصل لم يجز حذفها لأن العامل الخارجى لا يتصرف فى ذات الكلمة ، وإن كان الباقى ألف التثنية فلا شك أنهم أنابوها مناب ألف الأصل . وعوض الأصل أصل لامحالة فهذا الألف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا إلى الجواب الأول (الوجه الخامس) فى الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين أن الهاء ههنا مضمرة والتقدير إنه هذان لساحران . وهذه الهاء كناية عن الأمر والشأن ، فهذا ما قيل فى هذا الموضع ، فأما من خفف فقرأ إن هذان لساحران فهو حسن فان ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وإن كانت فى إن الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين إن المؤكدة وإن النافية قال الشاعر :

وإن مالك للمرتجى إن تضعضعت رحا الحرب أو دارت على خطوب

وقال آخر :

إن القوم والحى الذى أنا منهم لأهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ، ثم من العرب من يعمل إن ناقصة كما يعملها تامة اعتباراً بكان فانها تعمل وإن نقصت فى قولك لم يكن لبقاء معنى التأكيد ، وإن زال الشبه اللفظى بالفعل لأن العبرة للمعنى ، وهذه اللغة تدل على أن العبرة فى باب الإعمال الشبه المعنوى بالفعل وهو إثبات التوكيد دون الشبه اللفظى كما أن التعويل فى باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضاً ، وأما اللغة الظاهرة وهى ترك إعمال إن الخفيفة دالة على أن الشبه اللفظى فى إن الثقيلة أحد جزأى العلة فى حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف السكون فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضاً ولا عبرة للفظه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه (فأحدها) قولهم (هذان لساحران) وهذا طعن منهم فى معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة فى التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضى النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ، ومن حيث إن الانسان يعلم أن السحر لا بقاء له فاذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فانه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه (وثانيها) قوله (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) وهذا فى نهاية التنفير لأن المفارقة عن المنشأ ، والمولد شديدة على القلوب ، وهذا هو الذى حكاه الله تعالى عن فرعون فى قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها (وثالثها) قوله (ويذهبا بطريقتكم المثلى) وهذا أيضاً له تأثير شديد فى القلب فان العدو إذا جاء واستولى على جميع المناصب والأشياء التى يرغب فيها فذلك يكون فى نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة فى التنفير عن موسى والترغيب فى دفعه وإبطال أمره وههنا بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال الفراء : الطريقة الرجال الأشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ، ويقال للواحد أيضا هو طريقة قومه ، وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أى ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، وعلى التقديرين ، فالمراد أنهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهرون عليهما السلام يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنوا اسرائيل لقول موسى عليه السلام (أرسل معنا بنى اسرائيل) وإنما سموا بنى اسرائيل بذلك لأنهم كانوا أكثر القوم يومئذ عدداً وأموالا ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالدين سموا دينهم بالطريقة المثلى (وكل حزب بما لديهم فرحون) ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة .

﴿ البحث الثانى ﴾ (المثلى) مؤنثة لتأنيث الطريقة ، واختلفوا فى أنه لم سمى الأفضل بالأمثل

قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى «٦٥» قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى «٦٦» فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى «٦٧» قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى «٦٨» وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى «٦٩»

فقال بعضهم : الأمثل : الأشبه بالحق ، وقيل الأمثل الأوضح والأظهر ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم فى التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب فى إبطال أمره حكى عنهم أنهم قالوا (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً) قرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم من أجمعوا يعنى لا تدعوا شيئاً من كيدهم إلا جئتم به دليله قوله (فجمع كيده) وقرأ الباقون بقطع الألف وكسر الميم وله وجهان : (أحدهما) قال الفراء الإجماع الأحكام والعزيمة على الشىء يقال أجمعت على الخروج مثل أزمعت (والثانى) بمعنى الجمع وقد مضى الكلام فى هذا عند قوله (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعاً عليه لا تختلفوا ثم ائتوا صفاً ، ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين : (أحدهما) أن الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علماً للمصلى بعينه فأمروا بأن يأتوه (والثانى) أن يكون الصف مصدراً والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكى يكون أنظم لأمركم وأشد لهيبتكم ، وهذا قول عامة المفسرين ، وقوله (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض ، يعنى وقد فاز من غلب فكانوا يقرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من إظهار ما يظهرونه من السحر .

قوله تعالى ﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم أيضاً قوله (ثم ائتوا صفاً) صار ذلك مغنياً عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا (إما أن تلقى) لدلالة ما تقدم عليه وقوله (إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) معناه إما أن تلقى مامعك قبلنا . وإما أن نلقى مامعنا قبلك ، وهذا التخيير مع تقديمه فى الذكر حسن أدب منهم وتواضع له ، فلاجرم رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته ، ثم إن موسى عليه السلام قابل أدبهم بأدب فقال (بل ألقوا) أما قوله (بل ألقوا) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام (بل ألقوا) فيأمرهم بما هو سحر وكفر لأنهم إذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفراً (والجواب) من وجوه : (أحدها) لا نسلم أن نفس الالقاء كفر ومعصية لأنهم إذا ألقوا وكان غرضهم أن يظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الإلقاء إيماناً وإنما الكفر هو القصد إلى تكذيب موسى وهو عليه السلام إنما أمر بالالقاء لا بالقصد إلى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير (ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين) كما فى قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين) أى إن كنتم قادرين (وثالثها) أنه لما تعين ذلك طريقا إلى كشف الشبهة صار ذلك جائزاً ، وهذا كالمحق إذا علم أن فى قلب واحد شبهة وأنه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ، ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك أن يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فمطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) أن لا يكون ذلك أمراً بل يكون معناه إنكم إن أردتم فعله فلا مانع منه حساً لكى ينكشف الحق (وخامسها) أن موسى عليه السلام لاشك أنه كان كارها لذلك ولاشك أنه نهاهم عن ذلك بقوله (ويلكم لاتفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب) وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون قوله أمراً لهم بذلك لأن الجمع بين كونه ناهياً وآمراً بالفعل الواحد محال ، فعلمنا أن قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قدمهم فى الالقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال وليس لأحد أن يقول إن ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيما يرجع إلى حظ النفس ، فأما مايرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز (والجواب) أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة إلى إظهارها مرة أخرى والقوم إنما جاؤا لمعارضته فقال عليه السلام لو أنى بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب فى إقدامهم على إظهار السحر وقصد إبطال المعجزة وذلك غير جائز ، ولكنى أفوض الأمر إليهم حتى أنهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سبباً لازالة الشبهة ، وأما على التقدير الأول فانه يكون سبباً لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى . أما قوله (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما (ألقوا حبالهم وعصيهم) ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب تخيل إلى موسى عليه السلام أن الأرض كلها حيات وأنها تسعى

نخاف فلما قيل له (ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا) ألقى موسى عصاه فاذا هى أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظماً حتى ملأت الوادى ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا فى الميلين والناس ينظرون اليها لايحسبون إلا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هى عصى كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئاً إلا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا لو لم تكن سحراً (١) لبقيت فخروا سجداً وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل ، وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل ، وقال وهب كانوا خمسة عشر ألفاً ، وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة : ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية ، وقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان منهم من القبط وسبعون من بنى اسرائيل أكرههم فرعون على ذلك ، واعلم أن الاختلاف والتفاوت واقع فى عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شىء منه والأقوال إذا تعارضت تساقطت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف يقال فى إذا هذه إذا المفاجأة والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت فى بعض المواضع بأن تكون ناصباً فعلا مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لاغير فتقدير قوله تعالى (فإذا حبالهم وعصيهم) ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل ، والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى اه

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء عصيهم بالضم وهو الأصل والكسر إتباع نحو دلى ودلى وقسى وقسى وقرىء تخيل بالتاء المنقوطة من فوق باسناد الفعل إلى الحبال والعصى وقرىء بالضم بالياء المنقطة من تحت بإسناد الفعل إلى الكيد والسحر وقال الفراء أى يخيل إليه سعيها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الهاء فى قوله (يخيل إليه) كناية عن موسى عليه السلام والمراد أنهم بلغوا فى سحرهم المبلغ الذى صار يخيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعى ما يكون حياً من الحيات لا أنها كانت حية فى الحقيقة ويقال إنهم حشوها بما إذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك ، ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن أنها تسعى ، فأما ماروى عن وهب أنهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس) وبقوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) فهذا غير جائز لأن ذلك الوقت وقت إظهار المعجزة والأدلة وإزالة الشبهة فلو صار بحيث لايميز الموجود عن الخيال الفاسد

---

(١) الضمير فى قوله (تكن) و (بقيت) لايعود على عصى موسى وإنما يعود على حبال السحرة وعصيهم (الصاوى)

لم يتمكن من إظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود ، وإذن المراد أنه شاهد شيئاً لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى أما قوله تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) فالإيجاس استشعار الخوف أى وجد فى نفسه خوفاً ، فإن قيل إنه لا مزيد فى إزالة الخوف على ما فعله الله تعالى فى حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ، ثم إنه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كأعظم ثعبان ، ثم إنه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله (إننى معكما أسمع وأرى) فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف فى قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) أن ذلك الخوف إنما كان لما طبع الآدمى عليه من ضعف القلب وإن كان قد علم موسى عليه السلام أنهم لا يصلون إليه وأن الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله (لا تخف إنك أنت الأعلى) وهذا قول مقاتل (وثالثها) أنه خاف حيث بدأوا وتأخر إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الوقت فيبقى فى الخجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد أقواماً آخرين فيأتيه بهم فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم وهكذا من غير أن يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الأمر ولا يحصل المقصود ، ثم إنه تعالى أزال ذلك الخوف بالإجمال أولا وبالتفصيل ثانياً أما الاجمال فقوله تعالى (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمره لا يظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله (إنك أنت الأعلى) وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهى إن (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله (وألق ما فى يمينك) وفيه سؤال ، وهو أنه لم لم يقل وألق عصاك (والجواب) جاز أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيما لها أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكثيرة فان فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شىء عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله (تلقف) أى فانك إذا ألقيتها فانها تلقف ما صنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أى فألقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أى ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أى تأخذ بفيها ابتلاعاً بسرعة واللقف والتلقف جميعاً يرجعان إلى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول فى الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله (تلقف) أنه إذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ «٧٠» قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

ماصنعوا وفى قوله (فألقى السحرة سجداً) دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ماصنعوه وفى التلقف دلالة على أن جميع ماألقوه تلقفته وذلك لا يكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها . وقد حكى عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمه(١) على وجه لا يتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الأعضاء عليه(٢) من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة (وخامسها) عوده(٣) خشبة صغيرة كما كانت وشيء من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى أن ماصنعوا كيد ساحر والمعنى أن الذى معك ياموسى معجزة إلهية والذى معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى أن ما موصولة ومن نصب فعلى أنها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أو هم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته أو بين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر ، كما يبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو، بقى سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ لم وحد الساحر ولم يجمع (الجواب) لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد فلو جمع تخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى هذا الجنس .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم نكر أولا ثم عرف ثانياً (الجواب) كأنه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله (ولا يفلح الساحر حيث أتى) يدل على أن الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيراً كان أو شراً وذلك يقتضى نفى السحر بالكلية (الجواب) الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فى سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع

(١ ، ٢ ، ٣) الصواب (عظمها) و (عليها) و (عودها) لأن العصى مؤنثة وقد وردت فى القرآن كذلك مؤنثة قال تعالى (تلقف) (وما تلك بيمينك . . . قال هى . . . أهش بها . . . ولى فيها . . . قال ألقها) وعلى فرض عود الضمير على (ما) فى قوله تعالى (ما فى يمينك) فان التأنيث أولى (الصاوى)

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ «٧١»

النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾

إعلم أن فى قوله (فألقى السحرة سجداً) دلالة على أنه ألقى ما فى يمينه وصار حية تلقف ماصنعوا وظهر الأمر فخروا عند ذلك سجداً وذلك لأنهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا مافعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى ، فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود، أما قوله تعالى (فألقى السحرة سجداً) فليس المراد منه أنهم أجبروا على السجود وإلا لما كانوا محمودين بل التأويل فيه ماقال الأخفش وهو أنهم من سرعة ماسجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجداً أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة ، قال القاضى هذا بعيد لأنه تعالى لو أراهم عياناً لصاروا ملجئين ، وذلك لا يليق به قولهم (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) (وجوابه) لما جاز لإبراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفوراً له أن يقول (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) فلم لايجوز مثله فى حق السحرة ، واعلم أن هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره فى جملة المحدثات ، وذلك لأن ظهور تلك الأدلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جلياً ظاهراً وهو أنه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى ، وذلك المؤثر إما الخلق ، وإما غيرهم . والأول بديهى البطلان لأن كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أنه لا يقدر على إيجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بأنه لابد من مدبر لهذا العالم فماذا يقول ألا ترى أن أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد ، لأنا بينا أن كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه وإذا فقد عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لأنفسهم وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لأنفسهم ماأرى أن عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق إلا أن يقال العقل والدليل لا يكفى بل لابد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ، ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها

للنتيجة حتى أنه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك يدل على أن الكل بقضائه وقدره فانه لااعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر إلى أحوال نفسه فى مجارى أفكاره وأنظاره ازداد وثوقاً بما ذكرناه أما قوله (قالوا آمنا برب هرون وموسى) فاعلم أن التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا إنهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك على أن معرفة الله لاتستفاد إلا من الامام ، وهذا القول ضعيف بل فى قولهم (آمنا برب هرون وموسى) فائدتان سوى ماذكروه .

﴿ الفائدة الأولى ﴾ وهى أن فرعون ادعى الربوبية فى قوله (أنا ربكم الأعلى) والإلهية فى قوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول إنهم آمنوا بى لابغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة ، والدليل عليه أنهم قدموا ذكر هرون على موسى لأن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله (ألم نربك فينا وليداً) فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لاجرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعاً لهذا الخيال .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ وهى أنهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لاجرم قالوا رب هرون وموسى لأجل ذلك ، ثم إن فرعون لما شاهد منهم السجود والإقرار خاف أن يصير ذلك سبباً لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله فنى الحال ألقى شبهة أخرى فى النبى فقال (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (إحداهما) قوله (آمنتم له قبل أن آذن لكم) وتقريره أن الاعتماد على الخاطر الأول غير جائز بل لابد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر ، فلما لم تفعلوا شيئاً من ذلك بل فى الحال (آمنتم له) دل ذلك على أن إيمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيها) قوله (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) يعنى أنكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجاً لأمره وتفخيما لشأنه ، ثم بعد إيراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيراً لهم عن الإيمان وتنفيراً لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) قرىء لأقطعن ولأصلبن بالتخفيف ، والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله (من خلاف) فى محل النصب على الحال أى (لأقطعنها) مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشيء الموعى فى وعائه فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور أن فى بمعنى على فضعيف ثم قال (ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى) أراد بقوله (أينا) نفسه لعنه الله لأن قوله (أينا) يشعر بأنه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله (آمنتم له) وفيه تصالف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لأن موسى عليه السلام قط لم

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هٰذِهِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا «٧٢» إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللّٰهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى «٧٣» إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى «٧٤» وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى «٧٥» جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى «٧٦»

يكن من التعذيب فى شىء ، فان قيل إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التى شرحتموها وذكرتم أنها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الأمر إلى أن استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم إلى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام فى قوله (أينا أشد عذاباً وأبقى) قلنا لم لا يجوز أن يقال إنه كان فى أشد الخوف فى قلبه إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجاً لأمره ، ومن استقرى أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء ، ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عذاب الله أشد من عذاب البشر ، ثم إنه أنكر ذلك ، وأيضاً فقد كان عالماً بكذبه فى قوله (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) لأنه علم أن موسى عليه السلام ماخالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته أن أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ، ثم إنه مع ذلك كان يقول هذه الأشياء فثبت أن سبيله فى كل ذلك ما ذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما « كانوا فى أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء » .

قوله تعالى ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحيوة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي ، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى أصول الدين ، فقالوا (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات) وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم فقالوا (لن نؤثرك) جواباً لما قاله وبينوا العلة وهى أن الذى جاءهم بينات وأدلة ، والذى يذكره فرعون محض الدنيا ، ومنافع الدنيا ومضارها لاتعارض منافع الآخرة ومضارها ، أما قوله (والذى فطرنا) ففيه وجهان : (الأول) أن التقدير لن نؤثرك يافرعون على ماجاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا أى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز أن يكون خفضاً على القسم . واعلم أنهم لما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان فعل فرعون ماأوعدهم به فقالوا (فاقض ماأنت قاض) لاعلى معنى أنهم أمروه بذلك لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لايزيلهم البتة عن إيمانهم وعما عرفوه من الحق علماً وعملا ، ثم بينوا مالأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) وقرىء (تقضى هذه الحياة الدنيا) ووجهها أن الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم والمعنى أن قضاءك وحكمك إنما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وإنما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية ، والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى المتوصل به إلى السعادة الباقية ثم قالوا (إنا آمنا بربنا ليغفر لناخطايانا) ولما كان أقرب خطاياهم عهداً ماأظهروه من السحر ، قالوا (وما أكرهتنا عليه من السحر) وذكروا فى ذلك الإكراه وجوهاً (أحدها) أن الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثاً ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لأجل ذلك أى كنا فى التعلم أولا والتعليم ثانياً مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين . إثنان من القبط ، والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائماً فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بساحر ، الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن إن السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا فى إظهار السحر (ورابعها) قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان إكراه وهذا ضعيف لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراها . ثم قالوا (والله خير ثواباً) لمن أطاعه (وأبقى) عقابا لمن عصاه ، وهذا جواب لقوله : (ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى) . قال الحسن : سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفراً ثبت فى قلوبهم الإيمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا (اقض ما أنت قاض) فى ذات الله تعالى والله إن أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير . ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة ، فقالوا فى المجرمين

(إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الهاء فى قوله (إنه) ضمير الشأن يعنى أن الأمر والشأن كذا وكذا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا : صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله (إنه من يأت ربه مجرماً) وكلمة من فى معرض الشرط تفيد العموم بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها والإستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام . فقال لا نسلم أن صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه أنه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فانه قال فى هذه الآية (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات) وقال (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) وأيضاً فانه قال (فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي) والمؤمن صاحب الكبيرة وإن عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف . وفى الخبر الصحيح «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان» واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة ، أما قوله إن الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا إنما ينفع لو ثبت أن صاحب الكبيرة مؤمن ، ومذهب المعتزلة أنه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط ، قوله ثانياً إنه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال فى حقه إن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي ، قلنا لا نسلم فان عذاب جهنم فى غاية الشدة قال تعالى (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) وأما الحديث فيقال القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد ، ويمكن أن يقال ثبت فى أصول الفقه أنه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد وللخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع اليه فى العمليات ، وهذه المسألة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلا يجوز المصير اليها ههنا . فان اعترض إنسان آخر ، وقال أجمعنا على أن هذه الآية مشروطة بنفى التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطاً بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب ، وعندنا أن المجرم الذى لا يوجد فى حقه العفو لابد وأن يدخل جهنم ، واعلم أن هذا الاعتراض أيضاً ضعيف أما شرط نفى التوبة فلا حاجة اليه لأنه قال (من يأت ربه مجرماً) أى حال كونه مجرماً والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرماً . وأما صاحب الصغيرة فلأنه لا يسمى مجرماً لأن المجرم اسم للذم فلا يجوز إطلاقه على صاحب الصغيرة ، بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) وكلامنا فيمن أتى بالايمان والأعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر ، فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة قلنا لم لا يجوز أن يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لعنه وإقامة الحد عليه . قلنا : أما اللعن فغير جائز عندنا . وأما إقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما فى حق التائب وقد تكون

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ

على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) فالله تعالى نص على أنه يجب عليه إقامة الحد على سبيل التنكيل ، وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقاً للمدح والتعظيم ، وإذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا . فدلنا ذلك على أن عقاب الكبيرة أولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة . هذا منتهى كلامهم فى مسألة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع إلى أن النص الدال على إقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضاً للنصوص الدالة على كونه مستحقاً للثواب ، فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لأن المؤمن كان ينقسم إلى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم إلى المؤمن وإلى غير المؤمن فلم يكن لأحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا . ثم نقول لا نسلم أن كلمة من فى إفادة العموم قطعية بل ظنية ومسألتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرته ، وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب المحصول فى الأصول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تمسكت المجسمة بقوله (إنه من يأت ربه مجرماً) فقالوا الجسم إنما يأتى ربه لو كان الرب فى المكان (وجوابه) أن الله تعالى جعل إتيانهم موضع الوعد إتيانا إلى الله مجازاً كقول ابراهيم عليه السلام (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الجسم الحى لا بد وأن يبقى إما حياً أو يصير ميتاً فخلوه عن الوصفين محال ، فمعناه فى الآية أنه يكون فى جهنم بأسوإ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة . ثم ذكر حال المؤمنين فقال (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) واعلم أن قوله (قد عمل الصالحات) يقتضى أن يكون آتياً بكل الصالحات . وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغى أن يحمل ذلك على أداء الواجبات ، ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ، ثم فسرها فقال (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) وفى الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر لأنه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات التى هى غير عالية لا بد وأن تكون لغيرهم ، وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان ، أما قوله (وذلك جزاء من تزكى) فقال ابن عباس يريد من قال لا إله إلا الله ، وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى أى تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التى لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم ، واعلم أنه ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الأخبار .

قوله تعالى ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً

يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى «٧٧» فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ «٧٨» وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى «٧٩»

لاتخاف دركا ولا تخشى ، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ .

واعلم أن فى قوله (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) دلالة على أن موسى عليه السلام فى تلك الحالة كثر مستجيبوه ، فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى إليه أن يسرى بهم ليلا ، والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله ، فان قيل ما الحكمة فى أن يسرى بهم ليلا ، قلنا لوجوه : (أحدها) أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم فى ذلك (وثانيها) ليكون عائقاً عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) ليكون إذا تقارب العسكران لايرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم ، أما قوله (فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً) ففيه وجهان : (الأول) أى فاجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما ، وضرب اللبن عمله (والثانى) بين لهم طريقاً فى البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق ، فعدى الضرب إلى الطريق . والحاصل أنه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبساً ثم بين تعالى أن جميع أسباب الأمن كان حاصلا فى ذلك الطريق (أحدها) أنه كان يبساً قرىء يابساً ويبساً بفتح الياء وتسكين الباء فمن قال يابساً جعله بمعنى الطريق ومن قال يبساً بتحريك الباء فاليبس واليابس شىء واحد والمعنى طريقاً أيبس . ومن قال يبساً بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس ، والمراد أنه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله (لا تخاف دركا ولاتخشى) أى لا تخاف أن يدركك فرعون فإنى أحول بينك وبينه بالتأخير ، قال سيبويه : قوله (تخاف) رفعه على وجهين: (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثانى) على الإبتداء أى أنت لاتخاف وهذا قول الفراء ، قال الأخفش والزجاج المعنى لاتخاف فيه كقوله (واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس) أى لاتجزى فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان (أحدهما) أنه نهى (والثانى) قال أبو على جعله جواب الشرط على معنى إن تضرب لاتخف وعلى هذه القراءة ذكروا فى قوله (ولا تخشى) ثلاثة(١) أوجه (أحدها) أن يستأنف كأنه قيل وأنت لاتخشى أى ومن شأنك أنك آمن لاتخشى (وثانيها) أن لا تكون الألف هى الألف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى (وأضلونا السبيلا)(وتظنون بالله الظنونا) . (وثالثها) أن يكون مثل قوله : [وتضحك منى شيخة عبشمية(٢) كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانياً]

(١) الصواب أربعة أوجه كما سيأتى . (٢) الشعر لمالك بن الريب وقد وضعت صدره بين معكفين لأنه ليس فى الأصول .

(وثالثها)(١) قوله (ولا تخشى) والمعنى أنك لاتخاف إدراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء أما قوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) قال أبو مسلم زعم رواة اللغة أن أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) أسرى بعبده وقال الزجاج قرئ (فأتبعهم فرعون وجنوده) أى ومعه جنوده وقرئ (بجنوده) ومعناه ألحق جنوده بهم ويجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله (فغشيهم) فالمعنى علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للأمر أى غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله تعالى وقرئ (فغشاهم من اليم ماغشيهم) وفاعل غشاهم إما الله سبحانه وتعالى أو ماغشيهم أو فرعون لأنه الذى ورط جنوده وتسبب فى هلاكهم أما قوله (وأضل فرعون قومه وما هدى) فاحتج القاضى به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولأن الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقاً للكفر لأن من ذم غيره بشيء لابد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل وإلا لاستحق ذلك الذم وقوله (وما هدى) تهكم به فى قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ولنذكر القصة وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون إليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد إليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى فقالت أكون معك فى الجنة . وذكر ابن عباس أن محمداً ﷺ وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم إلا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام إذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيراً ، فلما سمع بظهور الرسول ﷺ أتاه مع امرأته فقال أتعرفنى قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضانية فأعطاه إياها وقال له « أما إن عجوز بنى إسرائيل خير منك » وخرج فرعون فى طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى إلى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق فأبى ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فأقبل فرعون إلى تلك الطرق فقال قومه له إن موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدى فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة فى الناس

(١) الصواب (ورابعها) ويبدو أنه سقط بيان تعليل الوجه . وهو أن يقول قوله (ولا تخشى) فيه إيجاز بالحذف أي ولا تخشى شيئاً من الغرق أو غيره .

ألحقوا الملك حتى إذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم ، فقالوا ماهذا ياموسى ؟ قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا ياموسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم فدعا فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم ، وذكر ابن عباس أن جبريل عليه السلام قال يامحمد لو رأيتنى وأنا أدس فرعون فى الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله (فغشيهم من اليم ماغشيهم) وفى القصة أبحاث .

﴿ البحث الأول ﴾ روى فى الأخبار أن موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقاً يابساً يتهيأ طروقه وبقى الماء قائماً بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل. فأخذ كل سبط من بنى إسرائيل فى طريق من هذه الطرق . ومنهم من قال بل حصل طريق واحد وحجة القول الأول الأخبار ومن القرآن قوله تعالى (فصار كل فرق كالطود العظيم) وذلك لا يحصل إلا إذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثانى ظاهر قوله (فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً) وذلك يتناول الطريق الواحد وإن أمكن حمله على الطرق نظراً إلى الجنس .

﴿ البحث الثانى ﴾ روى أن بنى إسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن يرى بعضنا بعضاً وهذا كالبعيد وذلك أن القوم لما أبصروا مجىء فرعون صاروا فى نهاية الخوف والخائف إذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد .

﴿ البحث الثالث) أن فرعون كان عاقلا بل كان فى نهاية الدهاء فكيف اختار إلقاء نفسه إلى التهلكة فإنه كان يعلم من نفسه أن انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) أن جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ، ولقائل أن يقول هذا بعيد لأنه يبعد أن يكون خوض الملك فى أمثال هذه المواضع مقدماً على خوض جميع العسكر وما ذكروه إنما يتم إذا كان الامر كذلك وأيضاً فلو كان الأمر على ماقالوه لكان فرعون فى ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفاً ويحمله على الامساك فى أن لا يدخل وأيضاً فأى حاجة لجبريل عليه السلام إلى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه فى الماء ابتداء ، بل الأولى أن يقال إنه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى .

﴿ البحث الرابع ﴾ أن الذى نقل عن جبريل عليه السلام أنه كان يدسه فى الماء والطين خوفاً من أن يؤمن فبعيد لأن المنع من الإيمان لا يليق بالملائكة والأنبياء عليهم السلام .

﴿ البحث الخامس ﴾ الذى روى أن موسى عليه السلام كلم البحر قال له انفلق لى لأعبر عليك فقال البحر لا يمر على رجل عاص ، فهو غير ممتنع على أصولنا لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة وعند المعتزلة أن ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال . والله أعلم .

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى «٨٠» كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى «٨١» وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى «٨٢»

قوله تعالى ﴿ يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات، مارزقنا كم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ، وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾

اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم إياها ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم فى كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ الله تعالى بقوله (أنجيناكم من عدوكم) وهو إشارة إلى إزالة الضرر فإن فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب فى الأعمال ، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهى قوله (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) ووجه المنفعة فيه أنه أنزل فى ذلك الوقت عليهم كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهى قوله (ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم زجرهم عن العصيان بقوله (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله (وإنى لغفار لمن تاب) وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم ووعدتكم إلى قوله (من طيبات مارزقناكم) كلها بالتاء إلا قوله (ونزلنا عليكم المن والسلوى) فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائى وواعدتكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكلبى لما جاوز موسى عليه السلام ببنى إسرائيل البحر قالوا له أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والأحكام . قال بلى ، ثم تعجل موسى إلى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم أن يأتيهم إلى أربعين ليلة من يوم انطلق ؛ وإنما قال (وواعدناكم) لأنه إنما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لأجلهم وقال مقاتل إنما قال واعدناكم لأن الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد أن طور سيناء عن

يمين من انطلق من مصر إلى الشام وقرىء الأيمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك إما لأن الله تعالى أنزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم ، وإما لأن الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (كلوا) ليس أمر إيجاب بل أمر إباحة كقوله (وإذا حللتم فاصطادوا) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لأن المن والسلوى من لذائذ الأطعمة (والثانى) وهو قول الكلبى ومقاتل الحلال لأنه شىء أنزله الله تعالى إليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لأن بين المعنيين معنى مشتركا . وتمام القول فى هذه القصة تقدم فى سورة البقرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى قوله تعالى (ولا تطغوا) فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تطغوا أى لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تتجاوزوا حد الإباحة (وثالثها) قال الكلبى لا تكفروا النعمة أى لا تستعينوا بنعمتى على مخالفتى ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال إلى الحرام .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرأ الأعمش والكسائى فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الأعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر فى الكلمتين أما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى (حتى يبلغ الهدى محله) والمضموم فى معنى النزول وقوله (فقد هوى) أى شقى وقيل فقد وقع فى الهاوية يقال هوى يهوى هويا إذا سقط من علو إلى سفل .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفاراً ، وبأن له غفراناً ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والأمر . أما إنه وصف نفسه بكونه غافراً فقوله (غافر الذنب) وأما كونه غفوراً فقوله (وربك الغفور ذو الرحمة) وأما كونه غفاراً فقوله (وإنى لغفار لمن تاب) وأما الغفران فقوله (غفرانك ربنا) وأما المغفرة فقوله (وإن ربك لذو مغفرة للناس) وأما صيغة الماضى فقوله (فى حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك) وأما صيغة المستقبل فقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وقوله فى حق محمد ﷺ (ليغفر لك الله) وأما لفظ الاستغفار فقوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وفى حق نوح عليه السلام (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً) وفى الملائكة (ويستغفرون لمن فى الأرض) واعلم أن الأنبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) . وأما نوح عليه السلام فقال (وإلا تغفرلى وترحمنى) . وأما إبراهيم عليه السلام فقال (والذى أطمع

(أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين) وطلبها لأبيه (سأستغفرلك ربى) وأما يوسف عليه السلام فقال فى إخوته (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) وأما موسى عليه السلام فى قصة القبطى (رب اغفر لى ولأخى) وأما داود عليه السلام (فاستغفر ربه) وأما سليمان عليه السلام (رب اغفر لى وهب لى ملكا) وأما عيسى عليه السلام (وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) وأما محمد ﷺ فقوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وأما الأمة فقوله (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولإخواننا) واعلم أن بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم فى كونه تعالى غافراً وغفوراً وغفاراً ثم نتكلم فى أن مغفرته عامة ثم نبين أن مغفرته فى حق الأنبياء عليهم السلام كيف تعقل مع أنه لا ذنب لهم، ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا فى إثبات العفو وتقريره أن الذنب إما أن يكون صغيراً أو كبيراً بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الأولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفراناً فتعين أن لا يتحقق الغفران إلا فى القسم الثالث وهو المطلوب، فان قيل هذا يناقض صريح الآية لأنه أثبت الغفران فى حق من استجمع أموراً أربعة : التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء، قلنا إن من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائباً ومؤمناً وآتياً بالعمل الصالح، ومهتديا ومع ذلك يكون مذنباً فحينئذ يستقيم كلامنا، وههنا نكتة، وهى أن العبد له أسماء ثلاثة : الظالم والظلوم والظلام، فالظالم (فمنهم ظالم لنفسه) والظلوم (إنه كان ظلوما جهولا) والظلام إذا كثر ذلك منه، ولله فى مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسم فكأنه تعالى يقول إن كنت ظالماً فأنا غافر وإن كنت ظلوما فأنا غفور، وإن كنت ظلاماً فأنا غفار (وإنى لغفار لمن تاب وآمن).

﴿ المسألة التاسعة ﴾ كثر اختلاف المفسرين فى قوله تعالى (ثم اهتدى) وسبب ذلك أن من تاب وآمن وعمل صالحاً فلا بد وأن يكون مهتدياً، فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الأشياء؟ والوجوه الملخصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة إذ المهتدى فى الحال لا يكفيه ذلك فى الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه فى المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وكلمة ثم للتراخى فى هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة فى ذلك إنما الصعوبة فى المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله (ثم اهتدى) أى علم أن ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقى مستعيناً بالله فى إدامة ذلك من غير تقصير، عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الإيمان الاعتقاد المبنى على الدليل والعمل الصالح إشارة إلى أعمال الجوارح بقى بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة فى لسان الصوفية، ثم انكشاف حقائق الأشياء له وهو المسمى بالحقيقة فى

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى «٨٣» قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى «٨٤»

لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله (ثم اهتدى) .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ منهم من قال تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الإتيان بالإيمان ثانياً واحتج عليه بهذه الآية فانه تعالى قدم التوبة على الإيمان ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن العمل الصالح غير داخل فى الإيمان لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه .

قوله تعالى ﴿ وما أعجلك عن قومك ياموسى ، قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ﴾ .

إعلم أن فى قوله (وما أعجلك عن قومك ياموسى) دلالة على أنه قد تقدم قومه فى المسير إلى المكان ويجب أن يكون المراد مانبه عليه فى قوله تعالى (وواعدنا كم جانب الطور الأيمن) فى هذه السورة ، وفى سائر السور كقوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (وما أعجلك) استفهام وهو على الله محال (الجواب) أنه إنكار فى صيغة الإستفهام ولا امتناع فيه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن موسى عليه السلام لايخلو إما أن يقال إنه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه ، فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء ، وإن قلنا إنه ما كان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ما وجد نصاً فى ذلك إلا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ فى ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قال (وعجلت) والعجلة مذمومة (والجواب) أنها ممدوحة فى الدين قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ قوله (لترضى) يدل على أنه عليه السلام إنما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (أحدهما) أنه يلزم تجدد صفة لله تعالى ، والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال إنه تعالى ما كان راضياً عن موسى لأن تحصيل الحاصل محال ، ولما لم يكن راضياً عنه وجب أن يكون ساخطاً عليه ، وذلك لايليق بحال الأنبياء عليهم السلام (الجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما أن قوله (ثم اهتدى) المراد دوام الاهتداء .

﴿ السؤال الخامس ﴾ قوله (وعجلت إليك) يدل على أنه ذهب إلى الميعاد قبل الوقت الذى

قَالَ فَانَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ «٨٥» فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي «٨٦» قَالُوا

عينه الله تعالى له ، وإلا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن أن مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ما ذكرنا أن ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه .

﴿ السؤال السادس ﴾ قوله (إليك) يقتضى كون الله فى الجهة لأن إلى لانتهاء الغاية (الجواب) توافقنا على أن الله تعالى لم يكن فى الجبل فالمراد إلى مكان وعدك .

﴿ السؤال السابع ﴾ (ما أعجلك) سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك ، وأما قوله (هم أولاء على أثرى) فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين (الأول) أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (أحدهما) إنكار نفس العجلة (والثانى) السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثانى فقال لم يوجد منى إلا تقدم يسير لا يحتفل به فى العادة وليس بينى وبين من سبقته إلا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال (وعجلت إليك رب لترضى) . (الثانى) أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ماورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام ، واعلم أن فى قوله (وما أعجلك عن قومك يا موسى) دلالة على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين ، واختلفوا فى المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا إلى ربه . وقال آخرون القوم جملة بنى اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال (هم أولاء على أثرى) يعنى بالقرب منى ينتظروننى ، وعن أبى عمرو ويعقوب إثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر أثرى بالضم ، وعنه أيضاً أولى بالقصر ، والأثر أفصح من الأثر . وأما الأثر فمسموع فى فرند السيف وهو بمعنى الأثر غريب .

قوله تعالى ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة

مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ «٨٧» فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ «٨٨» أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا «٨٩»

القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ، أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾

إعلم أنه تعالى لما قال لموسى (وما أعجلك عن قومك) وقال موسى فى جوابه (وعجلت إليك رب لترضى) عرفه الله تعالى ماحدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال (فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة لايجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الأول) الدلائل العقلية الدالة على أنه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك (الثانى) أنه قال (وأضلهم السامرى) ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامرى فيه أثر وكان يبطل قوله (وأضلهم السامرى) وأيضاً فلأن موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ماذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضاً فقال (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله (فتنا) معنى آخر وذلك لأن الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار إذا امتحنته بالنار لكى يتميز الجيد من الردئ فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لأن السامرى لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والأجسام على أن لها إلهاً ليس بجسم وحينئذ يعرفون أن العجل لايصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديداً فى التكليف فكان فتنة والتشديد فى التكليف موجود قال تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون) هذا تمام كلام المعتزلة قال الأصحاب ليس فى ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما فى الشمس والقمر والدليل الذى ينفى كون الشمس والقمر إلهاً أولى بأن ينفى كون ذلك العجل إلهاً فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديداً فى التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال

فيهم ، قولهم أضاف الإضلال إلى السامرى قلنا أليس أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها فى الظاهر وإن كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضاً قرئ وأضلهم السامرى أى وأشدهم ضلالا السامرى وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ، ثم الذى يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعى على ماسبق تقريره فى هذا الكتاب مراراً كثيرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية سعيد بن جبير كان السامرى علجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر والذى عليه الأكثرون أنه كان من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جاراً لموسى عليه السلام وقد آمن به .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ روى فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه (فإنا قد فتنا قومك من بعدك) من وجهين (الأول) أنه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثانى) أن السامرى شرع فى تدبير الأمر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على إضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إنما رجع موسى عليه السلام بعد مااستوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ذكروا فى الأسف وجوهاً (أحدها) أنه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لايلزم التكرار لأن قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفاً يفيد كماله (وثانيها) قال الأكثرون حزناً وجزعاً يقال أسف يأسف أسفاً إذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لايوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب إرادة الإضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح إلا على الأجسام كالضحك والبكاء ثم إن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه عاتبهم بعد رجوعه إليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على أنه ليس المراد من قوله (فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أنه تعالى خلق الكفر فيهم وإلا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الأصحاب وقد فعل ذلك بقوله (إن هى إلا فتنتك) ومجموع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله (ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (ألم يعدكم ربكم) هذا الكلام إنما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين بإله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا أنه لا إله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا هذا

إلهكم وإله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) أنهم كانوا معترفين بالإله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذى يذكره عبدة الأصنام .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوهاً (أحدها) أن المراد ماوعدهم من إنزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والأحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذى ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) (وثانيها) أن الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) إلى قوله (ثم اهتدى) والدليل عليه قوله بعد ذلك (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذى قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعداً حسناً فى منافع الدين وأن يكون فى منافع الدنيا ، أما منافع الدين فهو الوعد بإنزال الكتاب الشريف الهادى إلى الشرائع والأحكام والوعد بحصول الثواب العظيم فى الآخرة ، وأما منافع الدنيا فهو أنه تعالى قبل إهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم ، وقد فعل ذلك ثم قال (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية ، واعلم أن طول العهد يحتمل أموراً : (أحدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من إنجائه إياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة فى أوائل سورة البقرة وهذا كقوله (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) . (وثانيها) يروى أنهم عرفوا أن الأجل أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بإزاء ليلة وردوه إلى عشرين قال القاضى هذا ركيك لأن ذلك لايكاد يشتبه على أحد (وثالثها) أن موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليله فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد ، وأما قوله (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فهذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر لأن أحداً لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ، ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على أن الغضب من صفات الأفعال لامن صفات الذات لأن صفة ذات الله تعالى لاتنزل فى شىء من الأجسام . أما قوله (فأخلفتم موعدى) فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان : (أحدهما) أن المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجىء على أثره (والثانى) ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع اليهم من الطور . فعند هذا قالوا (ما أخلفنا موعدك بملكنا) وفى أن قائل هذا الجواب من هو وجهان : (الأول) أنهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا إنا ماأخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر . وإذ قتلتم نفساً) وإن كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضاً على مفارقتهم لأنا خفنا

أن يصير ذلك سبباً لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) أن هذا قول عبدة العجل والمراد
أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة
فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف إنسان من العقلاء المكلفين
عن الدين الحق دفعة واحدة إلى عبادة العجل الذى يعرف فسادها بالضرورة ، ثم إن مثل هذا الجمع
لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب
رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس ، واعلم أن فى
بملكنا ثلاث قراءات قرأ حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر
وابن كثير بالكسر ، أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل . وأما الضم فهو
السلطان ، ثم إن القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا (ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) قرأ
حمزة والكسائى وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع
وحفص وابن عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من
القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه : (أحدها) أن موسى عليه السلام حملهم على ذلك أى أمرهم
باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها إلى أن نؤديها الى
حيث يأمرنا الله (وثالثها) أن الله تعالى حملهم ذلك على معنى أنه ألزمهم فيه حكم المغنم ، أما الأوزار
فهى الأثقال ومن ذلك سمى الذنب وزراً لأنه ثقل ثم فيه احتمالات (أحدها) أنه لكثرتها كانت
أثقالا (وثانيها) أن المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت
أثقالا (وثالثها) المراد بالأوزار الآثام والمعنى حملنا آثاماً ، روى فى الخبر أن هرون عليه السلام
قال إنها نجسة فتطهروا منها ، وقال السامرى إن موسى عليه السلام إنما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز
أن يكونوا أرادوا هذا القول ، وقد يقول الانسان للشىء الذى يلزمه رده هذا كله إثم وذنب
(ورابعها) أن ذلك الحلى كان القبط يتزينون به فى مجامع لهم يجرى فيها الكفر لا جرم أنها وصفت
بكونها أوزاراً كما يقال مثله فى آلات المعاصى ، أما قوله (فقذفناها) فذكروا فيه وجوها فى أنهم
أين قذفوها ؟ (الوجه الأول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلى فيها
إنتظاراً لعود موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع أمرهم السامرى بذلك (الوجه
الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامرى أى فعل السامرى مثل ما فعلنا ،
أما قوله (فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار) فاختلفوا فى أنه هل كان ذلك الجسد حياً أم لا ؟
(فالقول الأول) لا لأنه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد الضال بل السامرى صور صورة على
شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل
(والقول الثانى) أنه صار حياً وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه : (أحدها) قوله
(فقبضت قبضة من أثر الرسول) ولو لم يصر حياً لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) أنه تعالى

سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسداً وهو إنما يتناول الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعى الإلهية جائز لأنه لا يحصل الإلتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع ، وروى عكرمة عن ابن عباس أن هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال : ما تصنع ؟ فقال : أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال : اللهم أعطه ماسأل فلما مضى هرون قال السامرى : اللهم إنى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجزاً للنبى ، أما قوله (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) ففيه إشكال وهو أن القوم إن كانوا فى الجهالة بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والأرض فهم مجانين وليسوا بمكلفين ولأن مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا إلهكم وإله موسى ، وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الإله أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم ، وإن كان ذلك أيضاً فى غاية البعد لأن ظهور الخوار لا يناسب الإلهية ، ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة ، وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الأول) أنه كلام الله تعالى كأنه أخبر عن السامرى أنه نسى الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ثم إنه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضراً ونفعاً)أى لم يخطر ببالهم أن من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون إلهاً ولا يكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) أن هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى أن هذا إلهكم وإله موسى فنسى موسى أن هذا هو الإله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الأكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله(أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً)فهذا استدلال على عدم إلهيتها بأنها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على أن الاله لابد وأن يكون موصوفاً بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وإن موسى عليه السلام فى أكثر الأمر لا يعول إلا على دلائل إبراهيم عليه السلام بقى ههنا بحثان .

﴿ البحث الأول ﴾ قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله (وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا) بمعنى أنه لا تكون وقرىء بالنصب أيضاً على أن أن هذه هى الناصبة للأفعال .

﴿ البحث الثانى ﴾ هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الأصنام (ألهم أرجل يمشون بها) وليس المقصود من هذا أن العجل لو كان يكلمهم لكان إلهاً لأن الشىء يجوز أن يكون مشروطاً بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ، ولكن

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَرُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى «٩٠» قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى «٩١»

حصول الواحد فيها لا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال إنما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة؟

قوله تعالى ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾

اعلم أن هرون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلأنه كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأموراً من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فلولم يشتغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لأمر الله تعالى ولأمر موسى عليه السلام وذلك لايجوز، أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون أنى مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال إنهم لم يغضبوا لغضبى. وقال ثابت البنانى قال أنس قال رسول الله ﷺ من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله فى شىء ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم. وعن الشعبى عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وقال أبو على الحسن الغورى كنت فى بعض المواضع فرأيت زروقاً فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح إيش هذا فقال أنت صوفى فضولى وهذه خمور المعتضد، فقلت له اعطنى ذلك المدرى، فقال لغلامه اعطه حتى نبصر إيش يعمل، فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنا دنا والملاح يصيح حتى بقى واحد فأمسكت فجاء صاحب السفينة فأخذنى وحملنى إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره على قال من أنت؟ قلت المحتسب، قال من ولاك الحسبة؟ قلت الذى ولاك الخلافة. قال لم كسرت هذه الدنان؟ قلت شفقة عليك إذا لم تصل يدى إلى دفع مكروه عنك، قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت إنى لما كسرت هذه الدنان فانى إنما كسرتها حمية فى دين الله فلما وصلت إلى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته. فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة، فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطياً. وأما الشفقة على

المسلمين فلأن الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه وأى شفقة أعظم من أن يرى جمعا يتهافتون على النار فيمنعهم منها ، وعن أبى سعيد الخدرى عنه عليه السلام « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها فى القاسية قلوبهم فان فيهم غضبى » وعن عبد الله بن أبى أوفى قال « خرجت أريد النبى ﷺ فاذا أبو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبى إليك فإنه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله ﷺ أدرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكى والصبى فى حجرها فالتفتت فرأت النبى ﷺ فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذى نفسى بيده إن الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها » ويروى « أنه بينا رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه إذ نظر إلى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال إلهى وسيدى هذا رسولك يشهد على بأنى من أهل النار وأنا أعلم أنه صادق فاذا كان الأمر كذلك فأسألك أن تجعلنى فداء أمة محمد ﷺ وتشعل النار بى حتى تبر يمينه ولا تشعل النار بأحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يامحمد بشر الشاب بأنى قد أنقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق » إذا ثبت ذلك فاعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب . ثم إن هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال (ياقوم إنما فتنتم به) الآية وههنا دقيقة وهى أن الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلى « أنت منى بمنزلة هرون من موسى » ثم إن هرون مامنعته التقية(١) فى مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره ، فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على على عليه السلام أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول (فاتبعونى وأطيعوا أمرى) فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب ، واعلم أن هرون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل أولا بقوله (إنما فتنتم به) ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله (وإن ربكم الرحمن) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله (فاتبعونى) ثم دعاهم الى الشرائع رابعاً بقوله (وأطيعوا أمرى) وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لابد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى هى الأصل ثم النبوة ثم الشريعة ، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه ، وإنما قال (وإن ربكم الرحمن) فخص هذا الموضع باسم الرحمن لأنه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن الرحيم . ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) كأنهم قالوا لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول

(١) فى الأصل التتمية وهو خطأ . والتقية : المحافظة والخوف والحذر .

قَالَ يَاهَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا «٩٢» أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى «٩٣» قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى «٩٤»

موسى وعادة المقلد ليس إلا ذاك .

قوله تعالى ﴿ قال ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعن أفعصيت أمرى ، قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ إعلم أن الطاعنين فى عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) أن موسى عليه السلام إما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أو لم يأمره ، فان أمره به فإما أن يكون هرون قد اتبعه أو لم يتبعه . فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنباً لأن ملامة غير المجرم معصية . وإن لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية . وأما إن قلنا إن موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته إياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم إسناد المعصية إما إلى موسى أو إلى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام (أفعصيت أمرى) استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه ، وأن يكون ذلك العصيان منكراً ، وإلا لكان موسى عليه السلام كاذباً وهو معصية ، فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله (يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) وهذا معصية لأن هرون عليه السلام قد فعل ماقدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر ، فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة ، وبعد أن علم أن هرون قد فعل ماقدر عليه كان الأخذ برأسه ولحيته معصية وإن فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضاً معصية (ورابعها) أن هرون عليه السلام قال (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) فان كان الأخذ بلحيته وبرأسه جائزاً كان قول هرون لا تأخذ منعاً له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية ، وإن لم يكن ذلك الأخذ جائزاً كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أمثلة لطيفة فى هذا الباب (والجواب) عن الكل أنا بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) أنواعا من الدلائل الجلية فى أنه لا يجوز صدور المعصية من الأنبياء ، وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة مايبعد عن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز ، إذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا فى الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (أحدها) أنا وإن اختلفنا فى جواز المعصية على الأنبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الأولى عليهم ، وإذا كان كذلك فالفعل الذى يفعله أحدهما ويمنعه الآخر أعنى بهما

موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الأولى فلذلك فعله أحدهما وتركه الآخر ، فان قيل هذا التأويل غير جائز لأن كل واحد منهما كان جازما فيما يأتى به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لايجزم به ، قلنا تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع ، فنحن نحمل ذلك الجزم فى الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه إن كنت تريد الأصلح ، وقد يترك ذلك الشرط إذا كان تواطوهما على رعايته معلوماً متقرراً (وثانيها) أن موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل أصابعه ويقبض لحيته فأجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لأنه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فأما قوله (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنوا إسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ، ثم أخذ فى شرح القصة فقال (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) ، (وثالثها) أن بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى أن هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته ، فلما واعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الألواح من كل شىء ثم رجع فرآى فى قومه مارآى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم مالا أصل له فقال إشفاقا على موسى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم مالا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديداً مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رآى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد مارأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضباً لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه إقبال العدو المكاشر ، واعلم أن هذا الجواب ساقط لأنه يقال هب أنه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلا مكلفاً أم لا ؟ فان بقى عاقلا مكلفاً فالأسئلة باقية بتمامها أكثر مافى الباب أنك ذكرت أنه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت إشكالا آخر ، فان قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لا يرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله أعلم أما قوله (مامنعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن) ففيه وجهان (الأول) أن لاصلة والمراد مامنعك أن تتبعنى (والثانى) أن يكون المراد مادعاك إلى أن لا تتبعنى فأقام منعك مقام دعاك وفى الاتباع قولان (أحدهما) مامنعك من اتباعى بمن أطاعك واللحوق بى وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء (والثانى) أن تتبعنى فى وصيتى إذ قلت لك (أخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال (أفعصيت أمرى) ومعناه ظاهر

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِىُّ «٩٥» قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى «٩٦» قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَوٰةِ أَنْ تَقُولَ لَامِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى

وهذا يدل على أن تارك المأمور به عاص والعاصى مستحق للعقاب لقوله (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها) ولقوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) فمجموع الآيتين يدل على أن الامر للوجوب، فأجاب هرون عليه السلام وقال (ياابن أم) قيل إنما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل كان أخاه لأمه (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) واعلم أنه ليس فى القرآن دلالة على أنه فعل ذلك، فإن النهى عن الشىء لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كقوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) وقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) والذى فيه أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه وهذا القدر لايدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الأغراض على مابيناه، ومن الناس من يقول إنه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) ولقائل أن يقول إن قول موسى عليه السلام (مامنعك أن لاتتبعن أفعصيت أمرى) يدل على أنه أمره بشىء فكيف يحسن فى جوابه أن يقال إنما لم أمتثل قولك خوفاً من أن تقول (ولم ترقب قولى) فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام إنما أمره بالذهاب إليه بشرط أن لا يؤدى ذلك إلى فساد فى القوم فلما قال موسى (مامنعك أن لا تتبعن) قال لأنك إنما أمرتنى باتباعك إذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقباً لقولك. قال الإمام أبو القاسم الانصارى الهداية أنفع من الدلالة فإن السحرة كانوا أجانب عن الإيمان وما رأوا إلا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد فى الدنيا ولم يرجعوا عن الإيمان، وأما قومه فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وأنه أمر إلهى ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر إثنى عشر طريقاً وأن الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم، ثم إن هؤلاء مع ماشاهدوا من هذه الآيات لما خرجوا من البحر ورأوا قوماً يعبدون البقر قالوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، ولما سمعوا صوتاً من عجل عكفوا على عبادته. وذلك يدل على أنه لايحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية، قرأ حمزة والكسائى (ياابن أم) بكسر الميم والإضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره ياابن أماه والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ قال فما خطبك ياسامرى، قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر

إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا «٩٧» إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا «٩٨»

الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ، قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً ﴾

إعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له فى التأخير أقبل على السامرى ويجوز أن يكون قد كان حاضراً مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ فى التكلم مع السامرى ، ويجوز أن يكون بعيداً ثم حضر السامرى من بعد أو ذهب إليه موسى ليخاطبه ، فقال موسى عليه السلام (ماخطبك ياسامرى) والخطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيئاً ماخطبك معناه ما طلبك له والغرض منه الإنكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامرى عذره فى ذلك فقال (بصرت بما لم يبصروا به) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (بصرت بما لم يبصروا به) بالكسر وقرأ حمزة والكسائى بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أى بما لم يبصر به بنو إسرائيل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الإبصار (قولان) قال أبو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أى عالم وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال الزجاج فى تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيراً عالماً وقال آخرون رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد أنه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال (فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهى اسم للمقبوض كالغرفة والضفة وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرئ أيضاً فقبصت قبصة بالضاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا أنه متى رآه فقال الأكثرون إنما رآه يوم فلق البحر ، وعن على عليه السلام أن جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام إلى الطور أبصره السامرى من بين الناس ، واختلفوا فى أن السامرى كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى إنما عرفه

لأنه رآه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى إسرائيل ، فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لايشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه فلما رآه عرفه ، قال ابن جريج فعلى هذا قوله (بصرت بما لم يبصروا به) بمعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت أن تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الإحياء . قال أبو مسلم الأصفهانى ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فهنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم فى باب العجل ، فقال بصرت بما لم يبصروا به . أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئاً من سنتك ودينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بماله من العذاب فى الدنيا والآخرة . وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الأمير فى كذا وبماذا يأمر الأمير ، وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله عنه قوله (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) وإن لم يؤمنوا بالانزال . واعلم أن هذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه (أحدها) أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه فاطلاق لفظ الرسول لإرادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) أنه لابد فيه من الإضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والإضمار خلاف الأصل (وثالثها) أنه لابد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر والذى ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد . لأن السامرى إن عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول الإضلال وإن كان ما عرفه حال البلوغ فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له فى الطفولية فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) أنه لو جاز إطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شىء آخر يشبه ذلك فلأجله أتى بالمعجزات ويرجع حاصله إلى سؤال من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز أن يقال إنهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الأدوية التى لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة . وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية . أما قوله (وكذلك سولت لى نفسى) فالمعنى فعلت مادعتنى إليه نفسى وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم

يدعنى إلى مافعلته أحد غيرى بل اتبعت هواى فيه ، ثم إن موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامرى أجابه بأن بين حاله فى الدنيا والآخرة وبين حال إلهه أما حاله فى الدنيا فقوله (فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد : أن لا أمس ولا أمس قالوا وإذا مسه أحد حم الماس والمسوس فكان إذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفاً من الحمى وقال لامساس (وثانيها) أن المراد بقوله (لامساس) المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد وقال مقاتل إن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى إسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك فخرج طريداً إلى البرارى ، اعترض الواحدى عليه فقال الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لامساس وإنما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لأن الرجل إذا بقى طريداً فريداً فاذا قيل له كيف حالك فله أن يقول لامساس أى لايماسنى أحد ولا أماس أحداً ، والمعنى إنى أجعلك يا سامرى فى المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس وهذا الوجه أحسن وأقرب إلى نظم الكلام من الأول (وثالثها) ما ذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز فى حمله ما أريد مسى النساء فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وقرىء لامساس بوزن فجار وهو إسم علم للمرة الواحدة من المس ، وأما شرح حاله فى الآخرة فهو قوله (وإن لك موعداً لن تخلفه) والموعد بمعنى الوعد أى هذه عقوبتك فى الدنيا ثم لك الوعد بالمصير إلى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، قرأ أهل المدينة والكوفة لن تخلفه بفتح اللام أى لن تخاف ذلك الوعد أى سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أى تجىء إليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبى عبيد كأنه قال موعداً حقاً لا خلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه فى قوله (لأهب لك) وأما شرح حال إلهه فهو قوله (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً) قال المفضل فى ظلت إنه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك (فظلتم تفكهون) وأصله ظللت فحذفت اللام الأولى وذلك إنما يكون إذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الأولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة إليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون فى المضاعف يقولون مسته ومسسته ثم قال (لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) وفى قوله (لنحرقنه) وجهان (أحدهما) المراد إحراقه بالنار وهذا أحد مايدل على أنه صار لحماً ودماً ، لأن الذهب لا يمكن إحراقه بالنار ، وقال السدى أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفى حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه و ثانيهما لنحرقنه أى لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على أنه لم ينقلب لحماً ولادما فان ذلك لا يصح أن يبرد بالمبرد ، ويمكن أن يقال إنه صار لحماً فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا «٩٩» مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا «١٠٠» خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا «١٠١» يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا «١٠٢» يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا «١٠٣» نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا «١٠٤»

حتى صارت بحيث يمكن نسفها ، قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار ، وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعني لنبردنه ، واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من إبطال ما ذهب إليه السامرى عاد إلى بيان الدين الحق فقال (إنما إلهكم) أى المستحق للعبادة والتعظيم (الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لا يعبده .

قوله تعالى ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً ، من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزراً ، خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ، يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ، يتخافتون بينهم إن لبثتم عشراً ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانياً أتبعه بقوله (كذلك نقص عليك) من سائر أخبار الأمم وأحوالهم تكثيراً لشأنك وزيادة فى معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها فى الدين (وقد آتيناك من لدنا ذكراً) يعنى القرآن كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه)(وإنه لذكر لك) (والقرآن ذى الذكر) (ما يأتيهم من ذكر) (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) ثم فى تسمية القرآن بالذكر وجوه : (أحدها) أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال (وإنه لذكر لك ولقومك) ، واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكراً فقال (فاسألوا أهل الذكر) وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه : (أولها) قوله (من أعرض عنه) فانه يحمل يوم القيامة وزراً والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزراً تشبيها فى ثقلها

على المعاقب وصعوبة احتمالها الذى يثقل على الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم وقرىء يحمل ، ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين : (أحدهما) أنه يكون مخلداً مؤبداً (والثانى) قوله (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى وما أسوأ هذا الوزر حملا أى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) (يوم ينفخ فى الصور) فالمراد بيان أن يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله (ونحشر) وقرأ الباقون ينفخ على ما لم يسم فاعله ونحشر بالنون لأن النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى ، وقرىء يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لإسرافيل عليه السلام ، وأما (يحشر المجرمين) فلم يقرأ به إلا الحسن وقرىء فى الصور بفتح الواو جمع صورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (فى الصور) قولان (أحدهما) أنه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس إلى المحشر . (والثانى) أنه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والأول أولى لقوله تعالى (فاذا نقر فى الناقور) والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الأسفار وفى العساكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لأن قوله بعد ذلك (ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) كالدلالة على أن النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) ، أما قوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة قوله (المجرمين) يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر ، وقد تقدم هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه : (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك ، فان قيل أليس أن الله تعالى أخبر أنهم (يحشرون عمياً) فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى فى حال وأزرق فى حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبى زرقا أى عمياً ، قال الزجاج يخرجون بصراء فى أول مرة ويعمون فى المحشر. وسواد العين إذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى ، وقد قال تعالى (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وشخوص البصر من الأعمى محال ، وقد قال فى حقهم (إقرأ كتابك) والأعمى كيف يقرأ (فالجواب) أن أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والأزرق شاخص لأنه لضعف بصره يكون محدقاً نحو الشىء يريد أن يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) (ورابعها) زرقاً عطاشاً هكذا رواه ثعلب عن ابن الأعرابى قال لأنهم من شدة

العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هـذا التفسير قوله تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الأعرابى قال طامعين فيما لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى (يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى) يتخافتون أى يتسارون يقال خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى (فلا تسمع إلا همساً) وإنما يتخافتون لأنه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لأنهم صاروا بسبب الخوف فى نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد بقوله (إن لبثتم) اللبث فى الدنيا أو فى القبر ، فقال قوم أرادوا به اللبث فى الدنيا ، وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك . واحتجوا عليه بقوله تعالى (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين) فان قيل : إما أن يقال إنهم نسوا قدر لبثهم فى الدنيا ، أو ما نسوا ذلك . والأول غير جائز إذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة فى بلد ثم ينساه . والثانى غير جائز لأنه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهـذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه : (أحدها) لعلهم إذا حشروا فى أول الأمر وعاينوا تلك الأهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا وما ذكروا إلا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا إلا تلك الأيام القليلة فى الدنيا حتى لا نقع فى هـذه الأهوال ، والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الأشياء وتمام تقريره مذكور فى سورة الأنعام فى قوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) . (وثانيها) أنهم عالمون بمقدار عمرهم فى الدنيا إلا أنهم لما قابلوا أعمارهم فى الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها فى نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا فى الدنيا إلا عشرة أيام وقال أعقلهم بل ما لبثنا إلا يوماً واحداً أى قدر لبثنا فى الدنيا بالقياس إلى قدر لبثنا فى الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعـدم ، وإنما خص العشرة والواحد بالذكر لأن القليل فى أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه إلا بالعشرة والواحد (وثالثها) أنهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لأن أيام السرور قصار (ورابعها) أن أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب وإن طالت مدته قليل بالقياس إلى الآتى وإن قصرت مدته فكيف والأمر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) (القول الثانى) أن المراد منه اللبث فى القبر ويعضده قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وقال (الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا إشكال له فى الآية ، أما من لم يجوز . قال إن الله تعالى لما أحياهم فى القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم فى القبر كم كان . فخطر ببال بعضهم أنه فى تقدير عشرة أيام . وقال آخرون إنه يوم

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا «١٠٥» فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا «١٠٦» لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا «١٠٧» يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا «١٠٨» يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا «١٠٩» يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا «١١٠» وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا «١١١» وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا «١١٢»

واحد ، فلما وقعوا فى العذاب مرة أخرى ، تمنوا زمان الموت الذى هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأكثرون على أن قوله (إن لبثتم إلا عشراً) أى عشرة أيام ، فيكون قول من قال (إن لبثتم إلا يوماً) أقل ، وقال مقاتل (إن لبثتم إلا عشراً) أى عشر ساعات كقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر ، والله أعلم واعلم أنه سبحانه وتعالى بين بهذا القول أعظم ما نالهم من الحيرة التى دفعوا عندها إلى هذا الجنس من التخافت .

قوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾

إعلم أنه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال (ويسألونك عن الجبال) وفى تقرير هذا السؤال وجوه (أحدها) أن قوله (يتخافتون) وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك ، فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت

(وثانيها) قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يامحمد كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يامحمد إنك تدعى أن الدنيا ستنقضى فلو صح ماقلته لوجب أن تبتدئ أولا بالنقصان ثم تنتهى إلى البطلان ، لكن أحوال العالم باقية كما كانت فى أول الأمر ، فكيف يصح ماقلته من خراب الدنيا؟ وهذه شبهة تمسك بها جالينوس فى أن السموات لاتفنى ، قال لأنها لو فنيت لابتدأت فى النقصان أولا حتى ينتهى نقصانها إلى البطلان ، فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا أن القول بالبطلان باطل ، ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم إلى الجواب أموراً أخر فى شرح أحوال القيامة وأهوالها .

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (فقل ينسفها ربى نسفاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما قال (فقل) مع فاء التعقيب لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر ، فلا جرم أمره بالجواب مقروناً بفاء التعقيب . لأن تأخير البيان فى مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز ، أما فى المسائل الفروعية فجائزة ، لذلك ذكر هناك قل من غير حرف التعقيب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (ينسفها) عائد إلى الجبال والنسف التذرية ، أى تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فإذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله (يتخافتون) قال الخليل (ينسفها) أى يذهبها ويطيرها ، أما الضمير فى قوله (فيذرها) فهو عائد إلى الأرض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الإخبار عنها بالإضمار كقولهم ماعليها أكرم من فلان وقال تعالى (ماترك على ظهرها من دابة) وإنما قال (فيذرها قاعاً صفصفاً) ليبين أن ذلك النسف لايزيل الاستواء لئلا يقدر أنها لما زالت من موضع إلى موضع آخر صارت هناك حائلة ، هذا كله إذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة ، أما لو كان الغرض من السؤال ماذكرنا من أنه لانقصان فيها فى الحال فوجب أن لاينتهى أمرها إلى البطلان ، كان تقرير الجواب أن بطلان الشىء قد يكون بطلاناً يقع توليدياً ، فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلاناً يقع دفعة واحدة ، وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان ، فبين الله تعالى أنه يفرق تركيبات هذا العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا إلى تقديم النقصان على البطلان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصف الأرض ذلك الوقت بصفات (أحدها) كونها قاعاً وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لانبات عليه . وقال أبو مسلم القاع الأرض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله (لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً) وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الأعيان ، فإن قيل الأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الأرض بالاستواء ونفى الاعوجاج ، وذلك لأنك لو عمدت إلى قطعة

أرض فسويتها و بالغت فى التسوية فإذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحس البصرى قال فذاك القدر من الاعوجاج لما لطف جداً ألحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأرض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لأن المضلع لابد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الأمت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى مافيه أمت وتحصل من هذه الصفات الأربع أن الأرض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج .

﴿ الصفة الثانية ﴾ ليوم القيامة قوله (يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) وفى الداعى قولان (الأول) أن ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله (لاعوج له) أى لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) أنه ملك قائم علي صخرة بيت المقدس ينادى ويقول : أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتفرقة ، واللحوم المتمزقة ، قومى إلى ربك للحساب والجزاء . فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ، ويقال إنه إسرافيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الإحياء أو بعده ؟ قلنا إن كان المقصود بالدعاء إعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الإحياء لأن دعاء الميت عبث وإن لم يكن المقصود إعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفاً للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) وفيه وجوه : (أحدها) خشعت الأصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع إلا همساً وهو الذكر الخفى . قال أبو مسلم : وقد علم الإنس والجن بأن لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاماً يفهم بتحريك الشفتين لضعفه . وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد : الهمس وطء الأقدام ، فالمعنى أنه لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) قال صاحب الكشاف من يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه أى لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن والنصب على المفعولية ، وأقول الاحتمال الثانى أولى لوجوه : (الأول) أن الأول يحتاج فيه إلى الإضمار وتغيير الأعراب والثانى لا يحتاج فيه إلى ذلك (والثانى) أن قوله تعالى (لا تنفع الشفاعة) يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق إلا شخصاً مرضياً (والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة أن درجة الشافع درجة عظيمة فهى لا تحصل إلا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مرضياً ، فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى إيضاح الواضحات ، أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك إيضاح الواضحات فكان ذلك أولى ، إذا ثبت هذا فنقول : المعتزلة

قالوا : الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب أن لا يشفع الرسول فى حقه لأن هذه الآية دلت على أن المشفوع له لا بد وأن يكون مرضياً عند الله . واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق لأن قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه أن يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحداً من أقواله ، والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحداً من أقواله وهو : شهادة أن لا إله إلا الله . فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لأن الاستثناء من النفى إثبات فان قيل إنه تعالى استثنى عن ذلك النفى بشرطين (أحدهما) حصول الإذن (والثانى) أن يكون قد رضى له قولا ، فهب أن الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو أنه تعالى قد رضى له قولا ، لكن لم قلتم إنه أذن فيه ، وهذا أول المسألة قلنا هذا القيد وهو أنه رضى له قولا كاف فى حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على أنه لابد من الإذن فظهر من مجموعهما أنه إذا رضى له قولا يحصل الإذن فى الشفاعة ، وإذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود .

﴿الصفة الخامسة﴾ قوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الضمير فى قوله (بين أيديهم) عائد إلى الذين يتبعون الداعى ومن قال إن قوله (لمن أذن له الرحمن) المراد به الشافع قال ذلك الضمير عائد إليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والأنبياء إلا لمن أذن له الرحمن فى أن تشفع له الملائكة والأنبياء ، ثم قال (يعلم مابين أيديهم) يعنى ما بين أيدى الملائكة كما قال فى آية الكرسى ، وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له قال مقاتل يعلم ما كان قبل أن يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى قوله تعالى (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) وجوها : (أحدها) قال الكلبى (ما بين أيديهم) من أمر الآخرة (وما خلفهم) من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد (ما بين أيديهم) من أمر الدنيا والأعمال (وما خلفهم) من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم ما مضى وما بقى ومتى تكون القيامة .

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكروا فى قوله (ولا يحيطون به علماً) وجهين : (الأول) أنه تعالى بين أنه يعلم ما بين أيدى العباد وما خلفهم . ثم قال : (ولا يحيطون به علماً) أى العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وماخلفهم علماً (الثانى) المراد لايحيطون بالله علماً والأول أولى لوجهين : (أحدهما) أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا قوله (ما بين أيديهم وما خلفهم) (وثانيهما) أنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر مايقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى .

﴿الصفة السادسة﴾ قوله (وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما) ومعناه أن فى ذلك اليوم تعنوا الوجوه أى تذل ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا «١١٣» فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا «١١٤»

لفظ العنو أخذوا العانى وهو الأسير يقال عنا يعنو عناء إذا صار أسيراً وذكر الله تعالى (الوجوه) وأراد به المكلفين أنفسهم لأن قوله (وعنت) من صفات المكلفين لامن صفات الوجوه وهو كقوله (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية) وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير (الحى القيوم) قد تقدم، وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال «أطلبوا اسم الله الأعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه» قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فبين تعالى على وجه التحذير أن ذلك اليوم لا يصح الإمتناع مما ينزل بالمرء من المجازاة، وأن حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى ويمتنع من من الطاعات، أما قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلماً) فالمراد بالخيبة الحرمان أى حرم الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من العفو فقالوا قوله (وقد خاب من حمل ظلماً) يعم كل ظالم، وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مراراً، واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) يعنى ومن يعمل شيئا من الصالحات والمراد به الفرائض فكان عمله مقروناً بالإيمان وهو قوله (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات) فقوله (فلا يخاف) فى موضع جزم لكونه فى موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره (ومن عاد فينتقم الله منه)، (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) وقرأ ابن كثير فلا يخف على النهى وهو حسن لأن المعنى فليأمن والنهى عن الخوف أمر بالأمن والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة، والهضم أن ينقص من ثوابه، والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أى ضامر البطن ومنه (طلعها هضيم) أى لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامى، وقال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من الإعظام لأن الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثواباً إلا إذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص فى بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الأمرين.

قوله تعالى ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً، فتعالى الله الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدنى علماً ﴾

اعلم أن قوله (وكذلك) عطف على قوله (كذلك نقص) أى ومثل ذلك لا نزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين (أحدهما) كونه عربياً لتفهمه العرب فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر (والثانى) قوله (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لأن الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضى بيان الأحكام فلذلك قال (لعلهم يتقون) والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فى قوله (والذين من قبلكم لعلكم تتقون) أما قوله (أو يحدث لهم ذكراً) ففيه وجهان (الأول) أن يكون المعنى إنا إنما أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متقين أى محترزين عما لا ينبغى أو يحدث القرآن لهم ذكراً يدعوهم إلى الطاعات وفعل ما ينبغى ، وعليه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ القرآن كيف يكون محدثاً للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند قراءته أضيف الذكر إليه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم أضيف الذكر إلى القرآن وما أضيفت التقوى إليه (الجواب) أن التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح ، وذلك استمرار على العدم الأصلى فلم يجز إسناده إلى القرآن ، أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت إضافته إلى القرآن .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الإتقاء إلا مع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أى لا تكن خالياً منهما فكذا ههنا (الوجه الثانى) أن يقال إنا أنزلنا القرآن ليتقوا فان لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكراً وشرفاً وصيتاً حسناً ، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى ، ثم إنه تعالى لما عظم أمر القرآن ردفه بأن عظم نفسه فقال (فتعالى الله الملك الحق) تنبيهاً على ما يلزم خلقه من تعظيمه وإنما وصفه بالحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك ، وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت أن علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت الجلال وأنه لا تكيفه الأوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى إنما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغى وليقدموا على ما ينبغى ، وأنه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم ، فالطاعات إنما تقع بتوفيقه وتيسيره ، والمعاصى إنما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الأول) قال أبو مسلم إن من قوله (ويسألونك عن الجبال) إلى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله (ولا تعجل بالقرآن) خطاب

مستأنف فكأنه قال : ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثانى) روى أنه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شيء فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه فى القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه متعال عن كل مالا ينبغى وأنه موصوف بالإحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى ، وإذ حصل الأمان عن السهو والنسيان قال (ولا تعجل بالقرآن) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا تعجل بالقرآن) ويحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته فى نفسك ، ويحتمل أن لا تعجل فى تأديته إلى غيرك ، ويحتمل فى اعتقاد ظاهره ، ويحتمل فى تعريف الغير مايقتضيه ظاهره ، وأما قوله (من قبل أن يقضى إليك وحيه) فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك تمامه ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك بيانه ، لأن هذين الأمرين لا يمكن تحصيلهما إلا بالوحى ، ومعلوم أنه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكى يحفظه ويؤديه فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحى تمامه أو بيانه أو هما جميعاً لأنه يجب التوقف فى معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق فى تفسير الآية . ولنذكر أقوال المفسرين : (أحدها) أن هذا كقوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهماً وعلماً وهذا قول مقاتل والسدى ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى إليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا : يامحمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحى عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمداً فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولا تعجل بالقرآن) أى بنزوله من قبل أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل ومنه إلى جبريل ومنه إليك (وقل رب زدنى علما) (ورابعها) روى الحسن أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت : زوجى لطم وجهى فقال بينكما القصاص فنزل قوله (ولا تعجل بالقرآن) فأمسك رسول الله ﷺ عن القصاص حتى نزل قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء) وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الأول أما قوله تعالى (وقل رب زدنى علما) فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه فى زيادة العلم التى تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الاستعجال الذى نهى عنه إن كان فعله بالوحى فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد . وكان الأولى تركه . فلهذا نهى عنه .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا «٢٢» وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى «١١٦» فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى «١١٧» إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى «١١٨» وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى «١١٩»

قوله تعالى ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى ﴾

إعلم أن هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام فى القرآن أولها فى سورة البقرة ثم فى الأعراف ثم فى الحجر ثم فى الإسراء ثم فى الكهف ، ثم ههنا . واعلم أن فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) أنه تعالى لما قال (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) ثم إنه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازاً للوعد فى قوله (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) (وثانيها) أنه لما قال (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال إن طاعة بنى آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى آدم من قبل أى من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا فى تنبيهه حيث قلنا (إن هذا عدو لك ولزوجك) ثم إنه مع ذلك نسى وترك ذلك العهد فأمر البشر فى ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم (وثالثها) أنه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدنى علماً) ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعد ماعهد الله اليه وبالغ فى تجديد العهد وتحذيره من العدو نسى . فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه فى أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) دل على أنه كان فى الجد فى أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف آدم بالتفريط فى ذلك فانه تساهل فى ذلك ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الأول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم أن البشر لاينفك عن نوع زلة (وخامسها) أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له (ولا تعجل) ضاق قلبه وقال فى نفسه لولا أنى أقدمت على ما لا ينبغى وإلا لما نهيت عنه فقيل له : إن كنت فعلت مانهيت عنه فانما فعلته حرصاً منك على العبادة ، وحفظاً لأداء الوحى

وإن أباك أقدم على مالا ينبغى للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره ، أما قوله تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل) فلا شك أن المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهى منه كما يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم أشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها ، وفى قوله تعالى (من قبل) وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد فى القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها (وثالثها) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن ، أما قوله (فنسى) فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ، ونعيد ههنا منه شيئاً قليلا ، وفى النسيان قولان (أحدهما) المراد ما هو نقيض الذكر ، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان ، وكان الحسن رحمه الله يقول والله ما عصى قط إلا بنسيان (والثانى) أن المراد بالنسيان الترك وأنه ترك ما عهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل من ثمرتها ، وقرىء فنسى أى فنساه الشيطان ، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال أقدم عليها مع التأويل ، والكلام فيه قد تقدم فى سورة البقرة ، وأما قوله (ولم نجد له عزماً) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما .

﴿ البحث الثانى ﴾ العزم هو التصميم والتصلب ، ثم قوله (ولم نجد له عزما) يحتمل ولم نجد له عزماً على القيام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب ، ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزماً على ترك المعصية أو لم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة ، أو لم نجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد إذا قلنا إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد ، وأما قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) فهذا يشتمل على مسائل (إحداها) أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيها) أنه ما معنى السجود (وثالثها) أن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ؟ وإن لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأى شىء صار مأموراً بالسجود ؟ (ورابعها) أن هذا يدل على أن آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ (وخامستها) أن قوله فى صفة إبليس أنه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الإباء وأنه هل كان كافراً ابتداء أو كفر بسبب ذلك . واعلم أن هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ، أما قوله (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) ففيه سؤالات (الأول) ما سبب تلك العداوة ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن إبليس كان حسوداً فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدواً له (وثانيها) أن آدم كان شاباً عالما لقوله وعلم آدم الأسماء كلها ، وإبليس كان شيخاً جاهلا لأنه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل ، والشيخ الجاهل

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى «١٢٠» فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى «١٢١» ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى «١٢٢»

أبداً يكون عدواً للشاب العالم (وثالثها) أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى (الجواب) لما كان بوسوسته هو الذى فعل ماترتب عليه الخروج صح ذلك .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل (الجواب) من وجهين (أحدهما) أن فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة ، وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه أما قوله (إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء وأنك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع فيها ، فإن قيل : أن لا تدخل على أن فلا يقال أن أن زيداً منطلق والواو نائبة عن أن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها ؟ قلنا الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن أن ، إنما هى نائبة عن كل عامل ، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع أن وأن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشبع والرى والكسوة والإكتنان فى الظل هى الأقطاب التى يدور عليها أمر الإنسان ، فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له فى الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لأضدادها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيئاً من أصناف الشقوة التى حذره منها حتى يبالغ فى الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها ، وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور فى قوله (فتشقى) .

قوله تعالى ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾

واعلم أنه سبحانه بين أنه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجوداً للملائكة وبين أنه عرفه شدة عداوة إبليس له ولزوجه وأنه لعداوته يدعوهم إلى المعصية التى إذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ، ثم إنه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الإقدام على الزلة ما اتفق ، والعجب ما روى عن أبى أمامة الباهلى قال «لو أن أحلام بنى آدم إلى قيام الساعة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى الأخرى لرجح حلمه بأحلامهم» ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة ، واعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ورغبه إبليس أيضاً فى دوام الراحة بقوله (هل أدلك على شجرة الخلد) وفى انتظام المعيشة بقوله (وملك لا يبلى) فكان الشىء الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الإحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها ، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته ، كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربى . ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وإن كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لايحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره . وأما قوله (فوسوس إليه الشيطان) فقد تقدم فى سورة البقرة أنه كيف وسوس ، وبماذا وسوس . فإن قيل : كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله (فوسوس لهما الشيطان) وأخرى بإلى ؟ قلنا قوله (فوسوس له) معناه لأجله وقوله (وسوس إليه) معناه أنهى إليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر إليه ثم بين أن تلك الوسوسة كانت بتطميعه فى أمرين (أحدهما) قوله (هل أدلك على شجرة الخلد) أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها صار مخلداً بزعمه (الثانى) قوله (وملك لا يبلى) أى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه ، قال القاضى ليس فى الظاهر أن آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبياً لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه . لأنه لابد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت ، وبالمعنى فآدم لما كان نبياً امتنع أن لايعلم ذلك . قلنا : لانسلم بأنه لابد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ، ولم لايجوز أن يقال لا حاجة إلى الفترة أصلا ، وإن كان ولابد فيكفى حصول الفترة بغشى أونوم خفيف . ثم إن كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلم قلت النبى لابد وأن يعلم ذلك ، أليس قوم منكم يقولون إن موسى عليه السلام إنما سأل الرؤية لأنه ماكان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لايجوز هذا الجهل . ثم ما الدليل على أن آدم كان نبياً فى ذلك الوقت فإن مذهبنا أن واقعة الزلة إنما حصلت قبل رسالته لا بعدها ،

ثم إن الذى يدل على أن آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها ، وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم «زنى ماعز فرجم» «وسها رسول الله فسجد» فإن هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الأكل كالمعلل باستماع قوله (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وإنما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه ، فإنه لو رد قوله لما أقدم على الأكل بناء على قوله ، فثبت أن آدم عليه قبل ذلك من إبليس ثم إنه سبحانه بين أنهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما ، قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وإنما جمع فقيل سوآتهما كما قال (صغت قلوبكما) فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما ، قلنا لاشك أن ذلك كالمعلق على ذلك الأكل ، لكن يحتمل أن لايكون عقاباً عليه ، بل إنما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة ، وهى للشروع فى أول الأمر ، وكاد لمقاربته والدنو منه .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل ، وهو أن يخرز عليها الخصاف أى يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين ، أما قوله (وعصى آدم ربه فغوى) فمن الناس من تمسك بهذا فى صدور الكبيرة عنه من وجهين (الأول) أن العاصى إسم للذم فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثانى) أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الإسم لا يتناول إلا الفاسق المنهمك فى فسقه . أجاب قوم عن الكلام الأول فقالوا المعصية مخالفة الأمر ، والأمر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون : أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى ، وأمرته بشرب الدواء فعصانى . وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب ، فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا أن ظاهر القرآن يدل على أن العاصى مستحق للعقاب والعرف يدل على أنه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصى بتارك الواجب . ولأنه لوكان تارك المندوب عاصياً لوجب وصف الأنبياء بأسرهم بأنهم عصاة فى كل حال لأنهم لا ينفكون من ترك المندوب ، فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد . قلنا لما سلمت كونه مجازاً فالأصل عدمه ، أما قوله أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى قلنا لانسلم أن هذا الاستعمال مروى عن العرب . ولئن سلمنا ذلك ولكنهم إنما يطلقون ذلك إذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل

وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وإن لم يكن الوجوب حاصلا ، وذلك يدل على أن لفظ العصيان لا يجوز إطلاقه إلا عند تحقق الايجاب ، لكنا أجمعنا على أن الإيجاب من الله تعالى يقتضى الوجوب ، فيلزم أن يكون اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام إنما كان لكونه تاركا للواجب ، ومن الناس من سلم أن الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر ، وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضاً ضعيف ، لأنا بينا أن اسم العاصى اسم للذم ، ولأن ظاهر القرآن يدل على أنه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة ، وأجاب أبو مسلم الأصفهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول فى غوى ، وهذا أيضاً بعيد لأن مصالح الدنيا تكون مباحة ، ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذى هو اسم للذم ولا يقال (فدلاهما بغرور) وأما التمسك بقوله تعالى (فغوى) فأجابوا عنه من وجوه : (أحدها) أنه خاب من نعيم الجنة وذلك لأنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكا دائماً ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل إنه غوى ، وتحقيقه أن الغى ضد الرشد ، والرشد هو أن يتوصل بشىء إلى شىء يوصل إلى المقصود فمن توصل بشىء إلى شىء فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غياً (وثانيها) قال بعضهم غوى أى بشم من كثرة الأكل قال صاحب الكشاف هذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً ، فيقول فى فنى وبقى فنا وبقا ، وهم بنو طىء فهو تفسير خبيث ، واعلم أن الأولى عندى فى هذا الباب والأحسم للشغب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك فى سورة البقرة . وههنا بحث لابد منه وهو أن ظاهر القرآن وإن دل على أن آدم عصى وغوى ، لكن ليس لأحد أن يقول إن آدم كان عاصياً غاوياً ، ويدل على صحة قولنا أمور : (أحدها) قال العتبى : يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه ، ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفا به ، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام إلا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز إطلاق هذا الإسم عليه (وثانيها) أن على تقدير أن تكون هذه الواقعة إنما وقعت قبل النبوة ، لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة ، إطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر بمعنى أنه كان كافراً ، بل وبتقدير أن يقال هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضاً أن يقال ذلك لأنه عليه السلام تاب عنها ، كما أن الرجل المسلم إذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك إنه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) أن قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصياً فى أكثر الأشياء وغاوياً عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان فى القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التى عصى فيها فكأنه قال عصى فى كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذى ذكرناه (ورابعها) أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره ، كما يجوز للسيد فى عبيده وولده عند معصيته من إطلاق القول مالا يجوز لغير السيد فى عبده وولده ، أما قوله (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أى عاد

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى «١٢٣» وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى «١٢٤» قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا «١٢٥» قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى «١٢٦» وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى «١٢٧»

عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك ، روى عن النبى ﷺ أنه قال « لو جمع بكاء أهل الدنيا إلى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر ، وإنما سمى نوحاً لنوحه على نفسه ، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر » وقال وهب إنه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى إليه وأمره بأن يقول « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين » فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين » ثم قال قل « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم » قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه الكلمات هى التى تلقاها آدم عليه السلام من ربه .

قوله تعالى ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

اعلم أن على أول هذه الآية سؤالا وهو أن قوله (اهبطا) ، إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر فان كان خطاباً لشخصين فكيف قال بعده (فإما يأتينكم منى هدى) وهو خطاب الجمع وإن كان خطاباً لأكثر من شخصين فكيف قال (اهبطا) وذكروا فى جوابه وجوهاً :(أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله (إهبطا) ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله (فإما يأتينكم) (ثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما

البشر أنفسهم نخوطبا مخاطبتهم فقال (فإما يأتينكم)على لفظ الجماعة ، أما قوله (بعضكم لبعض عدو فقال القاضى يكفى فى توفية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم ، فاذا انضاف إلى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله فى الكلام ، وقوله (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى) فيه دلالة على أن المراد الذرية ، وقد اختلفوا فى المراد بالهدى ، فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآخر والأدلة وبعضهم قال القرآن ، والتحقيق أن الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك ، وفى قوله (فلا يضل ولا يشقى) دلالة على أن المراد بالهدى الذى ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الأدلة ، واتباعها لايتكامل إلا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لايضل ولا يشقى ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى فى الآخرة لأنه تعالى يهديه إلى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لايضل ولا يشقى فى الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء فى الدنيا ، قلنا المراد لايضل فى الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ، ولما وعد الله تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض ، فقال (ومن أعرض عن ذكرى) والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ماتقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الأدلة ، وقوله (فان له معيشة ضنكا) فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك ، وعيش ضنك ، فكأنه قال معيشة ذات ضنك ، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به إما أن يكون فى الدنيا أو فى القبر أو فى الآخرة أو فى الدين أو فى كل ذلك أو أكثره (أما الأول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لأن المسلم لتوكله على الله يعيش فى الدنيا عيشاً طيباً كما قال (فلنحيينه حياة طيبة) والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا طالباً للزيادة أبداً فعيشته ضنك وحالته مظلمة ، وأيضاً فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) وقال (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً) . (وأما الثانى) وهو عذاب القبر ، فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخدرى وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن عذاب القبر للكافر قال والذى نفسى بيده إنه ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنيناً » قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت الآية فى الأسود ابن عبد العزى المخزومى والمراد ضغطة القبر تختلف فيها أضلاعه (وأما الثالث) وهو الضيق فى الآخرة فى جهنم ، فان طعامهم فيها الضريع والزقوم ، وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها

ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي (وأما الرابع) وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما المعيشة الضنك هي أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها. سئل الشبلي عن قوله عليه السلام «إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية» فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى إلى أنفسهم وأى معيشة أضيق وأشد من أن يرد الإنسان إلى نفسه ، وعن عطاء قال المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لأنه غير موقن بالثواب والعقاب (وأما الخامس) وهو أن يكون المراد الضيق في كل ذلك أو أكثره فروى عن على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة ، وأن لا يتوصل إلى قوته إلا بمعصية الله تعالى» أما قوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) ففيه وجوه (أحدها) هذا مثل قوله (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً) وكما فسرت الزرقة بالعمى ، ثم قيل إنه يحشر بصيراً فاذا سيق إلى المحشر عمى والكلام فيه وعليه قد تقدم في قوله (زرقا) ، (وثانيها) قال مجاهد والضحاك ومقاتل يعنى أعمى عن الحجة ، وهى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال القاضي هذا القول ضعيف لأن في القيامة لابد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ، ومن هذا حاله لا يوصف بذلك إلا مجازاً ، والمراد به أنه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله (وقد كنت بصيراً) ولم يكن كذلك في حال الدنيا أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض أنه تعالى علل ذلك العمى بما أن المكلف نسى الدلائل في الدنيا فلو كان العمى الحاصل في الآخرة بين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر ، كما أنه ماكان له في الدنيا بسبب ذلك ضرر ، واعلم أن تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الأرواح الجاهلة في الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة في الآخرة وأن تلك الجهالة تصير هناك سبباً لأعظم الآلام الروحانية . وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضي المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائي : المراد من حشره أعمى أنه لا يهتدى يوم القيامة إلى طريق ينال منه خيراً بل يبقى واقفاً متحيراً كالأعمى الذى لا يهتدى إلى شيء ، أما قوله (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ففي تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) أنه تعالى إنما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والإعراض عنه (والثانى) هو أن الأرواح البشرية إذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية ، فلهذا علل الله تعالى حصول العمى في الآخرة بالاعراض عن الدلائل في الدنيا ، ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق في الدنيا ، قال إنه تعالى بين أن من أعرض عن ذكره في الدنيا فله المعيشة الضنك في الدنيا ، والعمى في الآخرة . أما قوله (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) فقد

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَى «١٢٨» وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى «١٢٩» فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى «١٣٠»

اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر ، وبعضهم قال أسرف فى أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله (ولم يؤمن بآيات ربه) لأن ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين أنه يجزى من هذا حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك (أن عذاب الآخرة أشد وأبقى) أما الأشد فلعظمه ، وأما الأبقى فلأنه غير منقطع .

قوله تعالى ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ، فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾

إعلم أنه تعالى لما بين أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما يعتبر[به] المكلف من الأحوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال (أفلم يهد لهم) والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله (كم أهلكنا) قال القفال جعل كثرة ماأهلك من القرون مبيناً لهم ، كما جعل مثل ذلك واعظاً لهم وزاجراً ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أفلم نهد لهم بالنون ، قال الزجاج يعنى أفلم نبين لهم بياناً يهتدون به لو تدبروا وتفكروا ، وأما قوله (كم أهلكنا) فالمراد به المبالغة فى كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله (يمشون فى مساكنهم) أن قريشاً يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم ، وما حل بهم من ضروب الهلاك ، وللمشاهدة فى ذلك من الاعتبار ماليس لغيره ، وبين أن فى تلك الآيات آيات لأولى النهى ، أى لأهل العقول والأقرب أن للنهية مزية على العقل ، والنهى لا يقال إلا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح ، كما أن لقولنا أولو العزم مزية على أولو الحزم ، فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوي ، ثم بين تعالي الوجه الذي لأجله لا ينزل العذاب معجلا على

من كذب وكفر بمحمد ﷺ فقال (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً ، ولا شبهة فى أن الكلمة هى إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ . أن أمته عليه السلام وإن كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم مايفعل بغيرهم من الاستئصال ، واختلفوا فيما لأجله لم يفعل ذلك بأمة محمد ﷺ ، قال بعضهم لأنه علم أن فيهم من يؤمن ، وقال آخرون علم أن فى نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك ، وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها إلا هو ، وقال أهل السنة له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة ، إذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة إن كانت قديمة لزم قدم الفعل ، وإن كانت حادثة افتقرت إلى علة أخرى ولزم التسلسل ، فلهذا قال أهل التحقيق كل شىء صنيعه لا لعلة ، وأما الأجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك عذاب وهذا أقرب ، ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب إلى الآخرة كقوله (بل الساعة موعدهم) لكان العقاب لازماً لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ، ثم إنه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحداً قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة فى أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم ، فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم إنه ساحر أو مجنون أو شاعر إلى غير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ، ويحتمل أيضاً تركهم القبول منه لأن كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى فى الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ماحمل من الرسالة وأن لا يكون مايقدمون عليه صارفاً له عن ذلك ، ثم قال الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ، ثم قال (فسبح بحمد ربك) وهو نظير قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة) وفيه مسائل :

﴿المسألة الاولى﴾ (بحمد ربك) فى موضع الحال أى وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه .

﴿المسألة الثانية﴾ إنما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا فى التسبيح على وجهين ، فالأكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) أن الآية تدل على أن الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه ، فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، وقبل غروبها هو الظهر والعصر لأنهما جميعاً قبل الغروب ، ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الأخيرة ويكون قوله (وأطراف النهار) كالتوكيد للصلاتين الواقعتين فى طرفى النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت فى قوله (والصلاة الوسطى) بالتوكيد (القول

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ «١٣١» وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ

الثانى) أن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة ، أما دلالتها على الصلوات الخمس فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها ، فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين ، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما ، بقى قوله (ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) وأطراف النهار للنوافل (القول الثالث) أنها تدل على أقل من الخمس ، فقوله قبل طلوع الشمس للفجر ، وقبل غروبها للعصر ، ومن آناء الليل للمغرب والعتمة ، فيبقى الظهر خارجا ، والقول الأول أقوى وبالاعتبار أولى . هذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة ، قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الأوقات ، وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ماتقدم ذكره ، وذلك لأنه تعالى صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر، والذى يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائماً مظهراً لذلك وداعياً إليه فلذلك قال مايجمع كل الأوقات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أفضل الذكر ما كان بالليل لأن الجمعية فيه أكثر ، وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الأعمال ، ولذلك قال سبحانه وتعالى (إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) وقال (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة) ولأن الليل وقت السكون والراحة . فإذا صرف إلى العبادة كانت على الأنفس أشق وللبدن أتعب فكانت أدخل فى استحقاق الأجر والفضل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لقائل أن يقول : النهار له طرفان فكيف قال (وأطراف النهار) بل الأولى أن يقول كما قال (وأقم الصلاة طرفى النهار) ؟ وجوابه من الناس من قال أقل الجمع اثنان فسقط السؤال ، ومنهم من قال إنما جمع لأنه يتكرر فى كل نهار ويعود ، أما قوله تعالى (لعلك ترضى) ففيه وجوه (أحدها) أن هذا كما يقول الملك الكبير يا فلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد إنى أوصلك إلى درجة عالية فى النعمة ، وهو إشارة إلى قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، (وثانيها) لعلك ترضى ماتنال من الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة . وقرأ الكسائى وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لايختلف لأن الله تعالى إذا أرضاه فقد رضيه وإذا رضيه فقد أرضاه .

قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة

عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى «١٣٢» وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى «١٣٣» وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى «١٣٤» قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى «١٣٥»

للتقوى . وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ، ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ، قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾

إعلم أنه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على مايقولون ، وأمره بأن يعدل إلى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه إلى ما متع به القوم فقال تعالى (ولا تمدن عينيك) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (ولا تمدن عينيك) وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر تطويله وأن لايكاد يرده استحسانا للمنظور إليه إعجاباً به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا (ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما إذا نظر الانسان إلى شيء مرة ثم غض ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع قيل (ولا تمدن عينيك) أى لا تفعل ما أنت معتاد له . ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمركوب وغير ذلك لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله (ولا تمدن عينيك) ليس هو النظر ، بل هو الأسف ، أى لا تأسف على مافاتك مما نالوه من حظ الدنيا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو رافع « نزل ضيف بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى إلى يهودى لبيع أو سلف ، فقال والله لا أفعل ذلك إلا برهن فأخبرته بقوله فأمرنى أن أذهب بدرعه إليه فنزل قوله تعالى (ولا تمدن عينيك) » وقال عليه السلام « إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم » وقال أبو الدرداء : الدنيا دار من لادار له ومال

من لامال له ولها يجمع من لا عقل له . وعن الحسن : لولا حمق الناس لخربت الدنيا . وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم لها عبيداً ، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رآى ماعند السلاطين يتلو هذه الآية ،وقال الصلاة يرحمكم الله ، أما قوله عزوجل (إلى مامتعنا به)[أى] ألذذنا به ، والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الأصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح ، يقال أمتعه إمتاعاً ومتعه تمتيعاً والتفعيل يقتضى التكثير ، أما قوله (أزواجا منهم) أى أشكالا وأشباها من الكفار وهى من المزاوجة بين الأشياء وهى المشاكلة ، وذلك لأنهم أشكال فى الذهاب عن الصواب ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصنافا منهم ، وقال الكلبى والزجاج رجالا منهم ، أما قوله (زهرة الحياة الدنيا) ففى انتصابه أربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانياً له أو على إبداله من محل الجار والمجرور أو على إبداله من أزواجا على تقدير ذوى ، فان قيل مامعنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء فى الجهرة قرىء أرنا الله جهرة ، وأن يكون جمع زاهر وصفاً لهم بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف فى الثياب ، أما قوله (لنفتنهم فيه) فذكروا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله (فلا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) ، (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما إضلالا منى لهم (وثالثها) قال الكلبى ومقاتل تشديداً فى التكليف عليهم لأن الإعراض عن الدنيا عند حضورها والإقبال إلى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الأغنياء ، ولأن على من أوتى الدنيا ضروباً من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولأن القادر على المعاصى يكون الاجتناب عن المعاصى أشق عليه من العاجز الفقير ، فمن هذه الجهات تكون الزيادة فى الدنيا تشديداً فى التكليف ثم قال لرسوله (ورزق ربك خير وأبقى) والأظهر أن المراد أن مطلوبك الذى تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى ، لأنه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من من الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد ماأوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى ، فذكر الرزق فى الدنيا ووصفه بحسن عاقبته إذا رضى به وصبر عليه ، ويحتمل أن يكون المراد ما أعطى من النبوة والدرجات الرفيعة ، وأما قوله (وأمر أهلك بالصلاة) فمنهم من حمله على أقاربه ومنهم من حمله على كل أهل دينه ، وهذا أقرب وهو كقوله (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) وإن احتمل أن يكون المراد من يضمه المسكن إذ التنبيه على الصلاة والأمر بها فى أوقاتها ممكن فيهم دون سائر الأمة يعنى كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها ، أما قوله (واصطبر عليها) فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا ، فان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول ، وكان رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى عليهما السلام كل صباح ويقول «الصلاة» وكان يفعل ذلك أشهراً ، ثم بين تعالى أنه إنما يأمرهم بذلك لمنافعهم وأنه متعال عن المنافع بقوله (لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) وفيه وجوه (أحدها) قال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج ، وهو كقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) (وثانيها) (لا نسألك رزقاً) لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ، ففرغ بالك لأمر الآخرة ، وفى معناه قول الناس : من كان فى عمل الله كان الله فى عمله (وثالثها) المعنى أنا لما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لأنا ننتفع بصلاتك . فعبر عن هذا المعنى بقوله (لا نسألك رزقاً) بل نحن نرزقك فى الدنيا بوجوه النعم وفى الآخرة بالثواب ، قال عبد الله بن سلام « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية » واعلم أنه ليس فى الآية رخصة فى ترك التكسب لأنه تعالى قال فى وصف المتقين (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لأهل التقوى يعنى تقوى الله تعالى ، ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم ، فكأنه من تمام قوله (فاصبر على ما يقولون) وهى قولهم (لولا يأتينا بآية من ربه) أوهموا بهذا الكلام أنه يكلفهم الإيمان من غير آية ، وقالوا فى موضع آخر (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وأجاب الله تعالى عنه بقوله (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) وفيه وجوه : (أحدها) أن ما فى القرآن إذا وافق ما فى كتبهم مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى أستاذاً البتة كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً (وثانيها) أن بينة ما فى الصحف الأولى ما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والقفال [أن] المعنى (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) من أنباء الأمم التى أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم فى سؤال الآيات كحال أولئك ، وإنما أتاهم هذا البيان فى القرآن ، فلهذا وصف القرآن بكونه (بينة ما فى الصحف الأولى) واعلم أنه إنما ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها فى معنى البرهان والدليل ، ثم بين أنه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة فى التكليف ، فقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذراً لهم . فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم ومالهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم . ومعنى (من قبله) يحتمل من قبل إرساله ويحتمل من قبل ما أظهره من البينات فان قيل فما معنى قوله (ولو أنا أهلكناهم لقالوا) والهالك لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال (من قبل أن نذل ونخزى) وذلك لا يليق إلا بعذاب الآخرة ، روى أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال عليه السلام « يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة : الهالك فى الفترة يقول لم يأتنى رسول وإلا كنت أطوع خلقك لك . وتلا قوله (لولا

أرسلت إلينا رسولا) والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لى عقلا أنتفع به ، ويقول الصبى كنت صغيراً لا أعقل فترفع لهم نار ، ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان فى علم الله تعالى أنه شقى ويبقى من فى علمه أنه سعيد ، فيقول الله تعالى لهم : عصيتم اليوم فكيف برسلى لو أتوكم ، والقاضى طعن فى الخبر وقال لا يحسن العقاب على من لا يعقل ، واعلم أن فى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الجبائى هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف إذ المراد أنه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن ؟ وهلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ؟ وإن كان فى المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن فى ذلك حجة ، فصح أنه إنما يكون حجة لهم إذا كان فى المعلوم أنهم يؤمنون عنده إذا أطاعوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكعبى قوله (لو لا أرسلت الينا رسولا) أوضح دليل على أنه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده ، وأنه ليس قوله (لا يسأل عما يفعل) كما ظنه أهل الجبر من أن ما هو جور منا يكون عدلا منه بل تأويله : أنه لا يقع منه إلا العدل فاذا ثبت أنه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع إذ لو تحقق العقاب قبل مجىء الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجىء الشرع .

ثم إنه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال (قل كل متربص) أى كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت ، إما بسبب الأمر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة ، ويحتمل أن يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه ، ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب ، فانه يتميز فى الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى ، وعلى المبطل من أنواع إهانته (فستعلمون) عند ذلك (من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد ، بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار ، والله أعلم .

﴿ سورة الأنبياء عليهم السلام ﴾

﴿ مائة واثنتا عشرة آية مكية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ «١» مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ «٢» لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ «٣»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذى ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ .

اعلم أن قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القرب لا يعقل إلا فى المكان والزمان ، والقرب المكانى ههنا ممتنع فتعين القرب الزمانى ، والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب ، وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام ؟ والجواب من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) (وثانيها) أن كل آت قريب وإن طالت أوقات ترقبه ، وإنما البعيد هو الذى انقرض قال الشاعر :

فلا زال ما تهـواه أقرب من غد ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(وثالثها) أن المعاملة إذا كانت مؤجلة إلى سنة ثم انقضى منها شهر ، فانه لا يقال اقترب الأجل أما إذا كان الماضى أكثر من الباقى فإنه يقال اقترب الأجل ، فعلى هذا الوجه قال العلماء إن فيه دلالة على قرب القيامة ، ولهذا الوجه قال عليه السلام «بعثت أنا والساعة كهاتين» ولهذا الوجه قيل إنه عليه السلام ختم به النبوة ، كل ذلك لأجل أن الباقى من مدة التكليف أقل من الماضى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب إلى تلافى الذنوب والتحرر عنها خوفاً من ذلك والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح ، كما أن كتمان وقت الموت أصلح .

﴿ المسأله الخامسة ﴾ الفائدة فى تسمية يوم القيامة بيوم الحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل فى الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ، ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون . وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى (وهم فى غفلة معرضون) فاعلم أنه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والإعراض ، أما الغفلة فالمعنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسىء ثم إذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم .

أما قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن أبى عبلة محدث بالرفع صفة للمحل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما ذكر الله تعالى ذلك بياناً لكونهم معرضين ، وذلك لأن الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم ذلك إلا لعباً واستسخاراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث ، بيان أن القرآن ذكر قوله تعالى فى صفة القرآن (إن هو إلا ذكر للعالمين) وقوله (وإنه لذكر لك ولقومك) وقوله (ص والقرآن ذى الذكر) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) وقوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وهـــذا ذكر مبارك أنزلناه) وبيان أن الذكر محدث قوله فى هذا الموضع (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله فى سورة الشعراء (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) ثم قالوا فصار بمجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص فى أن القرآن محدث والجواب من وجهين (الأول) أن قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) وقوله (وهذا ذكر مبارك) إشارة إلى المركب من الحروف والأصوات فاذا ضممنا إليه قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) لزم حدوث المركب من الحروف والأصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة ، وإنما النزاع فى قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثانى) أن قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) لا يدل على حدوث كل ما كان ذكراً بل على ذكر ما محدث كما أن قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل إلا يبغضونه ، فانه لا يدل على أن كل رجل يجب أن يكون

فاضلا بل على أن فى الرجال من هو فاضل وإذا كان كذلك فالآية لاتدل إلا على أن بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لاينتج شيئاً كما أن قول القائل الإنسان حيوان وبعض الحيوان فرس لاينتج شيئاً فظهر أن الذى ظنوه قاطعاً لايفيد ظناً ضعيفاً فضلا عن القطع . أما قوله (إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لأن الانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر ، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذى قد تشارك البهيمة فيه الإنسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله (لاهية قلوبهم) واللاهية من لهى عنه إذا ذهل وغفل ، وإنما ذكر اللعب مقدماً على اللهو كما فى قوله تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) تنبيهاً على أن اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والإستهزاء معلل باللهو الذى معناه الذهول والغفلة ، فانهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق . والله أعلم بالصواب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف (وهم يلعبون لاهية قلوبهم) حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة لأن لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله (وهم) .

أما قوله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ النجوى وهى اسم من التناجى لاتكون إلا خفية فما معنى قوله (وأسروا النجوى) (الجواب) معناه بالغوا فى إخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (وأسروا النجوى الذين ظلموا) (الجواب) أبدل الذين ظلموا من أسروا إشعاراً بأنهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به أوجاء على لغة من قال أكلونى البراغيث أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره (أسروا النجوى) قدم عليه والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم .

أما قوله (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله فى محل النصب بدلا من النجوى أى وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما) أنه كان ذلك شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق إلى هدم أمره ، وعادة المتشاورين أن يجتهدوا فى كتمان سرهم عن أعدائهم (الثانى) يجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقاً فاخبرونا بما أسررناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنهم طعنوا فى نبوته بأمرين (أحدهما) أنه بشر مثلهم (والثانى) أن الذى أتى به سحر . وكلا الطعنين فاسد (أما الأول) فلأن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٤» بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَيهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ «٥» مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ «٦»

لا على الصور إذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبياً لصورته ، وانما كان يعلم بالعلم فاذا ظهر ذلك على من هو بشرفيجب أن يكون نبياً ، بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشراً لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس (وأما الثانى) وهو أن ما أتى به الرسول عليه السلام سحر وأنهم يرون كونه سحراً فجهل أيضاً ، لأن كل ما أتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه ، فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا بعد حال مدة من الزمان وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، وكانوا فى نهاية الحرص على إبطال أمره وأقوى الأمور فى إبطال أمره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لايأتوا بها لأن الفعل عند توافر الدواعى وارتفاع الصارف واجب الوقوع ، فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على أنه فى نفسه معجزة وأنهم عرفوا حاله . فكيف يجوز أن يقال إنه سحر والحال على ماذكرناه ، وكل ذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بصدقه ، إلا أنهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وإن كانوا فيه مكابرين .

قوله تعالى ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ، بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ، ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾

أما قوله (قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (قال ربى) حكاية لقول رسول الله ﷺ وهى قراءة حمزة الكسائى وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الألف وسكون اللام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى لما أورد هذا الكلام عقيب ماحكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال إنكم وإن أخفيتم قولكم ، وطعنكم فإن ربى عالم بذلك وإنه من وراء عقوبته ، فتوعدوا بذلك لكى لايعودوا إلى مثله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف فإن قلت فهلا قيل له يعلم السر لقوله (وأسروا النجوى) قلت القول عام يشمل السر والجهر فكأن فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكأن آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول (يعلم السر) كما أن قوله تعالى (يعلم السر) آكد من أن يقول يعلم سرهم فإن قلت فلم ترك الآكد فى سورة الفرقان فى قوله (قل أنزله الذى يعلم السر

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ «٧» وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ «٨»

فى السموات والأرض) قلت ليس بواجب أن يجىء بالآكد فى قوله فى كل موضع ولكن يجىء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ، ثم الفرق أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول إن ربى يعلم ماأسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بأن قال (أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) فهو كقوله (علام الغيوب) ، (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قدم السميع على العليم لأنه لابد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه ، أما قوله (بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) فاعلم أنه تعالى عاد إلى حكاية قولهم المتصل بقوله (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر) ثم قال (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) فحكى عنهم ثم هذه الأقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا ندعى أن كونه بشراً مانع من كونه رسولا لله تعالى . سلمنا أنه غير مانع ، ولكن لانسلم أن هذا القرآن معجز ، ثم إما أن يساعد على أن فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر ، قلنا لم لايجوز أن يكون ذلك سحراً وإن لم يساعد عليه فإن ادعينا كونه فى نهاية الركاكة قلنا إنه أضغاث أحلام ، وإن ادعينا أنه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا إنه افتراه ، وإن ادعينا أنه كلام فصيح قلنا إنه من جنس فصاحة سائر الشعراء ، وعلى جميع هذه التقديرات فانه لايثبت كونه معجزاً ، ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) فالمراد أنهم طلبوا آية جلية لايتطرق إليها شىء من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم إن الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) والمعنى أنهم فى العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم مايقترحون لكانوا أشد نكثاً . قال الحسن رحمه الله تعالى إنهم لم يجابوا لأن حكم الله تعالى أن من كذب بعد الإجابة إلى مااقترحه من الآيات فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه فى أمة محمد ﷺ خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم .

قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ، وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ، ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ «٩» لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١٠»

وأهلكنا المسرفين ، لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾

اعلم أنه تعالى أجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم (ما هذا إلا بشر مثلكم) بقوله (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) فبين أن هذه عادة الله تعالى فى الرسل من قبل محمد ﷺ ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التى ظهرت عليهم فإذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال عليه فى كونه بشراً فأما قوله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر) فالمعنى أنه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة ، وإنما أحالهم على هؤلاء لأنهم كانوا يتابعون المشركين فى معاداة رسول الله ﷺ قال تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) فان قيل إذا لم يوثق باليهود والنصارى ، فكيف يجوز أن يأمرهم بأن يسألوهم عن الرسل قلنا إذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك ، كما قد يعمل بخبر الكفار إذا تواتر ، مثل ما يعمل بخبر المؤمنين . ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لأنهم كانوا طاعنين فى القرآن وفى الرسول ﷺ فأما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية فى أن للعامى أن يرجع إلى فتيا العلماء وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لأن هذه الآية خطاب مشافة وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . ثم بين تعالى أنه لم يجعل الرسل قبله جسداً لا يأكلون الطعام وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (لا يأكلون الطعام) صفة جسد والمعنى وما جعلنا الأنبياء ذوى جسد غير طاعمين .

﴿ البحث الثانى ﴾ وحد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال ذوى ضرب من الأجساد .

﴿ البحث الثالث ﴾ أنهم كانوا يقولون (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) فأجاب الله بقوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) فبين تعالى أن هذه عادة الله فى الرسل من قبل وأنه لم يجعلهم جسداً لا يأكلون بل جسداً يأكلون الطعام ولا يخلدون فى الدنيا بل يموتون كغيرهم ، ونبه بذلك على أن الذى صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة فى التبليغ ، أما قوله تعالى (ثم صدقناهم الوعد) فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا) والأصل فى الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم المقال (ومن نشاء) هم المؤمنون . قال المفسرون : المراد منه

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ «١١» فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ «١٢» لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ «١٣» قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ «١٤» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ «١٥»

أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم ، وجعل الوفاء بما وعد صدقاً من حيث يكشف عن الصدق ومعنى (وأهلكنا المسرفين) أى بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لأنه إخبار عما مضى و تقدم ، ثم بين تعالى بقوله (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) عظيم نعمته عليهم بالقرآن فى الدين والدنيا فلذلك قال فيه (ذكركم) وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم ، كما قال (وإنه لذكر لك ولقومك) (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد ، كما قال (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) . (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل ، وقوله (أفلا تعقلون) كالبعث على التدبر فى القرآن لأنهم كانوا غفلاء لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل .

قوله تعالى ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾

إعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لأن شرائط الإعجاز لما تمت فى القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزاً ، وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه فى زجرهم عن ذلك فقال (وكم قصمنا من قرية) قال صاحب الكشاف القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وأنها ظالمة وأراد أهلها توسعاً لدلالة العقل على أنها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى (وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوماً آخرين وقال (فلما أحسوا بأسنا - إلى قوله - قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) وكل ذلك لا يليق إلا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه

الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لأنه يكون ذلك موهماً للكذب ، واختلفوا فى هذا الإهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهى وسحول قريتان باليمن ينسب إليهما الثياب ، وفى الحديث « كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبين سحوليين » وروى « حضوريين بعث الله اليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم » وروى « أنه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الأنبياء » فندموا واعترفوا بالخطأ ، وقال الحسن : المراد عذاب الاستئصال , واعلم أن هذا أقرب لأن إضافة ذلك إلى الله تعالى أقرب من إضافته إلى القاتل ، ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بأنها إحدى القرى التى أرادها الله تعالى بهذه الآية ، وأما قوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم ، والركض ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله تعالى (اركض برجلك) فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ، ويجوز أن يشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين ، أما قوله (لاتركضوا) قال صاحب الكشاف القول محذوف ، فان قلت من القائل قلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين ، أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل ، أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم فى دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم ، أما قوله (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم) أى من العيش والرفاهية والحال الناعمة ، والإتراف إبطار النعمة وهى الترفه ، أما قوله تعالى (لعلكم تسألون) فهو تهكم بهم وتوبيخ ، ثم فيه وجوه (أحدها) أى ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم فى مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم النـــاس فى أنديتكم لتعاونوهم فى نوازل الخطوب ويستشيرونكم فى المهمات ويستعينون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ ، أما قوله تعالى (فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك إشارة إلى (يا ويلنا) لأنها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم ، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فان قلت لم سميت دعوى ؟ قلت لأنهم كانوا دعوا بالويل (فقالوا ياويلنا) أى ياويل احضرفهذا وقتك ، وتلك مرفوع أومنصوب اسما أو خبراً وكذلك (دعواهم) قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أما قوله (حتى جعلناهم حصيداً خامدين)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ «١٦» لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ «١٧» بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ «١٨»

فالحصيد الزرع المحصود أى جعلناهم مثل الحصيد شبههم به فى استئصالهم ، كما تقول جعلناهم رماداً أى مثل الرماد فان قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل ، قلت حكم الاثنين الأخيرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين ، والمراد أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد ، وخمدوا كما تخمد النار .

قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ إعلم أن فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الأول) أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على ما فعلوا فقال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب ، وإنما سويناها لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التى لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) وقوله (ما خلقناهما إلا بالحق) (والثانى) أن الغرض منه تقرير نبوة محمد ﷺ والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذباً كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفى عنه وإن كان صادقاً فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضى عبد الجبار دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى إذ لو كان كذلك لكان لاعباً فإن اللاعب فى اللغة اسم لفاعل اللعب فنفى الاسم الموضوع للفعل يقتضى نفى الفعل (والجواب) يبطل ذلك بمسئلة الداعى على ما مر غير مرة أما قوله (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) فاعلم أن قوله (لاتخذناه من لدنا) معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أى من الملائكة لا من الإنس رداً لمن قال بولادة المسيح وعزير فأما قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل) فاعلم أن قوله (بل)

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ «١٩» يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ «٢٠»

اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويراً لإبطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه، فأما قوله تعالى (ولكم الويل مما تصفون) يعنى من تمسك بتكذيب الرسول ﷺ ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام إلى غير ذلك من الأباطيل، وهو الذى عناه بقوله (مما تصفون) .

قوله تعالى ﴿ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الأول) أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفى اللعب لا يصح إلا بنفى الحاجة ونفى الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة ، لاجرم عقب تلك الآية بقوله (وله من فى السموات والأرض) لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثانى) وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الإنقياد بين فى هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات ، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وله من فى السموات والأرض) معناه أن كل المكلفين فى السماء والأرض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلالة قوله (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) على أن الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها فى سورة البقرة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ومن عنده) المراد بهم الملائكة باجماع الأمة ولأنه تعالى وصفهم بأنهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة ، فكأنه تعالى قال : الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الأبلغ فى وصفهم أن ينفى عنهم أدنى

أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ «٢١» لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ «٢٢» لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ «٢٣» أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ «٢٤» وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ «٢٥»

الحسور قلت فى الاستحسار بيان أن ماهم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بأن يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فالمعنى أن تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر ، روى عن عبد الله بن الحرث بن نوفل ، قال : قلت لكعب : أرأيت قول الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ثم قال (جاعل الملائكة رسلا) أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضاً قال (أولئك عليهم لعنه الله والملائكة والناس أجمعين) فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح ؟ أجاب كعب الأحبار فقال : التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال . فان قيل هذا القياس غير صحيح لأن الإشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام ، لأن آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال (والجواب) أى استبعاد فى أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله ، أو يقال معنى قوله (لا يفترون) أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه فى أوقاته اللائقة به كما يقال إن إفلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به أنه أبداً مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها فى أوقاتها .

قوله تعالى ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجواباً ، وأما هذه الآيات فانها فى بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد .

أما قوله تعالى (أم إتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف أم ههنا هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها ، والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الأرض ينشرون الموتى ، ولعمرى إن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات ، فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا فى نهاية البعد عن هذه الدعوى ، فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبأنه خالق السموات والأرض منكرين للبعث ، ويقولون (من يحيى العظام وهى رميم) فكيف يدعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة البتة ؟ قلت لأنهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هى الثواب فإقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الإقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب ، فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل ، يعنى إذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فأى عقل يجوز اتخاذهم آلهة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من الأرض) كقولك فلان من مكة أو من المدينة تريد مكى أو مدنى إذ معنى نسبتها إلى الأرض الإيذان بأنها الأصنام التى تعبد فى الأرض لأن الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض ، لأنها إما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ النكتة فى (هم ينشرون) معنى الخصوصية كأنه قيل أم اتخذوا آلهة من الأرض لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ الحسن (ينشرون) وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها .

أما قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل النحو إلا ههنا بمعنى غير أى لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شىء غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الإستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد ، وذلك باطل لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم . ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرناه .

(المسألة الثانية ﴾ قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضى إلى المحال فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا ، إنما قلنا إنه يفضى إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه ، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر ، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس . فلو امتنعا معاً لوجدا

معاً وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك محال أيضاً لوجهين : (أحدهما) أنه لوكان كل واحد منهما قادراً على ما لانهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا فى القدرة . وإذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادراً والذى لم يقع مراده يكون عاجزاً والعجز نقص وهو على الله محال . فان قيل الفساد إنما يلزم عند اختلافهما فى الإرادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما فى الارادة بل أقصى ماتدعونه ان اختلافهما فى الارادة ممكن ، فاذا كان الفساد مبنياً على الإختلاف فى الإرادة وهذا الإختلاف ممكن والمبنى على الممكن ممكن فكان الفساد ممكناً لا واقعاً فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد ؟ قلنا (الجواب) من وجهين : (أحدهما) لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث إن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثانى) وهو الأقوى أن نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذى ذكرناه بل من وجه آخر ، فنقول لو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعاً فيلزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه اليهما معاً وذلك محال . وهذه حجة تامة فى مسألة التوحيد ، فنقول القول بوجود الإلهين يفضى إلى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً ، أو نقول لو قدرنا إلهين ، فإما أن يتفقا أو يختلفا فإن اتفقا على الشىء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وإن اختلفا ، فإما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات ، فإن قلت لم لا يجوز أن يتفقا على الشىء الواحد ولا يلزم الفساد لأن الفساد إنما يلزم لو أراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف ، أما إذا أراد كل واحد منهما أن يكون الموجد له أحدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين ، قلت كونه موجداً له ، إما أن يكون نفس القدرة والإرادة أو نفس ذلك الأثر أو أمراً ثالثاً ، فان كان الأول لزم الإشتراك فى القدرة والإرادة والاشتراك فى الموجد ، وإن كان الثانى فليس وقوع ذلك الأثر بقدرة أحدهما وإرادته أولى من وقوعه بقدرة الثانى ، لأن لكل واحد منهما إرادة مستقلة بالتأثير ، وإن كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمراً ثالثاً فذلك الثالث إن كان قديماً استحال كونه متعلق الإرادة . وإن كان حادثاً فهو نفس الأثر ، ويصير هذا القسم هو القسم الثانى الذى ذكرناه . واعلم أنك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما فى هذا العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل وحدانية الله تعالى بل

وجود كل واحد من الجواهر والأعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذى بيناه . وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه ، واعلم أن ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الأقوى أن يقال لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا فى الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه ، وكل مركب فهو مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته . هذا خلف ، فاذن واجب الوجود ليس إلا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر فى وجوده إلى الغير فهو محدث فكل ماسوى الله تعالى محدث ، ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيراً لهذه الآية . لأنا إنما دللنا على أنه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شىء منهما واجباً وإذا لم يوجد الواجب لم يوجد شىء من هذه الممكنات ، وحينئذ يلزم الفساد فثبت أنه يلزم من وجود إلهين وقوع الفساد فى كل العالم (وثانيها) أنا لو قدرنا إلهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الإلهية ، ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما وإلا لما حصل التعدد . فما به الممايزة إما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فان كان صفة كمال فالخالى عنه يكون خالياً عن الكمال فيكون ناقصاً والناقص لا يكون إلهاً ، وإن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصاً ، ويمكن أن يقال : ما به الممايزة إن كان معتبراً فى تحقق الإلهية فالخالى عنه لا يكون إلهاً وإن لم يكن معتبراً فى الإلهية لم يكن الاتصاف به واجباً . فيفتقر إلى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا إلهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما ، لكن الامتياز فى عقولنا لا يحصل إلا بالتباين فى المكان أو فى الزمان أو فى الوجوب والإمكان وكل ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الإمتياز (ورابعها) أن أحد الإلهين إما أن يكون كافياً فى تدبير العالم أو لا يكون فان كان كافيا كان الثانى ضائعاً غير محتاج اليه ، وذلك نقص والناقص لا يكون إلهاً (وخامسها) أن العقل يقتضى احتياج المحدث إلى الفاعل ولا امتناع فى كون الفاعل الواحد مدبراً لكل العالم . فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضى ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه . والأول محال لأن دليل الصانع ليس إلا بالمحدثات وليس فى حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثانى والثانى محال لأنه يفضى إلى كونه عاجزاً عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون إلها (وسابعها) أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر ، فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا . وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً (وثامنها) لو

قدرنا إلهين لكان بمجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده ، فيكون كل واحد من القدرتين متناهياً والمجموع ضعف المتناهى فيكون الكل متناهياً (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه إلى الواحد ، والواحد الذى يوجد من جنسه عدد ناقص ، لأن العدد أزيد منه ، والناقص لايكون إلهاً فالإله واحد لا محالة (وعاشرها) أنا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثم قدرنا إلهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لايكون إلهاً ، وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون إلهاً ، وإن قدرا جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر ، وان قدر كل واحد على إيجاده بالإستقلال فاذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثانى قادراً عليه وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول قد أزال قدرة الثانى وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرفه فلا يكون إلها . فان قيل الواجد إذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز ، قلنا الواحد إذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لايكون عجزاً ، أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون تعجيزاً . (الحادى عشر) أن نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسماً ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس ، فان لم يقدر كان عاجزاً وإن قدر فنسوق الدلالة إلى أن نقول إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثانى خلق السكون فالأول أزال قدرة الثانى وعجزه فلا يكون إلهاً ، وهذان الوجهان يفيدان العجز نظراً إلى قدرتيهما والدلالة الأولى إنما تفيد العجز بالنظر إلى إرادتيهما (وثانى عشرها) أنهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقاً بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لأحد المثلين قابلة للمثل الآخر ، فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعى مخصصاً يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبداً فقيراً ناقصاً (وثالث عشرها) أن الشركة عيب ونقص فى الشاهد ، والفردانية والتوحد صفة كمال ، ونرى الملوك يكرهون الشركة فى الملك الحقير المختصر أشد الكراهية ، ونرى أنه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد ، فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه ، فان قدر عليه كان المغلوب فقيراً عاجزاً فلا يكون إلهاً ، وإن لم يقدر عليه كان فى أشد الغم والكراهية فلا يكون إلهاً (ورابع عشرها) أنا لو قدرنا إلهين لكان إما أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر أو يستغنى كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما إلى الآخر والآخر يستغنى عنه ، فان كان الأول كان كل واحد منهما ناقصاً لأن المحتاج ناقص وإن كان الثانى كان كل واحد منهما مستغنياً عنه ، والمستغنى عنه ناقص ، ألا ترى أن البلد إذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه ومن غير التفات منهم إليه عد ذلك الرئيس ناقصاً فالإله هو الذى يستغنى به ولا يستغنى عنه ، وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس

كان المحتاج ناقصاً والمحتاج إليه هو الإله . واعلم أن هذه الوجوه ظنية إقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة ، أما الدلائل السمعية فمن وجوه : (أحدها) قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فالأول هو الفرد السابق ، ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لأن شرط الأول أن يكون فرداً . وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحداً لم يحنث أيضاً لأن شرط الفرد أن يكون سابقاً وهذا ليس بسابق . فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فرداً سابقاً فوجب أن لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) فالنص يقتضى أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) أن الله تعالى صرح بكلمة (لا إله إلا هو) فى سبعة وثلاثين موضعاً من كتابه وصرح بالوحدانية فى مواضع نحو قوله (وإلهكم إله واحد) وقوله (قل هو الله أحد) وكل ذلك صريح فى الباب (ورابعها) قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) حكم بهلاك كل ما سواه ، ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديماً ، ومن لا يكون قديماً لا يكون إلهاً (وخامسها) قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وهو كقوله (ولعلا بعضهم على بعض) وقوله (إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) (وسادسها) قوله (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقال فى آية أخرى (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) (وسابعها) قوله تعالى (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) وهذا الحصر يدل على نفى الشريك (وثامنها) قوله تعالى (الله خالق كل شيء) فلو وجد الشريك لم يكن خالقاً فلم يكن فيه فائدة ، واعلم أن كل مسألة لا تتوقف معرفه صدق الرسل عليها فانه يمكن إثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها ، فلا جرم يمكن إثباتها بالدلائل السمعية ، واعلم أن من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والأرض آلهة تقول بإلهيتها عبدة الأوثان لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم قوله (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق .

أما قوله تعالى (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى هو منزه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأن معه إلهاً ، وهذا تنبيه على أن الإشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزهاً وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول أى فائدة لقوله (فسبحان الله رب العرش عما يصفون)

ولم لم يكتف بقوله (فسبحان الله عما يصفون) وجوابه أن هذه المناظرة إنما وقعت مع عبدة الأصنام ، إلا أن الدليل الذى ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم إنه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الأصنام ، وهى أنه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذى لا يعقل ولا يحس شريكا فى الإلهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والأرضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين .

أما قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فاعلم أنه مشتمل على بحثين : (أحدهما) أن الله تعالى لا يسأل عن شىء من أفعاله ولا يقال له لم فعلت (والثانى) أن الخلائق مسؤلون عن أفعالهم ، أما البحث الأول ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن عمدة من أثبت لله شريكا ليست إلا طلب اللمية فى أفعال الله تعالى ، وذلك لأن الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا فى العالم خيراً وشراً ولذة وألماً وحياة وموتاً وصحة وسقما وغنى وفقراً ، وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشريراً معاً ، فلابد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر . ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن مدبر العالم لو كان واحداً لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى ، وخص ذلك بالموت والألم والفقر . فيرجع حاصله إلى طلب اللمية فى أفعال الله تعالى . فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لا جرم أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية فى الجواب عن شبهة القائلين بالشريك ، لأن الترتيب الجيد فى المناظرة أن يقع الإبتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ، ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الدلالة على أنه سبحانه (لا يسأل عما يفعل) أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه : (أحدها) أنه لو كان كل شىء معللا بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلا بد فى قطع التسلسل من الانتهاء إلى ما يكون غنياً عن العلة وأولى الأشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته ، وكما أن ذاته منزهة عن الإفتقار إلى المؤثر والعلة ، وصفاته مبرأة عن الافتقار إلى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد إلى الموجب والمؤثر (وثانيها) أن فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة ، إما أن تكون واجبة أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا ، وحينئذ يكون موجباً بالذات لا فاعلا بالاختيار ، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضاً فتفتقر فاعليته لتلك العلة إلى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) أن علة فاعلية الله تعالى للعالم إن كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وإن كانت محدثة افتقر إلى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) أن من فعل فعلا لغرض ، فإما أن يكون متمكناً من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أولا يكون متمكناً

منه . فان كان متمكناً منه كان توسط تلك الواسطة عبثاً وإن لم يكن متمكناً منه كان عاجزاً والعجز على الله تعالى محال ، أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالأغراض ، وكل ذلك فى حق الله تعالى محال (وخامسها) أنه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائداً إلى الله تعالى أو إلى العباد والأول محال لأنه منزه عن النفع والضر ، وإذا بطل ذلك تعين أن الغرض لا بد وأن يكون عائداً إلى العباد ، ولا غرض للعباد إلا حصول اللذات وعدم حصول الآلام ، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شىء من الوسائط . وإذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئاً لأجل شىء (وسادسها) هو أنه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السواء أو لا يكون ، فان كان على السواء استحال أن يكون غرضاً ، وإن لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصاً بذاته كاملا بغيره وذلك محال ، فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وإن كان بالنسبة إليه على السواء . أما بالنسبة إلى العباد فالوجود أولى من العدم ، قلنا تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إليه على السوية أو لا على السوية ، ويعود التقسيم الأول (وسابعها) وهو أن الموجود إما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف فى ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو أن من قال لغيره لم فعلت ذلك ؟ فهذا السؤال إنما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسئول منه عن فعله وذلك من العبد فى حق الله تعالى محال ، فانه لو فعل أى فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك ؟ إما بأن يهدده بالعقاب والإيلام وذلك على الله تعالى محال ، أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على مايقوله المعتزلة وذلك أيضاً محال ، لأن استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له ، وما ثبت للشىء لذاته يستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات العرضية الخارجية ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز أن يقال لله فى أفعاله لم فعلت هذا الفعل ؟ فان كل شىء صنعه ولا علة لصنعه ، وأما المعتزلة فانهم سلموا أنه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر ، وهو أنه تعالى عالم بقبح القبائح ، وعالم بكونه غنياً عنها ، ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح ، وإذا عرفنا ذلك عرفنا إجمالا أن كل مايفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب ، وإذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا .

﴿ أما البحث الثانى ﴾ وهو قوله تعالى (وهم يسألون) فهذا يدل على كون المكلفين مسئولين عن أفعالهم وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الكلام فى هذا السؤال إما فى الإمكان العقلى أو فى الوقوع السمعى . أما الإمكان العقلى فالخلاف فيه مع منكرى التكاليف ، واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف إما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته إلى الفعل والترك ، أو حال رجحان أحدهما على الآخر . والأول محال لأن حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف

بالترجيح تكليفاً بالمحال ، والثانى محال لأن حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع . والتكليف بإيقاع ما يكون واجب الوقوع عبث ، وبإيقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (وثانيها) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثاً ، وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع ، فيكون التكليف به تكليفاً بما لا يطاق (وثالثها) قالوا سؤال العبد ما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة إن عادت إلى الله تعالى كان محتاجاً وهو محال ، وإن عادت إلى العبد فهو محال ، لأن سؤاله لما كان سبباً لتوجيه العقاب عليه ، لم يكن هذا نفعاً عائداً إلى العبد بل ضرراً عائداً إليه ، وإن لم يكن فى السؤال فائدة كان عبثاً وهو غير جائز على الحكيم ، بل كان إضراراً وهو غير جائز على الرحيم (والجواب) عنها من وجهين (الأول) أن غرضكم من إيراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفى التكليف فكأنكم تكلفونا بنفى التكليف وهو متناقض (والثانى) وهو أن مدار كلامكم فى هذه الشبهات على حرف واحد وهو أن التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات إلى أنه يقال له تعالى لم كلفت عبادك ، إلا أنا قد بينا أنه سبحانه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فظهر بهذا أن قوله (لا يسأل عما يفعل) كالأصل والقاعدة لقوله (وهم يسألون) فتأمل فى هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من أسرار علم القرآن ، وأما الوقوع السمعى فلقائل أن يقول إن قوله (وهم يسألون) وإن كان متأكداً بقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) وبقوله (وقفوهم إنهم مسئولون) إلا أنه يناقضه قوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) (والجواب) أن يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والإيجاب إلى مقام آخر دفعاً للتناقض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) أنه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل ، بل كان يذم بما حقه الذم ، كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) أنه كان يجب أن لا يسأل عن الأمور إذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) أنه كان لا يجوز أن يسألوا عن عملهم إذ لا عمل لهم (ورابعها) أن أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم (وخامسها) أنه تعالى صرح فى كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله (رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وهذا يقتضى أن لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل ، وقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على أن حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة إذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتى ؟ فيقول على مذهب الجبر : يارب إنك خلقتنى كافراً وأمرتنى بما لا أقدر عليه وحلت بينى وبينه ، ولا شك أنه على مذهب الجبر يكون صادقاً ، وقال الله تعالى (هذا يوم ينفع

الصادقين صدقهم) فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ، ومن يدعه يقول هذا الكلام أو يحتج ؟ فقال ثمامة : أليس إذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم أنه منعه مما لو لم يمنعه منه لانقطع فى يده ، وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه أنها معارضة بمسألة الداعى ومسألة العلم ثم بالوجوه الثمانية التى بينا فيها أنه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه .

وأما قوله تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) فاعلم أنه سبحانه كرر قوله (أم اتخذوا من دونه آلهة) استعظاماً لكفرهم أى وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك ، أما من جهة العقل . أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا وقرر الأصل الذى عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنيه ثانياً ، أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثاً .

أما قوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسيره وفيه أقوال (أحدها) ، (هذا ذكر من معى) أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى (وهذا ذكر من قبلى) أى الكتاب المنزل على من تقدمنى من الأنبياء وهو التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وليس فى شىء منها أنى أذنت بأن تتخذوا إلهاً من دونى بل ليس فيها إلا (أنى أنا الله لا إله إلا أنا) كما قال بعد هذا (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (والثانى) وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدى أن قوله (وذكر من قبلى) صفة للقرآن فانه كما يشتمل على أحوال هذه الأمة فكذا يشتمل على أحوال الأمم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو أن المعنى قل لهم هذا الكتاب الذى جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معى من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلى من المخالفين والموافقين فاختاروا لأنفسكم ، كأن الغرض منه التهديد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) وهو الأصل والإضافة من اضافة المصدر إلى المفعول كقوله (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقرىء : من معى ومن قبلى ، بكسر ميم من على ترك الإضافة فى هذه القراءة وإدخال الجار على مع غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على إخواته وقرىء : ذكر معى وذكر قبلى .

وأما قوله (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين أنه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ، ذكر بعده أن وقوعهم فى هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه ، بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ «٢٦» لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ «٢٧» يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ «٢٨» وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ «٢٩»

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (الحق) بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب ، والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل .

أما قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) فاعلم أن يوحى ونوحى قراءتان مشهورتان ، وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد .

قوله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزهاً عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم فقال (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لأن الولد لابد وأن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ، ثم لابد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن ، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكناً غير واجب . وذلك يخرجه عن حد الإلهية ويدخله فى حد العبودية ، ولذلك نزه نفسه عنه .

أما قوله (بل عباد مكرمون) فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرىء (مكرمون ، لا يسبقونه) من سابقته فسبقته أسبقه . والمعنى أنهم يتبعون فى قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله ، وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبنى على أمره لا يعملون عملا مالم يؤمروا به

ثم إنه سبحانه ذكر ما يجرى مجرى السبب لهذه الطاعة فقال (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) والمعنى أنهم لما علموا كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات علموا كونه عالماً بظواهرهم وبواطنهم ، فكان ذلك داعياً لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية . وذكر

المفسرون فيه وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم (وثانيها) مابين أيديهم الآخرة وماخلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم . وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم ، وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له . ثم كشف عن هذا المعنى فقال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أى لمن هو عند الله مرضى (وهم من خشيته مشفقون) أى من خشيتهم منه ، فأضيف المصدر إلى المفعول ومشفقون خائفون ولا يأمنون مكره وعن رسول الله ﷺ «أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله تعالى» ونظيره قوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) .

أما قوله تعالى (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء ، وهذا لايدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الصفات تدل على العبودية وتنافى الولادة لوجوه (أحدها) أنهم لما بالغوا فى الطاعة إلى حيث لا يقولون قولا ولا يعملون عملا إلا بأمره فهذه صفات للعبيد لا صفات الأولاد (وثانيها) أنه سبحانه لما كان عالماً بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى وجب أن يكون الإله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هى نفس ما ذكره عيسى عليه السلام فى قوله (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) (وثالثها) أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ومن يكن إلهاً أو ولداً للاله لا يكون كذلك (ورابعها) أنهم على نهاية الإشفاق والوجل وذلك ليس إلا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) على أن حالهم حال سائر العبيد المكلفين فى الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتجت المعتزلة بقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) على أن الشفاعة فى الآخرة لاتكون لأهل الكبائر لأنه لا يقال فى أهل الكبائر إن الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك (إلا لمن ارتضى) أى لمن قال لا إله إلا الله . واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا فى إثبات الشفاعة لأهل الكبائر وتقريره هو أن من قال لا إله إلا الله فقد ارتضاه تعالى فى ذلك ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى فى ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه ، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذى ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضى الله عنهما .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : (أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ «٣٠» وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ «٣١» وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ «٣٢» وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ «٣٣»

من حيث قال (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (وهم من خشيته مشفقون) ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضاً على أن الملائكة معصومون لأنه قال (وهم بأمره يعملون) (وثالثها) قال القاضي عبد الجبار قوله (كذلك نجزى الظالمين) يدل على أن كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على أنه تعالى لا يغفر لأهل الكبائر فى الآخرة (والجواب) أقصى ما فى الباب أن هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعيد .

قوله تعالى ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع ، وهذه الدلائل أيضاً دالة على كونه منزهاً عن الشريك ، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب فى العالم ، ووجود الإلهين يقتضى وقوع الفساد . فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم . وفيها أيضاً رد على عبدة الأوثان من حيث إن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز فى العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع . فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ، واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من الدلائل :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى) قرأ ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وإدخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه . قال صاحب الكشاف قرىء رتقا بفتح التاء ، وكلاهما فى معنى

المفعول كالخلق والنفض أى كانتا مرتوقتين ، فان قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر فما بال الرتق ؟ قلت هو على تقدير موصوف أى كانتا شيئاً رتقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول المراد من الرؤية فى قوله تعالى (أو لم ير الذين كفروا) ، إما الرؤية ، وإما العلم والأول مشكل ، أما أولا فلأن القوم ما رأوهما كذلك البتة ، وأما ثانياً فلقوله سبحانه وتعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) ، وأما العلم فمشكل لأن الأجسام قابلة للفتق والرتق فى أنفسها ، فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانياً لا سبيل إليه إلا السمع ، والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة . فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال فدفعه من وجوه : (أحدها) أنا نثبت نبوة محمد ﷺ بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد (وثانيا) أن يحمل الرتق والفتق على إمكان الرتق والفتق والعقل ، يدل عليه لأن الأجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعى مخصصاً (وثالثها) أن اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء فى التوراة إن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم خلق السموات والأرض منها وفتق بينها ، وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة محمد ﷺ فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على أنهم يقبلون قول اليهود فى ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال كانتا رتقاً ولم يقل كن رتقاً لأن السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس ، قال الأخفش السموات نوع والأرض نوع ، ومثله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ، ومرت بنا غنمان أسودان ، لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الرتق فى اللغة السد يقال رتقت الشىء فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتى رتق ، قال المفضل : إنما لم يقل كانتا رتقين كقوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) لأن كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق على أقوال : أحدها وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هى وأصعد الأجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً توسطتهما ففتقهما بها (وثانيها) وهو قول أبى صالح ومجاهد أن المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات

وكذلك الأرضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ، ونظيره قوله تعالى (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ماذكرنا . فإن قيل هذا الوجه مرجوح لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا ، قلنا إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة منها سماء ، كما يقال : ثوب أخلاق وبرمة أعشار . واعلم أن على هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الإبصار (ورابعها) قول أبي مسلم الأصفهاني يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله (فاطر السموات والأرض) وكقوله (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق . أقول وتحقيقه أن العدم نفي محض ، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة ، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه ، فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض . فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازاً عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) أن الليل سابق على النهار ، لقوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) وكانت السموات والأرض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى بإظهار النهار المبصر ، فإن قيل فأي الأقاويل أليق بالظاهر ؟ قلنا الظاهر يقتضي أن السماء على ماهي عليه ، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقاً ، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودان ، والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة ، وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحاً ، ويصير الوجه الأول أولى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني . وهو أن كل واحد منهما كان رتقاً ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعاً ، ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ، ففتقهما لينزل المطر من السماء ، ويظهر النبات على الأرض .

﴿ المسألة السادسة ﴾ دلالة هذه الوجوه على إثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة ، لأن أحداً لا يقدر على مثل ذلك ، والأقرب أنه سبحانه خلقهما رتقاً لما فيه من المصلحة للملائكة ، ثم لما أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقاً لما فيه من منافع العباد .

﴿ النوع الثاني من الدلائل ﴾ قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قوله : وجعلنا لا يخلو إما أن يتعدى إلى واحد أو اثنين ، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله (والله خلق كل دابة من ماء) أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله (خلق الإنسان من عجل) وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من

فى قوله عليه السلام « ماأنا من دد ولا الدد منى » وقرىء حياً وهو المفعول الثانى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان ، وقد قال (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وجاء فى الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى فى حق عيسى عليه السلام (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى) وقال فى حق آدم (خلقه من تراب) (والجواب) اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة ، فان الدليل لابد وأن يكون مشاهداً محسوسا ليكون أقرب إلى المقصود ، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام ، لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله (كل شىء حى) الحيوان فقط ، وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار نامياً وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر ، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود ، كأنه تعالى قال (ففتقنا السماء) لإنزال المطر وجعلنا منه كل شىء فى الأرض من النبات وغيره حياً ، حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حياً ، قلنا لانسلم والدليل عليه قوله تعالى (كيف يحى الأرض بعد موتها) أما قوله تعالى (أفلا يؤمنون) فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك .

﴿ النوع الثالث ﴾ قوله تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الأولى وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله (لئلا يعلم أهل الكتاب) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الرواسى الجبال ، والراسى هو الداخل فى الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الأرض بسطت على الماء فكانت تتكفىء بأهلها كما تتكفىء السفينة ، لأنها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال .

﴿ النوع الرابع ﴾ قوله تعالى (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع ، فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فمالها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى (لتسلكوا منها سبلا فجاجاً) قلت لم تقدم وهى صفة ، ولكنها جعلت حالا كقوله : لعزة موحشاً طلل قديم

والفرق من جهة المعنى أن قوله سبلا فجاجاً ، إعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقاً واسعة ، وأما قوله (فجاجاً سبلا) فهو إعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة ، فهذه الآية بيان لما أبهم فى الآية الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله فيها قولان (أحدهما) أنها عائدة إلى الجبال ، أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجاً سبلا ، أى طرقاً واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجاً وجعل فيها طرقاً (الثانى)

أنها عائدة إلى الأرض ، أى وجعلنا فى الأرض فجاجاً وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لعلهم يهتدون) معناه لكى يهتدوا إذ الشك لا يجوز على الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى يهتدون قولان (الأول) ليهتدوا إلى البلاد (والثانى) ليهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال ، قالت المعتزلة وهذا التأويل يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء . والكلام عليه قد تقدم ، وفيه قول ثالث وهو أن الإهتداء إلى البلاد والاهتداء إلى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للأمرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معاً .

﴿ النوع الخامس ﴾ قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ سمى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المحفوظ قولان (أحدهما) أنه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) وقال (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) وقال تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وقال (ولا يؤوده حفظهما) . (الثانى) محفوظاً من الشياطين قال تعالى (وحفظناها من كل شيطان رجيم) ثم ههنا قولان (أحدهما أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين ، والقول الأول أقوى لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظماً لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لأنه لا يخاف على على السماء من استراق سمع الجن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وهم عن آياتها معرضون) معناه عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء عن أيتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون .

﴿ النوع السادس ﴾ قوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه سبحانه لما قال (وهم عن آياتها معرضون) فصل تلك الآيات ههنا لأنه تعالى لو خلق السماء والأرض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل إنما يكون

ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها ، فلهذا قال (كل فى فلك يسبحون) وتقريره أن نقول قد ثبت بالأرصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ، ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة ، وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة ، واستدلوا عليه بأنا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة إذا قارن ماهو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جداً فإنه يظهر بعد الإجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعداً منها إلى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقياً منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قرباً منه ثم إذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق ، وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب إلى المشرق . هذا ماقالوه ونحن خالفناهم فيه ، وقلنا إن ذلك محال لأن الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب إلى المشرق حركة بطيئة ولا شك أنها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب إلى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين إلى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لأن الحركة إلى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل إليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال . فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها إلى الجانب الشرقى تنقطع حركتها إلى الجانب الغربى وبالعكس ، وأيضاً فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى إلى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك إلى خلاف ذلك الجانب . قلنا أما الأول فلا يستقيم على أصولكم لأن حركات الأفلاك مصونة عن الانقطاع عندكم ، وأما الثانى فهو مثال محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان ، أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب إلى المشرق فهو ضعيف ، فانه يقال لم لا يجوز أن يقال إن جميع الكواكب متحركة من المشرق إلى المغرب إلا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك إلى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الأعظم استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثانى دورة تامة إلا مقدار ثانية فيظن أن فلك الثوابت تحرك من الجهة الأخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لأنه تخلف بمقدار ثانية ، وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا إلى أن ينتهى إلى فلك القمر فهو أبطأ الأفلاك حركة وهذا الذى قلناه مع مايشهد له البرهان المذكور فهو أقرب إلى ترتيب الوجود ، فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الأعظم

ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الأرض ، ثم إن كل ما كان أقرب إلى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا مانقوله فى حركات الأفلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها إلى الشمال والجنوب . إذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه ، وكان الذى يقرب منه متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة ، فان كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها إلى النارية ، وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أو خريف لايتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية ، وكان الكوكب يتحرك بطيئاً لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الإفراط ، وكان يعرض قريباً مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت ، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصوناً عن طرفى الإفراط والتفريط . وبالجملة فالعقول لاتقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه لايجوز أن يقول (وكل فى فلك يسبحون) إلا ويدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولا فأنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفلك فى كلام العرب كل شىء دائر وجمعه أفلاك ، واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك ، وقال الأكثرون بل هى أجسام تدور النجوم عليها . وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن ، ثم اختلفوا فى كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه ، وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لاتكون إلا فى الماء . قلنا لانسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح ، وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة إنها أجرام صلبة لاثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والإلتئام والنمو والذبول ، فأما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور فى الكتب اللائقة به ، والحق أنه لاسبيل إلى معرفة صفات السموات إلا بالخبر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه إما أن يكون الفلك ساكناً والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك فى الماء الراكد ، وإما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضاً إما مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لجهته إما

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ «٣٤» كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ «٣٥» وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ «٣٦»

بحركة مساوية لحركة الفلك فى السرعة والبطء أو مخالفة ، وإما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكناً ، أما الرأى الأول فقالت الفلاسفة إنه باطل لأنه يوجب خرق الأفلاك وهو محال ، وأما الرأى الثانى فحركة الكواكب إن فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضاً يوجب الخرق وإن كانت حركتها إلى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها فى السرعة والبطء لزم الانخراق وإن استويا فى الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضاً لازم لأن الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق إلا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزاً فى الفلك واقفاً فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك ، واعلم أن مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الأفلاك وهو باطل بل الحق أن الأقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الأفلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة فى الماء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال صاحب الكشاف (كل) التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أى كلهم فى فلك يسبحون والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج أبو على بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله (يسبحون) قال والجمع بالواو والنون لا يكون إلا للعقلاء ، وبقوله تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) ، (والجواب) إنما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون فى فلك ؟ قلت هذا كقولهم كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً أى كل واحد منهم .

قوله تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ، وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾

إعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالأشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الأشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على أن هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له ، بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ، ولكى يتوصل بها إلى الآخرة التى هى دار الخلود .

فأما قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل أن أناساً كانوا يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لايموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أى قضى الله تعالى أن لا يخلد فى الدنيا بشراً فلا أنت ولاهم إلا عرضة للموت أفائن مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفى معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل أنه لما ظهر أنه عليه السلام خاتم الأنبياء جاز أن يقدر مقدر أنه لايموت إذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الأنبياء عليهم السلام فى الموت .

أما قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) مع أن الموت لا يجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهى لاتموت ، والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الأشياء ، وذلك يبطل قول الفلاسفة فى أن الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لاتموت (والثانى) الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق إدراك خاص فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك ، وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لأن الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع إدراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتاً والميت لايدرك شيئاً (والثالث) الإضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لأنه لما يستقبل كقوله (غير محلى الصيد، وهدياً بالغ الكعبة) .

أما قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف ، فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ماأمر ونهى وإن كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين : (أحدهما) ماسماه خيراً وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ماسماه شراً وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين ، فبين تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين ، لكى يشكر على المنح ويصبر فى المحن ، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم

خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ «٣٧» وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ «٣٨» لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ

لأنه فى صورة الاختبار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتجت التناسخية بقوله (وإلينا ترجعون) فإن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) أنه مذكور مجازاً .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ المراد من قوله (وإلينا ترجعون) أنهم يرجعون إلى حكمه ومحاسبته ومجازاته ، فبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد ، واستدلت التناسخية بهذه الآية ، وقالوا إن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه ، وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بأنا أجسام ، فرجوعنا إلى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما (والجواب) عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة .

أما قوله تعالى (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً)قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل مر به النبى ﷺ وكان أبو سفيان مع أبى جهل ، فقال أبو جهل لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف ، فقال أبو سفيان : وما تنكر أن يكون نبياً فى بنى عبد مناف . فسمع النبى ﷺ قولهما فقال لأبى جهل : « ماأراك تنتهى حتى ينزل بك مانزل بعمك الوليد بن المغيرة ، وأما أنت ياأبا سفيان : فإنما قلت ماقلت حمية » فنزلت هذه الآية ، ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله (أهذا الذى يذكر آلهتكم) والذكر يكون بخير وبخلافه ، فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل سمعت فلاناً يذكرك ، فان كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدواً فهو ذم ، ومنه قوله تعالى(سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم)والمعنى أنه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها .

وأما قوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فالمعنى أنهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لاتضر ولا تنفع بالسوء ، مع (أنهم بذكر الرحمن) الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت(كافرون) ولا فعل أقبح من ذلك ، فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لايشعرون ، ويحتمل أن يراد (بذكر الرحمن) القرآن والكتب ، والمعنى فى أعادتهم أن الأولى إشارة إلى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل ، والثانية إبانة لاختصاصهم به ، وأيضاً فان فى أعادتها تأكيداً وتعظيما لفعلهم .

قوله تعالى ﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم

عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ «٣٩» بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَاهُمْ يُنْظَرُونَ «٤٠» وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٤١»

ولاهم ينصرون ، بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون ، ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾

أما قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى المراد من الانسان قولان (أحدهما) أنه النوع (والثانى) أنه شخص معين (أما القول الأول) فتقريره أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار (ويقولون متى هذا الوعد) فأراد زجرهم عن ذلك ، فقدم أولا ذم الانسان على إفراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : لا يبعد منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم ، فان قيل مقدمة الكلام لابد وأن تكون مناسبة للكلام ، وكون الانسان مخلوقاً من العجل يناسب كونه معذوراً فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله (فلا تستعجلون) قلنا لأن العائق كلما كان أشد ، كانت القدرة على مخالفته أكمل ، فكأنه سبحانه نبه بهذا على أن ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها (أما القول الثانى) وهو أن المراد شخص معين فهذا فيه وجهان (أحدهما) أن المراد آدم عليه السلام ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى ومقاتل والضحاك ، وروى ابن جريج وليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شىء من آخر نهار الجمعة ، فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله ، قال يارب استعجل خلقى قبل غروب الشمس ، قال ليث . فذلك قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وعن السدى لما نفخ فيه الروح فدخل فى رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ، فقال ذلك . فقال الله له : يرحمك ربك . فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه إلى ثمار الجنة . وهذا هو الذى أورث أولاده العجلة ، (وثانيهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو ، واعلم أن القول الأول أولى لأن الغرض ذم القوم ، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الانسان على النوع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها ، أما الأولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله (خلق الانسان من عجل) أى خلق

عجولا ، وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكى : هو نار تشتعل ، والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول : ماأنت إلا أكل ونوم ، وما هو إلا إقبال وإدبار ، قال الشاعر :

أما إذا ذكرت حتى إذا غفلت فإنما هى إقبال وإدبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى (وكان الانسان عجولا) قال المبرد : (خلق الانسان من عجل) أى من شأنه العجلة كقوله (خلقكم من ضعف) أى ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيد : العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا : والنخل يثبت بين الماء والعجل

(وثالثها) قال الأخفش : (من عجل) أى من تعجيل من الأمر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل ، أى من ضعف عن الحسن . ما الذين قلبوها فقالوا المعنى : خلق العجل من الانسان ، كقوله (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى تعرض النار عليهم والقول الأول أقرب إلى الصواب وأبعد الأقوال هذا القلب لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب ، وأيضاً فإن قوله خلقت العجلة من الإنسان فيه وجوه من المجاز . فما الفائدة فى تغيير النظم الى ما يجرى مجراه فى المجاز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة . قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يذم على استعجال مالا يكون معلوماً له كان أولى ، وأيضاً فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين فى الحقيقة .

أما قوله تعالى (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) فقد اختلفوا فى المراد بالآيات على أقوال : (أحدها) أنها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ولذلك قال (فلا تستعجلون) أى أنها ستأتى لا محالة فى وقتها (وثانيها) أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول أقرب إلى النظم .

أما قوله تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فاعلم أن هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله (ويستعجلونك بالعذاب ولو لا أجل مسمى لجاءهم العذاب) فبين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ، ثم إنه سبحانه ذكر فى رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله ﷺ وجهين : (الأول) بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) قال صاحب الكشاف : جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذى يسألون عنه بقولهم (متى هذا الوعد) وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضا ناصراً ينصرهم لقوله تعالى

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ «٤٢» أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ «٤٣» بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ «٤٤»

(فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وإنما حسن حذف الجواب لأن ما تقدم يدل عليه ، وهذا أبلغ ومثله : (ولو يرى الذين ظلموا ، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعاً ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى دفع المضرة عن النفس ثم إنه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين أن وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لأمرها مستعدين فتبهتهم أى تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة فى ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أى لا يمهلون لتوبة ولا معذرة ، واعلم أن الله تعالى إنما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لأن المرء مع كتمان ذلك أشد حذراً وأقرب إلى التلافى ، ثم إنه سبحانه ذكر (الوجه الثانى) فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) والمعنى (ولقد استهزىء برسل من قبلك) يا محمد كما استهزأ بك قومك (فحاق) أى نزل (وأحاط بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم .

قوله تعالى ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضاً لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزءون ويغترون بما هم عليه (من يكلؤكم بالليل والنهار) وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولا مخلص له منه إلى أين مفرك منى! هل لك محيص عنى! والكالىء الحافظ

وأما قوله (من الرحمن) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى معناه وجوه : (أحدها) (من يكلؤكم من الرحمن) أى مما يقدر على إنزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه أنه لاحافظ لهم ولا دافع عن هذه الأمور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما متعوا بالدنيا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما خص ههنا إسم الرحمن بالذكر تلقيناً للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالىء يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك ، كما فى قوله (ماغرك بربك الكريم) إنما خص إسم الكريم بالذكر تلقيناً للجواب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرفتم فى معايشكم .

أما قوله (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلا ونهاراً بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شىء منها ليعرفوا أنه لا كالىء لهم سواه ويتركون عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى حفظهم ولا فى الإنعام عليهم .

أما قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون) فاعلم أن الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا ، والتقدير ألهم آلهة من تمنعهم . وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) وهذا خبر مبتدأ محذوف أى فهذه الآلهة لاتستطيع حماية أنفسها عن الآفات ، وحماية النفس أولى من حماية الغير . فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها ، وفى قوله (ولاهم منا يصحبون) قولان : (الأول) قال المازنى أصحبت الرجل إذا منعته فقوله (ولاهم منا يصحبون) من ذلك لامن الصحبة (الثانى) أن الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلها سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولاهم منا فى نصرة ولا إعانة . والحاصل أن من لايكون قادراً على دفع الآفات ولا يكون مصحوباً من الله بالإعانة ، كيف يقدر على شىء ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) يعنى ما حملهم على الإعراض إلا الإغترار بطول المهلة . يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع مواقع نعمتنا واغتروا بذلك .

أما قوله تعالى (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها) فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها فى ملك محمد ﷺ ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا

قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ «٤٥»
وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ «٤٦»
وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ «٤٧»

وننقص من الشرك بإهلاك أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من الله وإرادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال (أفهم الغالبون) أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد . وفى تفسير النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبى رضى الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها (وثالثها) قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية إن صحت عن رسول الله ﷺ فلا يعدل عنها وإلا فالأظهر من الأقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال (أفهم الغالبون) والذى يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها فى بلاد الإسلام ، قال القفال نزلت هذه الآية فى كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى أن كل ذلك من العبر التى لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم .

قوله تعالى ﴿ قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون . ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين . ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾

اعلم أنه سبحانه لما كرر فى القرآن الأدلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله (قل إنما أنذركم بالوحى) أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلى بل الله آتيكم به وأمرنى بإنذاركم فاذا قمت بما ألزمنى ربى فلم يقع منكم القبول والإجابة فالوبال عليكم يعود ، ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلا إذ الغرض بالإنذار ليس السماع بل التمسك به فى إقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق . فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع . قال صاحب الكشاف قرىء ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أى لا تسمع أنت أو لا يسمع رسول الله أو لا يسمع الصم من أسمع . فان قلت الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر . فكيف قال إذا ما ينذرون ؟ قلت اللام فى الصم

إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس ، والأصل ولا يسمعون الدعاء إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا أنذروا أى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامم عن آيات الانذار . ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مسهم شىء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشىء دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم . قال صاحب الكشاف فى المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس وما فى النفح من معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير ونفحه بعطية رضخه ، ولفظ المرة . ثم بين سبحانه وتعالى أن جميع ماينزل بهم فى الآخرة لا يكون إلا عدلا فهم وإن ظلموا أنفسهم فى الدنيا فلن يظلموا فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى (ونضع الموازين القسط) وصفها الله تعالى بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه ، فبين أن تلك الموازين تجرى على حد العدل والقسط ، وأكد ذلك بقوله (فلا تظلم نفس شيئاً) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى وضعها إحضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وإن كان موحداً وهو كقولك للقوم أنتم عدل ، وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله (ليوم القيامة) قال الفراء فى يوم القيامة وقيل لأهل يوم القيامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم فى الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعنى أن حسناته تذهب بسيئاته ومن أحاطت سيئاته بحسناته (فقد خفت موازينه) أى أن سيئاته تذهب بحسناته ، حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما (الثانى) وهو قول أئمة السلف أنه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الأعمال ، وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام ويروى « أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى عليه ، فلما أفاق قال يا إلهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال يا داود إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة » ثم على هذا القول فى كيفية وزن الأعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الأعمال (والثانى) يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة إما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أو لا يعلمون ذلك . فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافياً فى معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون فى وضع الميزان فائدة البتة ، وإن لم يعلموا لم تحصل الفائدة فى وزن الصحائف لاحتمال أنه سبحانه جعل إحدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلماً فثبت أن وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة . وجوابه على قولنا قوله تعالى (لا يسأل

عما يفعل وهم يسألون) وأيضاً ففيه ظهور حال الولى من العدو فى مجمع الخلائق ، فيكون لأحد القبيلين فى ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم ، ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره . إذا ثبت هذا فنقول : الدليل على وجود الموازين الحقيقية أن حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة غير جائز ، لا سيما وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة فى هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال قوم إن هذه الآية يناقضها قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (والجواب) أنه لا يكرمهم ولا يعظمهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ، ويجوز أن يرجع إلى الموزونات .

أما قوله تعالى (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) فالمعنى أنه لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسيء ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (مثقال حبة) على كان التامة كقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة) وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما (آتينا بها) وهى مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء ، وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب ، وفى حرف أبى جئنا بها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أنث ضمير المثقال ؟ قلنا لاضافته إلى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زعم الجبائى أن من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الأقل ينحبط بالأكثر ويبقى الأكثر كما كان . واعلم أن هذه الآية تبطل قوله لأن الله تعالى تمدح بأن اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الأمر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة قوله (فلا تظلم نفس شيئاً) فيه دلالة على أن مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم ، فدل هذا الوجه على أنه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا إلا للمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لأنه المالك المطلق ، ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا أن الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال ، فالظلم على الله تعالى محال . وأيضاً فان الظالم سفيه خارج عن الإلهية فلوصح منه الظلم لصح خروجه عن الإلهية ، فحينئذ يكون كونه إلها من الجائزات لا من الواجبات ، وذلك يقدح فى إلهيته .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إن قيل الحبة أعظم من الخردلة ، فكيف قال حبة من خردل ؟ قلنا : الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار . والغرض المبالغة فى أن شيئاً من الأعمال صغيراً كان أو كبيراً غير ضائع عند الله تعالى .

أما قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) فالغرض منه التحذير فان المحاسب إذا كان فى العلم بحيث

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ «٤٨» الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ «٤٩» وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ «٥٠»

لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه، ويروى عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه رئى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون، وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الأنبياء عليهم السلام، تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا منها قصصاً.

(القصة الأولى، قصة موسى عليه السلام)

ووجه الإتصال أنه تعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يقول (إنما أنذركم بالوحى) أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى فى الأنبياء قبله فقال (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين) واختلفوا فى المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) أنه هو التوراة، فكان فرقاناً إذ كان يفرق به بين الحق والباطل، وكان ضياء إذ كان لغاية وضوحه يتوصل به إلى طرق الهدى وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع، وكان ذكرى أى موعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه فى دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو فى قوله (وضياء) فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان، وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى المتقين. والمعنى أنه فى نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى[1] (القول الثانى) أن المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه: (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفرقان هو النصر الذى أوتى موسى عليه السلام كقوله (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الأديان الباطلة

---

(١) رسمت فى الأصل (ذكري) هكذا بالياء وجاء رسمها فى المصحف (وذكرا) بالتنوين وقد جري المصنف على تفسيرها بالذكرى لا بالذكر. لهذا فانا أثبتناها فى الآيات (ذكراً) متابعة لرسم المصحف. وأثبتناها فى التفسير (ذكري) متابعة التفسير، ولعل المفسر رحمه الله جرى على قراءة غير قراءة حفص المشهورة بيننا. والله أعلم وأحكم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ «٥١» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ «٥٢» قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ «٥٣» قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ «٥٤» قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ «٥٥»

(وثانيها) هو البرهان الذى فرق به دين الحق عن الأديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات . قال محمد بن كعب واعلم أنه تعالى إنما خصص الذكرى بالمتقين لما فى قوله (هدى للمتقين) أما قوله تعالى (الذين يخشون ربهم بالغيب) فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفى معنى الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وإيمانهم بالله غيبى استدلالى ، فالعباد يعملون لله فى الغيب والله لا يغيب عنه شىء عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها (وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات إذا غابوا عن الناس وهذا هو الأقرب ، والمعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم إلا أن ذلك مما يظهرونه فى الملا دون الخلا (وهم من) عذاب (الساعة) وسائر ما يجرى فيها من الحساب والسؤال (مشفقون) فيعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله تعالى . ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك وهو معنى قوله (وهذا ذكر مبارك) بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله (أفأنتم له منكرون) فالمعنى انه لا إنكار فى إنزاله وفى عجائب ما فيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ، ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الأدلة العقلية وبيان الشرائع ، فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره .

(القصة الثانية ، [قصة] إبراهيم عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾

إعلم أن قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الرشد قولان (الأول) أنه النبوة واحتجوا عليه بقوله (وكنا به عالمين) قالوا لأنه تعالى إنما يخص بالنبوة من يعلم من حاله أنه فى المستقبل يقوم بحقها ويجتنب

مالا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول (والثانى) أنه الاهتداء لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا قال تعالى (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) وفيه قول (ثالث) وهو أن تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد إذ لايجوز أن يبعث نبى إلا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضاً على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا فى أن الإيمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم . أجاب الكعبى بأن هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد ، وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه . فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ، ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لايتم إلا إذا جعلنا قبوله جزءاً من مسمى الرشد وذلك باطل ، لأن المسمى إذا كان مركباً من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل لم يجز إضافة ذلك المسمى إلى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لايجوز إضافة الرشد إلى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده) صريح فى أن ذلك الرشد إنما حصل من الله تعالى فبطل ماقالوه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء رشده كالعدم والعدم . ومعنى إضافته إليه أنه رشد مثله وأنه رشد له شأن .

أما قوله تعالى (من قبل) ففيه وجوه (أحدها) آتينا إبراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) فى صغره قبل بلوغه حين كان فى السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها . وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء وإلا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعنى حين كان فى صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك .

أما قوله تعالى (وكنا به عالمين) فالمراد أنه سبحانه علم منه أحوالا بديعة وأسراراً عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهله لأن يكون خليلا له ، وهذا كقولك فى رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام فى الدلالة على تعظيمه أدل مما إذا شرحت جلال كماله .

أما قوله تعالى (إذ قال لأبيه وقومه) فقال صاحب الكشاف : إذ إما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت .

أما قوله (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التمثال اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى ، وأصله من مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن القوم كانوا عباد أصنام على صور مخصوصة كصورة الانسان أو غيره ، فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم .

قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ «٥٦» وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ «٥٧» فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ «٥٨» قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ «٥٩» قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ «٦٠»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف لم ينو للعاكفين مفعولا وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها ، قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله (يعكفون على أصنام لهم) ؟ قلت : لو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على .

أما قوله (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاعلم أن القوم لم يجدوا فى جوابه إلا طريقة التقليد الذى يوجب مزيد النكير لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضاً سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) فبين أن الباطل لا يصير حقاً بسبب كثرة المتمسكين به ، فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصاً ورأوه ثابتاً على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجرى مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم ، فعند ذلك قالوا له (أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) موهمين بهذا الكلام أنه يبعد أن يقدم على الإنكار عليهم جاداً فى ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم إلى بيان التوحيد .

قوله تعالى ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾

إعلم أن القوم لما أوهموا أنه إنما يمازح بما خاطبهم به فى أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد فى إظهار الحق الذى هو التوحيد وذلك بالقول أولا وبالفعل ثانياً ، أما الطريقة القولية فهى قوله (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذى خلقها لمنافع العباد هو الذى يحسن أن يعبد لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع فى الدار الآخرة بالعقاب والثواب . فيرجع حاصل هذه الطريقة إلى الطريقة التى ذكرها لأبيه فى قوله (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) قال صاحب الكشاف الضمير فى فطرهن للسموات والأرض أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل فى الاحتجاج عليهم .

أما قوله (وأنا على ذلكم من الشاهدين) ففيه وجهان (الأول) أن المقصود منه المبالغة فى التأكيد والتحقيق كقول الرجل إذا بالغ فى مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم . (والثانى) أنه عليه السلام عنى بقوله (وأنا على ذلكم من الشاهدين) ادعاء أنه قادر على إثبات ماذكره بالحجة ، وأنى لست مثلكم فأقول مالا أقدر على إثباته بالحجة ، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم ، وأما الطريقة الفعلية فهى قوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة فى عبادتها ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : قرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه وبالله ، وقرىء تولوا بمعنى تتولوا ويقويها قوله (فتولوا عنه مدبرين) فان قلت : ماالفرق بين الباء والتاء ؟ قلت إن الباء هى الأصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إن قيل لماذا قال (لأكيدن أصنامكم) والكيد هو الإحتيال على الغير فى ضرر لا يشعر به وذلك لايتأتى فى الأصنام (وجوابه) قال ذلك توسعاً لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها ، وقيل المراد لأكيدنكم فى أصنامكم لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى كيفية أول القصة وجهان : (أحدهما) قال السدى كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان هذا الوقت قال آزر : لإبراهيم عليه السلام لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال (تالله لأكيدن أصنامكم) واحتج هذا القائل بقوله تعالى (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) (وثانيهما) قال الكلبى كان إبراهيم عليه السلام من أهل بيت ينظرون فى النجوم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً فلما هم إبراهيم بالذى هم به من كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال لأصحابه أرانى أشتكى غداً فذلك قوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) وأصبح من الغد معصوباً رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال : أما والله لأكيدن أصنامكم ، وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم إن ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك فى جماعة فلذلك قال تعالى (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) واعلم أن كلا الوجهين ممكن . ثم تمام القصة أن إبراهيم عليه السلام لما دخل بيت الأصنام وجد سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس فى يده حتى لم يبق إلا الكبير ، ثم علق الفأس فى عنقه .

أما قوله تعالى (فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن قيل لم قال (فجعلهم جذاذاً) وهذا جمع لا يليق إلا بالناس (جوابه) من حيث اعتقدوا فيها أنها كالناس فى أنها تعظم ويتقرب اليها ، ولعل كان فيهم من يظن أنها تضر وتنفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف جذاذاً قطعاً من الجذ وهو القطع ، وقرىء بالكسر والفتح وقرىء جذذاً جمع جذيذ وجذذاً جمع جذة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قيل مامعنى (إلا كبيراً) لهم قلنا يحتمل الكبير فى الخلقة ويحتمل فى التعظيم ويحتمل فى الأمرين .

وأما قوله (لعلهم إليه يرجعون) فيحتمل رجوعهم إلى إبراهيم عليه السلام ، ويحتمل رجوعهم إلى الكبير (أما الأول) فتقريره من وجهين : (الأول) أن المعنى أنهم لعلهم يرجعون إلى مقالة إبراهيم ويعدلون عن الباطل (والثانى) أنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فبكتهم بما أجاب به من قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم) أما إذا قلنا الضمير راجع إلى الكبير ففيه وجهان : (الأول) أن المعنى لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً والفأس على عاتقك . وهذا قول الكلبى ، وإنما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تجيب وتتكلم (والثانى) أنه عليه السلام قال ذلك مع علمه أنهم لايرجعون إليه استهزاء بهم ، وإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع اليه فى حل المشكلات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إن قيل أولئك الأقوام إما أن يقال إنهم كانوا عقلاء أوما كانوا عقلاء . فان كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أن تلك الأصنام لاتسمع ولاتبصر ولاتنفع ولاتضر ، فأى حاجة فى إثبات ذلك إلى كسرها ؟ أقصى مافى الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب ، وكسرها لايقدح فى كونها معظمة من هذا الوجه . وإن قلنا إنهم ماكانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم (الجواب) أنهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة أنها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تماثيل الكواكب وأنها طلسمات موضوعة بحيث أن كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ، ثم إن إبراهيم عليه السلام كسرها مع أنه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه .

أما قوله تعالى (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى [أن] من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود فى الظلمة إما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والإعظام ، وإما لأنهم رأوا إفراطاً فى كسرها وتمادياً فى الاستهانة بها .

أما قوله تعالى (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين : (أحدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثانى) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم . قال صاحب الكشاف والصحيح أنه فاعل يقال لأن المراد الإسم دون المسمى .

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ «٦١» قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ «٦٢» قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ «٦٣» فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ «٦٤» ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ «٦٥» قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ «٦٦» أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٦٧»

﴿المسألة الثانية﴾ ظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد ، فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله فى آلهتهم فغلب على قلوبهم أنه الفاعل ولو لم يكن إلا قوله ما هـذه التماثيل إلى غير ذلك لكفى .

قوله تعـالى ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

إعلم أن القوم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل إن فاعله إبراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم (فاتوا به على أعين الناس) قال صاحب الكشاف على أعين الناس فى محل الحال أى فأتوا به مشاهداً أى بمرأى منهم ومنظر ، فان قلت : مامعنى الاستعلاء فى على ؟ قلت : هو وارد على طريق المثل أى يثبت إتيانه فى الأعين ثبات الراكب على المركوب . أما قوله تعالى (لعلهم يشهدون) ففيه وجهان : (أحدهما) أنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فأرادوا أن يجيئوا به على أعين النـاس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل . وهذا قول الحسن وقتادة والسدى وعطاء وابن عباس رضى الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق أى يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيـكون ذلك زاجراً لهم عن الاقدام على مثل فعله ، وفيه (قول ثالث) وهو قول مقاتل والكلبى أن المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه .

أما قوله تعالى (قالوا أأنت فعلت هذا) فاعلم أن فى الـكلام حذفاً ، وهو : فأتوا به وقالوا أأنت

فعلت ، طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه ، فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه . فقال (بل فعله كبيرهم هذا) وقد علق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم فى عبادة الأوثان ، وإن قيل قوله : بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب ، وذكروا فى الاعتذار عنه وجوهاً (أحدها) أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له بل كتبته أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمى أو المخرمش ، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر (وثانيها) أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة . وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب فى استهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم . فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه . وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) أنه كناية عن غير مذكور ، أى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسألوهم ، والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم (وسادسها) أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أى فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثانى) وهو قول طائفة من أهل الحكايات . أن ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبى ﷺ أنه قال « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى . قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله لسارة هى أختى » وفى خبر آخر « أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال : إنى كذبت ثلاث كذبات » ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب ليس قبيحاً لذاته ، فان النبى عليه السلام إذا هرب من ظالم واختفى فى دار إنسان ، وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه . وإذا كان كذلك فأى بعد فى أن يأذن الله تعالى فى ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو ، واعلم أن هذا القول مرغوب عنه . أما الخبر الأول وهو الذى رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه . فلنجوز هذا

الاحتمال فى كل ما أخبروا عنه ، وفى كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها ، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ماقال عليه السلام « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب »

فأما قوله تعالى (إنى سقيم) فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجىء فى موضعه .

وأما قوله (بل فعله كبيرهم) فقد ظهر الجواب عنه .

أما قوله لسارة : إنها أختى ، فالمراد أنها أخته فى الدين ، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لايحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق .

أما قوله تعالى (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) ففيه وجوه (الأول) أن إبراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا أن عبادة الأصنام باطلة ، وأنهم على غرور وجهل فى ذلك (والثانى) قال مقاتل : فرجعوا إلى أنفسهم فلاموها وقالوا إنكم أنتم الظالمون لإبراهيم حيث تزعمون أنه كسرها مع أن الفأس بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى أنكم أنتم الظالمون لأنفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزىء بكم فى الجواب ، والأقرب هو الأول .

أما قوله تعالى (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى المعنى وجوه (أحدها) أن المراد استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا [فى] المجادلة بالباطل وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلا وانكساراً وانخذالا مما بهتهم به إبراهيم فما أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم . (وثالثها) قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤوسهم فى الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم ، أى قلبوا فى الحجة واحتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فأقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم ، قال والمعنى نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ مالم يسم فاعله ، أى نكسوا أنفسهم على رؤوسهم وهى قراءة رضوان بن عبد المعبود .

أما قوله تعالى (قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر ، وإن إبراهيم عليه السلام أضجره مارأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم ، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ثم يحتمل أنه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله . ويحتمل أنه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وإن لم يعقلوا . وهذا هو الأقرب لقوله

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ «٦٨» قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ «٦٩» وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ «٧٠» وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ «٧١»

(أفتعبدون) ولقوله (أفلا تعقلون) .

قوله تعالى ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما بين ما أظهره إبراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وإبطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم . وأنهم (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ليس فى القرآن من القائل لذلك والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح ، وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول إنما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس . وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائى قال : إن الذى قال حرقوه رجل اسمه هيرين ، فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما كيفية القصة فقال مقاتل : لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة ، وذلك قوله (قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم) ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى أن المرأة لو مرضت قالت : إن عافانى الله لأجمعن حطباً لإبراهيم ، ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوماً . فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير فى أقصى الهواء لاحترق ، ثم أخذوا إبراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ، ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولا ، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة ، أى ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم ، وإنه يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته ، فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه ، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه فى النار ، أتاه خازن الرياح فقال : إن شئت طيرت النار فى الهواء . فقال إبراهيم عليه السلام : لا حاجة بى إليكم ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : «اللهم أنت الواحد فى السماء . وأنا الواحد فى الأرض ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى ، أنت حسبنا ونعم الوكيل » وقيل إنه حين ألقى فى النار قال : «لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد

ولك الملك ، لاشريك لك » ثم وضعوه فى المنجنيق ورموا به النار ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال ياإبراهيم هل لك حاجة ، قال : أما إليك فلا ؟ قال : فاسأل ربك ، قال : حسبى من سؤالى ، علمه بحالى . فقال الله تعالى (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) وقال السدى : إنما قال ذلك جبريل عليه السلام ، قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية مجاهد ولو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، قال ولم يبق يومئذ فى الدنيا نار إلا طفئت . ثم قال السدى : فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم وأقعدوه فى الأرض . فاذا عين ماء عذب ، وورد أحمر ، ونرجس . ولم تحرق النار منه إلا وثاقه ، وقال المنهال بن عمرو أخبرت أن إبراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار كان فيها إما أربعين يوماً أو خمسين يوماً . وقال ما كنت أياماً أطيب عيشاً منى إذ كنت فيها ، وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة إبراهيم ، فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه . وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة ، وقال ياإبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبابى ، ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على إبراهيم فرآه جالساً فى روضة . ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب ، فناداه نمروذ ياإبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال نعم ، قال قم فاخرج ، فقام يمشى حتى خرج منها ، فلما خرج قال له نمروذ : من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك ؟ قال ذاك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فيها . فقال نمروذ : إنى مقرب إلى ربك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك ، فانى ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال إبراهيم عليه السلام : لا يقبل الله منك مادمت على دينك ، فقال نمروذ لا أستطيع ترك ملكى ، ولكن سوف أذبحها له . ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام ، ورويت هذه القصة على وجه آخر ، وهى أنهم بنوا لإبراهيم بنياناً وألقوه فيه ، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عليه من الغد ، فاذا هو غير محترق يعرق عرقاً ، فقال لهم هاران أبو لوط : إن النار لاتحرقه لأنه سحر النار ، ولكن اجعلوه على شىء وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله ، فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته ، فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ انما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات ، ولهذا قيل (إن كنتم فاعلين) أى إن كنتم تنصرون آلهتكم نصراً شديداً ، فاختاروا أشد العقوبات وهى الإحراق .

أما قوله تعالى (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) ففيه مسائل :

﴿ المسأله الأولى ﴾ قال أبو مسلم الأصفهانى فى تفسير قوله تعالى (قلنا يانار كونى برداً) المعنى أنه سبحانه جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً كقوله (أن يقول له كن فيكون) أى يكونه ، وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه ، والأكثرون على أنه وجد ذلك القول . ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدى أن القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الأكثرين أن القائل هو الله تعالى . وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر . وقوله النار جماد فلا

يكون فى خطابها فائدة ، قلنا لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الأمر مصلحة عائدة إلى الملائكة.

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا فى أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) أن الله تعالى أزال عنها مافيها من الحر والإحراق ، وأبقى مافيها من الإضاءة والإشراق والله على كل شىء قدير (وثانيها) أن الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه ، كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة ، وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار (وثالثها) أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه ، قال المحققون والأول أولى لأن ظاهر قوله (يانار كونى برداً) أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت ، فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة ، فاذا كانت الحرارة جزء من مسمى النار امتنع كون النار باردة ، فاذاً وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين ؟ قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى .

أما قوله تعالى (كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) فالمعنى أن البرد إذا أفرط أهلك كالحر بل لا بد من الإعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) أن بعض النار صار برداً وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) أنه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أو كل النار زالت وصارت برداً (الجواب) أن النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل أفراد الماهية ، وقيل بل اختص بتلك النار لأن الغرض إنما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها ، والمراد خلاص إبراهيم عليه السلام لا إيصال الضرر إلى سائر الخلق .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يجوز ماروى عن الحسن من أنه سلام من الله تعالى على إبراهيم عليه (الجواب) الظاهر كما أنه جعل النار برداً جعلها سلاماً عليه حتى يخلص ، فالذى قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب .

﴿السؤال الثالث﴾ أفيجوز ماروى من أنه لو لم يقل وسلاماً لأتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لأن برد النار لم يحصل منها وإنما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاماً .

﴿السؤال الرابع﴾ أفيجوز ما قيل من أنه كان فى النار أنعم عيشاً منه فى سائر أحواله . (والجواب) لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ، ويجوز أن يكون إنما صار أنعم

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ «٧٢» وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ «٧٣»

عيشاً هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الأمر العظيم ولعظم سروره بظفره بأعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى .

أما قوله تعالى (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلا مغلوبين ، غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ، ثم عدلوا القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ، ثم إنه سبحانه أتم النعمة عليه بأن نجاه ونجى لوطاً معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين . وفى الأخبار أن هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة إلى الأرض المباركة ، ثم قيل إنها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى (إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) والسبب فى بركتها ، أما فى الدين فلأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها ، وأما فى الدنيا فلأن الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش . وقيل ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس .

قوله تعالى ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

اعلم أنه تعالى بعد ذكره لإنعامه على إبراهيم وعلى لوط بأن نجاهما إلى الأرض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم ، وإنما جمع بينهما لأن فى كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة فى النبوة مزيد إنعام ، ثم إنه سبحانه ذكر النعم التى أفاضها على إبراهيم عليه السلام ثم النعم التى أفاضها على لوط ، أما الأول فمن وجوه : (أحدها) (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) واعلم أن النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا ، ثم للمفسرين ههنا قولان : (الأول) أنه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله (ووهبنا له) هبة أى وهبناهما له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقاً ، وهذا قول مجاهد وعطاء (والثانى) وهو قول أبى بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج : أن ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولداً قال (رب هب لى من الصالحين) فأجاب الله دعاءه (ووهب له إسحق) وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك (نافلة) كالشىء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال (ووهبنا له اسحق) إجابة

لدعائه (ووهبنا له يعقوب نافلة) على ماسأل كالصلاة النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة .

﴿ والوجه الأول ﴾ أقرب لأنه تعالى جمع بينهما ، ثم ذكر قوله (نافلة) فاذا صلح أن يكون وصفاً لهما فهو أولى .

﴿ النعمة الثانية ﴾ قوله تعالى (وكلا جعلنا صالحين) أى وكلا من ابراهيم واسحق ويعقوب أنبياء مرسلين ، هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه .

﴿ والوجه الثانى ﴾ أقرب لأن لفظ الصلاح يتناول الكل لأنه سبحانه قال بعد هذه الآية (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لأن قوله (وكلا جعلنا صالحين) يدل على أن ذلك الصلاح من قبله ، أجاب الجبائى بأنه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين. ولما مدحهم بذلك ، ولما أثنى عليهم ، وإذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين : (الأول) أن يكون المراد أنه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثانى) أن يكون المراد أنه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلاناً وضلله وكفره إذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس . وكما يقال فى الحاكم زكى فلاناً وعدله وجرحه إذا حكم بذلك . واعلم أن هذه الوجوه مختلة ، أما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود أن نعارضه بمسألتى الداعى والعلم ، وأما الحمل على اللطف فباطل لأن فعل الإلطاف عام فى المكلفين فلا بد فى هذا التخصيص من مزيد فائدة ، وأيضاً فلأن قوله جعلته صالحاً ، كقوله جعلته متحركا . فحمله على تحصيل شىء سوى الصلاح ترك للظاهر . وأما الحمل على التسمية فهو أيضاً مجاز أقصى ما فى الباب أنه قد يصار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا لاضرورة إلا أن يرجعوا مرة أخرى إلى فصل المدح والذم ، فحينئذ نرجع أيضاً إلى مسألتى الداعى والعلم .

﴿ النعمة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) وفيه قولان : (أحدهما) أى جعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا وإذننا (الثانى) قول أبى مسلم أن هذه الأمامة هى النبوة ، والأول أولى لئلا يلزم التكرار ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الأفعال بقوله (وجعلناهم أئمة) وتقريره مامضى (والثانى) على أن الدعوة إلى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز إلا بأمر الله تعالى لأن الأمر لو لم يكن معتبراً لما كان فى قوله بأمرنا فائدة .

﴿ النعمة الرابعة ﴾ قوله تعالى (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) وهذا يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الأب ، قال الزجاج حذف الهاء من إقامة الصلاة لأن الإضافة عوض عنه ، وقال غيره : الإقام والاقامة مصدر . قال أبو القاسم الأنصارى الصلاة

وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ «٧٤» وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ «٧٥»

أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى ، والزكاة أشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، واعلم أنه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة . ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحى . وإذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية . ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال (وكانوا لنا عابدين) كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الإحسان والإنعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة .

﴿ القصة الثالثة ، قصة لوط عليه السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ ولوطاً آتيناه حكما وعلماً ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين ﴾

إعلم أنه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على إبراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل ، وههنا مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الواو فى قوله (ولوطاً) قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج أنه عطف على قوله (وأوحينا إليهم) ، (والثانى) قول أبى مسلم أنه عطف على قوله (آتينا إبراهيم رشده) ولا بد من ضمير فى قوله (ولوطاً) فكأنه قال وآتينا لوطاً فأضمر ذكره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى أصناف النعم وهى أربعة وجوه (أحدها) الحكم أى الحكمة وهى التى يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هى النبوة (وثانيها) العلم ، واعلم أن إدخال التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) والمراد أهل القرية لأنهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولأن الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ، ثم بين سبحانه وتعالى بقوله (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) ما أراده بالخبائث ، وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله (وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين) وفى تفسير الرحمة قولان (الاول) أنه النبوة أى أنه لما كان صالحاً للنبوة أدخله الله فى رحمته لكى يقوم بحقها عن مقاتل (الثانى) أنه الثواب عن ابن عباس والضحاك ، ويحتمل أن يقال إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهى بحر لا ساحل له وهى الرحمة فى الحقيقة

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ «٧٦» وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ «٧٧»

﴿ القصة الرابعة ، قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾

أما قوله تعالى (إذ نادى من قبل) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لاشبهة فى أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) وتارة على التفصيل وهو قوله (وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى أجابه بقوله (فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب فى السؤال فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد عليه وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم . فلذلك قال بعده (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجمع المحققون على أن ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لأنه لو لم يكن بأمره لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب اليه فيصير ذلك سبباً لنقصان حال الأنبياء ، ولأن الإقدام على أمثال هذه المطالب لو لم يكن بالأمر لكان ذلك مبالغة فى الاضرار ، وقال آخرون إنه عليه السلام لم يكن مأذوناً له فى ذلك . وقال أبو أمامة : لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح ، فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس ، وحسرة نوح على دعائه على قومه . فأوحى الله تعالى اليه أن لاتتحسر فان دعوتك وافقت قدرى

أما قوله تعالى (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) فالمراد بالأهل ههنا أهل دينه . وفى تفسير الكرب وجوه (أحدها) أنه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) أنه تكذيب قومه إياه وما لقى منهم من الأذى (وثالثها) أنه مجموع الأمرين وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وهو الأقرب لأنه عليه السلام كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضاً على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذى يتخلص

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ «٧٨» فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ «٧٩» وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ «٨٠» وَلِسُلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ «٨١» وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ «٨٢»

من الغرق ومن الذى يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه .

أما قوله تعالى (ونصرناه من القوم) فقراءة أبى بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم ، وقال تعالى (فمن ينصرنا من بأس الله) أى يعصمنا من عذابه ، قال أبو عبيدة : من بمعنى على . وقال صاحب الكشاف إنه نصر الذى مطاوعه انتصر وسمعت هذلياً يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ، أى اجعلهم منتصرين منه .

أما قوله تعالى (إنهم كانوا قوم سوء) فالمعنى أنهم كانوا قوم سوء لأجل ردهم عليه وتكذيبهم له فأغرقناهم أجمعين ، فبين ذلك الوجه الذى به خلصه منهم .

﴿ القصة الخامسة ، قصة داود وسليمان عليهما السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾

إعلم أن قوله تعالى : وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون ، كله نسق على ما تقدم من قوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل) ومن قوله (ولوطاً آتيناه حكما وعلماً) واعلم أن المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ، ثم ذكر ما يختص به كل

واحد منهما من النعم . أما النعمة المشتركة فهى القصة المذكورة وهى قصة الحكومة ، ووجه النعمة فيها أن الله تعالى زينهما بالعلم والفهم فى قوله (وكلا آتينا حكما وعلما) ثم فى هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها ، وذلك لأن الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن . وإذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن السكيت النفش أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع ، وهذا قول جمهور المفسرين ، وعن الحسن أنه يجوز ذلك ليلا ونهاراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكثر المفسرين على أن الحرث هو الزرع ، وقال بعضهم هو الكرم والأول أشبه بالعرف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إحتج من قال أقل الجمع إثنان بقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) مع أن المراد داود وسليمان (جوابه) أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له ، فاذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الإثنين ، وقرىء وكنا لحكمهما شاهدين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى كيفية القصة وجهان (الأول) قال أكثر المفسرين : دخل رجلان على داود عليه السلام (أحدهما) صاحب حرث والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا دخلت حرثى وما أبقت منه شيئاً ، فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك ، فخرجا فمرا على سليمان ، فقال كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال : لو كنت أنا القاضى لقضيت بغير هذا . فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال : كيف كنت تقضى بينهما ، فقال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثانى) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله : أن راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم . فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم . فذهب صاحب الكرم من الغد إلى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت ، فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فأخبراه به ، فقال غير هذا أرفق بالفريقين ، فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الأبوة والنبوة إلا أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين ، فقال تسلم الغنم إلى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم حتى يصير كما كان ، ثم ترد الغنم إلى صاحبها . فقال داود عليه السلام إنما القضاء ماقضيت وحكم بذلك . قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة . وههنا أمور ولا بد من البحث عنها .

﴿ السؤال الأول ﴾ هل فى الآية دلالة على أنهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا ؟ فإن أبا بكر الأصم قال إنهما لم يختلفا البتة . وأنه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب أنهما اختلفا والدليل إجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على

ماروبناه ، وأيضاً فقد قال الله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) ثم قال (ففهمناها سليمان) والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقاً على هذا التفهيم ، وذلك الحكم السابق إما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه ، فإن اتفقا فيه لم يبق لقوله (ففهمناها سليمان) فائدة وإن اختلفا فيه فذلك هو المطلوب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ سلمنا أنهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الأمران جائزان عندنا وزعم الجبائى أنهما كانا صادرين عن النص ، ثم إنه تارة يبنى ذلك على أن الإجتهاد غير جائز من الأنبياء ، وأخرى على أن الاجتهاد وإن كان جائزاً منهم فى الجملة ، ولكنه غير جائز فى هذه المسألة .

﴿ أما المأخذ الأول ﴾ فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الأصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على أن الاجتهاد غير جائز من الأنبياء عليهم السلام بأمور (أحدها) قوله تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) وقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) (وثانيها) أن الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على إدراكه يقيناً فلا يجوز مصيره إلى الظن كالمعاين للقبلة لا يجوز له أن يجتهد (ثالثها) أن مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر (ورابعها) لو جاز أن يجتهد فى الأحكام لكان لا يقف فى شىء منها ، ولما وقف فى مسألة الظهار واللعان إلى ورود الوحى دل على أن الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد إنما يجوز المصير إليه عند فقد النص ، لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضاً من جبريل عليه السلام وحينئذ لا يحصل الأمان بأن هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل ؟ (والجواب) عن الأول أن قوله تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) لا يدل على قولكم لأنه وارد فى إبدال آية بآية لأنه عقيب قوله (قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك . وأما قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) فبعيد لأن من يجوز له الاجتهاد يقول إن الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وإن لم يكن كذلك على التفصيل ، وإن الآية واردة فى الأداء عن الله تعالى لا فى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب) عن الثانى أن الله تعالى إذا قال له إذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الأصل بكذا ، ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل فى طريقه (والجواب) عن الثالث أنا لا نسلم أن مخالفة المجتهدات جائزة مطلقاً بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم والدليل عليه أنه يجوز على الأمة أن يجمعوا اجتهاداً ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب) عن الرابع لعله عليه السلام كان ممنوعا من الإجتهاد فى بعض الأنواع أو كان مأذونا مطلقاً لكنه لم يظهر له فى تلك الصورة وجه الاجتهاد ، فلا جرم

أنه توقف (والجواب) عن الخامس لم لا يجوز أن يحبس النص عنه فى بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب) عن السادس أن هذا الإحتمال مدفوع باجماع الأمة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذى يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه : (أحدها) أنه عليه السلام إذا غلب على ظنه أن الحكم فى الأصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فلابد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الأصل ، وعنده مقدمة يقينية وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معاً وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين ، أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين ، أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس . وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس وهى قائمة أيضاً فى حق الأنبياء عليهم السلام . وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى (فاعتبروا) أمر للكل بالإعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لأنه إمام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) أن الإستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب . فان قيل هذا إنما يلزم لو لم تكن درجة أعلى من الاعتبار ، وليس الأمر كذلك . لأنه كان يستدرك الأحكام وحياً على سبيل اليقين ، فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذى ليس قصاراه إلا الظن . قلنا لا يمتنع أن لا يجد النص فى بعض المواضع ، فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذى يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الإجتهاد . وأيضاً فقد بينا أن الله تعالى لما أمره بالإجتهاد كان ذلك مفيداً للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام « العلماء ورثة الأنبياء » فوجب أن يثبت للأنبياء درجة الإجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك . هذا تمام القول فى هذه المسألة (وخامسها) أنه تعالى قال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) فذاك الإذن إن كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم ، وإن كان بهوى النفس فهو غير جائز ، وإن كان بالاجتهاد فهو المطلوب .

﴿ المأخذ الثانى ﴾ قال الجبائى لو جوزنا الاجتهاد من الأنبياء عليهم السلام فى هذه المسألة يجب أن لا يجوز لوجوه : (أحدها) أن الذى وصل إلى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار ، فكيف يجوز فى الاجتهاد جعل أحدهما عوضاً عن الآخر (وثانيها) أن اجتهاد داود عليه السلام إن كان صواباً لزم أن لا ينقض لأن الاجتهاد لا ينتقض بالاجتهاد ، وإن كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الأنبياء عليهم السلام ، فلما مدحهما بقوله (وكلا آتينا حكما وعلماً) دل على أنه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظناً لا علماً لأن الله تعالى قال (وكلا آتينا حكما وعلماً) (ورابعها) كيف يجوز أن يكون

عن اجتهاد من مع قوله (ففهمناها سليمان) (والجواب) عن الأول أن الجهالة فى القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثانى) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا أن من تمسك بالقياس فالظن واقع فى طريق إثبات الحكم فأما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) أنه إذا تأمل واجتهد فأداه اجتهاده إلى ما ذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك . فهذا جملة الكلام فى بيان أنه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام فى ذلك الحكم إنما كان بسبب الاجتهاد . وأما بيان أنه لا يمتنع أيضاً أن يكون إختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال إن داود عليه السلام كان مأموراً من قبل الله تعالى فى هذه المسألة بالحكم الذى حكم به ، ثم إنه سبحانه نسخ ذلك بالوحى إلى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعاً فقوله (ففهمناها سليمان) أى أوحينا إليه فان قيل هذا باطل لوجهين : (الأول) لما أنزل الله تعالى الحكم الأول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضاً على داود لا على سليمان (الثانى) أن الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن فى فهمه كثير مدح إنما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة فى الاستنباط .

﴿ السؤال الثالث ﴾ إذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لأجل النص وأن يكون لأجل الاجتهاد فأى القولين أولى (والجواب) الاجتهاد أرجح لوجوه : (أحدها) أنه روى فى الأخبار الكثيرة أن داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان أن غير ذلك أولى . وفى بعضها أن داود عليه السلام ناشده لكى يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص ، لأنه لو كان نصاً لكان يظهره ولا يكتمه .

﴿ السؤال الرابع ﴾ بينوا أنه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) أن وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده أن الواجب فى ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم إلى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله فى العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه ، وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى إلى أنه يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد ، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائز لأنه يقتضى الحيف والجور ، ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به ، كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا .

﴿ السؤال الخامس ﴾ على تقدير أن ثبت قطعاً أن تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد ، فهل تدل هذه القصة على أن المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بأن المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى (ففهمناها سليمان) قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص

سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة . وأما القائلون بأن الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله (وكلا آتينا حكما وعلماً) ولو كان المصيب واحداً ومخالفه مخطئاً لما صح أن يقال (وكلا آتينا حكما وعلماً) واعلم أن الإستدلالين ضعيفان (أما الأول) فلأن الله تعالى لم يقل إنه فهمه الصواب فيحتمل أنه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لأنه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به . على أن أكثر مافى الآية أنها دالة على أن داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الأمر كذلك فى شرعنا (وأما الثانى) فلأنه تعالى لم يقل إن كلا آتيناه حكما وعلماً بما حكم به ، بل يجوز أن يكون آتيناه حكما وعلماً بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام . على أنه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيباً فى شرعهم أن يكون الأمر كذلك فى شرعنا .

﴿ السؤال السادس ﴾ لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها ؟ (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة . والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة . واعلم أن كثيراً من العلماء يزعمون أنه منسوخ بالإجماع ثم اختلفوا فى حكمه فقال الشافعى رحمه الله إن كان ذلك بالنهار لا ضمان لأن لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار ، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه . وإن كان ليلا يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان أو نهاراً إذا لم يكن متعدياً بالإرسال ، لقوله ﷺ « جرح العجماء جبار » واحتج الشافعى رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب أنه قال « كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فأفسدته فذكروا ذلك لرسول ﷺ فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها . وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ما شيتهم بالليل » وهذا تمام القول فى هذه الآية . ثم إن الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التى خص بها داود عليه أمرين (الأول) قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) أن الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوهاً (أحدها) قال مقاتل إذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه (وثانيها) قال الكلبى إذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطاً واشتياقا (القول الثانى) وهو اختيار بعض أصحاب المعانى أنه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وتخصيص داود عليه السلام بذلك إنما كان بسبب أنه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما . والقول الأول أقرب لأنه لا ضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره . وأما المعتزلة فقالوا لو حصل الكلام من الجبل لحصل إما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والأول) محال لأن بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة . وما لا يكون حياً

عالماً قادراً يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضاً محال لأن المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام ، فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل ، فثبت أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) ومثله قوله تعالى (ياجبال أوبى معه) معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولولم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى سيرى وهو كقوله (إن لك فى النهار سبحاً طويلا) أى تصرفا ومذهباً . إذا ثبت هذا فنقول : إن سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ماتنزه عنه واعلم أن مدار هذا القول على أن بنية الجبل لا تقبل الحياة ، وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضاً ممنوع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ، ولكن أجمعت الأمة على أن المكلفين إما الجن أو الإنس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ فى العقل إلى درجة التكليف ، بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وإن لم يكن مكلفاً فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق ، وأيضاً فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلا قال : كيف سخرهن ؟ فقال يسبحن . والطير إما معطوف على الجبال وإما مفعول معه . فان قلت لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان ناطق .

أما قوله (وكنا فاعلين) فالمعنى أنا قادرون على أن نفعل هذا وإن كان عجباً عندكم وقيل نفعل ذلك بالأنبياء عليهم السلام .

﴿ الإنعام الثالث ﴾ قوله تعالى (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللبوس اللباس ، قال البس لكل حالة لبوسها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لتحصنكم قرىء بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام ، وإنما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقاً . ذكر الحسن أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع ، فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه . فقال الصمت حكمة وقليل فاعله (١) قالوا إن الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ البأس ههنا الحرب وإن وقع على السوء كله ، والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من

---

١) الذى أحفظه : الصمت حكم وقليل فاعله ، ولو كان حكمة كما روى لقال فاعلها .

بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح .

﴿المسألة الخامسة﴾ فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه ، فتوارث الناس عنه ذلك . فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر ، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال (فهل أنتم شاكرون) أى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة ، واعلم أنه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام ، وقال قتادة : ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين .

﴿الإنعام الأول﴾ قوله تعالى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) أى جعلناها طائعة منقادة له بمعنى أنه إن أرادها عاصفة كانت عاصفة وإن أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها فى الحالتين ، فان قيل العاصف الشديدة الهبوب ، وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة فى قوله (رخاء حيث أصاب) فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين : (الأول) أنها كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال (غدوها شهر ورواحها شهر) وكانت جامعة بين الأمرين رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب مايريد ويحكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة (الثانى) أنها كانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفاً ، لأجل هبوبها على حكم إرادته .

﴿المسألة السادسة﴾ قرىء الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال ، فان قيل قال فى داود (وسخرنا مع داود الجبال) وقال فى حق سليمان (ولسليمان الريح) فذكره فى حق داود عليه السلام بكلمة مع وفى حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضاً فى قوله (ياجبال أوبى معه والطير) وقال (فسخرنا له الريح تجرى بأمره) فما الفائدة فى تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع ، وسليمان باللام قلنا يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف ، فما أضيف اليه بلام التمليك ، أما الريح فلم يصدر عنه إلا مايجرى مجرى الخدمة ، فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك ، وهذا إقناعى .

أما قوله (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) أى إلى المضى إلى بيت المقدس ، قال الكلبى كانت تسير من اصطخر إلى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه .

أما قوله (وكنا بكل شىء عالمين) أى لعلمنا بالأشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير فى رسلنا وفى خلقنا ، وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة .

﴿الإنعام الثانى﴾ قوله تعالى (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المراد أنهم يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال (يعملون

له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان) وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ومن الشياطين من يغوصون له) يعني وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له ، فيكون في موضع النصب نسقاً على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون في موضع رفع من وجهين : (أحدهما) النسق على الريح ، وأن يكون المعنى (ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين . ويجوز أن يكون رفعاً على الابتداء . ويكون له هو الخبر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذي يعمل سائر الأعمال ، ويحتمل أنهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين في لفظة من وإن كان الأول هو الأقرب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ليس في الظاهر إلا أنه سخرهم ، لكنه قد روى أنه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الأقرب من وجهين : (أحدهما) إطلاق لفظ الشياطين (والثاني) قوله (وكنا لهم حافظين) فان المؤمن إذا سخر في أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد ، وإنما يجب ذلك في الكافر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في تفسير قوله (وكنا لهم حافظين) وجوه : (أحدها) انه تعالى وكل بهم جمعاً من الملائكة أو جمعاً من مؤمني الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بأن حبب اليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء ، فان قيل وعن أي شيء كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبي كان يحفظهم من أن يهيجوا أحداً في زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل .

﴿ المسألة السادسة ﴾ سأل الجبائي نفسه ، وقال : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل ، وإنما يمكنهم الوسوسة ؟ وأجاب بأنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام ، فلما مات سليمان ردهم الله إلى الخلقة الأولى لأنه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ، ولو ادعى متنبي النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم إلى خلقتهم الأولى ، واعلم أن هذا الكلام ساقط من وجوه : (أحدها) لم قلت إن الجن من الأجسام . ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم ؟ فان قلت لو كان الأمر كذلك لكان مثلا للباري تعالى قلت هذا ضعيف لأن الاشتراك في اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك في الملزومات فكيف اللوازم السلبية . سلمنا أنه جسم ، لكن لا يجوز حصول القدرة على هذه الأعمال الشاقة في الجسم اللطيف ، وكلامه بناء على البنية شرط وليس في يده إلا الإستقراء الضعيف . سلمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها إلى الخلقة الأولى بعد موت سليمان عليه السلام ، فان قال لئلا يفضى إلى التلبيس

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٨٣» فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ «٨٤»

قلنا التلبيس غير لازم ، لأن المتنبى إذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعى أن يقول لم لا يجوز أن يقال إن قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك ، ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبى من الاستدلال به ، واعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة ، أما الكثيف فأكثف الأجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام ، فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ، لأنه لما قدر على إحياء الحجارة فأى بعد فى إحياء العظام الرميمة ، وإذا قدر على أن يجعل فى إصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الإصبع فى نهاية اللطافة . فأى بعد فى أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانياً . وألطف الأشياء فى هذا العالم الهواء والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام ، أما الهواء فقوله تعالى (فسخرنا له الريح) وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص فى المياه والنار تنطفىء بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته على إظهار الضد من الضد .

(القصة السادسة ـ قصة أيوب عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾

اعلم أن فى أمر أيوب عليه السلام وماذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفى غيره من القرآن من العبر والدلائل ماليس فى غيره ، لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفاً لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ، ويجتهد فى القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتى الضراء والسراء ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب ابن انوص وكان من ولد عيص بن إسحق وكانت أمه من ولد لوط ، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبياً . وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظاً وافراً من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولداً من رجال ونساء ، وكان رحيما بالمساكين ، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم

الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله ، قال وهب وإن لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة ، وهو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبداً بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين ، فاذا شاع ذلك فهم يصلون عليه . ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الأرض . وكان إبليس لم يحجب عن شىء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، ومن هناك وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة . ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع . فكان يصعد بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان نبينا محمد ﷺ فحجب عند ذلك عن جميع السموات إلا من استرق السمع ، قال فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد ، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه ، فقال يارب إنك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك ، فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله . فانقض الملعون حتى وقع إلى الأرض وجمع عفاريت الشياطين ، وقال لهم ماذا عندكم من القوة فإنى سلطت على مال أيوب ؟ قال عفريت أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرقت كل شىء آتى عليه ، فقال إبليس فأت الإبل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لايدنو منها شىء إلا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها ، فذهب إبليس على شكل بعض أولئك الرعاة إلى أيوب فوجده قائماً يصلى ، فلما فرغ من الصلاة قال يا أيوب هل تدرى ما صنع ربك الذى اخترته بإبلك ورعائها ؟ فقال أيوب إنها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه . قال إبليس فإن ربك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها . فمن قائل يقول ماكان أيوب يعبد شيئاً وماكان إلا فى غرور ، ومن قائل يقول لو كان إله أيوب يقدر على شىء لمنع من وليه ، ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه . فقال أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى ، عرياناً خرجت من بطن أمى ، وعرياناً أعود فى التراب ، وعرياناً أحشر إلى الله تعالى ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً وآجرنى فيك ، ولكن الله علم منك شراً فأخرك . فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً . فقال عفريت آخر عندى من القوة ما إذا شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه ، فقال إبليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها . فخرج إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب فقال له القول الأول ورد عليه أيوب الرد الأول ، فرجع إبليس صاغراً . فقال عفريت آخر عندى من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفة أقلع كل شىء أتيت عليه ، قال فاذهب إلى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم رجع إبليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلى ، فقال مثل قوله الأول فرد عليه أيوب الرد الأول ، فجعل

إبليس يصيب أمواله شيئاً فشيئاً حتى أتى على جميعها . فلما رأى إبليس صبره على ذلك وقف الموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى ، وقال يا إلهى هل أنت مسلطى على ولده ، فانها الفتنة المضلة . فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده ، فأتى أولاد أيوب فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ، ثم جاء إلى أيوب متمثلا بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه ، فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رءوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه ، فاغتنم ذلك إبليس ، ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد إبليس ووقف موقفه وقال يا إلهى إنما يهون على أيوب خطر المال والولد ، لعلمه أنك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده وإنى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك ، فقال تعالى انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعاً فوجد أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الأرض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها ، وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره ، ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم بالفخار والحجارة ، ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن ، فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشاً ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره ، ثم إن وهبا طول فى الحكاية إلى أن قال إن أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثاً متضرعاً إليه فقال يارب لأى شىء خلقتنى ياليتنى كنت حيضة ألقتنى أمى ، وياليتنى كنت عرفت الذنب الذى أذنبته ، والعمل الذى عملت حتى صرفت وجهك الكريم عنى ، ألم أكن للغريب داراً ، وللمسكين قراراً ، ولليتيم ولياً ، وللأرملة قيما ، إلهى أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتى ، جعلتنى للبلاء غرضاً ، وللفتنة نصباً ، وسلطت على ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله . إلهى تقطعت أصابعى ، وتساقطت لهواتى ، وتناثر شعرى وذهب المال ، وصرت أسأل اللقمة فيطعمنى من يمن بها على ويعيرنى بفقرى وهلاك أولادى . قال الإمام أبو القاسم الأنصارى رحمه الله ، وفى جملة هذا الكلام : ليتك لو كرهتنى لم تخلقنى ، ثم قال ولو كان ذلك صحيحاً لاغتنمه إبليس ، فإن قصده أن يحمله على الشكوى ، وأن يخرجه عن حلية الصابرين ، والله تعالى لم يخبر عنه إلا قوله (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ثم قال (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) واختلف العلماء فى السبب الذى قال لأجله (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وفى مدة بلائه (فالرواية الأولى) روى ابن شهاب عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إن أيوب عليه السلام بقى فى البلاء ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه ، فقال أحدهما للآخر ذات يوم : والله لقد أذنب أيوب ذنباً

ماأذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ فقال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف مابه . فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عليه السلام ، فقال أيوب ماأدرى ماتقولان ، غير أن الله تعالى يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق . وفى رواية أخرى أن الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحاً فقالا لو كان لأيوب عند الله خير ما بلغ إلى هذه الحالة ، قال فما شق على أيوب شيء مما ابتلى به أشد مما سمع منهما ، فقال اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعاناً وأنا أعلم بمكان جائع فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ، ثم خر أيوب عليه السلام ساجداً ثم قال : اللهم إنى لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى قال فكشف الله مابه (الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعد ماألقى على الكناسة سبع سنين وأشهراً ، ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظباً على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ماابتلاه ، فصرخ إبليس صرخة جزعاً من صبر أيوب ، فاجتمع جنوده من أقطار الأرض وقالوا له ماخبرك ؟ قال : أعيانى هذا العبد الذى سألت الله أن يسلطنى عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولداً ولم يزدد بذلك إلا صبراً وحمداً لله تعالى ، ثم سلطت على جسده فتركته ملقى فى كناسة وما يقربه إلا امرأته ، وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمدلله ، فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له : أين مكرك ! أين عملك الذى أهلكت به من مضى ؟ قال بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا على ، قالوا أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته ؟ قال من قبل امرأته ، قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها لأنه لايقربه أحد غيرها . قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها فى صورة رجل ، فقال أين بعلك ياأمة الله ؟ قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده ، فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كله جزعاً ، فوسوس اليها وذكرها ماكان لها من النعم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه .
قال الحسن رحمه الله فصرخت ، فلما صرخت علم أنها قدجزعت فأتاها بسخلة ، وقال ليذبح هذه لى أيوب ويبرأ ، قال فجاءت تصرخ إلى أيوب ياأيوب حتى متى يعذبك ربك ، ألا يرحمك أين المال ، أين الماشية ، أين الولد ، أين الصديق ، أين اللون الحسن ، أين جسمك الذى قد بلى وصار مثل الرماد ، وتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واسترح ؟ فقال أيوب عليه السلام : أتاك عدو الله ونفخ فيك فأجبتيه ! ويلك أترين ماتبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة ، من أعطانا ذلك ؟ قالت الله . قال فكم متعنا به ؟ قالت ثمانين سنة . قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت منذ سبع سنين وأشهر ، قال ويلك والله ماأنصفت ربك ، ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة . والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة . أمرتينى أن أذبح لغير الله ، وحرام علي أن أذوق بعد هذاشيئاً من طعامك وشرابك الذى تأتينى به ، فطردها فذهبت ، فلما نظر

أيوب فى شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق ، وقد ذهبت امرأته خر ساجداً ، وقال (رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فقال ارفع رأسك فقد استجبت لك (اركض برجلك) فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها ، فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة إلا سقطت منه ، ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج وقام صحيحاً ، وعاد إليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ، ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل والولد والمال ، إلا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان ، حتى ذكر أن الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب ، قال : فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك ؟ قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها ، قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن امرأته قالت هب أنه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعاً وتأكله السباع لأرجعن إليه ، فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وإذا بالأمور قد تغيرت ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك بعين أيوب عليه السلام ، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله ، عنه فأرسل إليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال : ماتريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلي الذى كان ملقى على الكناسة ، فقال لها أيوب عليه السلام : ما كان منك ، فبكت وقالت بعلى ، فقال : أتعرفينه إذا رأيتيه ، قالت وهل يخفى على أحد يراه ! فتبسم وقال أنا هو ، فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال إنك أمرتينى أن أذبح سخلة لإبليس ، وإنى أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد على ماترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقى فى البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه الله بقى فى البلاء ثلاث سنين ، فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب ؟ قالت نعم ، قال فهل تعرفينى ؟ قالت لا ، قال أنا إله الأرض أنا صنعت بأيوب ماصنعت ، وذلك أنه عبد إله السماء وتركنى فأغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع مالكما من مال وولد فان ذلك عندى ، قال وهب وسمعت أنه قال لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم الله تعالى لعوفى مما هو فيه من البلاء ، وفى رواية أخرى بل قال لها لو شئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافى زوجك ، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها ، فقال لها أيوب أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم لئن عافانى الله لأجلدنك مائة جلدة ، وقال عند ذلك (مسنى الضر) يعنى من طمع إبليس فى سجودى له وسجود زوجتى ودعائه إياها وإياى إلى الكفر . (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته ، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئاً من الطعام فلم تجد شيئاً فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك ، فحينئذ قال (مسنى الضر) . (الرواية الخامسة) قال إسماعيل السدى لم يقل أيوب مسنى الضر إلا لأشياء

ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذى كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذى أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت الى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزاً ولحماً فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا ؟ فقالت كل فإنه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث ، وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل ما لم تخبرينى فأخبرته ، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم ، وقيل إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم فى صورة بشر ، وقال لئن تركتم أيوب فى قريتكم فانى أخاف أن يعدى إليكم مابه من العلة فأخرجوه إلى باب البلد ، ثم قال لهم إن امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أماتخافون أن تعدى اليكم علته ، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ماقالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها إلى موضعها ، وقال قد جعلنى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة ، فقال مسنى الضر . فأوحى الله تعالى اليه لولا أنى جعلت تحت كل شعرة منك صبراً لما صبرت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إعلم أن المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال إلى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه ، لقوله تعالى حكاية عنه (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وهذا جهل ، أما أولا فلأنه لو قدر على إحداث الأمراض والأسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الأجسام ، ومن هذا حاله يكون إلهاً ، وأما ثانياً فلأن الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بأنه قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) والواجب تصديق خبر الله تعالى ، دون الرجوع إلى مايروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه . واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف لأن المذكور فى الحكاية أن الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه ، فلم قلتم إن القادر على النفخة التى تولد مثل هذه الحكة لابد وأن يكون قادراً على خلق الأجسام ، وهل هذا إلا محض التحكم ، وأما التمسك بالنص فضعيف لأنه إنما يقدم على هذا الفعل متى علم أنه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه ، وهذه الحالة لم تحصل إلا فى حق أيوب عليه السلام على مادلت الحكاية عليه من أنه استأذن الله تعالى فأذن له فيه ، ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ماروى أنه عليه السلام لم يسأل إلا عند أمور مخصوصة فبعيد ، لأن الثابت فى العقل أنه يحسن من المرء أن يسأل فى ذلك ربه ويفزع إليه كما يحسن منه المداواة ، وإذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من إخوانه وأهله جاز أيضاً أن يسأل ربه من قبل نفسه ، فان قيل أفلا يجوز أنه تعالى تعبده بأن لا يسأل الكشف إلا فى آخر أمره ، قلنا يجوز ذلك بأن يعلمه بأن إنزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لامحالة ، فعلم عليه السلام أنه لا وجه للمسألة فى هذا الأمر الخاص ، فاذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك ، من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض إلى حد التنفير عنه غير

جائز ؛ لأن الأمراض المنفرة من القبول غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل فى هذه الحكاية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قوله تعالى (أنى مسنى الضر) أى ناداه بأنى مسنى الضر ، وقرىء إنى بالكسر على إضمار القول أو لتضمين النداء معناه ، والضر بالفتح الضرر فى كل شىء ، وبالضم الضرر فى النفس من مرض وهزال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنه عليه السلام ألطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب ، فان قيل أليس أن الشكوى تقدح فى كونه صابراً (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا إلى الله تعالى فانه لا يعد ذلك جزعا اذا كان فى شكواه راضياً بقضاء الله تعالى اذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء ، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام (إنما أشكو بثى وحزنى الى الله) أما قوله (وأنت أرحم الراحمين) فالدليل على أنه سبحانه (أرحم الراحمين) أمور (أحدها) أن كل من رحم غيره فاما أن يرحمه طلباً للثناء فى الدنيا أو الثواب فى الآخرة أو دفعاً للرقة الجنسية عن الطبع ، وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه ، أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ، ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال ، فكان سبحانه أرحم الراحمين (وثانيها) أن كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لأن من أعطى غيره طعاما أو ثوباً أو دفع عنه بلاء ، فلولا أنه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والأدوية والأغذية وإلا لما قدر أحد على إعطاء ذلك الشىء ، ثم بعد وصول تلك العطية اليه . فلولا أنه سبحانه جعله سبباً للراحة لما حصل النفع بذلك ، فاذاً رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة فى البحر . فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) أن الله تعالى لو لم يخلق فى قلب العبد تلك الدواعى والإرادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه ، فكان الراحم هو الحق سبحانه ، من حيث إنه هو الذى أنشأ تلك الداعية . فثبت أنه أرحم الراحمين فإن قيل كيف يكون أرحم الراحمين مع أنه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والأسقام والأمراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والإيذاء ، وكان قادراً على أن يغنى كل واحد عن إيلام الآخر وإيذائه ؟(والجواب) أن كونه سبحانه ضاراً لا ينافى كونه نافعاً ، بل هو الضار النافع فإضراره ليس لدفع مشقة وإنفاعه ليس لجلب منفعة ، بل لا يسأل عما يفعل .

أما قوله تعالى (فاستجبنا له) فانه يدل على أنه دعا ربه ، لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعاً منه على سبيل التعريض ، كما يقال إن رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا . ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وإن كان الأليق بالادب وبدلالة الآية هو الأول ، ثم إنه سبحانه بين أنه كشف ما به من ضر وذلك يقتضى إعادته إلى ما كان فى بدنه وأحواله ، وبين الله تعالى أنه آتاه أهله ويدخل

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ «٨٥» وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ «٨٦»

فيه من ينسب إليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب رضى الله عنهم أن الله تعالى أحيا له أهله يعنى أولاده بأعيانهم (والثانى) روى الليث رضى الله عنه ، قال أرسل مجاهد إلى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له إن أهلك لك فى الآخرة فإن شئت عجلناهم لك فى الدنيا ، وإن شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا . فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا . والقول الأول أولى لأن قوله (وآتيناه أهله) يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم فى الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضاً .

وأما قوله تعالى (وذكرى للعابدين) ففيه دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكى يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين فى الصبر والاحتساب ، وإنما خص العابدين بالذكر [ى] لأنهم يختصون بالانتفاع بذلك .

(القصة السابعة)

قوله تعالى ﴿ وإسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه إليه أتبعه بذكر هؤلاء فإنهم كانوا أيضاً من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة ، أما إسمعيل عليه السلام فلأنه صبر على الإنقياد للذبح ، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء ، وصبر فى بناء البيت ، فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج صلبه خاتم النبيين ، وأما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم عليها السلام ، قال ابن عمر رضى الله عنهما « بعث إلى قومه داعياً لهم إلى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع إدريس إلى السماء الرابعة » وأما ذوا الكفل ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيها بحثان :

﴿ الأول ﴾ قال الزجاج الكفل فى اللغة الكساء الذى يجعل على عجز البعير ، والكفل أيضاً النصيب واختلفوا فى أنه لم سمى بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين أنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام فى زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية « إن نبياً من أنبياء بنى اسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله إليه أنى أريد قبض روحك ، فاعرض ملكك على بنى اسرائيل ، فمن تكفل لك أنه يصلى بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ، ويقضى بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك إليه . فقام ذلك النبى فى بنى إسرائيل

وأخبرهم بذلك ، فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا . فقال فى القوم من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع إليه ملكه ، ووفى بما ضمن . فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل . فقال إن لى غريماً قد مطلنى حقى وقد دعوته إليك فأبى فأرسل معى من يأتيك به ، فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد إلى صلاته وصلى ليله إلى الصباح ، ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال إن الرجل الذى استأذنتك له فى موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به ، فذهب وبقى منتظراً حتى فاتته القيلوله ، ثم أتاه فقال له هرب منى فمضى ذو الكفل إلى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح ، فأتاه ابليس وعرفه نفسه ، وقال له حسدتك على عصمة الله إياك فاردت أن أخرجك حتى لا تفى بما تكفلت به . فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه ، فسمى ذا الكفل » وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام ، قال لو أنى استخلفت رجلا على الناس فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل ، فجمع الناس وقال من يتقبل منى حتى استخلفه ثلاثاً يصلى بالليل ويصوم بالنهار ويقضى فلا بغضب ، وذكر على كرم الله وجهه نحو ماذكره ابن عباس رضى الله عنه من فعل إبليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام . وزاد أن ذا الكفل قال للبواب فى اليوم الثالث قد غلب على النعاس فلا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق على النعاس ، فجاء إبليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة فى البيت وتسور فيها فإذا هو يدق الباب من داخل ، فاستيقظ الرجل وعاتب البواب . فقال أما من قبلى فلم تؤت . فقام إلى الباب فاذا هو مغلق وإبليس على صورة شيخ معه فى البيت . فقال له أتنام والخصوم على الباب. فعرفه فقال أنت إبليس قال نعم أعييتنى فى كل شئ . ففعلت هذه الأفعال لأغضبك فعصمك الله منى. فسمى ذا الكفل لأنه قد وفى بما تكفل به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً ، وقال الحسن والأكثرون إنه من الأنبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه (أحدها) أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقباً وأن يكون اسماً ، والأقرب أن يكون مفيداً ، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب . إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم ، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمى بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان فى زمنه أنبياء على ماروى ومن ليس بنبى لا يكون أفضل من الأنبياء (وثانيها) أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسمعيل وإدريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره لله تعالى فيها فهو نبى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل إن ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل إلياس ، ثم قالوا خمسة من الأنبياء سماهم الله تعالى باسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «٨٧» فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ «٨٨»

وذوالنون ، محمد وأحمد .

وأما قوله تعالى (كل من الصابرين) أى على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الأذى فى نصرة دينه . وقوله (وأدخلناهم فى رحمتنا) قال مقاتل : الرحمة النبوة ، وقال آخرون بل يتناول جميع أعمال البر والخير .

(القصة الثامنة ـ قصة يونس عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ إعلم أن ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه لاخلاف فى أن ذا النون هو يونس عليه السلام لأن النون هو السمكة ، وقد ذكرنا أن الإسم إذا دار بين أن يكون لقباً محضاً وبين أن يكون مفيداً ، فحمله على المفيد أولى ، خصوصاً إذا علمت الفائدة التى يصلح لها ذلك الوصف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده (أما القول الأول) فقال ابن عباس رضى الله عنه : كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً ، وبقى سبطان ونصف . فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبى عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبياً قوياً أميناً فإنى ألقى فى قلوب أولئك أن يرسلوا معه بنى إسرائيل . فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال يونس بن متى فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس : هل أمرك الله باخراجى ؟ قال لا ، قال فهل سمانى لك ؟ قال لا قال فههنا أنبياء غيرى ، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيأوا سفينة فركب معهم فلما تلججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا ، فقال الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لأن السفينة لاتفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاص ، ومن رسمنا أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ، ولأن يغرق [و]احد خير من أن تغرق السفينة ، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام ، فقال أنا

الرجل العاصى والعبد الآبق ، وألقى نفسه فى البحر فجاء حوت فابتلعه ، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة . فانى جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً لك ، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد ، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد . فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له : أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون . حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم . ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام ، وقال لملكهم إن الله تعالى أرسلنى إليك لترسل معى بنى إسرائيل ، فقالوا ما نعرف ما تقول ، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا ، ولقد أتيناكم فى دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم ، فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى إليه : قل لهم إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب فأبلغهم فأبوا ، فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ، ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا فى دينهم ، فقالوا انظروا واطلبوه فى المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شىء ، وإن كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم إنه خرج العشى فلما آيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات ، ثم قاموا ينتظرون الصبح . فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما فى بطونها ، وصاح الصبيان وثغت الأغنام والبقر ، فرفع الله تعالى عنهم العذاب ، فبعثوا إلى يونس عليه السلام وآمنوا به ، وبعثوا معه بنى إسرائيل . فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، ودليل هذا القول قوله تعالى فى سورة الصافات (فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون) وفى هذا القول رواية أخرى وهى أن جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق إلى أهل نينوى وأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ، فقال يونس عليه السلام ألتمس دابة فقال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى السفينة ، وباقى الحكاية كما مرت إلى أن التقمه الحوت فانطلق إلى أن وصل إلى نينوى فألقاه هناك .

(أما القول الثانى) وهو أن قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا إنهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب ، فلما كشف العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضباً ، ثم ذكروا فى سبب الخروج والغضب أموراً (أحدها) أنه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) أنه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) أنه دخلته الأنفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب بأولئك ، وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضباً بعد أن أرسله الله تعالى اليهم ، وبعد رفع العذاب عنهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القائلون بجواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من

وجوه (أحدها) أن أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضباً لربه ويقال ، هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبى وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم أن مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب ، ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضاً كان محظوراً لأن الله تعالى قال (فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت) وذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس كان محظوراً (وثانيها) قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) وذلك يقتضى كونه شاكا فى قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله (إنى كنت من الظالمين) والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) (ورابعها) أنه لولم يصدر منه الذنب ، فلم عاقبه الله بأن ألقاه فى بطن الحوت (وخامسها) قوله تعالى فى آية أخرى (فالتقمه الحوت وهو مليم) والمليم هو ذو الملامة ، ومن كان كذلك فهو مذنب (وسادسها) قوله (ولا تكن كصاحب الحوت) فان لم يكن صاحب الحوت مذنباً لم يجز النهى عن التشبه به وإن كان مذنباً فقد حصل الغرض (وسابعها) أنه قال (ولا تكن كصاحب الحوت) وقال (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فلزم أن لا يكون يونس من أولى العزم وكان موسى من أولى العزم ، ثم قال : فى حقه لو كان ابن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعى ، وقال : فى يونس «لا تفضلونى على يونس بن متى» وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب) عن الأول أنه ليس فى الآية من غاضبه ، لكننا نقطع على أنه لا يجوز على نبى الله أن يغاضب ربه ؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهى والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلا عن أن يكون نبياً ، وأما ما روى أنه خرج مغاضباً لأمر يرجع إلى الاستعداد ، وتناول النفل فمما يرتفع حال الأنبياء عليهم السلام عنه . لأن الله تعالى إذا أمرهم بشىء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) إلى قوله (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) فاذا كان فى الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم ، وإذا ثبت أنه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى ، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضباً لغير الله ، والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أوهما جميعاً ، ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها ، وقرأ أبو شرف مغضباً .

أما قوله مغاضبة القوم أيضاً كانت محظورة لقوله تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) فلنا لا نسلم أنها كانت محظورة ، فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم ، وما أمره بأن يبقى معهم أبداً فظاهر الأمر لا يقتضى التكرار ، فلم يكن خروجه من بينهم معصية ، وأما الغضب فلا نسلم أنه معصية وذلك لأنه لما لم يكن منهياً عنه قبل ذلك فظن أن ذلك جائز ، من حيث إنه لم يفعله إلا غضباً لله تعالى وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، بل كان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله

تعالى فى المهاجرة عنهم ، ولهذا قال تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) كأن الله تعالى أراد لمحمد ﷺ أفضل المنازل وأعلاها (والجواب) عن الشبهة الثانية وهى التمسك بقوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) أن نقول من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين ، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام فاذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه : (أحدها) (فظن أن لن نقدر عليه) لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى يضيق (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) أى ضيق ومعناه أن لن نضيق عليه ، واعلم أن على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا ، وذلك لأن يونس عليه السلام ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج ، وأنه تعالى لا يضيق عليه فى اختياره ، وكان فى المعلوم أن الصلاح فى تأخر خروجه ، وهذا من الله تعالى بيان لما يجرى مجرى العذر له من حيث خرج ، لا على تعمد المعصية لكن لظنه أن الأمر فى خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر ، وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله تعالى (وثالثها) أن تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضى عليه بشدة ، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبى ، ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج ، قال الزجاج نقدر بمعنى نقدر . يقال قدر الله الشيء قدراً وقدره تقديراً ، فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبدالعزيز والزهرى (فظن أن لن نقدر عليه) بضم النون والتشديد من التقدير ، وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب (يقدر عليه) بالتخفيف على المجهول ، وروى أنه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه ، فقال معاوية لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصاً إلا بك فقال : وما هى ؟ قال : يظن نبى الله أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لا من القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أى فظن أن لن نفعل لأن بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازاً عن الآخر (وخامسها) أنه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) أن على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ، ولا يبعد فى حق غير الأنبياء والرسل أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان . ثم إنه يرده بالحجة والبرهان (والجواب) عن الثالث وهو التمسك بقوله (إنى كنت من الظالمين) فهو أن نقول إنا لو حملناه على ما قبل النبوة فلا كلام ، ولو حملناه على ما بعدها فهى واجبة التأويل لأنا لو أجريناها على ظاهرها ، لوجب القول بكون النبى مستحقاً للعن ، وهذا لا يقوله مسلم . وإذا وجب التأويل فنقول لا شك أنه كان تاركا للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلما (والجواب) عن الرابع أنا لا نسلم أن ذلك كان عقوبة إذ الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، بل المراد به المحنة . لكن كثير من المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل

لأجل ذنب أنها عقوبة (والجواب) عن الخامس أن الملامة كانت بسبب ترك الأفضل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال صاحب الكشاف فى الظلمات أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات) وقوله (يخرجونهم من النور الى الظلمات) ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ، وإن كان فى النهار أضيف إليه ظلمة أمعاء الحوت ، أو أن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه ، أو لأن الحوت اذا عظم غوصه فى قعر البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة فى ظلمة ، أما قول من قال إن الحوت الذى ابتلعه غاص فى الأرض السابعة فان ثبت ذلك بخبر فلا كلام ، وإن قيل بذلك لكى يقع نداؤه فى الظلمات فما قدمناه يغنى عن ذلك .

أما قوله : (أن لا إله إلا أنت) فالمعنى بأنه لا إله إلا أنت ، أو بمعنى أى ، عن النبى ﷺ أنه قال « مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له » وعن الحسن : مانجاه الله تعالى إلا بإقراره عن نفسه بالظلم .

أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز ، وهذا يدل على أنه ماكان مراده من قوله (فظن أن لن نقدر عليه) أنه ظن العجز . وإنما قال (سبحانك) لأن تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جوراً أو شهوة للانتقام ، أو عجزاً عن تخليصى عن هذا الحبس ، بل فعلته بحق الإلهية وبمقتضى الحكمة .

أما قوله (إنى كنت من الظالمين) فالمعنى ظلمت نفسى بفرارى من قومى بغير إذنك ، كأنه قال كنت من الظالمين ، وأنا الآن من التائبين النادمين ، فاكشف عنى المحنة . يدل عليه قوله (فاستجبنا له) وفيه وجه آخر وهو أنه عليه السلام وصفه بقوله (لا إله إلا أنت) بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله (إنى كنت من الظالمين) بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية ، وهذا القدر يكفى فى السؤال على ما قال المتنبى :

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبى ﷺ قال « لما أراد الله حبس يونس عليه السلام ، أوحى إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً » فأخذه وهوى به إلى أسفل البحر ، فسمع يونس عليه السلام حساً ، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر ، قال فسبح ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا مثله .

أما قوله (فنجيناه من الغم) أى من غمه بسبب كونه فى بطن الحوت ، وبسبب خطيئته ، وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس إذ دعانا (كذلك ننجى المؤمنين) من كربهم إذا استغاثوا بنا . روى سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ قال « دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين ، مادعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب إلا استجاب الله دعاءه »

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ «٨٩» فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ «٩٠»

قال صاحب الكشاف قرئ ننجى وننجى ونجى والنون لا تدغم فى الجيم ، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين فارسل الياء وأسنده إلى مصدره ، ونصب المؤمنين بالنجاء ، فتعسف بارد التعسف .

(القصة التاسعة — قصة زكريا عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾

إعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده ، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائماً مقامه بعد موته ، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك ، وإن انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك بحكم العادة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعاً وتسعين .

أما قوله (وأنت خير الوارثين) ففيه وجهان (أحدهما) أنه عليه السلام إنما ذكره فى جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بأن مآل الأمور إلى الله تعالى (والثانى) كأنه عليه السلام قال « إن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث » .

وأما قوله تعالى (فاستجبنا له) أى فعلنا ما أراده لأجل سؤاله ، وفى ذلك إعظام له ، فلذلك تقول العلماء بأن الاستجابة ثواب لما فيه من الإعظام .

وأما قوله تعالى (ووهبنا له يحي) فهو كالتفسير للاستجابة وفى تفسير قوله (وأصلحنا له زوجه) ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة ، وهذا أليق بالقصة (والثانى) أنه أصلحها فى أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه سبحانه جعلها مصلحة فى الدين ، فان صلاحها فى الدين من أكبر أعوانه فى كونه داعياً إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام . سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعاً ، وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل أصلح الله فلاناً فالأظهر فيه ما يتصل بالدين ، واعلم أن قوله (ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه) يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب

وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ «٩١»

لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره فى اللفظ وبين تعالى مصداق ماذكرناه فقال (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ماطلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون فى الخيرات ، والمسارعة فى طاعة الله تعالى من أكبر مايمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة .

أما قوله تعالى (ويدعوننا رغباً ورهباً) قرئ رُغباً ورهباً وهو كقوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه (والثانى) الخشوع وهو المخافة الثابتة فى القلب ، فيكون الخاشع هو الحذر الذى لاينبسط فى الأمور خوفاً من الإثم .

(القصة العاشرة — قصة مريم عليها السلام)

قوله تعالى ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾

إعلم أن التقدير واذكر التى أحصنت فرجها ، ثم فيه قولان (أحدهما) أنها أحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً) (والثانى) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ.

وأما قوله (فنفخنا فيها من روحنا) فلقائل أن يقول : نفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) أى أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله (فنفخنا فيها من روحنا) ظاهر الأشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه فنفخنا الروح فى عيسى فيها ، أى أحييناه فى جوفها كما يقول الزمار نفخت فى بيت فلان أى فى المزمار فى بيته (وثانيها) فعلنا النفخ فى مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها ثم بين تعالى بأخصر الكلام ماخص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال (وجعلناها وابنها آية للعالمين) أما مريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة (وثانيها) أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى (أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله) (وثالثها ورابعها) قال الحسن إنها لم تلتقم ثديا يوما قط وتكلمت هى أيضاً فى صباها كما تكلم عيسى عليه السلام ، وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه أنه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ «٩٢» وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ «٩٣»

وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) ؟ قلنا لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهى ولادتها إياه من غير فحل . وههنا آخر القصص .

قوله تعالى ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾ .

قال صاحب الكشاف الأمة الملة وهو إشارة إلى ملة الإسلام ، أى أن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها يشار إليها بملة واحدة غير مختلفة ، وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون . ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبراً وعنه رفعهما جميعاً خبرين أو نوى للثانى المبتدأ .

أما قوله تعالى (وتقطعوا أمرهم بينهم) والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء . والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشىء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى .

أما قوله تعالى (كل إلينا راجعون) فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تفرقت بنو اسرائيل على إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فتهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة ، قالوا يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية ؟ قال الجماعة الجماعة الجماعة » فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى (وأن هذه أمتكم) الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى فى هذه السورة من التوحيد والنبوات ، وأن فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناجية إنها الجماعة إشارة إلى أن هذه أشار بها إلى أمة الإيمان وإلا كان قوله فى تعريف الفرقة الناجية إنها الجماعة لغواً إذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق إلا وهى جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم فى صحة هذا الخبر ، فقال إن أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الأديان فلم يبلغ هذا القدر ، وإن أراد الفروع فانها تتجاوز هذا القدر إلى أضعاف ذلك ، وقيل أيضاً قد روى ضد ذلك ، وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتى فى حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها فى سائر الأحوال لا يجوز أن يزيد وينقص .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ «٩٤» وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ «٩٥» حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ «٩٦» وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ «٩٧»

قوله تعالى ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الأمة من قبل وذكر تفرقهم وأنهم أجمع راجعون إلى حيث لا أمر إلا له أتبع ذلك بقوله (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين أن من جمع بين أن يكون مؤمناً وبين أن يعمل الصالحات فيدخل فى الأول العلم والتصديق بالله ورسوله وفى الثانى فعل الواجبات وترك المحظورات (فلا كفران لسعيه) أى لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) فالكفران مثل فى حرمان الثواب والشكر مثل فى إعطائه وقوله (فلا كفران) المراد نفى الجنس ليكون فى نهاية المبالغة لأن نفى الماهية يستلزم نفى جميع أفرادها .

وأما قوله تعالى (وإنا له كاتبون) فالمراد وإنا لسعيه كاتبون ، فقيل المراد حافظون لنجازى عليه ، وقيل كاتبون إما فى أم الكتاب أو فى الصحف التى تعرض يوم القيامة ، والمراد بذلك ترغيب العباد فى التمسك بطاعة الله تعالى .

أما قوله (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) فاعلم أن قوله (وحرام) خبر فلا بد له من مبتدأ وهو إما قوله (أنهم لا يرجعون) أو شىء آخر أما الأول فالتقدير أن عدم رجوعهم حرام أى ممتنع وإذا كان عدم رجوعهم ممتنعاً كان رجوعهم واجباً فهذا الرجوع إما أن يكون المراد منه الرجوع إلى الآخرة أو إلى الدنيا (أما الأول) فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الحياة فى الدار الآخرة واجب ، ويكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث ، وتحقيق ما تقدم أنه لا

كفران لسعى أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبي مسلم بن بحر . (وأما الثاني) فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الدنيا واجب لكن المعلوم أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الأول) أن الحرام قد يجيء بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أما الآية فقوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً) وترك الشرك واجب وليس بحرم ، وأما الشعر فقول الخنساء :

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً على شجـــوه إلا بكيت على عمرو

يعنى وإن واجباً ، وأما الاستعمال فلأن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) إذا ثبت هذا فالمعنى أنه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون . ثم ذكروا فى تفسير الرجوع أمرين : (أحدهما) أنهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيهما) لا يرجعون إلى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثاني) أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل فى قوله (لا يرجعون) صلة زائدة كما أنه صلة فى قوله (ما منعك أن لا تسجد) والمعنى وحرام على قرية أهلكناها رجوعهم إلى الدنيا وهو كقوله (فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الأيمان ، وهذا قول طائفة من المفسرين ، وهذا كله إذا جعلنا قوله وحرام خبراً لقوله (أنهم لا يرجعون) أما إذا جعلناه خبراً لشيء آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك ، وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ثم علل فقال (أنهم لا يرجعون) عن الكفر فكيف لا يمتنع ، ذلك هذا على قراءة إنهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضاً على هذا أى أنهم لا يرجعون .

أما قوله تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن حتى متعلقة بحرام فأما على تأويل أبي مسلم فالمعنى أن رجوعهم إلى الآخرة واجب حتى أن وجوبه يبلغ إلى حيث أنه إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ، والمعنى أنهم يكونون أول الناس حضوراً فى محفل القيامة . فحتى متعلقة بحرام وهى غاية له ولكنه غاية من جنس الشيء كقولك دخل الحاج حتى المشاة . وحتى ههنا هى التى يحكى بعدها الكلام ، والكلام المحكى هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعنى قوله (إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب الوعد الحق) فهناك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا ، وذلك غير جائز لأن الشرط إنما يحصل فى آخر أيام الدنيا والجزاء إنما يحصل فى يوم القيامة ، والشرط والجزاء لا بد وأن يكونا متقاربين ، قلنا التفاوت القليل يجرى مجرى المعدوم . وأما على التأويلات الباقية فالمعنى أن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم الساعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (حتى إذا فتحت) المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وأدخلت علامة التأنيث فى فتحت لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين ، وقيل حتى إذا فتحت جهة يأجوج .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هما قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء . وقيل بل إذا جعل الله تعالى الأرض دكا زالت الصلابة عن أجزاء الأرض فحينئذ ينفتح السد .

أما قوله تعالى (وهم من كل حدب ينسلون) فحشو فى أثناء الكلام ، والمعنى إذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا ، والحدب النشز من الأرض ، ومنه حدبة الأرض ، ومنه حدبة الظهر ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما من كل جدث ينسلون ، اعتباراً بقوله (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) وقرىء بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان ، قال أكثر المفسرين إنه كناية عن يأجوج ومأجوج ، وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أى يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون إلى موقف الحساب ، والأول هو الأوجه وإلا لتفكك النظم ، وأن يأجوج ومأجوج إذا كثروا على ما روى فى الخبر ، فلا بد من أن ينشروا فيظهر إقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع .

أما قوله تعالى (واقترب الوعد الحق) فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة .

أما قوله (فإذا هى) فاعلم أن إذا ههنا للمفاجأة فسمى الموعد وعداً تجوزاً ، وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله (إذا هم يقنطون) فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل (إذا هى شاخصة) أو فهى شاخصة كان سديداً . أما لفظة (هى) فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الأبصار ، والمعنى فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثانى) أن تكون عماداً ويصلح فى موضعها هو فيكون كقوله (إنه أنا الله) ومثله (فانها لا تعمى الأبصار) وجاز التأنيث لأن الأبصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء ، وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة ، يعنى أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ، ومعنى الكلام أن القيامة إذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الأهوال ، فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ، ومن توقع ما يخافونه ، ويقولون (يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يعنى فى الدنيا حيث كذبناه وقلنا إنه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الأوثان ، واعلم أنه لابد قبل قوله ياويلنا من حذف والتقدير يقولون ياويلنا .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ «٩٨» لَوْ كَانَ هٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ «٩٩» لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ «١٠٠»

قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾

إعلم أن قوله (إنكم) خطاب لمشركى مكة وعبدة الأوثان .

أما قوله تعالى (وما تعبدون من دون الله) روى أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية فأقبل عبدالله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه ، فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك ؟ قال نعم ، قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنوا مليح عبدوا الملائكة (١) ثم روى فى ذلك روايتان (إحداها) أن رسول الله ﷺ سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) ونزل فى عيسى والملائكة (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) أنه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فأنزل الله سبحانه (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية يعنى عزيراً والمسيح والملائكة واعلم أن سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله (إنكم) خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط (وثانيها) أنه لم يقل ومن تعبدون بل قال ما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء .

أما قوله تعالى (والسماء وما بناها) وقوله (لا أعبد ما تعبدون) فهو محمول على الشىء ونظيره ههنا أن يقال إنكم والشىء الذى تعبدون من دون الله لكن لفظ الشىء لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) أن من عبد الملائكة لا يدعى أنهم آلهة ، وقال سبحانه (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) (ورابعها) هب أنه ثبت العموم لكنه

---

١) لهذا الخبر تتمة ، وهى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رد على ابن الزبعري حينئذ بقوله ، ما أجهلك بلغة قومك ! ما لما لايعقل ، أي ان العرب جعلوا من للعقلاء وما لغيرهم وعزير والأنبياء والملائكة من العقلاء فلا يشار إليهم بما .

مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية فى حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصى ، ووعد الله إياهم بكل مكرمة ، وهذا هو المراد من قوله سبحانه (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) (وخامسها) الجواب الذى ذكره رسول الله ﷺ وهو أنهم كانوا يعبدون الشياطين ، فإن قيل الشياطين عقلاء ، ولفظ مالا يتناولهم فكيف قال الرسول ﷺ ذلك ؟ قلنا كأنه عليه السلام قال : لو ثبت لكم أنه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضاً غير لازم من هذا الوجه . وأما ماقيل إنه عليه السلام سكت عند إيراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لأنه لاأقل من أنه عليه السلام كان يتنبه لهذه الأجوبة التى ذكرها المفسرون ، لأنه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن ، فكيف يجوز أن تظهر هذه الأجوبة لغيره ، ولا يظهر شىء منها له عليه السلام . فإن قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظاراً للبيان قلنا لما كان البيان حاضراً معه لم يجز عليه السكوت لكى لايتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم . ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال إن الله تعالى يصور لهم فى النار ملكا على صورة من عبدوه ، وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم أن هذا ضعيف من وجهين (الأول) أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئاً آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهو أن الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وإن صح أن يدخلها ، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الحكمة فى أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) أنهم لايزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة ، لأنهم ما وقعوا فى ذلك العذاب إلا بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب(١) (وثانيها) أن القوم قدروا أنهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب ، فاذا وجدوا الأمر على عكس ماقدروا لم يكن شىء أبغض إليهم منهم (وثالثها) أن إلقاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ما كان منها حجراً أو حديداً يحمى ويلزق بعبادها ، وما كان خشباً يجعل جمرة يعذب بها صاحبها .

أما قوله تعالى (حصب جهنم) فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشىء فلما رمى بها كرمى الحصباء ، جعلهم حصب جهنم تشبيهاً ، قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وقرىء بسكون الصاد وصفاً بالمصدر ، وقرىء حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكناً .

أما قوله تعالى (أنتم لها واردون) فإنما جاز مجىء اللام فى لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم) (والذين هم لفروجهم) أى أنتم فيها داخلون ، والمعنى أنه لابد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها .

أما قوله تعالى (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها) فاعلم أن قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) بالأصنام أليق لدخول لفظة ما ، وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد

---

(١) قال أبو الطيب المتنبى فى هذا المعنى : واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ «١٠١» لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ «١٠٢» لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ

الشياطين والأصنام فيغلب بأن يذكروا بعبارة العقلاء ، ونبه الله تعالى على أن من يرمى إلى النار لا يمكن أن يكون إلهاً . وههنا سؤال ، وهو أن قوله (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة ، وهذه الحجة إما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره ، فان ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لأنه كان عالماً بأنها ليست آلهة وإن ذكرها لغيره ، فاما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته ، فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة لأن كل من صدق بنبوته لم يقل بإلهية هذه الأصنام وإن ذكرها لمن يكذب بنبوته ، فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه فى ذلك ، فكان ذكر هذه الحجة ضائعاً كيف كان ، وأيضاً فالقائلون بآلهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم وإلا لكانوا مجانين ، بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء ، وذلك لا يمنع من دخولها فى النار (وأجيب) عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعنى الأصنام آلهة على الحقيقة ماوردوها أى مادخل عابدوها النار ، ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة (أحدها) الخلود فقال (وكل فيها خالدون) يعنى العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) (وثانيها) قوله (لهم فيها زفير) قال الحسن الزفير هو اللهيب ، أى يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفاً ، قال الخليل : الزفير أن يملأ الرجل صدره غماً ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم : عام لكل معذب ، فنقول لهم زفير من شدة ما ينالهم والضمير فى قوله (وهم فيها يسمعون) يرجع إلى المعبودين أى لا يسمعون صراخهم وشكواهم (ومعناه) أنهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده أى أجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله (وهم فيها لا يسمعون) وفيه وجهان : (أحدهما) أنه محمول على الأصنام خاصة على ما حكيناه عن أبى مسلم (والثانى) أنها محمولة على الكفار ، ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن الكفار يحشرون صماً كما يحشرون عمياً زيادة فى عذابهم (وثانيها) أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود إن الكفار يجعلون فى توابيت من نار والتوابيت فى توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئاً والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى فى سورة الأعراف .

قوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى

وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ «١٠٣»

كنتم توعدون ﴾ .

اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول ﷺ بقى ساكتاً حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لأن هذه الآية كالإستثناء من تلك الآية . وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا أن سؤاله لم يكن وارداً، وأنه لا حاجة فى دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية ، وإذا ثبت هذا لم يبق ههنا إلا أحد أمرين (الأول) أن يقال إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار ، فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهى عامة فى حق كل المؤمنين (الثانى) أن هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتأكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ، ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها ، لا أن الآية مختصة بهم ، ومن قال : العبرة بخصوص السبب خصص قوله (إن الذين) بهؤلاء فقط .

أما قوله تعالى (سبقت لهم منا الحسنى) فقال صاحب الكشاف : الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الأحسن ، وهى إما السعادة وإما البشرى بالثواب ، وإما التوفيق للطاعة . والحاصل أن مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أموراً خمسة : (أحدها) قوله (أولئك عنها مبعدون) فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون ، واحتجوا عليه بوجهين (الأول) قوله (وإن منكم إلا واردها) أثبت الورود وهو الدخول ، فدل على أن هذا الابعاد هو الإخراج (الثانى) أن أبعاد الشىء عن الشىء لا يصح إلا إذا كانا متقاربين لأنهما لو كانا متباعدين استحال إبعاد أحدهما عن الآخر ، لأن تحصيل الحاصل محال ، واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الأول بأمور (أحدها) أن قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) يقتضى أن الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك (وثانيها) أنه تعالى قال (أولئك عنها مبعدون) وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى (لا يسمعون حسيسها) وقوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) يمنع من ذلك (والجواب) عن الأول لا نسلم أن يقال المراد من قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم . ولم لا يجوز أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو ، سلمنا أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب ، لكن لم قلتم إن الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) أنا بينا أن قوله (أولئك عنها مبعدون) لا يمكن إجراؤه على ظاهره إلا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) أن قوله (لا يسمعون حسيسها) مخصوص بما بعد الخروج .

يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا

أما قوله (لايحزنهم الفزع الأكبر) فالفزع الأكبر هو عذاب الكفار ، وهذا بطريق المفهوم يقتضى أنهم يحزنهم الفزع الأصغر ، فان لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه (الوجه الثانى) فى تفسير قوله (أولئك عنها مبعدون) أن المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لايدخلون النار ولا يقربونها البتة ، وعلى هذا القول بطل قول من يقول إن جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة ، لأن هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله (وإن منكم إلا واردها) وقد تقدم . (الصفة الثانية) قوله تعالى (لا يسمعون حسيسها) والحسيس الصوت الذى يحس ، وفيه سؤالان (الأول) أى وجه فى أن لايسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعوه لم يتغير حالهم . قلنا المراد تأكيد بعدهم عنها لأن من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثانى) أليس أن أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار ؟ (الجواب) إذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال . (الصفة الثالثة) قوله (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) والشهوة طلب النفس للذة يعنى نعيمها مؤبد ، قال العارفون للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللأرواح شهوة . وقال الجنيد : سبقت العناية فى البداية ، فظهرت الولاية فى النهاية . (الصفة الرابعة) قوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وفيه وجوه (أحدها) أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) (ثانيها) أنه الموت قالوا اذا استقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت فى صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادى ياأهل الجنة خلود ولا موت أبداً ، وكذلك لأهل النار . واحتج هذا القائل بأن قوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) إنما ذكر بعد قوله (وهم فيها خالدون) فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر ، والفزع الأكبر الذى هو ينافى الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو إطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة ، قال القاضى عبدالجبار : الأولى فى ذلك إنه الفزع من النار عند مشاهدتها لأنه لا فزع أكبر من ذلك ، فاذا بين تعالى أن ذلك لايحزنهم فقد صح أن المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة ، وهذا ضعيف لأن عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق ، واذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة ، فلا يلزم من نفى الفزع الأكبر نفى الفزع من النار . (الصفة الخامسة) قوله (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين (هذا يومكم الذى كنتم توعدون)

قوله تعالى ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا

عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ «١٠٤» وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ «١٠٥» إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ «١٠٦»

كنا فاعلين ، ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

اعلم أن التقدير لايحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوى السماء ، أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوى السماء . وقرىء يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل بوزن العتل والسجل بوزن الدلو وروى فيه الكسر ، وفى السجل قولان (أحدهما) أنه اسم للطومار الذى يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ، ومن جمع فمعناه للمكتوبات أى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، فيكون معنى طى السجل للكتاب كون السجل ساتراً لتلك الكتابة ومخفياً لها لأن الطى ضد النشر الذى يكشف والمعنى نطوى السماء كما يطوى الطومار الذى يكتب فيه .

(القول الثانى) أنه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما : السجل اسم ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه ، وهو مروى عن على عليه السلام . وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه إسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بعيد ؛ لأن كتاب رسول الله ﷺ كانوا معروفين وليس فيهم من سمى بهذا ، وقال الزجاج : هو الرجل بلغة الحبشة ، وعلى هذه الوجوه فهو على نحو مايقال كطى زيد الكتاب واللام فى للكتاب زائدة كما فى قوله ردف لكم ، وإذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطى مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطى الطاوى السجل ، وهذا الأخير هو قول الأكثرين .

أما قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الفراء : انقطع الكلام عند قوله الكتاب ثم ابتدأ فقال (كما بدأنا) ومنهم من قال إنه تعالى لما قال (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) عقبه بقوله (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) فوصف اليوم بذلك ، ثم وصفه بوصف آخر فقال : (كما بدأنا أول خلق نعيده) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف رحمه الله (أول خلق) مفعول (نعيد) الذى يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للاعادة بالابتداء ، فان قلت ما بال خلق منكراً ؟ قلت هو كقولك أول رجل جاءنى زيد ، تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى كيفية الاعادة فمنهم من قال إن الله تعالى يفرق أجزاء الأجسام ولا يعدمها ثم إنه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة ، ومنهم من قال إنه تعالى يعدمها بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دلالة على هذا الوجه لأنه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء . ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم ، وجب أن يكون الحال فى الإعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الأول بقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) فدل هذا على أن السموات حال كونها مطوية تكون موجودة ، وبقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وهذا يدل على أن أجزاء الأرض باقية لكنها جعلت غير الأرض .

أما قوله تعالى (وعداً علينا) ففيه قولان : (أحدهما) أن وعداً مصدر مؤكد لأن قوله (نعيده) عدة للاعادة (الثانى) أن يكون المراد حقاً علينا بسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ، ثم إنه تعالى حقق ذلك بقوله (إنا كنا فاعلين) أى سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد .

أما قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها يعنى المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب أى كتبته والزبور بضم الزاى جمع زبر كقشر وقشور ، ومعنى القراءتين واحد لأن الزبر هو الكتاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الزبور والذكر وجوه : (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبى ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذى هو أم الكتاب فى السماء ، لأن فيها كتابة كل ما سيكون اعتباراً للملائكة وكتب الأنبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبى (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام ، والذكر هو الذى يروى عنه عليه السلام ، قال : كان الله تعالى ولم يكن معه شىء ، ثم خلق الذكر . وعندى فيه (وجه رابع) وهو أن المراد بالذكر العلم أى كتبنا ذلك فى الزبور بعد أن كنا عالمين علماً لا يجوز السهو والنسيان علينا ، فإن من كتب شيئاً والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه ، أما من لم يجز عليه السهو والخلف فاذا التزم شيئاً كان ذلك الشىء واجب الوقوع .

أما قوله تعالى (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ففيه وجوه : (أحدها) الأرض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى فالمعنى أن الله تعالى كتب فى كتب الأنبياء عليهم السلام وفى اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحاً من عباده وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وأبى العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور : (أما أولا) فقوله تعالى (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر

العاملين) ، (وأما ثانياً) فلأنها الأرض التى يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصل معهم فى الجنة فعلى وجه التبع ، فأما أرض الدنيا فلأنها للصالح وغير الصالح (وأما ثالثاً) فلأن هذه الأرض مذكورة عقيب الاعادة وبعد الاعادة الأرض التى هذا وصفها لا تكون إلا الجنة (وأما رابعا) فقد روى فى الخبر أنها أرض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) أن المراد من الأرض أرض الدنيا فانه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين فى الدنيا وهو قول الكلبى وابن عباس فى بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه (وعد الله الذين أمنوا) إلى قوله (ليستخلفنهم فى الأرض) وقوله تعالى (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من من يشاء من عباده) (وثالثها) هى الأرض المقدسة يرثها الصالحون ، ودليله قوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) ثم بالآخرة يورثها أمة محمد ﷺ عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام .

أما قوله تعالى (إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين) فقوله هذا إشارة الى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وماتبلغ به البغية وقيل فى العابدين إنهم العالمون وقيل بل العاملون والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين ، لأن العلم كالشجر والعمل كالثمر ، والشجر بدون الثمر غير مفيد ، والثمر بدون الشجر غير كائن .

أما قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا : أما فى الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس فى جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والإستكبار وكان التوفيق قريناً له قال الله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) إلى قوله (وهو عليهم عمى) وأما فى الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه . فان قيل كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال ؟ قلنا (الجواب) من وجوه (أحدها) إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم ، ثم هو منتقم من العصاة . وقال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) ثم قد يكون سبباً للفساد (وثانيها) أن كل نبى قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وأنه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال تعالى (وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم) لايقال أليس أنه تعالى قال (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات) لأنا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى

نهاية حسن الخلق قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال أبوهريرة رضى الله عنه « قيل لرسول الله ﷺ أدع على المشركين ، قال إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً » وقال فى رواية حذيفة « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة » (ورابعها) قال عبد الرحمن بن زيد (إلا رحمة للعالمين) يعنى المؤمنين خاصة ، قال الامام أبو القاسم الأنصارى والقولان يرجعان إلى معنى واحد ، لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا فى آيات الله وآيات رسوله ، فأما من أعرض واستكبر ، فانما وقع فى المحنة من قبل نفسه كما قال (وهو عليهم عمى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول ، بل ما أراد منهم إلا الرد عليه وخلق ذلك فيهم ولم يخلقهم إلا كذلك كما يقوله أهل السنة ، لوجب أن يكون إرساله نقمة وعذابا عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص ، لا يقال : إن رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم فى الدنيا ، كما عجل عذاب سائر الأمم ، لأنا نقول إن كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضاً ، فاذا يجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذى صار رحمة للمؤمنين . وأيضاً فان الذى ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته ﷺ كحصولها بعده ، بل كانت نعمهم فى الدنيا قبل بعثته أعظم لأن بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه ، ثم أمر بالجهاد الذى فنى أكثرهم فيه فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد (والجواب) أن نقول لما علم الله سبحانه وتعالى أن أبالهب لا يؤمن البتة وأخبر عنه أنه لا يؤمن كان أمره إياه بالايمان أمراً يقلب علمه جهلا وخبره الصدق كذباً وذلك محال ، فكان قد أمره بالمحال . وإن كانت البعثة مع هذا القول رحمة ، فلم لا يجوز أن يقال البعثة رحمة مع أنه خلق الكفر فى الكافر ؟ ولأن قدرة الكافر إن لم تصلح إلا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم ، وإن كانت صالحة للضدين توقف للترجيح على مرجح من قبل الله تعالى ، قطعاً للتسلسل . وحينئذ يعود الإلزام ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه ؟ قوله أولا لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذى كان رحمة للمؤمنين ، قلنا ليس فى الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين ، فدعواك بكون الوجه واحداً تحكم . قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب ، فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة فى حق الكفار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تمسكوا بهذه الآية فى أنه أفضل من الملائكة ، قالوا لأن الملائكة من العالمين . فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة ، فوجب أن يكون أفضل منهم (والجواب) أنه معارض بقوله تعالى فى حق الملائكة (ويستغفرون للذين آمنوا) وذلك رحمة

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «١٠٨» فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ «١٠٩» إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ «١١٠» وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ «١١١» قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ «١١٢»

منهم فى حق المؤمنين ، والرسول عليه السلام داخل فى المؤمنين ، وكذا قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى) .

قوله تعالى ﴿ إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ، فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ، إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال رب أحكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج فى أن لا إله سواه من الوجوه التى تقدم ذكرها ، وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين ، أتبع ذلك بما يكون إعذاراً وإنذاراً فى مجاهدتهم والإقدام عليهم ، فقال (قل إنما يوحى إلى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف إنما يقصر الحكم على شىء أو يقصر الشىء على حكم ، كقولك إنما زيد قائم أو إنما يقوم زيد ، وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية . لأن (إنما يوحى إلى) مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد (وأنما إلهكم إله واحد) بمنزلة إنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحى إلى رسول الله ﷺ مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى وفى قوله (فهل أنتم مسلمون) أن الوحى الوارد على هذا السنن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تتخلصوا من نسبة الأنداد ، وفيه أنه يجوز إثبات التوحيد بالسمع . فإن قيل لو دلت إنما على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إلى الرسول شىء إلا التوحيد ومعلوم أن ذلك فاسد ، قلنا المقصود منه المبالغة ، أما قوله (فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) فقال صاحب الكشاف آذن منقول من أذن إذا علم ولكنه كثر استعماله فى الجرى مجرى الإنذار ، ومنه قوله (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) إذا عرفت هذا فنقول : المفسرون ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال أبو مسلم : الإيذان على

السواء الدعاء إلى الحرب مجاهرة لقوله تعالى (فانبذ إليهم على سواء) وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار فى المجاهدة ، فعرفهم بذلك أنهم كالكفار فى ذلك (وثانيها) أن المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء ، فلم أفرق فى الإبلاغ والبيان بينكم ، لأنى بعثت معلماً . والغرض منه إزاحة العذر لئلا يقولوا (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) (وثالثها) على سواء على إظهار وإعلان (ورابعها) على مهل ، والمراد أنى لا أعاجل بالحرب الذى آذنتكم به بل أمهل وأؤخر رجاء الإسلام منكم .

أما قوله (وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) ففيه وجهان : (أحدهما) (أقريب أم بعيد ما توعدون) من يوم القيامة ، ومن عذاب الدنيا ثم قيل نسخه قوله (واقترب الوعد الحق) يعنى منهما ، فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثانيها) المراد أن الذى آذنهم فيه من الحرب لايدرى هو قريب أم بعيد لئلا يقدر أنه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذى يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت ، فلذلك أمره أن يقول إنه لايعلم قربه أم بعده . تبين بذلك أن السورة مكية ، وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) (أن مايوعدون به) من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ، وذلك لأن الله تعالى لم يطلعنى عليه .

أما قوله تعالى (إنه يعلم الجهرمن القول ويعلم ما تكتمون) فالمقصود منه الأمر بالاخلاص وترك النفاق ، لأنه تعالى إذا كان عالماً بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ فى الإخلاص .

أما قوله تعالى (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ففيه وجوه : (أحدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل إبهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أى بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعاً عن كفركم أم لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم إذا أنتم دمتم على كفركم ، لأن ما يؤدى إلى الضرر العظيم يكون فتنة ، وإنما قال لا أدرى لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) أن يكون المراد وإن أدرى لعل مابينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم ، لأنه زيادة فى عذابكم إن لم تؤمنوا لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد ، وإذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه .

أما قوله تعالى (قال رب احكم بالحق) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (قل رب أحكمِ بالحق) على الإكتفاء بالكسرة (ورب احكمُ) على الضم (وربى أحكم) أفعل التفضيل (وربى أحكم) من الإحكام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (رب احكم بالحق) فيه وجوه (أحدها) أى ربى اقض بينى وبين قومى

بالحق أي بالعذاب ، كأنه قال اقص بيني وبين من كذبني بالعذاب ، وقال قتادة أمره الله تعالى أن يقتدى بالأنبياء فى هذه الدعوة وكانوا يقولون (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرنى عليهم .

أما قوله تعالى (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) ففيه وجهان (أحدهما) أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتى من الأباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعياً لى (رب احكم بالحق) وقل متوعداً للكفار (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت ، أي قل لأصحابك المؤمنين ، وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل ، أي من العون على دفع أباطيلهم (وثانيها) كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم ، قال القاضى : إنما ختم الله هذه السورة بقوله (قل رب احكم بالحق) لأنه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم ، فاذا أبوا إلا التمادى فى كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق ، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره ، وإما بتأخير ذلك فان أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب ، وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالإستعجال للأمر بمجاهدتهم وبالله التوفيق ، وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وسلم تسليما آمين .

وقد عنى بتصحيحه ومراجعته والتعليق عليه على النسخة الأميرية المطبوعة فى مطبعة بولاق المقر بالعجز والتقصير عبد الله اسماعيل الصاوى عامله الله بلطفه وجزى الله طابعه حضرة السيد الفاضل عبد الرحمن أفندى محمد صاحب المطبعة البهية أحسن الجزاء وأثابه أجزل الصواب بحرصه على نشر العلم ونفع علماء المسلمين إنه سميع مجيب .

﴿ تم الجزء الثانى والعشرون ، ويليه الجزء الثالث والعشرون وأوله سورة الحج ﴾

فهرست

الجزء الثانى والعشرون من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى

